



النشاط التجارى في ليبيا منذ القرن الرابع حتى مطلع القرن التاسع الهجرى (10 – 15 م)

2020

دكتوراه

قسم التاريخ

مصطفى فرج حسين ابوحلالة

اشراف : الاستاذ الدكتور مراد آغار

النشاط التجارى فى ليبيا منذ القرن الرابع حتى مطلع القرن التاسع الهجرى (10 – 15م)

مصطفى فرج حسين ابوخلالة

اشراف : الاستاذ الدكتور مراد آغار

جامعة كرابوك

معهد برامج الدراسات العليا

قسم التاريخ

أعدت كـ

درجة الدكتوراه

كرابوك

حزيران 2020

قائمة المحتويات

الصفحة

5.....	قائمة المحتويات
6.....	بيان الدقة
7.....	الإهداء
8.....	ÖZ
10.....	الملخص
10.....	ABSTRACT
13.....	ARŞIV KAYIT BİLGİLERİ
14.....	أرشيف سجل المعلومات
15.....	ARCHIVE RECORD INFORMATION
15.....	المقدمة
15.....	الصعوبات التي واجهت الباحث
16.....	منهج الدراسة
17.....	دراسة تحليلية لأهم مصادر الدراسة
17.....	المصادر الجغرافية وكتب الرحلات
21.....	المصادر التاريخية
22.....	كتب النوازل والحسبة
23.....	الرسائل والوثائق الرسمية
24.....	كتب العملة والمكايل والموازن
26.....	الفصل الأول
26.....	التعريف الجغرافي والتاريخي لموقع ليبيا
27.....	1.1. الموقع الجغرافي

27.....	1.1.1.1 الحدود الطبيعية
27.....	2.1.1 التضاريس
28.....	1.2.1.1 السهول الساحلية
29.....	2.2.1.1 الجبال
30.....	3.2.1.1 الهضبة الداخلية
30.....	3.1.1 المناخ
32.....	2.1 التعريف التاريخي
32.....	1.2.1 تسمية ليبيا
35.....	2.2.1 اسم طرابلس ودلالاته التاريخية
37.....	3.2.1 اسم برقة ودلالاته التاريخية
38.....	3.1 الأوضاع السياسية والديمقراطية التي مرت بها ليبيا
38.....	1.3.1 السياسة الفاطمية ونتائجها
45.....	2.3.1 هجرة بني هلال وبني سليم إلى شمال أفريقيا
47.....	1.2.3.1 سكان ليبيا قبيل هجرة بني هلال وبني سليم
53.....	2.2.3.1 الأثر الاقتصادي لبني هلال وبني سليم في ليبيا
56.....	3.2.3.1 حملة قراقوش على برقة والحدود الشرقية لدولة الموحيين
62.....	الفصل الثاني
62.....	مصادر النشاط التجاري في ليبيا
62.....	1.2 المصادر الداخلية
63.....	1.1.2 الزراعة
72.....	2.1.2 الثروة الحيوانية
87.....	1.2.2 السلع الوافدة
89.....	2.2.2 تجارة الذهب
93.....	الفصل الثالث
93.....	طبيعة التعامل التجاري في ليبيا
93.....	1.3 المجتمع التجاري في ليبيا
93.....	1.1.3 العرب
95.....	2.1.3 الأمازيغ (البربر)
98.....	3.1.3 أهل النمة
98.....	1.3.1.3 اليهود
100.....	2.3.1.3 النصارى()

101.....	4.1.3. التبو والطوارق
102.....	5.1.3. الأفارقة
103.....	6.1.3. الأسواق والفنادق
103.....	1.6.1.3. الأسواق
107.....	2.6.1.3. الفنادق
109.....	2.3. آلية التعامل التجاري في ليبيا
110.....	1.2.3. العملة أو السكة()
112.....	2.2.3. الدينار والنقود
119.....	3.2.3. المكاييل والموازن
122.....	4.2.3. الاوزان
124.....	5.2.3. المقايضة
126.....	6.2.3. الوديعة
127.....	7.2.3. الصكوك والسفاتج *
128.....	8.2.3. السفاتج
129.....	9.2.3. الودع
130.....	10.2.3. القماش
131.....	الفصل الرابع
131.....	مسالك ومراكز النشاط التجاري في ليبيا
131.....	1.4. عوامل دعم الاتصال بين ليبيا والمراكز التجارية
131.....	1.1.4. الصحراء
131.....	2.1.4. العامل الطبيعي
133.....	1.2.1.4. العامل البشري
135.....	2.1.4. الأبرار
136.....	3.1.4. وسائل النقل
138.....	4.1.4. القوافل
144.....	5.1.4. التجار
147.....	2.4. مسالك وطرق القوافل البرية
148.....	1.2.4. المسالك البرية الداخلية
158.....	2.2.4. المسالك البرية الخارجية
159.....	3.2.4. طرق القوافل التي ربطت ليبيا بالمشرق والمغرب الإسلاميين
162.....	4.2.4. طرق القوافل مع بلاد جنوب الصحراء
163.....	5.2.4. طرق قوافل الحج

165.....	6.2.4 خطوط التجارة البحرية
168.....	الفصل الخامس
168.....	المنافذ والمحطات التجارية الليبية
168.....	1.5 المحطات التجارية الداخلية
168.....	1.1.5 طرابلس
171.....	2.1.5 فزان
173.....	3.1.5 غدامس
175.....	4.1.5 زويلة ⁰
176.....	5.1.5 أوجله
177.....	6.1.5 جبل نفوسة
178.....	7.1.5 برقــــة
179.....	8.1.5 مرزق
180.....	9.1.5 غات ⁰
181.....	2.5 المحطات التجارية الخارجية
181.....	1.2.5 تمبكتو
182.....	2.2.5 سجلماسة
184.....	3.2.5 الكانم والبرنو
186.....	4.2.5 اغمات
187.....	5.2.5 اغاديس
188.....	6.2.5 ورجلان
189.....	7.2.5 القيروان
190.....	8.2.5 أودغشت
192.....	9.2.5 الإسكندرية
193.....	الخاتمة
196.....	قائمة المراجع
221.....	قائمة الخرائط
222.....	قائمة الصور
223.....	قائمة الجداول
234.....	السيرة الذاتية

TEZ ONAY SAYFASI

Moustafa Faraj H. Abohlala tarafından hazırlanan “Libya’da Ticari Faaliyetler (10-15. Yüzyıllar Arası)” başlıklı bu tezin Doktora Tezi olarak uygun olduğunu onaylarım.

İmza

Prof. Dr. Murat AĞARI

Tez Danışmanı, Tarih Anabilim Dalı

Bu çalışma, jürimiz tarafından Oy Birliğiile Tarih AnabilimdalındaDoktora tezi olarak kabul edilmiştir. Savunma sınavı tarihi 22/06/2020

İmzası

Ünvanı, Adı SOYADI (Kurumu)

..... : Prof. Dr. Murat AĞARI (KBÜ) Başkan

: Prof. Dr. Seyfullah KARA (Bülent Ecevit Üniversitesi) Üye

.....

: Prof. Dr.Mustafa HİZMETLİ (Bartın Üniversitesi) Üye

.....

..... : Dr. Öğr. ÜyesiŞerife AĞARI (KBÜ) Üye

..... : Dr. Öğr. ÜyesiTahir BİLİRLİ (KBÜ) Üye

KBÜ Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Yönetim Kurulu, bu tez ile, Doktora Tezi derecesini onamıştır.

Prof. Dr. Hasan SOLMAZ

.....

Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Müdürü

بيان الدقة

لقد كتبت هذه الدراسة ، التي قدمتها كرسالة دكتوراه ، دون استخدام أي طريقة تتعارض مع القيم والتقاليد الأخلاقية العلمية ، وأنا أعلم أي نوع من الاقتباسات سيتم احتسابه على أنه الانتحال ، ولا أضم أي قسم يمكن اعتباره بمثابة سرقة أدبية ، والأعمال التي أستخدمها مؤلفة من الأعمال المعروضة في المراجع. أعلن أنه تم الاستشهاد به بشكل صحيح.

أوافق على تحمل جميع الاستنتاجات الأخلاقية والقانونية التي ستنشأ إذا تم تحديد موقف يتعارض مع هذا البيان حول أطروحتي من قبل المعهد ، بغض النظر عن المهلة الزمنية.

الاسم واللقب : مصطفى فرج حسين ابوحلالة
التوقيع :

الإهداء

إلى روح إبنتى الغالية روان
أدعو الله أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتها
إلى رفيقة دربى
زوجتى العزيزة
إلى زينة الحياة الدنيا أبنائى
محمد
عبدالمالك
عبدالمالك

أهدى ثمرة وثواب هذا العمل

ÖZ

Libya'nın coğrafi konumu ve ekonomik potansiyellerin varlığı, iç ve dış ticaret faaliyetlerinde büyük ve önemli rol oynamıştır. Beni Hilal ve Beni Salim kabilelerinin göçleri, iç güvenliği iki farklı şekilde etkilemiştir; bir yandan iktidar otoritesinin de yararlandığı siyasi istikrarı sağlarken, öte yandan yine iktidar otoritesinin kontrol edemediği kaos veya kargaşaya neden olmuştur. Tarım ve hayvansal üretimin doğal kaynakları ve sanayisi, ticari faaliyetlerin hareketine mümkün olduğunca ayak uydurmaya çalışılmıştır.

İç ve dış deniz ve kara yolları ağları, ticari hareket veya faaliyetlerinin temel taşlarını oluşturdu. Çünkü üretim bölgeleri ile iç ve dış piyasalar arasındaki ticari iletişimi sağlamıştır. Tüm çeşitli piyasalar ekonomik ve sosyal misyonu gerçekleştirmiştir. Çünkü bir yandan alım satım merkezi olup ticari harekete katkı sağlarken, diğer yandan da kültürel ve sosyal buluşmalar veya yakınsamalara uygun bir zemin haline gelmiştir. Araştırma; ülkenin nakit sisteminin içeride ve dışarıda belirli ve nitelikli bir para birimine sahip olduğunu vurgulamıştır. Dış piyasalardaki Altın Dinarın seviyesi düşmedi ve yerini korumuş oldu. Libya limanlarının görmüş olduğu ticari hareket; Avrupa rekabeti, yerel yönetimle olan ticari ilişkileri, yapıları ve ticari kurumların desteklenmesine katkı sağlamıştır ve bu nedenle otel inşaat sayısı artmıştır. Bu da tüccarlar için ikamet yerleri, mal depoları ve alım satım faaliyetleri için ticari bir pazar görev gibi çeşitli görevleri yerine getirmiştir. Deniz ticaret ulaşım araçları (gemi ve tekneler) veya kara ticaret ulaşım araçları (Kafileler), tüccarların ticari gezilerinin güvenliğini sağlamak için takip etmesi gereken yöntem, teknik ve sistemlere sahipti.

Son olarak, Libya'daki ticari faaliyet, sadece şehirleri, köyleri ve arazileri düzeyinde değil, aynı zamanda tarım ve hayvansal ürünleri, el sanatları ve çeşitli sanayilerinin geniş yelpazesi sayesinde Afrika, Asya ve Avrupa'daki Arap ve uluslararası ticaret hareketi için hayati bir alan oluşturmuştur. Daha da önemlisi, kafileler ticareti alanında çöl ve kumlara meydan okuyarak geniş üne sahip dinamik bir hareket modeli ortaya koymuştur ve bu şekilde ticareti ile Afrika'nın orta ve

batısına ulaşmıştır. Böylece de Afrika ürünlerinin Libya'ya, Akdeniz ve Avrupa'nın ötesine, doğudan batıya ve tersi yönde taşınmasına katkıda bulunmuştur.

Anahtar kelimeler: Libya, ticaret faaliyeti, ticaret, İslam dönemi.

المخلص

لعب الموقع الجغرافي لليبيا إلى جانب توفر الإمكانيات الإقتصادية دورا مهما وكبيراً في نشاط عملية التبادل التجارى على الصعيدين الداخلى والخارجى . لقد اثرت هجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم على الجانب الأمنى الداخلى بشكل مزدوج ، فكانت من ناحية تشكل مصدر للاستقرار السياسى إذا ما أحسنت السلطة الحاكمة إستغلالها ، ومن ناحية أخرى مصدرا للفوضى إذا كانت السلطة غير قادرة على كبح جماحها . إن الموارد الطبيعية من زراعة وإنتاج حيوانى ، وصناعى حاولت أن تواكب حركة النشاط التجارى قدر المستطاع . لقد كونت شبكة الطرق الداخلية والخارجية البحرية منها والبرية البنية الأساسية للحركة التجارية لأنها ضمنت الاتصال بين مواطن الانتاج والأسواق الداخلية والخارجية .

لقد أدت الأسواق بجميع أنواعها مهمة إقتصادية وإجتماعية ، فعلاوة على أنها كانت مكان للبيع والشراء مما ساهم في حركة الرواج التجارى كانت أيضا عالما ملائما للتلاقى الثقافى والأجتماعى. أكدت الدراسة أن النظام النقدى كان قوامه عملة ذات خصائص ومواصفات مضبوطة بالداخل والخارج فلم ينحط الدينار الذهبى في الأسواق الخارجية ، وحافظ على مكانته. ساهم نشاط الحركة التجارية الذى شهدته الموانى الليبية في جلب التنافس الأوروبى وتدعيم علاقاتهم التجارية وهياكلهم ومؤسساتهم التجارية بالسلطة المحلية ، لذلك إزداد تأسيس الفنادق ، التى أدت مهام متنوعة من مأوى للتجار ، ومخازن للسلع ، وسوق تجارية للبيع والشراء وغيرها . كان لوسائل النقل التجارى البحرى (السفن والمراكب) ، أو البرى (القوافل) أساليب وتقنيات ونظم وجب على التجار إتباعها لسلامة رحلاتهم التجارية. وأخيرا إن النشاط التجارى في ليبيا شكل مجالا حيويا لحركة تجارية ليس على مستوى مدنها وقراها وتضاريسها فحسب ، بل تعداه ليكسب صفة منطقة التجارة العربية والعالمية عبر القارات الثلاثة أفريقيا ، وآسيا ، وأوربا لشهرة منتجاتها الزراعية والحيوانية ، وحرفها وصناعاتها المختلفة ، والأهم من ذلك أنها صاغت حركة حيوية وشهرة واسعة في مجال تجارة القوافل البرية التى تحدث الصحراء والرمال الزاحفة لتصل بتجارها إلى وسط أفريقيا وغربها ، وبالتالي تساهم في نقل منتجات أفريقيا إلى ليبيا ، وإلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط وأوربا ، وكذا الحال من الشرق إلى الغرب والعكس .

الكلمات المفتاحية: ليبيا، النشاط التجارى ، التجارة، العصر الإسلامى.

ABSTRACT

Libya's geographical location, along with the availability of economic potentials, played an important and significant role in the activity of the trade exchange process, both internally and externally. The migration of the Banu Hilal and Banu Salim tribes has affected the internal security aspect in a dual way, on the one hand it is a source of political stability if the ruling authority is well exploited, and on the other hand is a source of chaos if the authority is unable to restrain it. The natural resources of agriculture and animal production, and industrial attempted to keep pace with the movement of commercial activity as possible. The internal and external marine and road roads network has formed the infrastructure for the commercial movement because it has ensured the communication between the production areas and the internal and external markets.

The markets of all kinds performed an economic and social mission, in addition to being a place of sale and purchase, which contributed to the movement of commercial booms. It was also a suitable world for cultural and social convergence. The study confirmed that the monetary system consisted of a currency with adjusted characteristics and characteristics inside and outside, so the golden dinar did not decline in foreign markets, and it maintained its position. The activity of the commercial movement witnessed by the Libyan ports contributed to bringing European competition and strengthening their commercial relations and their structures and commercial institutions with the local authority. Therefore, the establishment of hotels increased, which performed various tasks such as a shelter for merchants, commodity stores, and a market for sale and purchase, among others. Maritime commercial means of transportation (ships and boats), or land (caravans) had methods, techniques, and systems that traders had to follow in order to ensure the safety of their commercial trips. Finally, the commercial activity in Libya constituted a vital field for a commercial movement not only at the level of its cities, villages and terrain, but also exceeded it to gain the status of the Arab and

international trade area across the three continents Africa, Asia, and Europe to the popularity of its agricultural and animal products, its crafts and various industries, and most importantly, it formulated a movement Vitality and wide popularity in the field of trade in wild caravans that defied the desert and creeping sands to reach its trade to central and western Africa, and thus contribute to transporting African products to Libya, and beyond the Mediterranean and Europe, as well as from east to west and vice versa.

Keywords: Libya, commercial activity, commerce, Islamic period.

ARŞİV KAYIT BİLGİLERİ

Tezin Adı	Dördüncü yüzyıldan dokuzuncu yüzyılın başına kadar Libya'da ticari faaliyet (MS 10-15)
Tezin Yazarı	Moustafa ABOHALALA
Tezin Danışmanı	Prof. Dr. Murat AGARI
Tezin Derecesi	Doktora
Tezin Tarihi	22/06/2020
Tezin Alanı	Tarih
Tezin Yeri	KBÜ/LEE
Sayfa sayısı	218
Anahtar Kelimele	Libya, ticaret faaliyeti, ticaret, İslam dönemi

أرشيف سجل المعلومات

النشاط التجاري في ليبيا من القرن الرابع حتى بداية القرن التاسع الهجري (10-15 م)	عنوان الأطروحة
مصطفى فرج حسين ابوحلالة	مؤلف الأطروحة
الأستاذ الدكتور / مراد آغار	مشرف الأطروحة
2020/06/22م	تاريخ المناقشة
التاريخ	حقل الأطروحة
كارابوك	مكان المناقشة
218	إجمالي عدد الصفحات
ليبيا, النشاط التجاري , التجارة, العصر الاسلامي	الكلمات المفتاحية

ARCHIVE RECORD INFORMATION

Title of the Thesis	Commercial activity in Libya from the fourth century to the beginning of the ninth century (10-15 AD)
Author of the Thesis	Moustafa ABOHALALA
Supervisor of the Thesis	Prof. Dr. Murat AGARI
Status of the Thesis	Ph.D.
Date of the Thesis	22/06/2020
Field of the Thesis	Tarih
Place of the Thesis	KBÜ/LEE
Total Page Number	218
Keywords	Libya, commercial activity, commerce, Islamic period

المقدمة

عرفت ليبيا خلال فترة تاريخها الوسيط نشاطا اقتصاديا هاما ، نظرا لأهمية موقعها الجغرافي الممتاز الذي ساهم في بروز حركة تجارية سريعة ونشيطة أهمها يد الانسان والتبادل التجاري التي كان لها أثر في تفعيل الحركة التجارية بالمنطقة بين ليبيا والدول الاخرى ، وتجسد ذلك من خلال التعامل التجاري بين المراكز الليبية والمراكز الاخرى ، وذلك ابتداء من القرن الثالث والرابع للهجرة وما صاحبهما من تطورات وتغيرات في الخمس القرون اللاحقة ، حيث برزت شبكة من المسالك والدروب والطرق البعض منها قديم والآخر جديد، وعلى الرغم من هذه الأهمية التي تميزت بها ليبيا في خريطة العالم الإسلامي فإن تاريخها لم يحظ بما يليق به من مكانة في الدراسات الحديثة ، ومع اهتمام بعض هذه الدراسات بتاريخ ليبيا، إلا أن الذي يستقرئ هذه الدراسات يلحظ أنها عالجت تاريخ البلد معالجة عامة، لا تأخذ الطابع التخصصي لأوضاعه الحضارية المختلفة، وخاصة الاقتصادية منها والاجتماعية، حيث جاءت بصورة عرضية في ثنايا التاريخ العام لليبيا أو مصر أو المغرب العربي الإسلامي عموماً، أو بشكل طولي عبر دراسات منفردة شغلت فترات زمنية متتالية تبدأ بالفتح الإسلامي وتنتهي في العصور الحديثة، وأياً كان الأمر فإن أصحاب هذه الدراسات اهتموا بالجانب السياسي وأحداثه التي شهدتها ليبيا، ولم يلتفتوا إلى الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، معللين ذلك بحجة قلة المادة التاريخية المتعلقة بهذه الجوانب ، وهذا ما جعل موضوع النشاط التجاري في ليبيا زمن الدراسة يفتقر إلى دراسة متكاملة ودقيقة، وانطلاقاً من هذا جاء اختيار الباحث لهذه الدراسة بهدف المشاركة مع الباحثين الآخرين في الكشف عن التاريخ التجاري والحضاري لليبيا، وذلك من خلال إعطاء صورة كلية عن المنظورين الجغرافي والتاريخي، وعناصر السكان، ودورهم في حركة النشاط والتبادل التجاري على الصعيدين الداخلي والخارجي

الصعوبات التي واجهت الباحث

واجهت هذه الدراسة صعوبات عدة منها، ندرة "المصادر الجغرافية والتاريخية التي تناولت الصحراء الليبية خلال هذه الفترة". فقد تناولها المؤلفون باختصار شديد. وحتى ما ورد لديهم عن ليبيا على قلته تعوزه الدقة، وفي بعض الأحيان الموضوعية، خاصة ما كتبه بعض الرحالة والجغرافيين. فبعضهم خضع لأهوائه وميوله السياسية أو لتعصبه المذهبي أو العرقي، وكتب آخرون لخدمة أغراض معينة مثل الإدريسي الذي كان همه إرضاء روجر الثاني ملك

صقلية، وآخرون مثل العبدري الذي ما مر بأقوام أو بلاد إلا نال منهم ومنها بتعميمه الغريب والشاذ المستهجن فيهم وجعله السلوك الغالب والقاعدة المستقرة عندهم، وكال لهم الذم والقبح.

كذلك صعوبة إعادة دراسة وتركيب أنماط التجارة الدولية عامة لاسيما فيما يخص منطقة المغرب الأدنى، وهذا يشبه شخص يحاول جمع خريطة مرسومة على لوح من الزجاج المحطم، حيث فقد كثيراً من القطع، كما أن بعض القطع المتيسرة هي الأخرى مستعارة من أنماط مشابهة على ما يبدو.

ومن الصعوبات التي واجهت إعداد هذه الدراسة أيضاً امتداد الحيز الجغرافي للموضوع، فبالرغم من أن الحيز الجغرافي للبحث ينحصر في المناطق الليبية، إلا أن طبيعة موضوع البحث أرفعنا بالابتعاد عن ذلك الحيز لنجد أنفسنا نرحل بعيداً لنلقي الضوء على مناطق أخرى نتيجة طبيعة التجارة البرية التي لا ترتبط بحيز معين وطبيعة مصالح التجار التي لا تقف عند حدود معينة، كما أن طبيعة معاملات النشاط التجاري البري وتنوعه وتنوع جنسيات وأوطان العاملون به خاصة التجار، زاد من صعوبة الحصول على معلومة مصدرية عليها شبه اتفاق في تفسير الغامض أو كشف المجهول في هذا المجال، لاسيما أن هذا الوضع جعلنا نتعامل مع نوعية من المصادر والمراجع مختلفة في كل شيء سواء من حيث اللغة والأسلوب وحتى في سياق المواضيع المطروحة فيها. كما "أن الصحراء الليبية نفسها لا تمثل وحدة متماسكة، وتبدو دراستها غير منتظمة بسبب التناول الجزئي الذي فرضته طبيعتها"

منهج الدراسة

طرح الباحث هذه الدراسة من خلال منهج البحث التاريخي، واستخدم أدوات هذا المنهج مثل التحليل والاستنباط والقياس والاجتهاد، عاملاً على مقابلة المصادر والمراجع المختلفة بعضها البعض، للوصول إلى معلومة تاريخية واضحة، اعتماداً على أدلة يمكن الوثوق فيها. وقد تم تقسيم الدراسة إلى خمسة فصول بالإضافة إلى خاتمة:

الفصل الأول تناول فيه الباحث "التعريف الجغرافي والتاريخي لموقع ليبيا"، حيث تضمن عرضاً للموقع الجغرافي، مثل الحدود الطبيعية و التضاريس كالسهول الساحلية والجبال والهضبة الداخلية والمناخ، واثره على الحركة التجارية كما تم البحث في التعريف التاريخي للمناطق الليبية، مثل تسمية ليبيا، واسم طرابلس ودلالاته التاريخية واسم برقة ودلالاته التاريخية، إلى جانب الأوضاع السياسية والديمقراطية التي مرت بها ليبيا، مثل السياسة الفاطمية ونتائجها، وهجرة بني هلال وبني سليم إلى شمال أفريقيا، وكذلك سكان ليبيا قبيل هجرة بني هلال وبني سليم، والأثر الاقتصادي لبني هلال وبني سليم في ليبيا، حملة قراقوش على برقة والحدود الشرقية لدولة الموحدين

وعالج الفصل الثاني "مصادر النشاط التجاري في ليبيا"، منها المصادر الداخلية، متمثلة في الزراعة والثروة الحيوانية، كالأغنام والماعز والأبقار والخيول والإبل، وكذلك الصناعة والحرف الأخرى، والمصادر الخارجية، التي شملت السلع والبضائع الوافدة والذهب والرقيق

وخصص الفصل الثالث لطبيعة التعامل التجارى فى ليبيا ، متناولا عناصر السكان من عرب ، وبربر، وأهل الذمة (اليهود والنصارى) ، والتبو ، والطوارق والافارقة ، إضافة إلى إبراز دورهم فى شتى مناحى الحياة ، وبين الباحث مدى مشاركتهم فى الحراك التجارى الذى شهدته البلاد ، ثم عكف على إيضاح الآلية التى كان يتعامل بها السكان من عملة ونقود ومقايضة ، والنظم التجارية المتبعة لضبط المكاييل والموازن .

وأفرد الفصل الرابع للحديث عن مسالك ومراكز النشاط التجارى فى ليبيا ، متمثلا فى عوامل دعم الاتصال كالصحراء ، والمياه ، ووسائل النقل ، والقافلة ، والتجار ، ايضا تم التطرق إلى مسالك وطرق القوافل البرية والحج ، والخطوط البحرية التى ربطت المدن والمراكز التجارية الليبية بعضها ببعض ، وبينها وبين بلاد المشرق والمغرب الاسلاميين ، ودول وممالك السودان الغربى والاوسط ، وحوض البحر الابيض المتوسط .

أما الفصل الخامس والأخير المحطات التجارية ، فقد تناول أهم المنافذ والمحطات التجارية الليبية ومواقعها ، والأهمية التى صارت إليها ، ومدى مساهمتها فى الرخاء والنمو الاقتصادى الذى شهدته ليبيا تلك الفترة ، أيضا تم فى هذا الفصل دراسة المحطات التجارية الخارجية التى ارتبطت بعلاقات تجارية متميزة مع المراكز والمحطات الليبية .
وفي الخاتمة وصلت الدراسة لأهم النتائج عن وجود وأهمية النشاط التجارى فى ليبيا ، ثم ذيل البحث ببعض الملاحق التى تم الاعتماد عليها .

دراسة تحليلية لأهم مصادر الدراسة

اعتمد الباحث فى دراسة هذا الموضوع على كل ما أمكن الحصول عليه من المصادر الأصلية ، سواء كانت وثائق بكافة أنواعها ، من مصادر جغرافية ورحلات ، ونوازل ومؤلفات فقهية ، وكتب النظم والتراجم والطبقات ، بالإضافة إلى المصنفات ، والمصادر التاريخية المعروفة ، وتلك المصادر كان بعضها معاصراً للأحداث والبعض الآخر متقدم عن الفترة التاريخية المدروسة(من أواسط القرن السادس إلى القرن التاسع الهجري) ، ولكنها على أية حال أعطتنا خلفية لا بأس بها عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة. وخاصة فيما يتعلق بالطرق والمسالك التجارية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت بمثابة المصدر الذى استقت منه المصادر المعاصرة لفترة البحث المعلومات التاريخية والجغرافية، ومن هنا تبدو أهميتها فى الرسالة.

المصادر الجغرافية وكتب الرحلات

تعد هذه المجموعة من أهم المجموعات المصدرية التى استعنتُ بها فى إعداد الدراسة ، فقد قدم الجغرافيين والرحالة المسلمين أوصافاً للمناطق الليبية ومناطق أخرى من العالم دخلت فى نطاق بحثنا ، بما فى ذلك تقارير تصف طرق التجارة ومناطق الإنتاج. وقد أثبتت كتبهم أهمية هذه

الدراسة وقيمتها، رغم تنوعها دقةً وأصالةً، وكان بعض الكتاب بما فيهم ابن حوقل وابن جبير وبنيامين التودلي قد عاشوا في الواقع في الأماكن التي وصفوها في أعمالهم.

بالمقابل بقي كثير من المؤلفين خلف مكاتيبهم يقتبسون من الكتب العتيقة أو يسجلون ذكريات الرحالة المعاصرين. إلا أن هؤلاء الجغرافيين ليسوا بالضرورة أقل دقة من نظرائهم الأكثر حيوية. ورغم دمج أحد هؤلاء الجغرافيين المعلومات المستقاة من عهود مختلفة – كما هو حال الإدريسي الذي كتب في وسط القرن الحادي عشر الميلادي – إذ أدخل المواد الأقدم في عمله، إلا أن العديد من هذه المعلومات تؤرخ في زمن الكتابة.

وقد أمدتنا كتب الجغرافيا والرحلات بفائدة كبيرة في دراسة الطبيعة الجغرافية للمنطقة ووصف المدن والموانئ وذكر الطرق والمسالك، بالإضافة إلى المنتجات الزراعية والصناعية. وضمن التأليف الجغرافية البارزة – التي تخص الفترة التاريخية المعنية بالدراسة – نجد ظاهرة النقل عن السابقين، ولذلك رجعنا إلى المصادر الأم التي كان لها نصيب السبق في الحديث عن تلك الظاهرة. فقدم لنا ابن حوقل النصيبي (ت367هـ/977م) في كتابه صورة الأرض وصفاً للطرق ومسالكها في المغرب والصحراء؛ وتكمن أهمية الكتاب في كونه قد جمع مادته أثناء تجواله واشتغاله بالتجارة، فقد طاف ابن حوقل في بلاد المغرب حتى درعه ودخل الصحراء حتى أودغست. فكان بذلك أول جغرافي عربي يصل إلى بلاد السودان، ووقف على المعاملات التجارية بنفسه فجاءت معلوماته في كثير من المواضع دقيقة عن التجارة. وقد أفادني هذا المصدر الجغرافي أثناء الحديث عن طرق التجارة الخارجية، خاصة تلك التي ربطت بين البلاد الليبية وبلاد السودان، بالإضافة إلى تطرقه للمنتجات والسلع المتبادلة بين المراكز الليبية والبلاد المجاورة.

وأورد أبو عبيد الله البكري (ت487هـ/1094م) في كتابه (المسالك والممالك) معلومات مهمة عن مدن ليبيا والتعريف بها وذكر مواقعها ومسالكها والمسافات بينها، ويتصف المصدر بالوصف الذي يتيح الحصول على معلومات اقتصادية مهمة، وقد أفدت من هذا الكتاب الجغرافي أثناء الحديث عن أهم المراكز التجارية في ليبيا ومحيطها الإقليمي والدولي، بالإضافة إلى أهم السلع المتبادلة بين تجار المنطقة والبلاد المجاورة.

كما يعد الإدريسي (ت560هـ/1164م) أول المتخصصين في علم الجغرافية، ويعتبر كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) من المصادر الجغرافية المهمة فيما يتعلق بتاريخ المغرب والأندلس. وقد اتسم بالدقة في وصفه للمدن وللبلدان التي زارها. بالإضافة إلى تقدير المسافات بين المدن والأقاليم. وقد أولى الإدريسي أهمية خاصة إلى المسالك الإستراتيجية والتجارية والحياة الاقتصادية والموانئ البحرية وتضاريس السواحل. وتكمن أهمية كتابه كونه معاصراً لفترة الدراسة. وقد أفدت من هذا المصدر أثناء الكتابة عن أهم الطرق والمسالك الخارجية والداخلية، التي ربطت المناطق الليبية بالأقاليم المجاورة، أو تلك الرابطة بين المدن الداخلية، فقدرها الإدريسي تقديراً دقيقاً بالمراحل والأميال. بالإضافة إلى ذكره للأسواق والمتاجر وطرقها وأصنافها، الأمر الذي أفادني أيضاً عند الحديث عن الأسواق في المناطق الليبية وطرق المعاملات فيها.

ويحتوي كتاب (الاستبصار في عجائب الأمصار) لمؤلف مجهول يرجع الى عام (587هـ/1191م) على معلومات وتفاصيل وفيرة في وصف مدن ليبيا أوردها ضمن وصفه لبلاد المغرب بصفة عامة.

وقد أهدت منه في بيان الأحوال الاقتصادية في المنطقة، وخاصة فيما يخص التجارة، من خلال حديثه عن الطرق والمسالك سواء الداخلية أو الخارجية، بالإضافة إلى ذكره للأسواق والفنادق داخل المدن وطرق التعامل فيها.

وتكاد المعلومات الواردة في هذا الكتاب أن تكون شبيهة بما أورده الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق" إلا أنها احتوت بعض الإضافات التي يمكن أن توصف أنها أكثر تفصيلاً في بعض الأحيان.

ويعتبر كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت626هـ/1229م) من أهم المعاجم الجغرافية لبلاد العالم الإسلامي، يمتاز باتساع مادته وغازاتها ويجمع بين المادة التاريخية والجغرافية، وتظهر فيه معرفة مؤلفه الواسعة للعالم الإسلامي من خلال تجارته وأسفاره في أنحاءه، فقد زار مصر، والشام، والعراق، وفارس، وبلاد المغرب، وبلاد ما وراء النهر، بالإضافة إلى اعتماده على النقل من كتب التاريخ والجغرافية بأمانة تامة مسنداً كل ما ينقله في مادة جغرافية إلى مصادرها الأصلية.

كما يمتاز معجم البلدان بترتيبه على حروف الهجاء، مما يساعد على سهولة الانتفاع بمادته، ويمتاز أيضاً باتساع مادته وغازاتها وبالجمع بين المادة الجغرافية والتاريخية والأدبية، وقد أهدت من هذا المصدر في وصف مدن المناطق الليبية وبيان أهميتها الاقتصادية، من حيث المنتجات الزراعية والصناعية ونشاطها التجاري.

وقد أهدت من كتاب (رحلة ابن جبير) (ت614هـ/1217م) المعروفة باسم (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار) فيما يخص العلاقات بين الموحديين وملك النورمان في صقلية، حيث زار ابن جبير صقلية ووصف حال المسلمين بهذه الجزيرة في أثناء الحكم النورماني، خاصة إذا علمنا أن المدن الليبية الشمالية قد أدت دوراً مهماً في توجيه تلك العلاقات بحكم أطماع النورمان الاقتصادية في المنطقة. بالإضافة إلى وصفه للسفن المستخدمة للرحلات في البحر المتوسط وأخطار تلك الرحلات.

ويعتبر ابن بطوطة (ت770هـ/1368م) من الرحالة العرب المشاهير في طواف آفاق الأرض، وقد تميز في كتابه (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) المعروف بـ (رحلة ابن بطوطة) بسرد تفصيلات مشاهداته التي قام بها ومراعاة تسجيل ملاحظاته الخاصة بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية للبلاد التي زارها.

كما يعد ابن بطوطة أول رحالة جاب الآفاق المجهولة في الصحراء الكبرى، وكتب عن مشاهداته فيها، كما كتب عن أفريقيّا جنوب الصحراء كثيراً واصفاً عادات أهلها، وأحوالهم، ومعاملاتهم الاقتصادية، وكان ابن بطوطة لمأحاً حساساً، فقد ذكر ما استحسنه من أعمال السودان، وما استقبه منها. وقد أهدت من هذا المصدر في أثناء الحديث عن علاقات المناطق الليبية مع بلاد

السودان، وفي ذكر الطرق والمسالك والمعاملات التجارية بين الطرفين ، ولكن مما يؤخذ على ابن بطوطة تقربه ومداراته لذوي الجاه والسلطان، ربما طمعاً في مكاسب مادية، الأمر الذي يخرج في كثير من الأحيان عن الحياد والصدق والكتابة الموضوعية في وصف البلاد والأقاليم.

وتعتبر رحلة التجاني (ت أوائل القرن الثامن الهجري) من المصادر المهمة التي تخص فترة الحكم الحفصي، فقد سجل التجاني في رحلته مشاهداته في البلاد الإفريقية ودون انطباعاته بأسلوب سلس، وقد زار التجاني الساحل التونسي ومر بصفاقس ثم اتجه جنوباً إلى قابس وجزيرة جربة ووصفها وصفاً جميلاً، وذكر عادات أهلها ومذهبهم ثم وصل إلى طرابلس. واقام بها فترة من الوقت اتصل خلالها بعلماء المدينة وأولى الفضل من أهلها، ثم عاد إلى وطنه واصفاً ما مر به في طريقه حتى وصل إلى تونس ثانيةً.

وقد افدت كثيراً من رحلة التجاني خاصةً انه كان شاهد عيان في وصفه لبعض المدن الليبية وذكر أحوالها الاقتصادية وعلاقتها التجارية مع البلاد المجاورة، بالإضافة إلى ذكره للحالة السياسية والفتن والثورات التي اشتعلت في المنطقة، والتي كان لها تأثيرها الواضح على اضطراب الأمن وأثرت على سير النشاط التجاري.

ويعتبر كتاب الحميري (ت866هـ- /1461م) (الروض المعطار في خبر الأقطار) مصدراً جغرافياً، وتاريخياً هاماً لمدينة المغرب، وعلى الرغم من أن الحميري من جغرافي القرن التاسع الهجري، إلا أنه مصنفه يعتبر ركيزة مهمة للباحثين في تاريخ المغرب ، وترجع أهمية كتابه في أنه إلى جانب كونه معجماً جغرافياً مرتباً على الحروف كأحسن ما تكون المعاجم الجغرافية، يتضمن معلومات تاريخية قيمة، والكتاب يحتوي بهذا المعنى على قسمين مختلفين أحدهما ذكر الأقطار والمدن وما احتوته من طرق ومسالك ونعوت جغرافية مختلفة. وثانيهما الأخبار والوقائع المختلفة بها ، ويعيب الحميري أنه استقى مادة كتابه من مصادر عديدة قد سبقته، ولكنه أغفل الإشارة إليها مثل المسالك والممالك للبكري ونزهة المشتاق للإدريسي، والاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مغربي مجهول من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، ومع ذلك فقد احتوى هذا المصدر الجغرافي على معلومات وإشارات مهمة، أفادتني والحق يقال في كثير من مواضع البحث. لاسيما في ذكر كثير من مدن ليبيا ودورها الاقتصادي وخاصة التجاري، وبيان موقع الكثير من المدن البحرية وأهميتها كموانئ ومراكز تجارية أدت دوراً مهماً في عملية النشاط التجاري مع بقية المدن والأقاليم المجاورة.

ويعتبر كتاب (وصف إفريقيا) للحسن الوزان المعروف بجان ليو الإفريقي (ت957هـ- /1550م) مصنف تاريخي جغرافي مهماً اعتمد الحسن الوزان في تدوينه على ما شاهده بعينه وسمعه بنفسه، بالإضافة إلى المعلومات التاريخية والجغرافية التي قدمها هذا الكتاب. قدم أيضاً معلومات اقتصادية عن كثير من المدن والبلدان، ورغم تأخر الفترة التي صاغ فيها الحسن الوزان كتابه فإن أغلب ملاحظاته بخصوص أقاليم إفريقية والمناطق الليبية التي كانت تحت حكم الأسبان تعتبر شهادة صالحة قبل ذلك بعشرين عاماً، وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة للبحث في أن مؤلفه عاصر حكم الدولة الحفصية، فجاءت معلوماته دقيقة في كثير من المواضع عن عملية التبادل

التجاري بين مناطق ليبيا وإفريقية وبقية الدول المجاورة. كما تضمن الكتاب وصفاً جغرافياً واقتصادياً لكثير من مدن البلاد الليبية، مما أفاد البحث فائدة كبيرة في ذكر الطرق والمسالك التجارية سواء الداخلية أو الخارجية. وذكر السلع التجارية سواء الواردة أو الصادرة بين بعض المدن الليبية والدول المجاورة.

ولا تخلو الأهمية من كتاب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري (ت749هـ/1349م) الذي يعتبر مصنفه موسوعة تاريخية وجغرافية مهمة، وكتاب الرحالة أبو عبد الله العبدري (ت688هـ/1290م) الذي قدم معلومات غزيرة عن إقليم طرابلس الغرب، رغم تحامله الكبير على هذا الإقليم ونعت أهله نعتاً سيئاً، إلا أن معلوماته عن الحياة الاقتصادية جد كثيرة الأهمية.

المصادر التاريخية

يمكن تقسيم مصادر تلك المجموعة لقسمين رئيسيين مغربية ومشرقية، وقد احتوت على معلومات اقتصادية متناثرة صبت في مصلحة البحث، بالإضافة إلى معلومات عن أحوال الكيانات السياسية والتجمعات الحضارية التي عاصرت البحث، مع إشارات ضئيلة للعلاقة بين تلك العناصر والنشاط التجاري.

وينسب لهذه المجموعة أيضاً كتاب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) لأبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي (ألفه عام621هـ/1224م). وقد صنف كتابه بالمشرق مما يسر له قدراً كبير من الحيات في رواياته ونقدها. وهنا تكمن أهمية كتابه لأنه لم يقع تحت تأثير النفوذ الموحدى، لذلك اتسمت روايته بالحيادية وجاءت بعيدة عن المحاباة والمجاملة.

ويتميز الكتاب بسرد الحوادث التاريخية دون التقيد بالسنين، وقد أفدت منه في ذكر بعض الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد إفريقية في أثناء الحكم الموحدى. فضلاً عن التعريف بمدن إفريقية وطرابلس الغرب، وذكر خصائصها الجغرافية والاقتصادية من زراعة ومعادن وصناعات.

ويأتي في هذا السياق كتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لأبي عبد الله محمد بن عذارى المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وأرخ ابن عذارى تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى عام 667 هـ/1269م. وقد اعتمد ابن عذارى كثيراً على الروايات المعاصرة للأحداث، وأكثر من النقل عن ابن صاحب الصلاة ويوسف بن عمر، وأورد عدداً من الرسائل الرسمية التي احتوت على مجموعة من الأوامر والنصائح لعمال الحكام المغاربة في الولايات. كما ترجع أهمية هذا المصدر لذكره العديد من العوامل الطبيعية التي أثرت في النشاط التجاري.

وقد ألمح ابن عذارى إلى الوضع الاقتصادي في إفريقية زمن الحكم الموحدى واتباع ابن عذارى في مؤلفه المنهج الحولى مع التزام الموضوعية. ويتميز كتاب البيان أن مؤلفه قد اعتمد على أصول تاريخية أولية مفقودة في الوقت الحاضر.

ويدخل تحت هذا الصنف أيضاً من المصادر كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت808 هـ - 1406م) وهو يتألف من سبعة أجزاء وجزء ثامن للفهارس؛ الجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة والتي حصلت عليها من طبعة مستقلة بذاتها عن الكتاب الأصلي، وبقية الأجزاء الأخرى يتناول فيها المؤلف تاريخ العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول منذ بدء الخليقة إلى عصره، كذلك أخبار البربر ببلاد المغرب وأجيالهم ودولهم، وقد اعتمدت على المقدمة والجزء السادس من الكتاب فقط، حيث يقدم ابن خلدون الكثير من المعلومات التجارية المتفرقة عن تلك الفترة مثل ذكر بعض العملات المغربية. بالإضافة لذكر الكيانات السياسية وأثرها على الحياة الاقتصادية لاسيما التجارية منها، وقد تضمن الكتاب أخباراً مفصلة عن أصول القبائل البربرية التي حكمت إفريقيا والعديد من المدن الليبية زمن الموحدين والحفصيين، كذلك عن ثورة بني غانية وقراقوش التقوي، مما أفادني في عرض التمهيد السياسي للمنطقة. كذلك استنتجت من عرض الأوضاع السياسية في أثناء الحكم الموحي والحفصي بعض الإشارات التي أفادني في تقييم الوضع الاقتصادي لاسيما النشاط التجاري.

أما كتاب "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" للزركشي، هذا الكتاب من تسميته قد تضمن تاريخ المغرب في عصر الدولتين الموحدية والحفصية أي في (القرن السادس هـ - الثاني عشر الميلادي إلى القرن التاسع هـ - الخامس عشر الميلادي)، وإن كان التركيز على دولة بني حفص بتونس. ومن مزاياه أنه كان معاصراً للأحداث التي كتبها. ومما يؤخذ عليه هو اختصاره الشديد في الأحداث التاريخية لذكر بعض الحوادث التاريخية.

كما اعتمدنا على كتاب (الكامل في التاريخ) لأبي الحسن علي بن محمد بن الأثير الشيباني (ت630 هـ - 1233م) والذي سرد أخباراً مهمة عن منطقة المغرب الأدنى، والأنشطة الحضارية بها في تلك الفترة.

كتب النوازل والحسبة

تحتوي مؤلفات النوازل على القضايا التي رفعت إلى المفتين للنظر فيها، وعادة ما تذكر القضية وأشخاصها ووقائعها مع ذكر من رفعت إليه وتاريخ وقوع النازلة، وكثير من هذه النوازل كانت تتعلق بقضايا اقتصادية لاسيما تجارية منها ترجع إلى فترة بحتنا. وقد استفدت من تلك النوعية من الكتب في أكثر من موضع من الرسالة، خاصة فيما يتعلق بالعملات وأنواعها، وأشكال التعامل الذي كان قائماً في تلك الفترة.

ومن أهم تلك المصنفات كان كتاب "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، لأحمد بن يحيى الونشريسي وكتاب "جامع مسائل الأحكام لمن نزل من القضايا بالمفتين والحكام" لأبي القاسم بن أحمد البلوي المعروف بالبرزلي، وكان هذا النوع من الكتب أداة بحث مهمة بالنسبة لموضوع دراستنا، فقد أعاننا إلى حد كبير على دراسة قيمة العملة

والمعادلة بين أصنافها، والكشف عن مواقف الشرع من القضايا المتعلقة بها، بالإضافة إلى بيان موقف السلطة الحاكمة من مسألة تداول العملة "المغشوشة".

كذلك أورد الونشريسي إشارات قيمة عن الشركات التجارية والوكلاء التجاريين. مما وفر لنا مادة لا بأس بها في تلك الرسالة. وخاصة عند الحديث عن الأسواق الداخلية ونظم البيع والشراء وسلطات المحتسب ونظم التسعير، بالإضافة إلى وسائل التعامل التجاري ووجوهها الشرعية. ويتبع تلك المجموعة من المصنفات كتب الحسبة، لاسيما كتاب (آداب الحسبة) للسقطي؛ و(رسائل ابن عبدون وابن عبد الرؤوف والجرسيفي) (من أهل القرن السادس الهجري)، والتي نشرها ليفي بروفنسال ضمن كتاب "ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب"، والتي ألفت الضوء على كثير من المعاملات التجارية والموازن والمكايل.

الرسائل والوثائق الرسمية

اعتمدت الدراسة على شذرات متفرقة من مجموعتين من الوثائق المنشورة، وهما وثائق الجنيزة اليهودية، والوثائق الأوربية المسيحية التي ترجع إلى تلك الفترة. و(الجنيزة) كلمة عبرية تشبه الكلمة العربية جذز بمعنى دفن - قبر - حفظ - خبأ، و(وثائق الجنيزة) عبارة عن خبيئة من الوثائق اليهودية التي عُثر عليها في معبد ابن عذرا بالفسطاط، حيث جرى العرف اليهودي على حفظ أي ورقة مكتوب عليها اسم الله وذلك بتخزينها في حجرة مخصصة لهذا الغرض ملحقة بهذا المعبد. وتُشكّل الرسائل التجارية أكبر وأهم نسبة من مجموع هذه الوثائق؛ وهي رسائل متبادلة بين التجار اليهود الذين نزحوا عن إفريقية واستقروا في مصر، وبين أقربائهم ووكلائهم الذين بقوا في مدن إفريقية، وفضلاً عن الرسائل التجارية فإنّ وثائق الجنيزة تشمل فتاوى وعقود تملك وكشوف حسابات. وتُعدّ وثائق الجنيزة مصدراً رئيسياً لتاريخ التجارة ونقل البضائع براً وبحراً خاصة في البحر المتوسط، وتُعدّ الرسائل بنقل أخبار أسعار السلع المتبادلة وكميتها. وتقارير عن تحركات السفن وحمولاتها وجنوح بعضها، وعن القرصنة في البحر والفدية التي تُدفع للقرصنة؛ وعن أسفار التجار والأسر التجارية وأحوال البلاد المعنية، وموضوعات كثيرة أخرى تتصل بالسفر والتجارة. وقد اعتمدنا على مجموعة منشورة من تلك الوثائق، قام بنشرها عدد من المؤرخين المهتمين بهذا المجال، وكان في مقدمتهم جواتين الذي استعنتُ بأكثر من مرجع له للحصول على نصوص تلك الوثائق.

أما (الوثائق الأوربية) لاسيما وثائق المدن الإيطالية وصقلية، وتشمل رسائل وعقود ومعاهدات تجارية بين تلك المدن وبين بلاد المغرب الأدنى، وهي وثائق مسيحية نادرة ذات أهمية خاصة في توضيح دور تجار الدول الأوربية في التجارة المغربية ومعرفة الضرائب المقررة عليهم والامتيازات التي أعطيت لهم، وطريقة التعامل معهم والسلع التي كانوا يتاجرون فيها. وقد اعتمدت على مجموعة من تلك الوثائق، قام بنشرها مؤرخين أوربيين مثل ماس لاتري (Mas Latrie) وأماري (Amari).... وغيرهم.

كما تم الاعتماد في هذا السياق على مجموعة من (الوثائق العربية) خاصة الرسائل المستخرجة من كتب منشورة مثل كتاب "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية"؛ والذي قام بنشره ليفي بروفنسال، والثاني كتاب "رسائل موحدية (مجموعة جديدة)" تحقيق أحمد عزاوي؛ والثالث كتاب "رسائل ديوانية موحدية" تحقيق أحمد عزاوي أيضاً وهو كتاب حديث النشر. وتلك المجموعات من الرسائل قيمة كبيرة من الناحية التاريخية، حيث أنها تعرض لنا إشارات مهمة عن النشاط التجاري، خاصة فيما يتعلق بالإجراءات التي تتخذها الكيانات السياسية التي قامت في تلك المنطقة بالمراكز التجارية بها، كما أشارت تلك المؤلفات والرسائل لبعض العلاقات الدولية بين تلك الكيانات وبين البلاد الأجنبية، والتي أثرت بشكل مباشر على النشاط التجاري للمغرب الأدنى عامة والمناطق الليبية على وجه الخصوص.

كتب العملة والمكايل والموازن

هي مجموعة من المصادر اهتمت في المقام الأول بالموازنين والمكايل والأطوال والعملات؛ وقامت بوصفها وصفاً محكماً وتقدير مقاديرها طبقاً للفترة التي عاصروها مؤلفي تلك المصادر؛ ويأتي في مقدمة تلك النوعية من المؤلفات التي استعنت بها كتاب (تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية، وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك) لمؤلف مجهول عاش في القرن السابع الهجري. كما كان أبرز المؤلفات التي استعنت بها والذي لا يقل أهمية عن كتاب "تلخيص القول" السابق الذكر، كتاب (إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد) لأبي العباس أحمد العزفي السبتي (557-633هـ/1162-1236م)، الذي يتحدث عن قضية المكايل والأوزان الشرعية ومحاولة تأصيلها تأصيلاً تاريخياً يرجع لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك النقود الإسلامية حيث يذكر تاريخها ويقف عند أوزانها وما ورد فيها من أقوال العلماء، ويرجع أهمية هذا الكتاب بالإضافة إلى ما سبق إلى أن مؤلفه مغربي عاصر فترة البحث؛ مما يعطى الكتاب مصداقية وأهمية في ذكر أرقام وتفاصيل خاصة بالموازنين والمكايل التي عرفها المغاربة في تلك الفترة. كذلك استعنت بمجموعة من المخطوطات التي تدخل في هذا السياق ومنها؛ مخطوطة (كتاب في الأوزان والمكايل)، مخطوطة بدير الاسكوريال لمؤلف مجهول؛ ومخطوطة (الإيضاح والتبيان في معرفه المكيال والميزان)، مخطوطة بدار الكتب المصرية لمؤلفها ابن رفاعه، ومخطوطة (مقالة ايليا المطران في المكايل والأوزان) الموجودة بدار الكتب المصرية.

كما استفدت بكتاب (الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة) لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم (عاش خلال النصف الثاني من القرن 8هـ/14م)، ويبدو من استعراض فصول الكتاب ودراسة محتواه أن مؤلفه أراد أن يؤلف كتاباً كاملاً عن موضوع الذهب والفضة وما يتخذ منها من نقود وقد وفق في ذلك، فاستوفى الموضوع من كل جوانبه التي كان يتطلبها عصره فهو يتحدث عن الذهب والفضة من جميع النواحي : اللغوية والجغرافية والطبيعية والكيميائية، كما أشار أبو الحسن

في كتابه هذا أكثر من مرة إلى بعض أوزان العملات الموحدية، بالإضافة إلى بعض الأوزان والمكاييل المستعملة في تلك الفترة.

ومن المؤلفات التي عنيت بالعملات أيضا كتاب (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) لابن بكرة (ت أواخر القرن 7هـ/13م)، فرغم أنه كتاب لمؤلف ليس بمغربي إلا أنه ذكر أنواع العملات التي كانت ترد إلى دار الضرب المصرية، خاصة المغربية منها.

وفي نهاية هذا العرض لأهم المصادر التاريخية، لا يمكننا إنكار ما أسهمت به دراسات المحدثين من المستشرقين والعرب. فقد تم الاعتماد على عدد كبير من المصادر والمراجع العربية المعربة والمراجع الأجنبية، مثل "Les Annales Tripolitaines" لشارل فيرو "Charles Feraud" و"Storia di Tripoli e dela Tripolitania" لاتوري روسي "Ettore Rossi" الذي ركز في دراسته على شمال غرب ليبيا وبعض الأبحاث في المجالات التاريخية، بالإضافة إلى بعض الرسائل الجامعية التي تم تثبيتها في قائمة المصادر والمراجع.

وختاماً أتقدم بخالص الشكر وعظيم الإمتنان وأرفع آيات الثناء لكل من ساعد في إتمام هذا العمل، والله أسأل أن يوفقنا إلى وجه الحق والصواب، وأن يغفر لنا أخطاءنا في اجتهادنا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الأول

التعريف الجغرافي والتاريخي لموقع ليبيا

اختلف الجغرافيون والرحالة المسلمون في توصيف اقاليم العالم الإسلامي ولاسيما إقليمي برقة وطرابلس، فالبعض يعتمد على وحدة القياس - مثلاً- المسافة الفاصلة بين إقليم وآخر بالمراحل، والمنازل، والأيام، والميل، والعرض، والطول، والدرجة، ووصف الطبيعة الجغرافية وتضاريسها، وأنماط العمران، والبشر ومعاشهم، واحتوت أعمالهم على المعلومات التاريخية المتاحة وفق ثقافة وسعت معرفة كل عالم إسلامي، وتضمنت نصوصها الكثير من المبالغات والخلط والأسطورة.

وفي موضوع الحدود يبدو من الإجحاف اجترار هذا المصطلح الحديث قصراً إلى تلك الحقبة التاريخية، ومحاولات إجراء مقاربات تعسفية، تعتمد على الكثير من اتجاهات وأفكار الحاضر، وتحاول إبراز مفهوم "الوحدة" في حين تتجاهل مفهوم "التجزئة" من منطلقات شتى، ومن هنا يبرز نقاش منهجي معقد لا يتسع المجال إلى إثارته، وفي موضوعنا هذا يجب قول الحقيقة التالية: كانت الجغرافية⁽¹⁾، ولا تزال تعطي لهذا الإقليم أو ذلك الكثير من المزايا لاسيما السياسية، والاقتصادية، والتجارية على مستوى تمتع كل إقليم بالموارد الطبيعية، والموقع الإستراتيجي، والتركيبية السكانية، وقربه من المراكز الإسلامية الشهيرة براً وبحراً، فبرقة ظلت مرتبطة بمركزها الشرقي "الإسكندرية/ مصر" حتى قبل عملية الفتح، وطرابلس ظلت مرتبطة بمركزها "قرطاج/أفريقية" ولم تساعد طبيعة المنطقة الوسطى الصحراوية على إيجاد نوع من الاستمرارية في التواصل بين برقة وطرابلس، وهذه إحدى العوامل التي يمكن الاعتماد عليها في تفسير مسألة تذبذب بعض نصوص الأدبيات الجغرافية في تصنيف الإقليمين تارة إلى المشرق وتارة أخرى إلى المغرب⁽²⁾. لم يكن اسم ليبيا⁽³⁾ قد استخدم بكثرة بين المسلمين الفاتحين لهذه البلاد في ذلك الوقت حيث يذكر البكري: "أن بلاد المغرب كانت تسمى باسم أفريقية، وأنها امتدت شرقاً من طرابلس لكي تضم برقة وتكون بذلك الحد الشرقي لهذه البلاد"⁽⁴⁾، وكان المؤلف لديهم هو استخدام اسمي طرابلس وبرقة، على الرغم من أن هذين الإقليمين كانا في معظم مراحل تاريخهما الإسلامي متحدين سياسياً

(1) حول مفهوم عقربية المكان، انظر: يسرى الجوهري، المضمون البشري في الجغرافيا، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإسكندرية، 1999، ص 7 ، 38.

(2) وفق نظرية المركز والأطراف، تناول أحد المؤرخين إستراتيجية الفتح الإسلامي للأراضي الليبية مفسراً سهولة فتح برقة وتعثر فتح طرابلس، فسقوط الإسكندرية/ المركز كان يعني عملياً سقوط الطرف/ برقة، وسقوط طرابلس/ الطرف، لا يعني بأي حال سقوط المركز /أفريقية؛ انظر: محمود أحمد أبو صوة، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعي والاقتصادي، منشورات ELGA، فاليتا، مالطا، 1997، ص 74 ، 98.

(3) أطلق اليونان اسم ليبيا على كل الأجزاء التي عرفوها من شمال أفريقيا، عدا مصر وأثيوبيا، ويعتقد بأن هذا الإسم مشتق من كلمة "البيي" التي كانت تعني الشعوب التي تسكن الحدود الشرقية بين ليبيا ومصر، ومن المحتمل أن تكون هذ التسمية مشتقة من اسم إحدى هذه القبائل "لواته" أو "لبياته" أو "البيو" أما في العهد الروماني والروايات المتواترة بعد ذلك فإن كلمة ليبيا كانت تعني جزءاً كبيراً من أفريقيا الشمالية، ولكن دون تحديد جغرافي، انظر: أتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ترجمة: خليفة التليسي، دار الثقافة، بيروت، 1974، ص 23؛ محمد مصطفى بازامة، ليبيا، هذا الإسم في جذوره التاريخية، منشورات مكتبة قورينا، بيروت، 1975م، ط2، ص 94؛ عبداللطيف البرغوثي، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي، دار صادر، بيروت، 1971م، ص 21 ، 22؛ عبدالفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، مكتبة مديولي، القاهرة، 1994م، المجلد الأول، ص 50 ، 51.

(4) البكري، أبو عبيدة عبدالله بن عبدالعزيز، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، الجزائر، 1857، ص 21.

تحت سلطة حاكمة واحدة، وإن كانت هذه الوحدة ليست جديدة على هذين الإقليمين، لأنهما كانا متحدتين فعلاً تحت الحكم الروماني الذي بدأ في القرن الثاني قبل الميلاد عندما نجح الرومان في القضاء على النفوذ اليوناني في برقة، وعلى النفوذ الفينيقي في طرابلس، ومنذ الفتح الإسلامي بقي الإقليمان متحدتين، إلا في فترات محدودة، كانت تحتها مجريات الأحداث السياسية وما يتطلبه تنظيم الدفاع والإدارة في الدولة الإسلامية.

1.1. الموقع الجغرافي

من خلال إلقاء الضوء على الأحوال الجغرافية والمناخية للمناطق الليبية المختلفة، يمكننا إدراك مدى التنوع الذي تميزت به تلك المناطق من الناحية الطبيعية، والتي بالطبع تركت أثراً على الظروف السياسية والتاريخية والتنوع السكاني في البلاد. ويمكننا استعراض تلك الأحوال الجغرافية والمناخية كالتالي:

1.1.1. الحدود الطبيعية

تحتل ليبيا الجزء الأوسط لساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبي أو ما يسمى بشمال أفريقيا، وتمتد فوق مساحة تقدر بحوالي 1,750 مليون وسبعمئة وخمسين ألف كيلو متر مربع⁽¹⁾. وتمتد الأراضي الليبية من شواطئ البحر المتوسط الجنوبية، إلى حدود كل من جمهورية تشاد والنيجر في الجنوب، وإلى خط الحدود مع جمهورية مصر العربية، وجزء من الحدود الشمالية الغربية لجمهورية السودان في الشرق، أما من الناحية الغربية فهي تشترك في حدودها مع كل من جمهوريتي تونس والجزائر. هذا من الناحية الجغرافية أما من الناحية الفلكية فهي تغطي رقعة أرضية من اليابس تمتد فيما بين خطي طول 25,9 درجة شرقاً، وبين دائرتي عرض 45 – 18، 33 درجة شمالاً⁽²⁾.

2.1.1. التضاريس

أهم ما يميز تضاريس السطح الليبي هو التنوع في أشكال تلك التضاريس، ما بين سواحل وسهول ساحلية وجبال وصحاري، وهذا ما سنلقي عليه الضوء فيما يلي:

⁽¹⁾ محمد المبروك المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، جامعة قاريونس، بنغازي – ليبيا، الطبعة الثالثة 1998، ص 9.

⁽²⁾ المهدي، جغرافية، ص 9.

1.2.1.1. السهول الساحلية

يعتبر التجانس العام وقلة تعرجات خط الساحل هو أهم ما يميز سطح العالم العربي الإفريقي عامةً والأراضي الليبية خاصة⁽¹⁾، وقد ترتب على هذه الميزات عدم وجود أشباه جزر، إلى جانب ضيق السهل الساحلي، واختفائه في مواضع كثيرة⁽²⁾.

والسهل الساحلي الليبي عبارة عن مجموعة من السهول الساحلية المتقطعة والمحصورة غالبها بين البحر والمرتفعات الشمالية. وتمثل هذه السهول مساحة بسيطة من مساحة البلاد لا تتعدى 5%. وهذه السهول عبارة عن شريط يمتد موازياً لساحل البحر المتوسط، وتضيق وتتسع تبعاً لتقدم وتقهقر المرتفعات الشمالية، وحافة الهضبة التي تحده من الجنوب. ويفرد كل جزء منها بخصائص وميزات تختلف من مكان لآخر⁽³⁾. وأهم السهول الساحلية الليبية، تلك المنطقة التي تشبه المثلث إلى الشمال من الجبل الغربي، وهو ما يعرف "بسهل الجفارة"⁽⁴⁾. أما إلى الشرق من مدينة الخمس فإن هذه المناطق تتسع إلى الجنوب، وأما إلى الجنوب والجنوب الشرقي من خليج سرت، فإنها تغطي مساحات شاسعة لتصل إلى مسار الدائرة العرضية 26 درجة شمالاً، وهي تشمل مساحات كبيرة من الغطاءات الرملية⁽⁵⁾. أما شمال الجبل الأخضر فإن مثل هذه السهول لا تمثل إلا في شريط ساحلي ضيق؛ وذلك بسبب الانحدار السريع للحافة الشمالية للجبل الأخضر نحو البحر

⁽¹⁾ يمتد الشاطئ الليبي على شكل خط غير مستقيم، يبلغ طوله حوالي 1900 كيلو متر. وينقسم إلى قسمين: قسم تشرف عليه حافة جبلية، عند منطقة الجبل الأخضر، وقسم آخر وهو أطول من السابق، رملي تخترقه بعض الخلجان والرؤوس. وتتخلل الشواطئ ظاهرة الرؤوس الممتدة داخل البحر، وتنتشر بكثرة في الشواطئ الشرقية عنها في الغربية، أهمها: رأس الهلال، رأس عامر، رأس الفالجة، رأس التين، رأس بو عزة، ورأس أجدير. كما تواجه الساحل مجموعة من الجزر، وأهمها جزيرة فروة بالقرب من أبي كماش، ومجموعة الجزر التي في شمال غرب خليج بمة منها أم الترابي ومصراته، والوطية، وبردعة، والعلبة. أما من حيث الخلجان فليبييا بصفة عامة تخلو من وجود الخلجان العميقة، باستثناء سرت والذي يعتبر أكبر خلجان شمال أفريقيا، حيث يمتد إلى الداخل بحوالي 250 كيلومتراً، ويعرض من الشرق إلى الغرب يزيد عن 400 كيلومتر، وكذلك خليج طبرق، وهو ينحصر بين رأس طبرق الممتد في اتجاه شمال شرقي وجنوبي غربي، والساحل؛ انظر: المهدي: جغرافية ليبيا البشرية، ص 28، 29.

⁽²⁾ محمد خميس الزوكه، جغرافية العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000م، ص 51.

⁽³⁾ الزوكه، جغرافية العالم العربي، ص 30.

⁽⁴⁾ يعد سهل الجفارة أكثر السهول الساحلية في ليبيا امتداداً وأعظمها أهمية، حيث تبلغ مساحته حوالي 37 ألف كيلو متر مربع، يقع حوالي نصفها في تونس بينما النصف الآخر في ليبيا؛ انظر: محمد خميس الزوكه: جغرافية العالم العربي، ص 66.

⁽⁵⁾ تشتمل سهول سرت على المناطق المحيطة بخليج سرت، وهي غير محددة بوضوح، حيث يرتفع منسوب سطح الأرض بشكل تدريجي بالابتعاد عن الخليج في اتجاه الشرق أو الجنوب أو الغرب، دون وجود أية موانع طبيعية، يمكن الاستعانة بها في تحديد هذا النطاق السهلي، الذي تمتد الكثبان الرملية على طول امتداده. وجدير بالذكر أن الأجزاء منخفضة المنسوب من شاطئ الخليج قد تراكمت فوقها تكوينات من الطحالب البحرية، التي يبلغ سمكها عدة أمتار في المتوسط. ويمتد سهل بنغازي من الساحل الشرقي لخليج سرت في الغرب إلى حافة الجبل الأخضر في الشرق. ويعرف هذا السهل أحياناً باسم سهل برقة الحمراء، لانتشار التربة الطميية الحمراء في بعض أجزائه. والتي نقلتها الأودية النهرية المنحدرة من الجبل الأخضر إلى النطاقات الساحلية التي تفصلها بعض السبخات عن البحر المتوسط في بعض المواقع كنتيجة لانخفاض منسوب النطاق الساحلي هنا بصورة عامة؛ انظر: الزوكه، مرجع سابق، ص 66، 67.

المتوسط، ولا تترك مجالاً واسعاً لتكوين مثل تلك السهول. والجدير بالذكر أن معظم النشاط الزراعي والرعوي في ليبيا يتوطن فوق أجزاء محدودة نسبياً من هذه الأراضي، حيث تتوفر التربة الصالحة والمياه العذبة⁽¹⁾.

2.2.1.1. الجبال

تحتوي الأراضي الليبية على مجموعة من المرتفعات الجبلية، حيث يمكن تمييز كتلتين من المرتفعات في شمال البلاد، وهي مرتفعات الجبل الأخضر ومرتفعات الجبل الغربي. فالجبل الأخضر يظهر على شكل هضبة تمتد لمسافة تزيد عن 300 كيلو متر، ولها إشراف مباشر على البحر المتوسط⁽²⁾. أما مرتفعات الجبل الغربي فهي تمتد من الحدود الغربية للبلاد مع البلاد التونسية، وحتى رأس المسن بالقرب من مدينة الخمس شرقي طرابلس، وتدعى بأسماء محلية مختلفة، مثل جبل نفوسة⁽³⁾. وجبل ترهونة، وتمتد بطول يقرب من 500 كيلومتراً. أما في وسط ليبيا وجنوبها فتظهر مجموعة من المرتفعات الجبلية مثل جبال تيبستي وتاسيلي وتومو والعوينات وجبال السودان والهروج، وهي عبارة عن كتل متفرقة تعرضت عبر الزمن لعوامل التعرية، كما تغطي أجزاء منها بصخور بركانية تشير إلى حدوث اضطرابات خلال الأزمنة الغابرة⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ المهدي: جغرافية ليبيا، ص36؛ الزوكه، جغرافية العالم العربي، ص54.

⁽²⁾ المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، ص26.

⁽³⁾ وصف البكري جبل نفوسة وموارده وساكنيه في العصر الإسلامي على أنه يبعد عن طرابلس مسيرة ثلاثة أيام، ويبعد ستة أيام من القيروان، وطول جبل نفوسة من الشرق إلى الغرب ستة أيام، وتليه قبيلة يقال لها بنو رمور ولهم حصن يسمى تيرقت في غاية المنعة، لا يطعم فيه أحد ولا يقدر عليه. وبعد هذا الحصن قبيلة بني تدرميت لهم ثلاثة حصون، وفي وسط هذه القبائل مدينة كبيرة تسمى جادو لها أسواق ويسكنها يهود كثير. وأم قرى جبل نفوسة مدينة شروس، وهي كبيرة أهلة جليلة، أهلها إباضية، ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى، وهي أزيد من ثلاثمائة قرية أهلة، لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة بهم. وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون والفواكه، ويجتمع فيما حوله من القبائل إذا تداعوا ستة عشر ألف رجل. وافتتح عمرو بن العاص - رحمه الله - نفوسة وكانوا نصارى، ومن نفوسة رجع عمرو بكتاب عمر رضي الله عنه؛ انظر: البكري، المسالك والممالك، ط1، تحقيق: جمال طلبية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ج2، ص181.

⁽⁴⁾ الزوكه، جغرافية العالم العربي، ص54.

3.2.1.1. الهضبة الداخلية

تعتبر ليبيا جزء من هضبة الصحراء الإفريقية الكبرى⁽¹⁾، ومن خلال الموقع الفلكي فإن معظم الأراضي الليبية تقع في النطاق الشمالي للصحراء الإفريقية الكبرى، ولا يستثنى من ذلك سوى المرتفعات الشمالية وبعض السهول الساحلية المطلة على ساحل البحر⁽²⁾.

وإذا ما استثنينا الشريط الساحلي وإلى حد ما بعض الواحات المتناثرة بالمنخفضات الصحراوية، فإن سطح الأراضي الليبية يغلب عليه الطابع الصحراوي، سواء أكان الرملية أم الصخري أم الحصوي، وتغطي ما يقرب من 90% من مساحة البلاد. فالصحراء الصخرية هي عبارة عن هضبة متوسطة الارتفاع تتحدر تدريجياً من مرتفعات الجنوب نحو خليج سرت. ومن أشهر الحمادات، أي الصحراء الصخرية، كل من الحمادة الحمراء، وحمادة مرزق. أما الصحراء الحصوية فيمثلها سرير كلانشو، الذي يمتد شمال منخفض الكفرة، وأما الصحراء الرملية والتي تدعى بالعروق أو الأدهان، فهي تغطي مساحات كبيرة من الصحراء الليبية، سواء كان في شرق البلاد أو في غربها. كما تنتشر بعض الأحواض الصحراوية ممثلة في كثير من المنخفضات، التي تشغلها الواحات مثل جالو وأجلة⁽³⁾. والجبوب وغدامس والكفرة وغيرها. هذا وينتشر الكثير من الوديان التي تنصرف عبرها مياه الأمطار القليلة نسبياً، فمنها ما ينصرف إلى الشمال وينتهي عند البحر المتوسط، مثل وادي المجنين ووادي القطارة وبرجوج وغيرها، والتي تنتشر فيها بعض الواحات⁽⁴⁾.

3.1.1. المناخ

يوصف المناخ في الأجزاء الشمالية من ليبيا بأنه جاف صيفاً دافئاً ممطر شتاءً، وإن كان هذا الوصف لا يتحقق إلا في مناطق محدودة من الساحل الليبي القريب من البحر المتوسط، والأجزاء المرتفعة في كل من الجبل الأخضر والجبل الغربي، أما الصفة الغالبة للمناخ الليبي فهي المناخ الصحراوي، الذي يتصف بارتفاع أعلى درجة حرارة في العالم، وهي 136 درجة فهرنهايت

⁽¹⁾ هضبة الصحراء الإفريقية الكبرى: تعد أهم الظواهر التضاريسية على الإطلاق في الجانب الإفريقي من العالم العربي، وأكبرها مساحة، وهي تمتد من ساحل المحيط الأطلسي غرباً حتى مرتفعات البحر الأحمر شرقاً. كما تمتد من ساحل البحر المتوسط شمالاً صوب الجنوب لمسافة تقدر بحوالي 2000 كيلو متر، وبذلك تعد هذه الهضبة الصحراوية من أكبر صحاري العالم على الإطلاق، ويتراوح منسوبها بين 1640 – 4900 قدم فوق مستوى سطح البحر. وينحدر سطحها انحداراً تدريجياً من الجنوب صوب الشمال بصفة عامة، وإن كان انحدارها البطيء هذا يتحول إلى انحدار مفاجئ في بعض الجهات، كما في منطقة الجبل الأخضر بليبيا، حيث ينحدر السطح بصورة حادة صوب ساحل البحر، لينته عند نطاق سهلي ضيق بصورة عامة، رغم تباين اتساعه من موقع لآخر. وجدير بالذكر أن انحدار حافة الهضبة عند الجبل الأخضر يتم على ثلاثة مستويات (حافات)، ويعد المستوى أو الحافة الثالثة أكثرها وضوحاً، حيث يتراوح منسوبها بين 820 – 980 قدماً فوق سطح البحر؛ انظر، الزوكه، جغرافية العالم العربي، ص 52.

⁽²⁾ المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، ص 37.

⁽³⁾ كانت أجلة خلال فترة البحث: مدينة عامرة كثيرة النخل، وأجلة اسم الناحية واسم المدينة أرزاقية، وأجلة قرى كثيرة فيها نخيل وشجر كثيف وفواكه ويمدنتها مساجد وأسواق؛ انظر: البكري، المسالك والممالك، ج-2، ص 183.

⁽⁴⁾ المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، ص 38؛ الزوكه، جغرافية العالم العربي، ص 54.

أو 58 درجة مئوية؛ وتلك الدرجة قد سُجلت في مدينة العزيبية، وتعتبر تلك أعلى درجة حرارة سُجلت في العالم حينها ، وعرفت طرابلس باسم "ابنة البحر والصحراء " وذلك بسبب موقعها المتميز بين ساحل البحر المتوسط وبين الصحراء الكبرى، وكان مناخها تعبيراً صادقاً عن موقعها حيث يخضع لنظامين متصارعين ، المناخ البحري من جهة ، والمناخ الصحراوي من جهة أخرى، فبينما هي تتأثر بالنظام الأول فصل الصيف، نجدها تتأثر بالنظام الثاني خلال فصل الشتاء⁽¹⁾.

وقد ترتب على ذلك المناخ أن المناطق الشمالية المتأثرة بمناخ البحر المتوسط، هي مناطق الإنتاج الزراعي، وبالتالي فهي مناطق جذب للسكان⁽²⁾الذين استوطنوا، فظهرت المدن الكبيرة وطرق الاتصال المختلفة، فنمت وازدهرت حضارات مختلفة عبر الزمن. أما الأجزاء الجنوبية والتي تقع تحت تأثير المناخ المداري، فهي مناطق صحراوية يرتفع فيها المدى الحراري اليومي والفصلي، وبذلك فهي مناطق طرد سكاني، إلا في بعض المنخفضات التي توفرت فيها المياه، فجذبت سكان الصحراء للاستقرار في بعض الواحات. وفيما بين هذا وذاك توجد مناطق الانتقال أو الإستبس، وهي مناطق رعوية تزدهر فيها الحشائش عند سقوط الأمطار، وبذلك فهي مناطق رعي للرعاة وحيواناتهم⁽³⁾.

¹ (المهدي ، جغرافية ليبيا البشرية، ص51؛ الزوكه ، جغرافية العالم العربي، ص88، 89؛ مابل لومس تود، أسرار طرابلس ،1،طرابلس،1968م،ص17؛ محمود ادريس على بك، طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلى بداية العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الاسكندرية ،1998م،ص59.

² يعتقد بعض الباحثين أن الليبيين القدماء ينحدرون من امتزاج ثلاث عناصر سكانية، وفدت من الشرق واستقرت في الشمال الأفريقي، وهم أصحاب الحضارة العتيرية وأصحاب الحضارة القفصية وسلالة العصر الحجري الحديث، وهذه الحضارات هي كغيرها من حضارات ما قبل التاريخ، التي قامت في الشمال الأفريقي الضبغانية والوهرانية التي أظهرت الاكتشافات الاثرية على أن لها أصولاً شرقية جاءت من جنوب غرب آسيا. ومنذ الألف الخامسة ق.م بدأت جماعة العصر الحجري الحديث واغلبهم من الصحراء الكبرى في المجيء إلى شمال أفريقيا، واستمر ذلك حتى بداية العصور التاريخية القديمة، حيث ظهرت المجموعات الليبية مثل التمحو والليبيو والمشواش في النصوص المصرية القديمة؛ وتشير الأدلة الأثرية والتاريخية إلى أن العنصر القادم من جنوب غرب آسيا كان ذات أصل عربي؛ ذلك أن الزيادة في عدد سكان الجزيرة العربية، ولأنها منطقة طاردة بسبب الجفاف وشح الموارد الاقتصادية فيها، اضطر سكانها إلى التوجه إلى المناطق الخصبة المجاورة في موجات متتالية، رغبة منهم في تحسين أحوالهم الاقتصادية وظروف معيشتهم. ومن بين هذه الهجرات تلك التي اتجهت نحو الغرب سالكة طريقين أحدهما باب المنذب والسودان ومصر وشمال أفريقيا، والآخر عن طريق شبه جزيرة سيناء وجنوب مصر العليا وشمال السودان إلى أن استقرت في الصحراء الكبرى الأفريقية، التي كانت أمطارها غزيرة وتربثها خصبة، حين وصول هذه الهجرات إليها حوالي الألف السادسة ق.م. وكما هو معروف فإن هؤلاء الوافدين جلبوا معهم ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومارسوا مهنة الزراعة واستئناس الحيوان. ومنذ الألف الرابعة ق.م، حدث تغير في المناخ وأخذت منطقة الصحراء الكبرى في التحول والجفاف، وهذا ما ترتب عليه الرحيل من هذه المنطقة إلى الشمال، حيث يتوفر الماء والكلاً والظروف الملائمة للعيش، ومن ثم الانتشار في هذه المنطقة الممتدة من البحر الأحمر وحتى المحيط الأطلسي. ويرى بعض الباحثين أن هذه المجموعات التي استقرت في الشمال الأفريقي خلال العصر الحجري الحديث لم تكن الوحيدة التي جاءت إلى هذه المنطقة، وإن هناك هجرات أخرى من الشام والجزيرة العربية وصلت إليها منذ العصر الحجري الحديث، وحتى نهاية العصور القديمة، وهو ما نجم عنه اختلاف اللهجات، وذلك على الرغم من وحدة الأصل التي أكدها هيرودوتس؛ انظر: دي سانجس، ج، البربر الأصليون، (تاريخ أفريقيا العام)، ج-2، جين افريك، اليونسكو1985م، ص432، 433، ص434؛ مصطفى كمال عبد العظيم، دراسات في التاريخ الليبي القديم، الطبعة الاهلية، بنغازي1966م، ص6 - 10.

³ (الزوكه ، جغرافية العالم العربي، ص101، 123.

ويعد المطر من العناصر المناخية الأساسية والمهمة والمؤثرة في توزيع السكان واستقرارهم، وتحديد أنواع الغطاء النباتي والحيوانات بالمناطق المختلفة. وأمطار ليبيا شتوية في عمومها متباينة زمانياً ومكانياً، وذلك لتأثرها المباشر بمرور المنخفضات الجوية المتجهة من غرب البحر المتوسط إلى شرقه، كما أنها تؤثر مباشرة على الشريط الساحلي ومناطق المرتفعات الشمالية، وقد تصل كميتها إلى 500 ملم أو أكثر سنوياً في بعض مناطق الجبل الأخضر، بينما لا تتجاوز كميتها 10 ملليمترات سنوياً في أغلب الأراضي الجنوبية للبلاد. وعليه يمكن القول بأنه في ليبيا تتمثل أربعة أنماط من المناخات وهي: النمط الأول وهو مناخ البحر المتوسط، والذي يتمثل في أجزاء متفرقة من الشريط الساحلي، وتأثيره يتسع ويضيق حسب معدل تأثير الأعاصير الشتوية. أما النمط الثاني فهو مناخ المرتفعات الشمالية، وهو يدخل ضمن النمط الأول إلا أن أمطاره أعلى، وخاصة في منطقة الجبل الأخضر. ولذلك فإنه جعل من هذه المنطقة أرضاً صالحة لنمو بعض أنواع أشجار الغابات، مثل البلوط والبطوم والصنوبر وغيرها من الشجيرات والحشائش. أما النمط الثالث وهو مناخ الاستبس أو المناخ الانتقالي، فإنه يسود في مناطق أقل مطراً من النوعين السابقين، ويستمر جنوباً حتى خط مطر 25 ملم. وأخيراً النمط الرابع فهو المناخ الصحراوي وشبه الصحراوي، وهو يتمثل في معظم مساحة البلاد، وهو إقليم يتصف بالفحولة، حيث يرتفع فيه المدى الحراري، ولذلك فإن الحياة النباتية والحيوانية تكاد تنعدم في هذه المناطق، إلا في بعض مناطق الواحات المنتشرة بجنوب النمط السابق من المناخ⁽¹⁾.

إذن من خلال ما سبق رأينا كيف أن تضاريس السطح في ليبيا متنوعة في أشكالها المختلفة، وايضا ظروف المناخ، مما اثر بالتالي على تنوع درجات الحرارة ونسبة الأمطار وتنوع الغطاء النباتي والثروة الحيوانية وتوزيع السكان من مكان لآخر.

2.1. التعريف التاريخي

يعتبر تحديد التعريف التاريخي والاصطلاحي لليبيا من الأسس المهمة، التي يجب توضيحها للبناء عليها فيما سيأتي من فصول قادمة من هذا البحث.

1.2.1. تسمية ليبيا

جاءت كلمة ليبيا من مصطلح "لوبييا" بضم اللام وسكون الواو، وبالباء الموحدة والياء المثناة من أسفل، والنسبة إليها لوبي. وكلمة لوبييا كلمة قديمة تنحدر من الجغرافية القديمة⁽²⁾. حيث وردت ليبيا لأول مرة في نقيشة ترجع إلى الألف الثانية قبل الميلاد في عهد الدولة القديمة في مصر؛ ويبدو أن استعمال هذه التسمية كمدلول جغرافي على سكان ليبيا كان مستمر خلال العصر الفينيقي والروماني، حيث وردت تسمية "أرض اللوبيين" في نقيشة بونية ترجع إلى القرن الأول في عهد

⁽¹⁾ المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، ص 71، 73.

⁽²⁾ الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1977م، ج5، ص25؛ الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي، طرابلس - ليبيا، الطبعة الرابعة 2004م، ص15-17.

البروقنصل الروماني لوكيوس إيلْيوس لاميا (15/ 17م)، وقد عثر عليها في معبد الإله الليبي آمون، الذي أقامه وكرسه أحد الأثرياء الليبيين في موقع المحيحية بقريّة الخضراء في ترهونة، والمقصود بأرض الليبيين هنا ولاية شمال أفريقيا الرومانية التي يشكل إقليم المدن الثلاث (لبدة الكبرى، اوياء، صبراتة)⁽¹⁾ أجزاء منها، والتي تمتد حدودها شرقاً حتى مذبح الأخوين فلايني (Arae Philaenorum) (رأس العالي). وهكذا نرى أن تسمية إقليم أفريقيا الرومانية بأرض اللوبيين، استمرت خلال العصر الفينيقي والروماني⁽²⁾.

ولقد استخدم اليونانيون القدماء كلمة ليبيا ليشيروا بها إلى شمال أفريقيا جنوب البحر المتوسط⁽³⁾، من النيل شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً بما في ذلك الظهير الصحراوي والواحات. هذا الاسم المشتق في الغالب من اسم لقبيلة عاشت فوق أراضي برقة، وهي الجزء الشرقي من ليبيا الحالية، منذ الألف الثانية قبل الميلاد، وهناك دلائل أثرية تشير إلى درجة كبيرة من التجانس للإقليم المذكور فيما يتعلق بالأصل والثقافة، فإكتشافات التنقيب الأثري في كل من الجزائر وطرابلس تعود في العموم إلى الألف الثاني والثالث قبل الميلاد، وأظهرت خصائص مميزة فيما يتعلق لغطاء الرأس، والملابس، والحلي، والطقوس الدينية، وهي كذلك تلاحظ على قطع الآثار الفنية للمصريين القدماء وعبر الزمن تقلص مفهوم هذا الاسم ليصبح مخصوصاً لرقعة من الأرض محددة تقع في الوسط الشمالي من القارة الإفريقية، وهو ما يطلق عليه حالياً ليبيا⁽⁴⁾.

ولقد أيدت بعض المصادر العربية أن اليونانيين هم من أطلقوا مفهوم لوبيا على تلك المساحة الشاسعة الممتدة من النيل شرقاً وحتى المحيط الأطلسي غرباً بما في ذلك الظهير

⁽¹⁾ عبدالحفيظ الميار، الحضارة الفينيقية في ليبيا، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2001، ص12؛ وهكذا نرى أن تسمية إقليم أفريقيا الرومانية بأرض اللوبيين استمرت خلال العصر الفينيقي والروماني وليس كما اعتقد البعض؛ رجب الأثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا، ص12، إن استخدام هذه التسمية خلال هذا العصر اقتصر على الإقليم الشرقي من ليبيا، ومن بين المستوطنات الفينيقية التي أنشأها الفينيقيون في الشمال الأفريقي لبدة الكبرى (Leptis Magna) التي يذكر سالوست (القرن الأول م) أنه أسسها مهاجرون من صيدا كانوا قد أخرجوا من مدينتهم بسبب نزاعات داخلية، بينما يذكر آخرون أنه أنشأها صوريون، أما الشاعر سيبلوس ايتالكلوس فيخبرنا أن مستوطنين من صور أنشؤوا لبدة وصبراتة، بينما أنشأ اوياء مهاجرون فينيقيون من صور بالاشتراك مع بعض الليبيين. ويرى ديفيتا (Divita) أن تأسيس المدن الثلاث (لبدة الكبرى و اوياء وصبراتة) إن لم تكن قرطاج قد قامت به، فلا بد وأنه تم تحت إشرافها وبمساعدها؛ انظر: Sillust, Jug.78.

Divita, A; La Date Di Fondazione di Leptis Di Sabrtha Sulla base Deli Indigine Archaeologica e L, Eparchia Cartaagine d, Africa, Hommages a, M.renard III Col Latomus 103, 1969, P.196 – 202.

1) Hoscher, W; Liber und Egypter, Hambwrg, 1937, p.24, Bate, O; The Easter n Libyans, London, 1914, P.XIX FF.

⁽³⁾ وصف البحر المتوسط في مصادر فترة البحث: بأنه كان يسمى البحر الرومي آنذاك، ويبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف لذلك يسمى بحر الزقاق في تلك المنطقة، ثم يذهب مشرقاً ويفتح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في الشرق عند بلاد الشام، وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند المضيق ثم افريقية ثم برقة إلى الإسكندرية

⁽⁴⁾ المهدي، جغرافية ليبيا البشرية، ص9.

الصحراوي والوحدات؛ فيذكر ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) نقلاً عن أبو الريحان البيروني قوله: "كان اليونانيون يقسمون المعمورة أقساماً ثلاثة، ويعتبرون أرض مصر مجتمعاً لها، فما مال عنها وعن بحر الروم نحو الجنوب فاسمه لوبيا، ويحدها من الغرب بحر أوقيانوس المحيط الأخضر. ومن جهة الشمال بحر مصر، ومن جهة الجنوب بحر الحبش. ومن جهة المشرق خليج القلزم، وهو بحر سوف (أي البردي). وهذا كله يسمى لوبيا"⁽¹⁾.

إلا أن هناك فريق آخر من الباحثين يرون أن هذا التقسيم اليوناني – الذي ذكره البيروني – لا يجد له مبرراً في التاريخ، لأن أول عهد اليونان – وهم الإغريق – ببرقة⁽²⁾ كان في آخر القرن السابع ق.م، وذلك أن جماعة من سكان جزيرة ثيرا – وهي إحدى جزر بحر إيجا – ويقال لهم الثيرانيون نسبة إليها، جاءوا في هذا التاريخ إلى برقة بعد أن منعهم القرطاجيون من الإقامة في شمال إفريقية، وبعد عشر سنوات من وجودهم فيها أسسوا مدينة قورينا. وفي هذا الوقت كان الفينيقيون يملكون الشمال الإفريقي، وكان قد مضى على تأسيس قرطاجنة نحو 140 سنة، فكيف يصح أن يطلق اليونان اسم لوبيا على أملاك القرطاجيين؟ وإذا قلنا إنهم أطلقوه عليها قبل أن يأتوا إلى برقة فهو أشد بطلاناً وأبعد عن الحقيقة. على أن نفوذ اللوبيين لم يتجاوز برقة، وكانوا في نزاع مستمر مع فراعنة مصر، ولما جاء اليونانيون إلى برقة، وبعد أن بنيت قورينا وتوطد ملكهم فيها اضطهدوا اللوبيين وأجلوهم عن لوبيا. وخلف الروم اليونانيين على برقة فكانوا أشد اضطهاداً للوبيين⁽³⁾.

والحقيقة التي يؤيدها أكثر المؤرخين بل كلهم – إذا ما استثنينا ذلك التقسيم الذي ذكره أبو الريحان البيروني – أن الأرض التي تسمى لوبيا هي الأرض الواقعة بين حدود مطروح الغربية وحدود برقة الشرقية. وفي هذه المنطقة كانت عاصمة لوبيا، وفيها كان يسكن اللوبيون، ومنها كانوا يهاجمون فراعنة مصر، ويحاولون الاستيلاء على ضفاف وادي النيل.

وقد عدد المقرئزي في خطه كور مصر، فذكر من كور الجوف الغربي: كورة الإسكندرية، وكورة مريوط. وكورة لوبيا ومراقية. وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة.. ونقل عن القضاعي ما نصه: "الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية. وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض أنطابلس وهي "برقة"، وفيما ذكره المقرئزي رد واضح على أبي الريحان، وتحديد لموقع لوبيا، وأنها من الأراضي المصرية، وتقع شرقي حدود برقة⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الحموي، معجم البلدان، ج5، ص25، 214؛ الطاهر أحمد الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص15، 16.

⁽²⁾ مدينة برقة: أول بلاد المغرب الأدنى، تبعد عن شرق بنغازي 100 كم، افتتحها المسلمون عام 22هـ/643 م، كانت ترتبط بالبحر بميناء ظلميته؛ انظر: الاضطري، إبراهيم بن محمد الفارسي: المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2004م، ص33؛ سعيد علي حامد، تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، الطبعة الأولى 2008 م، ص166، 167.

⁽³⁾ الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص15، 16.

⁽⁴⁾ المقرئزي، تقى الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ الخطط المقرئزية، تحقيق، محمد زينهم – مديحة الشراوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى 1998 م، ج1، ص47، 48؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص16.

واللوبيون كانوا من الجنس الأسمر، وقد انقرضوا من هذه المنطقة، ولم يبق فيها منهم أحد، ولا في غيرها بهذا الاسم. ويسكن الآن في هذه المنطقة جماعات من سلالات العرب الخُص كأولاد عليّ وغيرهم، ولا يربطهم بهذا الجنس إلا الأدمية. ولا يوجد فيما بين الإسكندرية والمحيط الأطلنطي إنسان واحد معروف النسب إلى هذا الجنس. فإطلاق كلمة لوبيا على برقة وطرابلس⁽¹⁾ إطلاق ظلموا به ذلك الشعب العربي، الذي ما ينفك ينتسب إلى العرب. وقد هجر اسم لوبيا منذ عهد اليونان في قورينا، وبعد أن فتحها العرب لم ينطقوا بكلمة أطرابلس أو برقة⁽²⁾.

وذكرت دائرة المعارف الإيطالية أن أول من أخرج اسم ليبيا إلى الاستعمال في العصر الحديث العالم الجغرافي "ف مينوتلي". في كتابه "جغرافيا ليبيا" المطبوع في عام سنة 1903م ليبدل به على الولاية التركية التي تشمل طرابلس وبرقة. ثم اتخذته إيطاليا اسماً رسمياً لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها في 24 من يونية سنة 1929م. ومن ذلك الحين شاع استعماله في جميع أنحاء العالم، وشمل طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها⁽³⁾.

2.2.1. اسم طرابلس ودلالاته التاريخية

ويرجع إطلاق مصطلح إقليم "طرابلس" إلى القرن الثالث الميلادي، حيث أطلق على إقليم المدن الثلاث (لبدة الكبرى، أوبا، صبراته). وخلال فترة الإمبراطورية الرومانية المتأخرة امتدت

¹ مدينة طرابلس: من المدن الليبية أو مدن المغرب الأدنى الساحلية، استمرت طيلة العهد الإسلامي تكون مع إفريقية وحدة إدارية حيناً وتصبح بذاتها وحدة مستقلة حيناً آخر، كما أن الحدود بينها وبين برقة تزحف غرباً وشرقاً، انظر: ابن غلبون الطرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل: تاريخ طرابلس الغرب المسمى "التنكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار"، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة 1349هـ، ص1، 2، بازامة، ليبيا، ص94، 95.

² الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص16، 17.

³ (الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص16، 17.

حدود الإقليم لتشمل جزيرة جربة⁽¹⁾ وقابس⁽²⁾. وكلمة طرابلس هي التي استعملها العرب منذ الفتح الإسلامي⁽³⁾، وجرى عليها العرف الدولي منذ مئات السنين⁽⁴⁾.

وقد ذكرت المصادر العربية اسم طرابلس وأكدت على أن معناها بالإغريقية والرومانية تعني ثلاث مدن، لأن طرا معناه ثلاث وبليطة مدينة، وتشير بعض المصادر حدود ومساحة إقليم طرابلس ببعض الإشارات القليلة، حيث تذكر أن نهاية إقليم طرابلس من ناحية الغرب هو بداية حدود إقليم إفريقية، وبذلك يعتبر نهاية حدود إقليم طرابلس من ناحية الغرب هو نهاية الحدود الليبية المتعارف عليها الآن من تلك الناحية. كما تذكر المصادر أن إقليم طرابلس كان يشمل بالإضافة لمدينة طرابلس نفسها، العديد من المدن والمناطق الأخرى، حيث يذكر البكري أن مدينة زويلة كانت تدخل في نطاق حدود هذا الإقليم، ويحدد مكان تلك المدينة بأنها كانت تقع بين المغرب والقبلة. كما يشير البكري إلى أن إقليم طرابلس يشمل جميع المدن والكور التي كانت تقع على الطريق بين مدينة طرابلس نفسها وبين مدينة ودان⁽⁵⁾، والتي تعد هي نفسها جزء من هذا الإقليم.

كما تذكر المصادر أن هذا الإقليم خاصة المدينة نفسها، به أسواق حافلة، ومساجد عديدة، ورباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون، وأن هذا الإقليم كثير الثمار والخيرات، حيث كان يشتمل على بساتين ضخمة في شرق المدينة، وأن مرسى تلك المدينة مأمون، وبها العديد من الآبار مثل بئر

⁽¹⁾ جزيرة جربة: تقع بالقرب من شواطئ مدينة قابس بالمغرب الأدنى، ويتصل بها من بعض نواحيها جزيرة زيزو، وبينها وبين البر نحو ميل، انظر: الحميري، محمد بن عبدالمعتمد: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية 1984 م، ص158.

⁽²⁾ الحموي، معجم البلدان، ج4، ص25؛

-Hoscher, W;Op-cit, p.24, Bate, O;Op-Cit, P.XIX FF.

*قابس في العصر الإسلامي: كانت مدينة من بلاد إفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل، وبينها وبين طرابلس ثمانية أيام، وبينها وبين البحر نحو ثلاثة أميال، وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور صخر من بناء الأول، ولها حصن حصين وأرباض واسعة، وفيها فنادق وحمامات، ولها وادي يسقى بساتينها وأرضها ومزارعها، وهو يصب في البحر، وأكثر جناتها فيما بينها وبين البحر وهي كثيرة الثمار؛ انظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص450.

⁽³⁾ كان إقليم برقة وطرابلس في العصر الإسلامي جزء لا يتجزأ من بلاد المغرب العربي الإسلامي؛ حيث اعتاد المؤرخون تقسيم بلاد المغرب في العصر الإسلامي إلى ثلاث أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق، وهي المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. أما المغرب الأدنى فكان يضم إقليم إفريقية الشهير، وكان يشمل دولتي ليبيا – موضوع البحث – وتونس الحاليين وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر؛ انظر: الزهري، كتاب الجغرافية، ص 112؛ القلقشندي، ابوالعباس احمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تقديم فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2005م، ج5، ص100؛ ابن أبي دينا، ابو عبدالله محمد بن ابى القاسم الرعيني القيرواني: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس 1286هـ، ص18؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2005م، ص18.

⁽⁴⁾ الحموي، معجم البلدان، ج4، ص25؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص17.

⁽⁵⁾ مدينة ودان: تبعد عن مدينة هل مسيرة يوم، ولها قلعة حصينة وللمدينة ضروب، وهي قسمان أو مدينتان، فيها قبيلتان من العرب سهميون وحضرميون، فتسمى مدينة السهميين دلباك، ومدينة الحضرميين مدينة بوصى، وجامعها واحد، وبين الموضوعين والقبليتين تنازع وتنافس، قد آل ذلك بهم مراراً إلى الحرب والقتال، وعندهم فقهاء وقرأء وشعراء، وأكثر معيشتهم من التمر، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح؛ انظر: البكري، المسالك والممالك، ج2، ص183.

كنود وبئر القبة، وبهذا الإقليم سبخة كبيرة متصلة بالمدينة يرفع منها الملح الكثير. كما كان يجلب من بعض مدنه مثل زويلة الرقيق إلى أفريقية⁽¹⁾.

3.2.1. اسم برقة ودلالاته التاريخية

تذكر المصادر عن برقة أنها صقع كبير يشتمل على مُدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن؛ قال بطليموس: طول مدينة برقة ثلاث وستون درجة و عرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق تحت تسع درجة من السرطان وست وخمسين دقيقة يقابلها مثلها من الجدي، بيت ملكها مثلها من الحمل، عاقبتها مثلها من الميزان، وهي في الإقليم الثالث، وقيل في الرابع؛ وقال صاحب الزيج: طولها ثلاث وأربعون درجة و عرضها ثلاث وثلاثون درجة. وأرض برقة أرض خلوقية بحيث ثياب أهلها أبداً حمرة لذلك، ويحيط بها البربر من كل جانب.

لم تكن برقة معروفة بهذا الاسم عندما فتحها المسلمون⁽²⁾، إذ كان الرومان يطلقون على سائر الإقليم اسم (بنتا بوليس) Pentapolis⁽³⁾، وأطلق المسلمون عليها اسم "أنطابلس"⁽⁴⁾، وهي تحريف للكلمة الرومانية غير أن الأمر لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما أطلق المسلمون عليها اسماً عربياً هو برقة، وبذلك انتهى هذا الاسم بما كان يحمله من مدلول سياسي وهو "اتحاد المدن الخمس"⁽⁵⁾، ناهيك عن كثرة تداول تسمية برقة في بلاد العرب، إذ أطلق على أكثر من مائة موضع شمل أقصى المشرق والمغرب الإسلاميين⁽⁶⁾، ومن الجدير بالذكر أن ابن سعيد المغربي يعد من أوائل من صرحوا بسبب إطلاق العرب اسم برقة على المدينة، إذ يقول: "وكانت تعرف بأنطابلس فسمتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل"⁽⁷⁾، وزاد الأمر وضوحاً وجلاءً عند أبي الفدا حيث ذكر: "... فسمتها العرب لما فتحتها في صدر الإسلام برقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرمل، قال في المشترك: ويرقأ كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان"⁽⁸⁾.

والظاهر أن اسمي برقة وأنطابلس ظلّا يترددان حتى أواخر القرن الأول للهجرة/ السابع الميلادي⁽⁹⁾، حتى انتهى الأمر باندثار وتلاشي ونسيان اسم أنطابلس في أوائل القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي⁽¹⁰⁾، ومن ثم بدأت تظهر ملامح الطابع الإسلامي على السطح، وصبغت المدينة

(1) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص180 - 185؛ الحموي، معجم البلدان، ج4، ص25؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، ص390؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص17.

(2) البلاذري، الامام ابى الحسن احمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق، طه عبدالروؤف وعمرو احمد عطوة، دار ابن خلدون، الاسكندرية، دت، ص247؛ ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالحكم بن أعين، فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، ليدن، 1930م، ص89، 110؛ اليعقوبي، البلدان، ص346؛ الحموي، معجم البلدان، ج3، ص462.

(3) البكري، المسالك والممالك، ص649؛ الغنای، مراجع، دراسة حول مدينة برقة، ليبيا، 1975م، ص381.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص462 - 464.

(5) نفسه والصفحة، وفيها برقة بضم الباء بنواحي اليمامة، وبرقة موضع بالمدينة كان يجمع فيه أموال وصدقات ونفقات الرسول -p-، وبرقة موضع كان فيه يوم من أيام العرب، وقد رواه البعض بفتح الباء؛ انظر: البكري، أبو عبيدة، معجم ما استعجم من اسم البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، مكتبة الخنجي، القاهرة، المجلد الأول، 1996، ص241.

(6) ابن سعيد، بسط الارض، ص81.

(7) أبو الفدا، عماد الدين اسماعيل بن محمد، تقويم البلدان، تحقيق، دى سيلان، 1840م، ص127.

(8) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص89؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص247؛ ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص89، 110؛ اليعقوبي، البلدان، ص346؛ الحموي، معجم البلدان، ج3، ص462.

(9) لعل الباعث على هذا ما أسفرت عنه إجراءات تعريب الدواوين (76هـ/695م)، في عهد الخليفة عبدالمك بن مروان (65 - 86هـ) - (684 - 705م)، إذ سار الولاة على نهج الخلفاء في تعريب دواوين ولاياتهم، حتى شمل هذا النظام سائر البلاد الإسلامية، ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، المقدمة، دار القلم، بيروت، 1986، ص244؛ زيدان، جورجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة

بالأسس الاجتماعية والثقافة الإسلامية العربية، وهو ما توضحه دلالة تسمية برقة .
إذاً فقد كان مصطلح ليبيا معروفاً منذ التاريخ القديم، وقد عرفته المصادر الإسلامية التي تناولت
تاريخ المنطقة أيضاً، إلا أن مصطلح إقليم طرابلس وبرقة، هما المصطلحان اللذان كان لهما سبق
البروز والاستمرار في الاستعمال للإشارة للمناطق الليبية خاصة الشمالية منها.

3.1. الأوضاع السياسية والديمقراطية التي مرت بها ليبيا

تأثرت المناطق الليبية المختلفة بشكل مباشر بجمل الأحداث التي مرت بها بلاد المغرب
الإسلامي سواء كانت أحداث سياسية أو تاريخية أو تغيرات سكانية خلال فترة البحث؛ وذلك
باعتبارها البوابة الشرقية لبلاد المغرب التي ما طرق الإسلام وحضارته بابها إلا عن طريقها، لذلك
يتحتم علينا دراسة الأوضاع السياسية والديمقراطية التي مرت بها منطقة ليبيا خلال زمن الدراسة .

1.3.1. السياسة الفاطمية وتناجها

لعل التغيير الذي حدث بدخول الفاطميين وتأسيس دولتهم في القيروان⁽¹⁾، قد أدى بسكان
المدينتين الكبيرتين طرابلس وبرقة إلى الثورة. فقد بدأ الاضطراب أولاً في طرابلس سنة (298هـ/
911م) عندما انتفضت هوارة بقيادة أبي هارون الهواري تساندها بعض الجماعات من زناته⁽²⁾

وتعليق: حسين مؤنس، دار الهلال، الإسكندرية، 1968م، ج1، ص 91؛ فرج محمد الهوني، النظم الإدارية والمالية في الدولة
الإسلامية، بنغازي، 1978، ص ص 205، 206.

⁽¹⁾ مدينة القيروان: في بساط من الأمر مديد، في الجوف منها بحر تونس، وفي الشرق بحر سوسة والمهدية، وفي القبلة بحر صفاقس
وقابس، وأقربها منها البحر الشرقي، بينها وبينه مسيرة يوم(وبينها وبين الجبل مسيرة يوم)، وبينها وبين سواد الزيتون المعروف
بالساحل مسيرة يوم، وشرقيها سبخة(ملح عظيم طيب نظيف)، وسائر جوانبها أرضون طيبة كريمة، وأحسنها الجانب الغربي وهو
المعروف بفحص الدارة يصاب فيه في السنة الخصبة للحبة مائة، وهواء هذا الجانب طيب صحيح. وكان زياد بن خلفون المتطيب
إذا خرج من القيروان يريد مدينة الرقادة وحاذى باب أصرم رفع العمامة عن رأسه يباشر الهواء برأسه كالمندأوي به لصحته.
وللقيروان من القديم سبعة محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها. وكان للقيروان في القديم سور طوب سعته عشر اذرع بناه محمد
بن الأشعث بن عقبة الخزاعي سنة أربع وأربعين مائة، وهو أول قائد دخل إفريقية للمسودة، وكان في قلبه باب سوى الأربعة وهو
بين القبلة والمغرب، وبين القبلة والمشرق باب لأبي الربيع، وفي شرقيه باب عبد الله وباب نافع، وفي جوفيه باب تونس، وفي غربيه
باب أصرم وباب سلم، فهدم هذا السور زيادة اله بن إبراهيم المعروف بالكبير سنة تسع ومائتين لما قام عليه أهل القيروان مع
المنصور المعروف بالطنبدي؛ انظر: البكري، المسالك والممالك، ج2، ص198.

⁽²⁾ زناتة: المواقع التي تسكنها زناتة، يقول ابن خلدون، تنتشر من طرابلس حتى جبال الأوراس، وتستمر بعد ذلك بجبال الزاب، حتى
وادي ملوية(الحد الغربي للجزائر). في زمن الفتح الإسلامي الأول كانت تنقسم زناتة إلى ثلاث مجموعات: جراوة ومغراوة، وبني
يفرن والكاهنة الشهيرة التي انتخبت ملكة، اثناء الفتح الإسلامي الأول، كانت تنتمي بالتأكيد إلى جراوة، وكذلك تنتمي أسرة ففول بن
خزرون التي حكمت طرابلس في عصر بني زيري إلى مغراوة، ولم يبق من بني يفرن إلا الاسم الذي يحمله مركز القضاء وتسكنه
نفوسة الآن، هذا المركز كان في زمن اقامة أغلبية نفوسة على الشاطئ في مدينة صبراته، مقرأ لقبيلة زناتة بالتأكيد. زناتة من بين
العائلات البربرية الرئيسية التي استطاعت طوال مدة وجودها أن تحافظ على اسمها عالياً ومهاباً. أثناء الفتح الإسلامي تحت قيادة
ملكتهم الكاهنة القديرة كانوا من بين الأوائل في تنظيم المقاومة البربرية ضد العرب، وبعثت الإسلام عرف الزناتيون كيف يقدمون
خدمات ملحوظة للمسلمين، فطارق بن زياد الفاتح الأول لاسبانيا في عهد الامويين كان كما يقول الادريسي من زناته اعتنق الإسلام
منذ قليل، وبما أن المذهب الاباضي يسمح لغير القرشيين بالاختيار للخلافة، كانت زناته ترمي للوصول إلى السلطة، واحتضنت عند
مبدأ القرن الثاني للهجرة، الفرقة الاباضية، كما فعلت مثل ذلك هوارة ونفوسه ولمطه. وفي نفس الوقت بدأت مع العائلات الثلاث

ولمايه⁽¹⁾، وضربت حصاراً على مدينة طرابلس، لكن عبيد الله المهدي⁽²⁾ واجه تلك الانتفاضة بحملة قادها أبو زكي تمام بن معارك الاجاني، الذي قتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث برؤوس القتلى إلى رقادة. ولكن يبدو أن سكان مدينة طرابلس لم يكونوا راضين عن طريقة الحكم الفاطمي فهبوا بثورة عام (300هـ-912/913م)، حيث قتلوا الحامية الكتامية واختاروا من بينهم قائداً هو محمد بن إسحق المعروف بابن القرشي، إلا أن الخليفة عبيد الله المهدي وجه ابنه أبا القاسم⁽³⁾ في حملة برية يسنده أسطول بحري يتكون من خمس عشر سفينة حربية، ومع ذلك فإن أمد هذه الثورة قد استمر شهوراً اظهر أهل طرابلس خلالها ضروياً من البطولة والشجاعة في البر والبحر، فقد واجهوا الأسطول الفاطمي بما يملكون من مراكب نجحت في إحراقه والقضاء على من فيه من المقاتلة، ومن ثم سجلوا مفاخرهم كمقاتلين بحريين مهرة. أما أبا القاسم بن الخليفة فإنه اتخذ طريقاً باتجاه منازل قبائل هوارة فأوقع بها، ثم نزل على طرابلس وشدد عليها الحصار. حتى نفذت قوت أهلها، وأكل الناس الميتة، وأعطيت الأمان، فقبض أبو القاسم على زعماء الثورة، وعلى رأسهم محمد بن إسحق، وصحبهم معه إلى القيروان حيث شهر بهم. أما أهل طرابلس فإنه عاقبهم بدفع نفقات الحملة، وترك أمر تعذيبهم ومصادرة أموال الأغنياء منهم، إلى قائد جيشه خليل بن إسحق وهو من مواليد طرابلس ومن أبناء جندها⁽⁴⁾.

الكبيرة المار ذكرها في المقاومة العنيفة ضد العرب بقيادة أبو الخطاب وعبد الرحمن بن رستم. تلك المقاومة لم تكن لها نهاية إلا عندما ترسخ وجود العرب نهائياً بحضور الهلاليين؛ انظر: إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ترجمة حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس - الجماهيرية الليبية 1997م، ص26.

⁽¹⁾ لماية: وهي من قبائل البربر البتر، وكان جمهورهم بالمغرب الأوسط، ولما انتشر مذهب الإباضية في إفريقية أخذوا به. ولماية البلد المعروفة في طرابلس بين جنزور والزواية مسماة باسمهم، لأن جماعة منهم كانت تسكنها؛ انظر، الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص27.

⁽²⁾ عبيد الله المهدي: هو أبو محمد، وقيل أبو عبد الرحمن عبيد الله، وباقي نسبه قد تقدم عند الاختلاف فيه. ولد بالعراق في سنة 266هـ/879م، ودُعي له على منابر رقادة والقيروان في ربيع الأول عام 297هـ/909م. وكان ظهوره بسجلماسه في ذي الحجة سنة 296هـ/908م. واستولى على المغرب، وبنى المهديّة، وأخرج الأغلبية في سنة 302هـ/914م. كان بناؤه المهديّة في سنة 303هـ/915م، وكان أول شروعه في بنائها في شهر ذي القعدة من هذه السنة، وبنى سور تونس وأحكم عمارتها، وجدد بها مواضع. وتوفي بالمهديّة في ربيع الأول 322هـ/933م، عن عمر ناهز 68 سنة، وكانت مدة حكمه في المغرب 25 سنة؛ انظر: الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر (الدرّة المضية في أخبار الدولة الفاطمية)، المعهد الألماني للأثار، القاهرة 1961م، ص108، 109؛ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص53، 54.

⁽³⁾ أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي: كان اسمه بسليمة عبد الرحمن، فلما صار بالمغرب مع أبيه تسمى محمداً، ولد بسليمة سنة 277هـ، بويح له في النصف من شهر ربيع الأول عام 322هـ/933م، وتوفي بالمهديّة آخر شهر شوال عام 334هـ/945م، ورحل عن عمر ناهز 58 سنة، وكانت خلافته بالمغرب اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر، واثني عشر يوماً؛ انظر: الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، ص110؛ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص54، 55.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، ابوالعباس احمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س. كولان- ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة 1983م، ج1، ص163-169؛ عبيد الله بن محمد بن احمد التجاني، رحلة التجاني، دار الفرجاني، طرابلس، ص241؛ علي محمد الصلابي، الدولة العبيدية في ليبيا، دار البيارق، عمان - الأردن، الطبعة الأولى 1998م، ص66 - 68.

وفي حدود هذه الفترة التي ثارت فيها طرابلس ، كانت ثورة أهل برقة ضد حكم العباسيين الذين قضوا على حكم الطولونيين في مصر، ويُفهم من الروايات أن الفاطميين كان لهم دور في تدبير الاضطرابات عندما دعموا الأعراب في المنطقة فخرجوا يهاجمون حدود مصر، وذلك تمهيداً لثورة المدينة نفسها، والتي انتهت بانتقام العباسيين من أهلها معتبرين ذلك خيانة لهم، باعتبار أن برقة تُغر لحماية مصر من الخطر الشيعي المتربص بهم. وأخذت الثورة دون رحمة أو شفقة⁽¹⁾.

ولقد شجعت ثورة برقة عبيد الله المهدي للإسراع في محاولة غزو مصر، ففي سنة (301هـ/ 913م) أرسل قائده حباسة بن يوسف على رأس حملة إلى المشرق مروراً بمدينة سرت⁽²⁾، التي دخلها بالأمان دون مقاومة، بعد أن فر من كان بها من جند العباسيين، وبعث بخبر ذلك إلى القيروان، حيث أعلن من على منابر إفريقية، ثم تابع حباسة تقدمه إلى أجدابيا⁽³⁾، ومنها إلى برقة التي تشير المصادر إلى أنها كانت ضحية انتقام الفاطميين، بعد أن كانت قبل فترة وجيزة فريسة انتقام العباسيين، فقتل من أهلها عدداً كبيراً، ثم أغرم الأحياء مغارم ثقيلة بلغ بعضها مائة ألف مثقال في يوم واحد⁽⁴⁾.

وعند عودة أبي القاسم بن عبيد الله المهدي سنة (302هـ/ 914م) مر ببرقة فأظهر أهلها الترحيب به وتهنئته بالسلامة، ورد ولي العهد الفاطمي أن رجوعه كان سبب الانتقام من حباسه بن يوسف على ما فعله بهم، وشجعهم على إصلاح ما هُدم من مدينتهم، وترك معهم حامية من كتامة وعاد إلى أفريقية، ولكن ما أن اقترب الجيش العباسي - الذي كان يتعقبه إلى برقة - حتى قامت الأهالي إلى الحامية الفاطمية فقتلت أفرادها، وأعلنت الثورة. واضطر عبيد الله المهدي أن يسير الجيوش إلى برقة من جديد بقيادة أبي مدين بن فروخ اللهيصي الذي حاصر المدينة مدة عام ونصف أشد حصار، ولم تستسلم المدينة إلا بعد أن هلك أغلب أهلها، وذلك سنة (304هـ/ 916 - 917م). وهنا تمت معاقبة أهل برقة بمصادرة أموالهم وأرسل زعماء الثورة إلى المهدي الذي أمر بقتلهم، واحتفظ الفاطميون بأبي مدين بن فروخ اللهيصي والياً على برقة حتى وفاته سنة (306هـ/ 919م). وهي السنة التي دخل فيها الجيش الفاطمي إلى مصر للمرة الثانية عبر برقة. وقد جعلت تلك الحملات العسكرية العنيفة من قبل الفاطميين، المدن الليبية - كلها تقريباً - تابعة لهم فعينوا لها العمال والجباة والقضاة من الإسماعيلية، وهذا لا يعني أن الأمر قد استتب للفاطميين في كل المدن الليبية، ولكنها ظلت خاضعة لهم مؤقتاً⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ ابن عذاري: البيان المغرب، ج 1، ص 170.

⁽²⁾ مدينة سرت: من مدن المغرب الأدنى، تقع بين مدينتي بنغازي وطرابلس، اشتهرت قديماً بازدهار الأنشطة التجارية والصناعية بها، وانها محاطة بالبساتين العديدة، انظر: البكري، المسالك والممالك، ص 6؛ سعيد علي حامد، تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا، ص 156-160.

⁽³⁾ تقع مدينة أجدابيا على الطريق الساحلي على بعد نحو 170 كم جنوب مدينة بنغازي، افتتحها القائد عمرو بن العاص صلحاً عام 22هـ/ 643م، انظر: البكري، المسالك والممالك، ص 5، سعيد علي حامد، تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا، ص 163.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج-1، ص 170، 171؛ علي محمد الصلابي، الدولة العبيدية في ليبيا، ص 69، 70.

⁽⁵⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج-1، ص 173-175؛ علي محمد الصلابي، الدولة العبيدية في ليبيا، ص 71.

أما البوادي فان الفاطميين فقد اكتفوا منها بالركون إلى الدعة والسكينة، ودفع ما هو مقرر عليها من الأموال، فإنها عمدت إلى إثارة القلاقل ومهاجمة المدن القريبة منها كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ولعلنا نجد ما يعبر عن ذلك فيما قاله المعز لدين الله الفاطمي (1) لبلكين بن زيري (2) - قبل رحيله إلى مصر - ألا ترفع الجباية عن أهل البادية. ففي سنة (310هـ/922 - 923م) ثارت قبائل نفوسة من منطقتها الجباية المنيعة فاعترضتها قوات عبيد الله المهدي بقيادة علي بن سليمان، إلا أن أهل نفوسة بقيادة رجل يدعى (أبو بطة) الذي فاجأ القوات الفاطمية وألحق بها هزيمة ثقيلة، وأدى ذلك إلى قيام المهدي بإرسال المدد إلى قائد الحملة علي بن سليمان الذي ضرب الحصار على أهل الجبل، ولكن دون أن يحقق نتيجة حاسمة.

وتحت هذه الظروف اضطرب أمر برقة عام (316 هـ/923م)، فأرسل إليهم عبيد الله المهدي ابنه القاسم الذي ضرب عليهم الحصار، وهدم سور حصنهم المعروف باغزر، إلا أن المتحصنين فيه أحرقوا أمتعتهم وعقروا دوابهم ومواشيهم ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت (3).

وانطلاقاً من مبدأ السياسة الفاطمية التي تقوم على فرض التشيع بين السكان، ومحاولة القضاء على كل معارضة لذلك، فإن الثورة التي أعلنها أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الزناتي المعروف بصاحب الحمار (4)، الذي كان لاجئاً في مدينة طرابلس، وذلك عند ابتداء أمره، وكان قد خرج من (تقيوس) في بلاد الجريد (5)، حيث بدأ دعوته معلماً للصبيان، وكانت سبباً في مقتل عامل

(1) المعز لدين الله الفاطمي: هو أبو تميم معذ بن إسماعيل المنصور بالله محمد القائم بأمر الله ابن المهدي، ولد بالمغرب بالمهديية يوم الاثنين الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة 319هـ، وبيع له في شوال سنة 341هـ؛ انظر: الدوادري، كرز الدرر وجامع الغرر، ص119.

(2) كان الخلفاء الفاطميين بنوون الاحتفاظ بمنطقة "افريقية" تابعة لهم فقاموا بتولية المعز بلكين بن زيري الصنهاجي عليها. ثم انقسمت هذه الأسرة الحاكمة إلى فرعين، فرع بني حماد في الجزائر، وفرع المنصور بن زيري في افريقية، واتجه الفرعان خطوة خطوة إلى الاستقلال، فما جاء عام 435هـ/1043م حتى اجتاحت "افريقية" ثورة ضد المذهب الشيعي، وفي عام 443هـ/1051م أبطلت الخطبة للفاطميين وأقيمت الخطبة لبني العباس. كما أمر المعز بن باديس بسك عملات جديدة لا تحمل أسماء الفاطميين، ورد الفاطميين على ذلك بإرسال قبائل بني هلال الرعوية، انظر، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص273، 274، 277، ابن الأبار، محمد بن عبدالله بن ابي بكر، الخلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية 1985م، ج2، ص21، المقرئ، تقي الدين احمد بن علي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمي محمد احمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية 1996 م، ج2، ص99، 214 - 217، 186، كولين ماكيفيدي، أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002م، ص85.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص193.

(4) هو مخلد بن كيداد اليفرنى بن سعد الله، بن مغيث بن كرماني بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويفرن هذا أخو مغراو الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة، وأمه أم ولد واسمها سيكة، وهي من بلاد السودان. وعاش أبو يزيد فقيراً وطلب المذهب الخارجي فتنلمذ على النكارية، وكان في أول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم، وقضى معظم وقته في التعليم وظهر في بداية أمره بمظهر الزهاد، فكان يركب حماراً ينتقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار؛ انظر: ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ص54 - 56.

(5) بلاد الجريد: هي آخر بلاد إفريقية على طرف الصحراء. وقد سُميت بلاد الجريد بهذا الاسم لكثرة النخيل بها؛ وهي مدن كثيرة وأقطار واسعة وعمائر متصلة، كثيرة الخصب والبساتين؛ انظر: مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار (وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب)، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985م، ص150.

الفاطميين في المنطقة بالتحريض ضده، وخشية على نفسه قرر الذهاب إلى الحج، وما أن وصل طرابلس حتى تعقبته عيون عبيد الله المهدي بحثاً عنه، فرأى أبو يزيد ألا يكمل مشواره نحو الحج، وعاد إلى تقيوس مستسجراً حيث أخذ عمال المهدي في البحث عنه⁽¹⁾. ويلاحظ كثير من المؤرخين أنه لم يكن للبلاد الليبية ذكر في الأحداث السياسية التي صاحبت حركة أبي يزيد على الخلافة الفاطمية خلال عهد الخليفة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن المهدي (322 - 334 هـ / 934 - 946 م)، وكذلك خلال عهد ابنه المنصور بالله (334 - 341 هـ / 946 - 953 م)⁽²⁾، أي أثناء الفترة التي شغلها أحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، بالرغم من أن صدى الثورة كان يتردد فيها وبخاصة جهة الجنوب التونسي المتاخم لها. ولكن لما كانت الحرب طويلة نشرت الدمار والخراب في إفريقية، فإن ليبيا وبخاصة مدينة طرابلس كانت ملجأً للنازحين، وخاصة من أهل المهديّة⁽³⁾ والقيروان وغيرهما من المدن التونسية، ففي سنة (333 هـ / 944 - 945 م)، والتي اشتدت فيها الثورة على الفاطميين وسكان المدن التونسية بصفة عامة، فإن أعداداً منهم استقرت في طرابلس؛ بينما استمرت جماعات أخرى في مسيرها وتوزعت على المدن الليبية حتى وصل بعضها إلى مصر.

وظلت طرابلس آمنة تقبل عمال الشيعة وقضاتهم، وجبااتهم فلا تخبرنا النصوص عن اضطراب المنطقة إلا سنة (322 هـ / 934 م). وهي السنة التي توفي فيها الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، وولاية ابنه القاسم، ووجدت القبائل المحيطة بمدينة طرابلس في هذا الحدث فرصتها للتخلص من سلطان الفاطميين، فاختاروا رجلاً من العرب يدعى (ابن طالوت القرشي)، الذي ادعى أنه علوي وأنه ابن المهدي، فاجتمعت حوله القبائل وصدقته وبايعته، وسار الداعي الجديد بأنصاره الكثيرين نحو طرابلس، ولكن نجحت حاميتها الفاطمية بمساعدة أهل طرابلس في رد المهاجمين الذين زعزعتهم الهزيمة، وأضعفت تمسكهم بالداعي، فثاروا عليه وقتلوه، وتقربوا برأسه إلى الخليفة الجديد القائم بأمر الله⁽⁴⁾.

ولقد حرص الفاطميون على أن يؤسسوا لأنفسهم في طرابلس والمدن الليبية الأخرى مثل سرت وإجدابيا وبرقة كياناً فاعتمدوا على عناصر من أكابر الدعاة من أمثال أبي العباس المحظوم أخي الداعية أبي عبد الله الشيعي، وأبي جعفر الخزري، إلا أن بعض المدن الليبية كطرابلس كانت

⁽¹⁾ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص 54-56؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 216 - 217.

⁽²⁾ المنصور الفاطمي: هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد القائم بالله بن عبيد الله المهدي بالله، ولد بالمغرب في الأول من ذي القعدة سنة 301 هـ / 913 م، وقد بويع له بالخلافة في شوال سنة 334 هـ / 945 م، وتوفي آخر شوال سنة 341 هـ / 952 م، مات وقد ناهز عمره 42 سنة تقريباً، وكانت خلافته ثمانين سنين، وقيل سبع سنين وعشرة أيام؛ انظر: الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، ص 116.

⁽³⁾ مدينة المهديّة: من مدن المغرب الأدنى الساحلية، أنشئها عبيد الله الشيعي، تبعد عن القيروان يومين، وكانت من أمنع الحصون في بلاد المغرب، انظر: القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 2005 م، ص 107، فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب (296 - 365 هـ / 909 - 975 م)، ترجمة، حمادي الساطي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1994 م، 566، 567.

Stillman , Norman A : " The Jews of Arab Lands " A history and source Book " , p42 .

⁽⁴⁾ ابن الاثير ، عز الدين ابوالحسن بن ابي الكرم ، الكامل في التاريخ ، ج6 ، دار صادر ، بيروت ، 1965 ، ص 149.

تبدى الضيق والتبرم من نظام الحكم الفاطمي الذي يعتمد المذهب الشيعي ويحارب ما عداه من المذاهب⁽¹⁾.

ومنذ قضاء الفاطميين على ثورة أبي زيد (336هـ/ 947م) أيام الخليفة المنصور بالله إلى ولاية المعز لدين الله (341 هـ / 953م)، وحتى انتقال المعز إلى مصر سنة (361هـ / 972م)، لا يوجد ذكر لأحداث مهمة في ليبيا، ولعل ذلك يرجع إلى أن الليبيين وقفوا موقف الحياد من هذه الثورة، ولم يستغلوا الموقف الحرج الذي كان عليه الفاطميون، ولذا عرف الليبيون حياة مطمئنة كما عرفوا نوعاً من الرخاء – ربما على حساب البلاد التونسية التي قاست الأهوال جراء تلك الثورة – ففي سنة (345هـ/ 955م). عمل والي مدينة طرابلس أبو الفتح زيان الصقلي بتجديد سور المدينة. التي كبرت وزاد اتساعها بسبب كثرة من هاجروا إليها من القيروان والمهدية، كما أثر هؤلاء المهاجرون في نشاط مدينة طرابلس الاقتصادي، وبخاصة تلك الموارد التي كانوا يحصلون عليها بفضل الأسطول البحري الذي كان يضم عدداً من السفن الضخمة، وبفضل البحارة الطرابلسيين المهرة.

وفي أواخر عهد المعز لدين الله بإفريقية أصبحت طرابلس مركزاً لإمداد صقلية⁽²⁾، حيث عين المعز نصير الخازن (أمين الأموال والسلاح) الذي كان يستخلفه المعز بالمهدية والياً لها، فكانت المراكب تأتيه مع أصحاب صقلية من بني الحسن الكلبيين بأموال الجزيرة وغنائم الروم هناك. فينفق منها على صيانة الأسطول ويدفع مرتبات رجاله، ويرسل للخليفة بياناً بذلك، وربما تبقى لديه بعض الأموال، ويرى أن الجبايات التي كانت تصل طرابلس كبيرة جداً، حتى بعد رحيل جوهر الصقلي إلى مصر، وقد أعرب الخليفة المعز عن أمله في أن يعوض مال طرابلس بعض ما أنفقه جوهر خلال الحملة التي بلغت 24 مليون ديناراً⁽³⁾.

وإذا حاولنا أن نلقي بعض الضوء على بعض المدن الليبية الأخرى، فإن مدينة إجدابيا قد عرفت خلال فترة الفاطميين بعضاً من الرخاء، ففي عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله (322 – 332هـ / 934 – 943م) أنشئ بها جامع حسن البناء، له صومعة مئنة بديعة العمل. وكذلك تم الاهتمام بقصر الغمارة وهو مركز الحامية الكتامية ونزل به الخليفة المعز لدين الله عند مروره

⁽¹⁾ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج 6 ، ص 306.

⁽²⁾ صقلية: جزيرة ضخمة في البحر المتوسط جنوب إيطاليا، وبعد مرور عدة قرون على افتتاح المسلمون لها تغلب عليها النصارى عام 453 هـ/ 1060م؛ حكم صقلية في تلك الفترة الكلبيين ومن بعدهم النورمان، وقد عرفت صقلية تحت حكم الكلبيين (337 – 440 هـ / 948 – 1048م) ازدهاراً كبيراً، وبدأ هذا الازدهار في التلاشي تدريجياً، وأدى ذلك إلى نشوب حروب داخلية طويلة تدخل فيها البيزنطيون من جهة والزيرويون من جهة أخرى فانقرضت دولة الكلبيين، وبانقراضها حاول ابن التلمة أن يصبح أميراً علي الجزيرة ودعي النورمان إلى فتحها. أما النورمان فقد جاءوا من شبه جزيرة إسكندناوه ثم زحف قسم منهم إلى جنوب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي، واستقروا بصقلية وجنوب إيطاليا وكونوا مملكة عرفت باسم (مملكة الصقليتين)، انظر الحميري، الروض المعطار، ص 366، 367؛ العزيزي الجودري ، سيرة الأستاذ جودر، ص 88، 87؛ أرشيبالد.ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 – 1100 م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. د.ت، ص 373 – 375، محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982م، ص 223، عبد المالك بكاي، التجارة في عهد بني زيري بإفريقية 362 - 543هـ/ 972-1148م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الحاج لخضر باتنة ، الجزائر 2005-2006م ، ص 82.

⁽³⁾ العزيزي الجودري ، سيرة الأستاذ جودر ، ص 119، 118.

بإجدابيا مثلها في ذلك مثل المدن الليبية الكبرى، وهو ما يبدو طبيعياً إذ إن المعز لدين الله عند رحيله إلى مصر (361هـ / 972م)، أقام الطرق بين تونس⁽¹⁾ ومصر مروراً بالمدن الليبية الساحلية - فقد حفر الآبار وأنشأ النُّزل على طول الطريق وبنى له في كل منزلة قصرأ⁽²⁾.

أما مدينة برقة فقد عرفت بدورها ازدهاراً اقتصادياً سمح لوالها أفلح بن الناشب أن يظهر كثيراً من البذل والعطاء، فعندما سأله جؤذر الصقلي مولى المعز أن يهديه عشرة بغير، بعث إليه بعشرين بغيراً، وعندما أمره المعز بأن يترجل للقائد جوهر - أثناء عبوره لمصر - وأن يقبل يده عند لقائه، حاول أن يعوض ذلك ببذل مائة ألف دينار على أن يُعفى من هذا الواجب⁽³⁾.

وقد شهدت برقة أيضاً -- أو آخر العهد الفاطمي -- وجود طبقة من الميسورين وأصحاب المزاج الرقيق ومحبي مجالس الأُنس والشراب .

أما موانئ برقة فإن أهميتها بالنسبة للفاطميين لا تقل أهمية عن طرابلس ، وخاصة من الناحية الاستراتيجية العسكرية لوقوعها على الطريق البحري إلى مصر ، ولإمكان استخدامها لمساعدة مسلمي جزيرة قريطش (كريت)*، فعندما عجزت الخلافة العباسية ومصر عن مساعدة مسلمي الجزيرة وحمائهم بعثوا إلى الخليفة المعز يطلبون مساعدته وراى المعز أن يستثمر هذا الظرف إلى أقصى حد، فيتخذ من تدخله في مساعدة أهل جزيرة كريت للتدخل في شئون مصر، ودبر خطة للعمل المشترك بينه وبين الأخشيديين، وأرسل ذلك في خطاب رسمي نقله أبو حنيفة النعمان بن محمد الإسماعيلي عبر كتابه المجالس والمسائرات. فحواه أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله يحث أبا الحسن علي الأخشيد على الجهاد وإمداد أهل كريت بالمراكب، وأكد له تدخل الأسطول الفاطمي والمصري وأعطاه على ذلك الموائيق والعهود، وأن يرسل أسطوله إلى مرسى طنبنة من أرض برقة القريبة من كريت، وحدد المعز موعد التقاء الأسطولين المصري والفاطمي في مرسى برقة الشرقي في أول ربيع الثاني من سنة (350هـ-)، وختم المعز خطابه هذا بقوله أنه سيرسل أسطوله لمساعدة أهل كريت سواء وافق الأخشيدي أم لم يوافق.

وبطبيعة الحال فإن كل هذا بين مدى أهمية المدن الليبية - الساحلية منها على وجه الخصوص - وما تمتعت به من مكانة مرموقة في السنوات الأخيرة - على الأقل - من عهد الفاطميين، وإن كان ذلك يبدو طبيعياً بالنظر إلى توجه الفاطميين وجهة مشرقية لاسيما في عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله⁽⁴⁾.

⁽²⁾ مدينة تونس (Tunez): مدينة عظيمة بينها وبين القيروان مسيرة ثلاث أيام ؛ وبينها وبين البحر نحو 4 أيام؛ وبينها وبين قرطاجنة نحو عشرة أميال ومرسهما واحد يسمى رانس. ومدينة تونس مدينة قديمة البناء لها سور عظيم ويدور بها حفير، وبها جامع متقن البناء مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحباب، هو ودار الصناعة؛ انظر: مجهول ، الاستبصار، ص 120.

⁽²⁾ المقریزی ، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ص 138.

⁽³⁾ ابن خلكان ،ابوالعباس شمس الدين احمد بن محمد: وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج1،تحقيق: احسان عباس ،دار الثقافة ،بيروت، 1970، ص 327.

* جزيرة كريت: (أقريطش) من جزائر البحر المتوسط، لم يملكها المسلمون قط. وهي كثيرة الخصب، بينها وبين بلاد الشام ستون ميلاً، وبينها وبين جزيرة صقلية تسعمائة ميل، انظر: الزهري، كتاب الجغرافية ، ص 131، الحميري:الروض المعطار، ص 51.

⁽⁴⁾ ابوحنيفة النعمان بن محمد المغربي ، المجالس والمسائرات ، ص 445 ، 446.

وعندما فتح جوهر الصقلي مصر وتهيأ المعز لدين الله بالرحيل إليها، وحمل معه كل ما يمكن حمله وبخاصة ما خف وزنه وغلا ثمنه، وتنقل في مناطق استسلمت له ولم تعد قادرة على إظهار شعور العداوة أو الثورة ضده. ففي طرابلس استقبل الخليفة المعز لدين الله ورحب به أهلها فأقام بها أياماً، يقول ابن دينار في ذلك: وصل المعز من قابس يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول من السنة المذكورة (361هـ/971م) ودخل طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من الشهر، ورحل عنها يوم السبت لثلاث عشر بقين من ربيع الثاني، فوصل إلى سرت في الرابع من جمادى الأولى، ثم رحل عنها ونزل بقصره الذي بني له بإجدابيا ورحل من إجدابيا فنزل بقصره المعروف بالمعزية في برقة.

وكان المعز لدين الله يستعد لهذه الرحلة منذ أن غادر جوهر الصقلي إفريقية إلى مصر، إذ أمر أن تُحفر الآبار في الطريق إلى مصر، لكي يُسقى جيش جوهر الصقلي بالماء، وأمر كذلك ببناء عدد من القصور تصلح لإقامته في عدد من المدن للراحة من عناء الرحلة، وكان الناس يحيطون بموكبه الحافل وآخرون احتشدوا على طرقات المدن للسير في ركابه.

كان اهتمام الفاطميين بطرابلس أن ولوا عليها عدداً من مشاهير القضاة، ومنهم القاضي النعمان ابن محمد صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة الإسماعيلية والتاريخ لأحداثها، وقد كانت له مكانة متميزة في البلاط الفاطمي، كما كان من أهل المشورة والرأي في الشؤون الدينية والدينية.

ولعل من ابرز الشخصيات التي طالعنا بها المصادر في مدينة طرابلس خلال الحكم الفاطمي هي شخصية أبي العباس خليل بن إسحاق بن ورد، وهو من مواليد مدينة طرابلس ولي مصر وإفريقية كما تولى أمور صقلية. اشتهر عنه كثرة سفكه للدماء، وبخاصة عند إرساله لإخماد ثورة أهل صقلية، كما قام بتعذيب أهل طرابلس لاستخراج المال منهم، ويمكن القول أنه كان رجل المهمات الصعبة عند الفاطميين، فقد شارك في محاولة إخماد ثورة أبي يزيد بن كيداد، لكن أبا يزيد قبض عليه في القيروان وقتله وصلبه⁽¹⁾.

2.3.1. هجرة بني هلال وبني سليم إلى شمال أفريقيا

تأثرت ليبيا بالعلاقات الزيرية الفاطمية⁽²⁾، إذ منذ تولى المعز بن باديس (406 هـ/1016م) والعلاقات مع الفاطميين تسير إلى الأسوأ، واشتد ذلك مع القطعية المشهورة التي أعلنها المعز بن

⁽¹⁾ ابن ابى دينار، المونس في أخبار إفريقية وتونس، 1993، ص65؛ خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والاجانب، ص49.

⁽²⁾ عندما ارتحل المعز لدين الله الفاطمي عن إفريقية مروراً بالمدن الساحلية الليبية - طرابلس - سرت - إجدابيا - برقة - ترك على ولاية إفريقية يوسف بن بلكين بن زيري دون أن يعطيه حق الاستبداد بالبلاد، إذ جعل إلى جانبه إداريين يتبعون المعز لدين الله مباشرة في مصر، فعين على ولاية طرابلس عبد الله بن يخلف الكتامي، كما عين زيادة الله بن القديم عاملاً على جباية الأموال وعاملين آخرين على الخراج، هما عبد الجبار الخراساني، وحسين بن خلف الموصدي، وهؤلاء جميعاً كانوا يتبعون الخليفة المعز لدين الله مباشرة في مصر. لكن يوسف بن بلكين تمكن من إقناع الخليفة الجديد العزيز بالله (365 - 386 هـ) فولاه إلى جانب إفريقية كلاً من طرابلس وسرت وإجدابيا، وما يتبعها من الدواخل. فزادت قوة بلكين بن زيري. وسرعان ما واجهت الإمارة الصنهاجية تحديات جديدة تمثلت في أسرة بني خزرون الزناتيين، ففي عهد الأمير الصنهاجي باديس، سنة (390 هـ/1000م) تغلب فلفل بن

باديس سنة (1048هـ/440م)، إذ قطعت الدعوة فعلاً للفاطميين وأحرقت بنودهم ودعى للعباسيين، ولم يكتف الصنهاجيون بذلك فقط بل لعنوا بني عبيد من أعلى المنابر، ثم محى أثرهم على العملة في السنة التالية (441هـ/104م). ومنعوا التعامل بالنقود التي تحمل أسماءهم رغم النتائج السلبية الاقتصادية واضطراب التعامل في الأسواق⁽¹⁾.

وهناك إشارات للمدن الليبية في تلك الأحداث، حيث يقول التجاني من أن الفقيه أبا الحسن علي بن محمد الطرابلسي كان أول من أظهر السنة بمدينة طرابلس، وأنه أثناء مقاتلة الشيعة في إفريقية (407هـ/1016 – 1017م) قام العامة ضدهم في طرابلس، وقتلوه في الواقعة المعروفة بوقعة المشاركة، وذلك بتحريض الفقيه أبي الحسن وعلى يديه⁽²⁾.

وعندما ينس الفاطميون من إصلاح ما أفسدته صنهاجة وتبعها المدن الليبية طرابلس وبرقة، رأى اليازوري وزير المستنصر الفاطمي اتخاذ إجراء يرد به اعتبار الفاطميين، إذ نصح

خزرون على مناطق شاسعة ما بين قابس وطرابلس، واستولى بنو خزرون الزناتيون على طرابلس، وكانت بينهم وبين الصنهاجيين في إفريقية وقائع كثيرة. وكان لأحداث طرابلس هذه تأثير على مجريات الأحداث في برقة التي انفصل بها عن الحكم الفاطمي رجل يدعى الوليد بن هشام، ويُعرف بأبي ركة وكان مؤيدوه من قبيلة زناته، وهو ما يعتقد أنه سر التأثير بين حركة طرابلس على يد بني خزرون الزناتيين، وجنود هذه الثورة من زناته، وجميع هؤلاء يُعتقد أنهم موالون لبني أمية في الأندلس، وعندما شعر بكثره أتباعه هاجم مدينة برقة وتمكن من دخولها في رجب عام (395هـ/إبريل 1005م). ولكن الخليفة الفاطمي الذي أنهكه الجوع والعطش، انسحب إلى مصر بعد أن قتل قائده بنال، وعزز هذا النصر صاحب الثورة وأصبح خطره يهدد مصر نفسها، ورأى الخليفة الحاكم بأمر الله أن يستعمل الحيلة بعد أن فشلت القوة في الانتصار على هذا التائر الأموي، حيث أن الحاكم بأمر الله أمر بعض كبار رجال دولته بمكاتبة أبي ركة وتشجيعه على مهاجمة مصر، ووعده المساعدة أو الانضمام إلى جانبه. ويبدو أن أبا ركة قد اندفع بتلك الوعود، ووقع في الفخ الذي نُصب له، فدخل مصر بعدد من السرايا عن طريق الصعيد، حيث فاجأ الجيش الفاطمي بمن معه من زناته ولواته، وأوقع به هزيمة نكراء، فراجع نحو النوبة، وتم القبض عليه ثم قتل في منتصف شوال سنة (397هـ/5 يوليو 1007م). وبالرغم من الانقسام الذي حدث في الدولة الصنهاجية فإن بني خزرون قد دبت بينهم الفرقة أيضاً فقامت المنافسة بين خليفة بن ورو، وبين عمه خزرون بن سعيد. هذا عن طرابلس في أواخر عهد الأمير الصنهاجي باديس. أما برقة فلم يكن حالها بأفضل لما كانت عليه طرابلس، فلم يستطع الصنهاجيون ضبطها، وأن هيبتهم عليها لم تكن أكيدة، ففي سنة (405هـ/1014م)، لم تتردد جماعات عرب برقة عن مهاجمة مراكب أميرية كان باديس قد سيرها نحو مصر محملة بالهدايا النفيسة إلى الخليفة الحاكم بأمر الله، واستولى عليها المهاجمون وصادروا كل ما تحمله من نفائس. ويلف الغموض تاريخ ليبيا في السنوات الأخيرة من حكم بني خزرون، وذلك بسبب التداخل بينهم وبين الأعراب من بني هلال وسليم، ويذكر أن خليفة بن خزرون ظل يحكم طرابلس حتى عام (488هـ/1095م). ولقد كان من الطبيعي أن يتجه نورمان صقلية لتأدية دورهم في الحركة الصليبية. وقد عمل روجار الثاني حاكم صقلية على إنشاء أسطول كبير لتحقيق هدفه في السيطرة على الشمال الأفريقي ومدنه الساحلية على وجه الخصوص، فتعقب العرب أولاً في جزيرة مالطا، ثم استولى على جربة، وصفاقس. والمهدية ثم حاصر طرابلس سنة (537هـ/1142م) ولكنه لم يستطع اقتحامها بسبب النجدة التي قدمها سكان الدواخل، فهزموا النورمان، واستولوا على أسلحتهم في الحملة الأولى؛ انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 229 – 240، 257 – 270، 313؛ الزاوي، تاريخ العربي في ليبيا، ص 236

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 273، 277-280؛ ابن غلبون، التذكار، ص 23؛ الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 226، 227.

⁽²⁾ التجاني، رحلة التجاني، ص 265.

الخليفة الفاطمي أن يطلق أعراب بني هلال⁽¹⁾ وسليم الموجودين في صحراء مصر الشرقية، ووافق الخليفة المستنصر على الفكرة التي تحقق له الانتقام مما قام به الصنهاجيون، فسهل عبور هؤلاء الأعراب، وقلدهم المغرب وكل ما يفتحون وزودهم ببعض المال والسلاح⁽²⁾.

وخرجت هلال وسليم بفروعها من زغبة ورياح والأتبج وعدي، وحرص الخليفة الفاطمي ألا يأمرهم بشيء لأنهم لا يحتاجون إلى توصية. وكان هؤلاء الأعراب كلما وصلوا مدينة تنادوا هذه القيروان ونهبوها. وقد طاب لهم المقام في برقة التي كانت مفتوحة أمامهم بعد أن تحطمت زناته في المنطقة بعد صراعها الطويل مع صنهاجة ومع الفاطميين، ثم وصلوا مسيرهم عبر الأراضي الليبية حتى وصلوا طرابلس سنة (446هـ/ 1054 - 1055م) وملكوا المدينة، وواصلت جموع رياح ومنهم الأتبج وبنو عدي المسير إلى إفريقية فعاثوا فساداً في ضواحيها، ولم يستطع المعز بن باديس الوقوف أمامهم أو ردعهم، وهيمن الهالليون على إفريقية، واضطر الأمير الصنهاجي المعز بن باديس للذهاب إلى المهديّة⁽³⁾.

1.2.3.1. سكان ليبيا قبيل هجرة بني هلال وبني سليم

تنوعت عناصر الخريطة السكانية لليبيا قبل الهجرة الهلالية، ما بين عناصر بربرية، وعناصر عربية وأجنبية مختلفة، حيث تميزت المناطق الليبية بتنوع الخريطة السكانية في تلك الفترة؛ وفيما يلي محاولة إيجاد خريطة لتوزيع تلك العناصر في المناطق الليبية المختلفة:

– البربر:

كانت قبائل البربر هم العنصر الأقدم المعروفة في المغرب عامة والمغرب الأدنى على وجه الخصوص آنذاك⁽⁴⁾ مثل قبائل زناته التي تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية جراوة وبني يفرن

⁽³⁾ بنو هلال وبنو سليم: قبائل عربية رعوية كانت الجزيرة العربية هي موطنها الأصلي، ولم يكن بنو هلال قبيلة واحدة وإنما أخلاطاً من القبائل، ولكن يجمعها كلها أب واحد هو "قيس عيلان" كانوا يتعارفون باسمه. وكانوا جميعاً يسكنون بلاد الحجاز وأطراف نجد يمارسون حياة البادية، وأخصها الإغارة على الحجيج، وأخفقت الدولة العباسية في أن تضع حداً لهذه الغارات، ولدى نهضة القرامطة في بلاد البحرين انضم إليهم جماعات منهم شاركوهم حروبهم المدمرة، وبعد أن هدأت فتنة القرامطة مال بني هلال إلى الفاطميين، ففلقهم العزيز بالله إلى مصر، ونتيجة لكثرة الفوضى التي أحدثوها اقترح الوزير البازوري على الخليفة المستنصر أن يصطنعهم ويوليهم أعمال إفريقية ومحاربة الصنهاجيين، فكانوا سبباً في ضعف وانهيار ملك الزييريين، انظر: ابن خلدون، محمد بن عبدالرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 2000م، ج-6، ص 17 - 20؛ كولين ماكيفيدى، اطلس التاريخ الإفريقي، ص 85؛ عبد الحميد يونس، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003 م، ص 34، 35.

⁽²⁾ ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 288، 289؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 226، 227.

⁽³⁾ ابن غلبون: التذكار، ص بب، 24؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 228، 229.

⁽⁴⁾ اختلف في نسب البربر، فزعم بعضهم أنهم من ولد كنعان بن حام، وقيل إنهم أوزاع من اليمن، تفرقوا عندما كان من سيل العرم ما كان، وقيل إن أبرهة ذا المنار تخلفهم بالمغرب، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان، والله أعلم بحقيقة ذلك. قال الكندي: إنهم من ولد بربر بن قيس عيلان، وقال قوم إنهم من ولد نيسر، وقال آخرون: من ولد نبيط بن حام، فلما نزل إخوانهم بمصر خرج بربر بن نبيط إلى ناحية المغرب فسكنوها وراء عمل مصر، وهو ما وراء برقة إلى البحر إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان وقال آخرون إنهم

ومغراوة، كما كانت قبائل صنهاجة مسيطرة على تلك المنطقة منذ أمدٍ بعيدٍ. كما كانت لواته ونفوسه وأداسه من القبائل المحلية المستقرة بمنطقة طرابلس منذ الفتح الإسلامي⁽¹⁾.

ومن خلال كتابات الجغرافيين والرحالة يبدو واضحاً أن البربر يمثلون الغالبية العظمى من سكان برقة وطرابلس، خاصة قبل الهجرة الهلالية، فيذكر اليعقوبي في حديثه عن وادي مخيل بأنه: "...منزل فيه أخلاط من الناس، وأكثرهم البربر من ماصلة، وزناته ومصعوبة، ومرأوة، وفطيطة"، وذكر أن المنطقة "...من وادي مخيل إلى مدينة برقة ثلاث مراحل في ديار البربر من مرأوة، ومفرطة، ومصعوبة، وركودة، وغيرهم من بطون لواته⁽²⁾.."، كما تحدث عن مدن إقليم برقة، وقال: "...بأن مدينة برنيق بها قوم من البربر من تحلاله، وسوة، ومسوسة، ومفاغة، وواهلة، وجدالة..."، وأن مدينة أجدابية أهلها قوم من البربر من زناته، وواهلة، ومسوقة، وسوة، وتحلاله وغيرهم..، وجدالة وهم الغالبون عليها، وهي آخر ديار لواته، من المدن.."⁽³⁾. ومما يؤكد وجود البربر بكثرة في إقليم برقة ما ذكره الاصطخري في حديثه عن مدينة برقة، إذ يقول: "...ويطيف بها من كل جانب بادية يسكنها طوائف من البربر..."⁽⁴⁾، وقال ابن حوقل - أيضاً - إن برقة: "...يطوف بها من كل جانب منها بادية يسكنها الطوائف من البربر، وإليها مدينة أجدابية... يطيف بها من أحياء البربر خلق كثير...، وسرت بها قبائل من البربر...، وعدد البربر بها أكثر منه بما جاورها، وللبربر

من ولد لحم وجدام". لم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دُنت بالعربية، وأصبحت علماً مثل أنساب العرب، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية، التي تقسم العرب إلى قسمين كبيرين ينحدران من قحطان وعدنان - نموذجاً، فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما: البرانس والبتير، وقالوا: إن الجماعة الأولى أبناء بُرنس ابن بر، وأن الجماعة الثانية أبناء ماد غيس بن بر الذي لقب بالبتير... ومن قبائل البرانس المشهورة عشر: أزداجة، مصمودة، أوربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أوربغة، يضاف إليهم حسب رأي البعض لمطة وهكسورة وجزولة (كزولة). وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فقبيلة هوارة تنحدر من أوربغة، وقبيلة مليلة تنحدر من هوارة، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة... أما قبائل البتير المشهور فهم أربعة: أداسة ونفوسة وضريسة وبنو لؤ الأكبر. وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتنا نفاوة ولواته، وينحدر من (نفاوة) قبيلة (ولهاصة)، وينحدر من (ولهاصة) قبيلة (تير غاش)، ومن (تير غاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة).. الخ؛ انظر: البكري، معجم ما أستعجم، ج1، ص250؛ إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ص14، 15؛ محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م، الطبعة السابعة 1980م، ج1، ص16.

⁽¹⁾ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1995-1997م، ج38، ص263؛ إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ص20، 27، 31، 26؛ عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط 1968م، ج1، ص396.

⁽²⁾ لواتة: وهي من أكبر بطون البربر ينسبون إلى لؤ الأصغر، ابن لؤ الأكبر، ولو الأصغر هو نفاوة. والبربر أرادوا العموم في الجمع زادوا الألف والتاء فقالوا لوات، فلما عربته العرب حملوه على الأفراد وألحقوا به الهاء. هذه العائلة البربرية الهامة تنقسم إلى فرعين: أحدهما كان يقيم في برقة، ويتقدم نحو طرابلس حتى لبد، والآخر باسم نفاوة كان يعيش جنوب قابس وقفصة. وتنحدر من لواتة قابس أسرة بني مكي اللامعة التي استقلت بقابس في عهد السلاطين الحفصيين، وافتدوا طرابلس من أيدي الجنوبيين؛ انظر: ابن أبي دينار، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، ص71 - 73؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص27؛ إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ص24، 25.

⁽³⁾ اليعقوبي، أبو العباس أحمد بن إسحاق: البلدان، مطبعة ليدن 1890 م، ص131-133.

⁽⁴⁾ الاصطخري، المسالك والممالك، ص33.

حاضرة بنفس قصبة سرت، وبينهم خلاف على مرّ الأوقات...⁽¹⁾، كما يحدثنا ابن رسته عن البربر وانتشارهم في إقليم برقة بقوله: "...ومن أجدابية إلى سرت على ساحل البحر خمس مراحل، منها من ديار لواته، وفيهم قوم من مزانة، وهم الغاليون عليها، منها الفاروج، وقصر العطش، واليهودية، وقصر العبادي، ومدينة سرت، وأهل هذه المنازل وأهل مدينة سرت من منداسة، ومحنا، وفتاس، وغيرهم، وآخر منازلهم على مرحلتين من مدينة سرت، بموضع يقال له تورغاء..."⁽²⁾.

وإذا ما تتبعنا ما ذكره المؤرخون عن البربر ووجودهم في إقليم برقة وطرابلس، لا نجد عندهم اختلافاً عما ذكره الجغرافيون والرحالة من أن البربر جاءوا من أرض فلسطين بالشام، وتفرقوا في البلاد المغربية، فقال ابن الأثير: "...وتفرقوا - عند وصولهم لويبة ومراقية - فسارت زناتة ومغيلة، وهما قبيلتان من البربر، إلى الغرب، فسكنوا الجبال وسكنت لواته أرض برقة، وانتشروا فيها حتى بلغوا السوس، ونزلت هوارة مدينة لبدة، ونزلت نفوسة إلى مدينة سبرة، وجلا من كان بها من الروم لذلك..."⁽³⁾، وذكر الدمشقي في مجمل حديثه عن برقة أن: "...لهما جبلان: شرقي تسكنه لخم وجذام ومراد، وغربي تسكنه لواته ومزاته وهوارة..."، كما ذكر بأن غدامس سكانها البربر..."⁽⁴⁾.

أما ابن خلدون فإنه يؤكد أن البربر كانوا منتشرين في المنطقة ما بين أفريقية وطرابلس، وقال: "...وأما أفريقية كلها إلى طرابلس فبسائط فتح، كانت دياراً لنفزاوة وبني يفرن ونفوسة، ومن لا يحصى من قبائل البربر، وكانت قاعدتها القيروان...، أما بعد دخول العرب أصبح البربر مغلوبون تحت أيديهم، وقد تبدوا معهم، ونسوا رطانة الأعاجم، وتكلموا بلغات العرب، وتحلوا بشعارهم في جميع أحوالهم..."، وقال عن برقة: "...وأما برقة فدرست وخربت أمصارها، وانقرض أمرها، وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواته وهوارة وغيرهم من البربر... وهو ما يدل على بداية سيطرة القبائل العربية على المنطقة"⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من حديث ابن خلدون عن انتشار العرب في إقليم برقة وطرابلس، إلا أنه يتحدث عن وجود العديد من البطون البربرية المنتشرة في المنطقة، فذكر في أثناء حديثه عن قبيلة نفوسة قوله: "...وأما نفوسة فهم بطن واحد، ينسب إليه نفوسة كلها، وكانوا من أوسع قبائل البربر، فيهم شعوب كثيرة مثل بني زمور، وبني مكسور، وماطومة، وكانت مواطن جمهورهم بجهات طرابلس وما إليها، وهناك الجبل المعروف بهم، وهم على ثلاث مراحل من مدينة طرابلس، يسكنه اليوم بقاياهم...". كما تحدث عن وجود بقايا لقبيلة هوارة، وقال: إنهم مازالوا منتشرين في مناطق متفرقة فيما بين برقة والاسكندرية، يعرفون بالمشاينة، وذكر وجوداً لبطون هوارة بمواطنهم الأولى

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 69 - 71.

⁽²⁾ ابن رسته، ابو على احمد بن عمر: الأعلاف النفيسة، مطبعة بريل، ليدن 1891م، ص 344.

⁽³⁾ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 3، ص 13.

⁽⁴⁾ الدمشقي، شمس الدين ابو عبدالله محمد بن ابراهيم ابوطالب الانصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثني، بغداد دت، ص 234، 246.

⁽⁵⁾ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 6، ص 134، 135.

من نواحي طرابلس طواعن وأهلون توزعتهم العرب من ذياب فيما توزعوه من الرعايا، وغلبوهم على أمرهم منذ أضحى عملهم من ظل الدولة، فتملكوهم تملك العبيد للجباية منهم والاستكثار منهم في الانتجاع والحرب، مثل: ترهونة، وورفلة الطواعن، ومجريس المواطنين بزنزور...، ومن هؤلاء بآخر عمل طرابلس مما يلي بلد سرت وبرقة قبيلة يعرفون بمسراته، لهم كثرة واعتزاز، ووضائع العرب عليهم قليلة، ويعطونها من عزة، وكثيراً ما ينقلون في سبيل التجارة ببلاد مصر والإسكندرية، وفي بلاد الجريد من أفريقية وبأرض السودان إلى هذا العهد...⁽¹⁾.

ومما سبق من نصوص يبدو واضحاً أن البربر كانوا عنصر بارز ينتشر في إقليمي برقة وطرابلس عند قدوم الهجرة الهلالية، على شكل مجموعات قبلية منتشرة في مناطق متفرقة في الإقليمين، ولكن ما أن دخلت القبائل العربية من بني هلال، وبني سليم، على شكل موجات متعددة إلى المنطقة، حتى بدأت القبائل البربرية تتراجع وتتنحصر في مناطق معينة.

– العرب:

هم ثاني العناصر السكانية المكونة للمجتمع في إقليمي برقة وطرابلس، منذ القرن الثالث الهجري، ولا يتأتى الوقوف على السكان العرب إبان هذه الفترة، إلا بالرجوع إلى بداية الفتح الإسلامي، فمنذ أن أصبحت المنطقة تابعة للخلافة الإسلامية في المشرق، كانت الجيوش العربية تتوالى عليها لمواجهة الثورات والحركات الخارجية. مما ترتب عليه إقامة الكثير من القبائل الوافدة، ضمن هذه الحملات على أرض المغرب، يضاف إلى ذلك تلك الهجرات الفردية والجماعية من العرب والقاصدة بلاد المغرب للإقامة بها بعد أن أصبحت قطراً إسلامياً⁽²⁾.

ويحدثنا اليعقوبي عن العرب في هذه المنطقة، ويذكر استقرارهم في مناطق متفرقة من برقة وطرابلس، ويعين انتماءاتهم إلى أي قبيلة في دقة، فقال في مجمل حديثه عن برقة: هناك "...جبلان أحدهما يقال له: الشرقي، فيه قوم من العرب الأزدي ولخم وجذام وصدف وغيرهم من أهل اليمن، والآخر يقال له: الغربي، فيه قوم من غسان وقوم من جذام والأزد وتجبب وغيرهم من بطون العرب..."، كما تحدث عن مدينة الرمادة (من واحات الجنوب الليبي)، وذكر أن بها قوماً من العرب من بليّ وجهينة وبني مدلج وأخلاق من الناس، وتحدث عن ودان وقال إن بها: "...قوماً مسلمين يدعون أنهم عرب من يمن، وأكثرهم من مزاته، وهم الغالبون عليه"، وفي ذكره لزويله قال: "...وبها أخلاق من أهل خراسان من البصرة والكوفة...".

أما طرابلس ونواحيها فمع أن اليعقوبي لم يذكر صراحة نزول عرب في إقليمها إطلاقاً، إلا فيما يوحى به بعبارة: أهلها أخلاق من الناس، الأمر الذي يدل على أن التواجد العربي بين هذه الأخلاق – غير قليل، خاصة أن مدينة طرابلس ثغر هام، حرص المسلمون على تحصينه بإقامة

⁽¹⁾ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، ص173-195.

⁽²⁾ ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص200، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص309، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص23؛ حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي، مكتبة الشباب، ط1، القاهرة دت، ص292.

الجند العربي والحاميات وغيرها – أمر ضروري، ولعل ما صرح به المنجم بأن طرابلس أهلها من قریش نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان لأبلغ دليل على وجود العرب في هذا الإقليم منذ تلك الفترة⁽¹⁾.

– عناصر أخرى:

عرفت بلاد ليبيا وجود عنصر الروم في تلك الفترة من ضمن عناصر السكان، حيث ذكر ابن خلدون أن الذين أطلق عليهم العرب اسم الروم، لم يكونوا روماً بيزنطيين في الأصل، وإنما كانوا من الفرنجة، أي: من سكان إيطاليا وفرنسا، وأن الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية، ولم يكن للروم شيء فيها من ولاية، وإنما كان كل من كان منهم بها من جند الإفرنج ومن حشودهم، وأن ما يسمع فيكتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب؛ لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الإفرنج، وما قتلوا في الشام إلا الروم، فظنوا أنهم الغالبون على أمم النصرانية⁽²⁾.

ومع أن الإسلام كان قد انتشر في معظم أرجاء المنطقة عقب الفتوحات الإسلامية لها، إلا أنه ظلت العديد من الجيوب تعتنق المسيحية واليهودية، ومن أهمها وجود جالية من النصارى في قرية تاكنست، وهي على بعد خمسين ميلاً شرقي مدينة برقة، (المرج حالياً)، هذا بالإضافة إلى أكثرية من النصارى والأقباط بمدينة أجدابية، وأقباط يتكلمون لغة غريبة في مدينة سرت، وآخرون حول مدينة طرابلس⁽³⁾.

ومن خلال كتابات الجغرافيين والرحالة، نستخلص وجود هذه الفئة في مناطق متفرقة من برقة وطرابلس، فيذكر اليعقوبي – من خلال حديثه عن وادي مخيل ومدينة طرابلس – وجود أخلاط من الناس، وهو ما يؤكد وجود بعض الروم والأقباط بينهم، كما ذكر أن لبرقة أقاليم كثيرة، ولها من المدن برنيق... وأهلها قوم من أبناء الروم القدم...⁽⁴⁾. ويذكر ابن رسته في حديثه عن الرمادة أن بها قوماً من العجم القدم، وهو ما يدل على وجود هذه الفئة من الروم في مناطق متفرقة من إقليم برقة وطرابلس منذ القرن الثالث الهجري⁽⁵⁾.

وإذا ما تتبعنا ما كتبه الجغرافيون والرحالة، وجدنا عندهم ذكراً للروم والأقباط، فالبكري في مجمل حديثه عن أجدابية يذكر أن أهلها أكثرهم أقباط، كما تحدث عن أطرابلس وقال: "وحولها أقباط في زي البربر كلامهم بالقبطية.."، وهو نصٌ صريح بوجود الروم والأقباط بأعداد كبيرة حول مدينة طرابلس وما جاورها من قرى، ويبدو أن صاحب كتاب الاستبصار قد نقل ما ذكره البكري في حديثه عن أجدابه ووجود الأقباط بها، كما ذكر قوله: "...وفي بعض مدن الواحات قبائل لواته، وإنما أهلها أقباط..."⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ اليعقوبي، البلدان، ص132-135

⁽²⁾ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج6، ص224.

⁽³⁾ مجهول، الاستبصار، ص144؛ البكري، معجم ما أستعجم، ج2، 651 – 653؛ الحموي، معجم البلدان، ج1، ص100.

⁽⁴⁾ اليعقوبي، البلدان، ص132-135.

⁽⁵⁾ ابن رسته، الاعلاف النفيسة، ص342.

⁽⁶⁾ البكري، معجم ما أستعجم، ج2، ص177، 186.

ولا يختلف المؤرخون عن الجغرافيين والرحالة في وجود الروم في مناطق متفرقة من نواحي برقة وطرابلس، فيقول ابن خلدون في حديثه عن وجود بقايا الروم في إقليم برقة وطرابلس: "وكانوا من الفرنجة من سكان إيطاليا وفرنسا.."، وهو ما يؤكد وجود الروم والإفرنج، وإن كانت أقلية مقارنة بالأعداد الهائلة من البربر والعرب المنتشرين في مختلف أرجاء الإقليم.

أما الأفرقة فهم أخلاط مجتمعون من أمم شتى، وهم بقايا أمم قديمة، وعناصر بربرية فرنجية، تجمعها صفة الخدمة، أي: العمل في المزارع والحرف، ولذلك فهم يمثلون طبقة العامة في مختلف المرافق⁽¹⁾، وهو ما يؤكد ابن عبد الحكم بقوله: "...وأقام الأفرقة - وكانوا خدماً للروم - على الصلح يؤدونه إلى أن غلب على بلادهم..."⁽²⁾، ويذكر اليعقوبي أن البربر والأفرقة: "...هم أولاد فارق بن بيصر بن حام بن نوح، لما ملك إخوتهم بأرض مصر... خرجوا نحو المغرب..."، وهو ما يوحى بالصلة بين البربر والأفرقة⁽³⁾، ويقول ابن خرداذبة: إن قابس مدينة الأفرقة الأعاجم، مما يرجح وجود أفرقة غير أعاجم⁽⁴⁾.

والإدريسي في مجمل حديثه عن مدينتي قفصه وقابس وأهاليهما، تحدث عن الأفرقة، وقال: إنهم كانوا أهل البلاد من بقايا البربر، وكانوا يتكلمون باللسان اللاتيني والإفريقي، وهو ما يوحى بوجود أعداد كثيرة منهم في هذه المدن، وهو ما لم يذكره في حديثه عن مدن برقة وطرابلس⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من أن كثيراً من هؤلاء الأفرقة دخلوا الإسلام، فإن الكثير منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم، ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية، أو ربما كانت محلية خاصة بهم⁽⁶⁾.

كما عرف إقليم طرابلس وبرقة وجود العنصر اليهودي، فقد سكن اليهود إقليم برقة وطرابلس قبل الفتح الإسلامي، وكان عددهم قليل جداً، وبعضهم جاء مهاجراً من فلسطين، ويرجع العديد من الباحثين أسباب هجرتهم إلى هذه المناطق إلى الخراب الذي حل بالقدس في سنة 60م، كما أن القلاقل التي حلت في بعض تجمعاتهم في مناطق متفرقة من العالم، جعلتهم يسعون إلى البحث عن مناطق استقرار جديدة، كان منها هذه المنطقة، وقد انتشر اليهود بين قرى ومدن برقة وطرابلس، واختاروا في ذلك المناطق التي تتناسب وطموحاتهم الاقتصادية، خاصة في مجال التجارة، حيث اشتهروا بذلك، فعاشوا في المدن الصغيرة والكبيرة والهضاب والمناطق الزراعية، وكثير منهم عاش بين البربر، وسميت العديد من المدن باسمهم كاليهودية في إقليم برقة. وقد تحدث العديد من

⁽¹⁾ إبراهيم العدوي، بلاد الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1956م، ص 91، 92؛ السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير (دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية)، دار النهضة العربية، بيروت 1981م، ج 2، ص 133؛ حسن علي حسن، تاريخ المغرب، ج 1، مكتبة الشباب، ط 1، القاهرة، د - ت، ص 9، 10.

⁽²⁾ ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 173.

⁽³⁾ اليعقوبي، البلدان، ج 1، ص 190.

⁽⁴⁾ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د - ت، ص 86.

⁽⁵⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج 1، ص 283، 297.

⁽⁶⁾ السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج 2، ص 133؛ حسن علي حسن، تاريخ المغرب، ج 1، ص 9، 10، ص 20.

الجغرافيين والرحالة عن اليهود، وأماكن تواجدهم في مدن برقة وطرابلس، فقد تحدث الرحالة عن اليهود، وأماكن تواجدهم في مدن برقة وطرابلس، فذكر البكري في حديثه عن جادو قوله: "... ويسكنها يهود كثير..."، ويقول ياقوت الحموي عن جادو ما ذكره البكري من أنها كثيرة اليهود، وهو دليل على انتشار اليهود في مناطق الواحات، جنوب إقليم طرابلس، ويقول صاحب كتاب الاستبصار - مؤكداً ما ذكره سابقوه - أن جادو "... في وسط جبل نفوسة وأكثر أهلها يهود، وهي أم قرى جبل نفوسة.."، هذا النص يدل على أن اليهود كانت لهم السيادة على بقية القرى، خاصة من الناحية الاقتصادية والتجارة على وجه الخصوص⁽¹⁾.

ويحدثنا الإدريسي عن مدينة أجدابية وكثر اليهود بها بقوله: "... وأهلها الغالب عليهم يهود ومسلمون تجار..."⁽²⁾. ويقول ابن سعيد المغربي في مجمل حديثه عن بعض من إقليم برقة: "... وطمينة بها قصر فيه يهود... وهو على هيئة برج كبير، وعدد اليهود الذين به إلى يومنا هذا ما يزيد على مائتي يهودي..."⁽⁴⁾، كما قال ابن سعيد عند حديثه عن مدينة درنة: "... والآن محسوبة من قصور العرب التي يأوي إليها اليهود ووكلائهم..."⁽⁵⁾.

ومن خلال النصوص السابقة، نجد اتفاقاً على أن اليهود كانوا موجودين في مناطق ليبية مختلفة بكثرة، ولكنهم كانوا تابعين وتحت خفارة العرب، كما يمكن ملاحظة استقرار اليهود في مدن جادو، أجدابية، طلمينة، درنة، برقة، وهي تمثل مراكز لمحطات القوافل البرية من ناحية، ومراس لتجارة البحر من ناحية أخرى، مما جعلها مناطق جذب اقتصادي لليهود الذين برعوا واحترفوا ممارسة التجارة منذ أقدم العصور.

من خلال ما سبق فقد نستنتج التنوع الديموغرافي والسكاني للمدن والمناطق الليبية المختلفة، وتنوع التوزيع السكاني لتلك العناصر المختلفة، وربما أثر ذلك التنوع على قوة العلاقات التي تربط تلك العناصر السكانية بمحيطها المحلي والإقليمي، مما انعكس على الأنشطة الحضارية وخاصة الاقتصادية منها في المدن والمناطق الليبية المختلفة.

2.2.3.1. الأثر الاقتصادي لبني هلال وبني سليم في ليبيا

أثرت هجرة بني هلال وبني سليم لبلاد المغرب الإسلامي في عصر الدولة الفاطمية، على كافة الأوضاع بليبيا، خاصة الأوضاع الاقتصادية بها. وقد كان لهذا التأثير وجهين مختلفين، وجه سلبي ووجه إيجابي.

⁽¹⁾ الحموي، معجم البلدان، ج2، ص92.

⁽²⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص311

⁽³⁾ ابن سعيد، ابوالحسن على بن موسى: بسط الارض بالطول والعرض، تحقيق: اخوان قرنيط خينيس، تطوان، 1958، ص146.

⁽⁴⁾ أبي الفداء، تقويم البلدان، ص149

⁽⁵⁾ ابن سعيد، بسط الارض، ص147.

أما عن التأثير السلبي لغزوة بني هلال⁽¹⁾ على الأوضاع الاقتصادية العامة لبلاد المغرب الأدنى وعلى المناطق الليبية بوجه خاص، فقد أشارت بعض الفتاوى إلى ما أسفرت عنه غزوة بني هلال من عواقب وخيمة على اقتصاد البلاد، تتمثل بالخصوص في تقلبات الأسعار والابتزاز وأعمال النهب⁽²⁾.

ومن آثار الغزوة الهلالية السلبية العامة أيضاً أنها خربت الموانئ وأهلكت الزروع، خصوصاً في بداية نزوحهم إلى بلاد المغرب الإسلامي عامة، قبل أن يستقروا، وهذا ما أدى إلى توقف التجارة بسبب انقطاع الطرق وفقدان الأمن، ومن ثم راح التجار يبحثون عن مناطق آمنة يمارسون فيها نشاطهم التجاري، وسافرت عائلات بأكملها من بلاد المغرب إلى مصر وإلى جنوب إيطاليا⁽³⁾، وبلاد الشام⁽⁴⁾، يؤكد ذلك ما ورد في وثائق الجنيزة عن عائلات مغربية في مصر مثل: الليبيدي والطرابلسي وغيرها⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ كان نتيجة للضعف الذي أصاب بني زيري اثر الهجرة الهلالية، أن قامت عدة إمارات صغيرة أو دويلات في أهم المدن حكمت بعضها اسر عريية، وحكمت البعض الآخر اسر من البربر: مثل بني خراسان بتونس وابن الرند بقفصة وابن الورد العرب ببنزرت وابن جامع بقباس، بالإضافة لعدد كبير آخر من الرؤساء الذين أنشئوا إمارات عابرة في باجة مثلاً وطبرية وغيرها من المدن الداخلية، ولم يحتفظ بنو زيري إلا بشريط ساحلي ضيق، يمتد من سوسة إلى صفاقس، أما أبناء عمومتهم من بني حماد، فقد نقلوا عاصمتهم من القلعة إلى مدينة بجاية، انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994م، ص211؛ ابن غلبون، التذكار، ص4،3؛ سعد زغول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج3، منشأة المعارف، الإسكندرية1991م، ص441، 444-446.

⁽²⁾ المقريري، اعطاء الحنفاء، ج2، ص218؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية (تاريخ افرريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى نهاية القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1992م، ج2، ص271، 272؛ جورج مارسية، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية1991م، ص243.

⁽³⁾ في خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تطورت بعض المدن الساحلية الإيطالية وتحولت إلي جمهوريات تجارية مستقلة، وقد حصلت هذه المدن علي استقلالها في إطار التطور الاجتماعي والسياسي العام لأوروبا خلال ذلك القرن. فقد قامت الدول الكبرى في اسبانيا وانجلترا وفرنسا وألمانيا، وساد النظام إيطاليا في ظل أباطرة الأوتونيين، وهما أباطرة الدولة الرومانية المقدسة الألمانية، ودار في إيطاليا الصراع الطويل على السيادة بين الأباطرة والبابوات. فقد كان الصراع بين البابا والإمبراطور من أكبر عوامل تقدم المدن التجارية الساحلية، انظر: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى1987م، ص297، 298.

⁽⁴⁾ حددت المصادر حدود بلاد الشام، حيث كان غربيها بحر الروم، وشرقيها البادية من أيلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشمالها بلاد الروم وجنوبها مصر. وكانت المراكز التجارية على ساحل بلاد الشام مقصد للمغاربة تجار ومسافرين، فقد ربط خط ملاحي من السفن بين بلاد الشام وبلاد المغرب؛ ومن أدلة ارتباط المغرب الأدنى ببلاد الشام في علاقات تجارية بحرية مباشرة، ذكر إحدى وثائق الجنيزة أن وكيل تجاري كان يقطن في القدس ويسمي أبون بن صدقه، عاش في القدس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كان يستثمر لتاجر مغربي وتجار مغاربة آخرين أموال لهم في بلاد الشام. انظر: ابن حوقل، صورة الارض، ص153-156؛ ابن جبير، ابوالحسن محمد بن احمد، رحلة ابن الجبير، دار صادر، بيروت، د-ت، ص32، 33، 40، 41، الحميري، الروض المعطار، ص335؛ A Letter from Abūn b. Sādaqa in Jerusalem to Hāyīm b. ‘Ammār al-Madīnī in Alexandria, Letter dated 17 March 1055. The original document is in the Taylor-Schechter Collection, Cambridge University, with shelfmark TS 13J 25.12. English translation, from the Hebrew version in Gil (1983b), published in Simonsohn (1997), No. 105, 209-12. Jeremy Edwards, Sheilagh Ogilvie : Contract Enforcement, Institutions and Social Capital: the Maghribi Traders Reappraised, University of Cambridge, March 2009, p6 .

⁽⁵⁾

Letter from Joseph Lebdi to Hasan b. Bundar Fustat, 1098(Bodl. MS. Heb. d. 66 (Cat. 2878), fols. 66, 67), Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston 2008,

كما عرقلت غزوة بني هلال نشاط القوافل لاسيما القادمة بالذهب من بلاد السودان الغربي⁽¹⁾، مدة من الزمن على الأقل مما أدى إلى نقص الذهب في المهديّة، وصعوبة تلافي النزيف المتولد عن ضرورة استيراد القمح الصقلي، فقد تفاقمت الفوضى حتى جعلت إفريقية مضطرة إلى شراء الحبوب من صقلية. فقد قطع غزو بني هلال طريق القوافل بين السودان والنيجر عن طريق غدامس فقل الذهب بالمغرب، كما توقفت الربط في طريقها المتصل بالإسكندرية إلى آخر بلاد المغرب مرورا بليبيا⁽²⁾. وهذا بالطبع انعكس بالسلب على الأوضاع الاقتصادية بليبيا.

ويبدو أن بعض المناطق الليبية لم يصبها الأذى الكبير من مرور تلك القبائل العربية، فمثلاً يشير الإدريسي أن مدينة قابس لم يلحقها ضرر كبير بسبب الغزوة الهلالية. فلقد كان مرور هذه القبائل العربية الهلالية على قابس – بطريقه محدودة لأنهم لم يمروا بالمدينة وبالغابات الأهلة، بل كان مرورهم بالطريق القديم طريق الحامة بالقرب من سهول (أم الشياه) قريبا من جبل الظاهر، وكان دياب بن غانم⁽³⁾ يحمي الإبل من (المرقب) الذي يسمى الآن مرقب دياب، كما أن إبل وجمال تلك القبائل لا تحتاج إلى أشجار الغابة ومنتجاتها، فقد وجدوا مرعاهم في منطقة (أم الشياه) وهي السهول الغربية لقابس تغطيها المروج الخضراء التي تغطيها النباتات الصالحة للرعي بالقرب من الصحراء الواسعة التي ترتع فيها الإبل. بعد مرور أكثر من عشر سنوات على الزحف الهلالي على إفريقية وقابس كانت هذه القبائل قد استقرت واتخذت لها أمكنة خاصة لكل منها، فقبائل هلال – مرداس ورياح قد استقرت ما بين قابس وطرابلس، وكلها انقسمت إلى بطون وعائلات⁽⁴⁾.

أما التأثير الإيجابي للهجرة الهلالية فهي متعددة أيضاً ومنها: أنها نقلت إلى أفريقية السلالات الجديدة من الخيول إلى جانب الخبرة في تربيتها وتنمية الثروة الحيوانية، من قابس إلى برقة، ومن

198-202. Goitein. S.D : From the Mediterranean to India : Documents on the Trade , p191 الذهبى، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ج-30، ص16، جورج مارسية، بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق الاسلامى، ص244؛ الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية1986م، ص200.

¹ (إلا أن مصدره الأساسي كان بلاد السودان الغربي خاصة منطقة ونقارة، وكان الذهب كمعدن يتصدر هذه القائمة إذ كان يشق طريقه بواسطة القوافل البرية عبر الصحراء إلى موانئ طرابلس وقرطاجنة وبونة ثم المهديّة. ومع أنه وجدت طرق أخرى بعد الفتح لتجارة الذهب مثل تلك التي كانت بالمغرب الأقصى، إلا أن طريق إفريقية بقي محافظاً على أهميته الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة بالنسبة للاقتصاد الأوروبي في العصور الوسطى؛ انظر: مجهول، كتاب عن الصناعة المعدنية بالسوس، تحقيق: عمر أفا، في(متنوعات محمد حجي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى1998م، ص138؛ كولين ماكيفيدى، اطلس التاريخ الافريقي، ص89؛ إبراهيم على طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة1970م، ص68؛ كرم الصاوي باز، تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب، في الفترة من [3 - 5 هـ/11-1م]، أعمال ندوة التواصل العربي الافريقي عبر الصحراء الكبرى، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة 2003م، ص10؛

Michael Brett : Ifriqiya as A Market for Saharan Trade from the Tenth To The Twelfth Century A.D, The Journal of African History , Vol .10 , No.3 .1969 , pp .348,349.

² الذهبى، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ج-30، ص16؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج-2، ص271، 272، 291 – 293؛ الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، ص200.

³ من أشجع فرسان قبيلة الهلالية، وقد نسجت حوله الأساطير حكايات كثيرة، انظر: إلهام حسين دحروج، مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية442 – 665 هـ / 1051 – 1247م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة2000م، ص56.

⁴ الإدريسي، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق: ج-1، ص276؛ ابن خلدون، العبر، ج-6، ص22؛ إلهام حسين دحروج، مدينة قابس، ص56.

برقة إلى قرب الإسكندرية، وأن برقة وبلاد إفريقية معروفة بالخيول ذات السلالات الأصلية. إلى جانب تحسين الزراعة والمحاصيل، وإدخال أصناف جديدة كذلك سيطرة القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية، كما توسعوا في احتكار تموين بعض المدن مثل التمر والملح، وتحكموا في التجارة الخارجية، وبخاصة من بلاد السودان ومصر وغيرهم، واشتهروا بتصدير الخيول والأغنام والملح وغيرها(1).

وكان نتيجة كثرة الحروب وغزوة بني هلال ونزوح الناس إلى المدن الساحلية المحصنة، والعجز عن تأمين الطرق البرية، دفع بنو زيري نحو السواحل، حيث اعتمدوا على التجارة الخارجية كمصدر أساسي للدخل، وحاولوا تأمين الطرق البحرية في سواحل دولتهم واحتكار النقل البحري(2). ومن إيجابيات هجرة الهلاليين على الوضع الاقتصادي في البلاد الليبية أيضاً، أن منهم من أسهم في إعادة النشاط الاقتصادي لبعض مدن إفريقية، مثل مدينة قابس التي شهدت في عهد أمرائها من بني جامع الهلالية نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً(3). كما اعتنى بنو جامع بأن يكون أسطولاً تجارياً وحربياً بعد أن جهزوا التجارة وأشرفوا على طرقها صحراوياً وبين المدن الإفريقية، وتوجوا اهتمامهم ببناء السفن لتدعيم أسطول حربي وتجاري خاص بهم(4).

مما سبق يتضح أن تأثير هجرة بني هلال وبني سليم كان ذات تأثير عام سلبي على كل مناطق بلاد المغرب الإسلامي التي دخلوها بما فيها المناطق الليبية، وذات تأثير إيجابي خاص بالمناطق الليبية أكثر منه بالمناطق الأخرى، كما يلاحظ أن التأثير السلبي كان بارزاً أثناء قدوم تلك القبائل لبلاد المغرب الإسلامي وترحالها من بلد لآخر نتيجة دخولها في حروب وصراعات مع القوى النافذة في تلك المناطق، وخاصة بنو زيري، أما التأثير الإيجابي فقد ظهر بعد سيطرة تلك القبائل على مناطق ومدن خاصة بمنطقة البلاد الليبية، أي أن التأثير الإيجابي جاء في مرحلة لاحقة بعد مرحلة التأثير السلبي.

3.2.3.1. حملة قراقوش على برقة والحدود الشرقية لدولة الموحيدين

كانت الحملة النورمانية على طرابلس في سنة (540هـ - 1145م)، حيث استغل خلالها النورمان المجاعة التي واجهت البلاد من جهة، وقيام فئة معارضة لحكم بني مطروح بطردهم بعد هزيمتهم، عندما استغل النورمان بقيادة جرجي الانطاكي تلك الظروف، وشغل الناس بقتاله، وقام المؤيدون لبني مطروح بدعوتهم، لكن الراضين لهم تركوا ساحة القتال وانشغلوا في قتال المؤيدين

(1) ابن سعيد، بسط الأرض، ص78؛ إلهام حسين دحروج، مدينة قابس، ص58.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص119، 120؛ ابن غلبون، التذكار، ص38، الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج1، ص159-161؛ عز الدين عمر موسي، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة 1983م، ص263-265؛ أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، 1997م، ص237.

(3) التجاني، رحلة التجاني، ص98؛ ممدوح حسين علي حسين، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري [سنة 668-792هـ/1270-1390م]، دار عمار للنشر، عمان - الأردن، الطبعة الأولى 1998م، ص125، 126؛ إلهام حسين دحروج، مدينة قابس، ص60 - 62.

(4) التجاني، رحلة التجاني، ص97 - 100.

لبنى مطروح، وتمكن النورمان بذلك من إباحة المدينة واعملوا فيها سلباً ونهباً، وهرب الكثير من سكانها إلى البوادي، وبالرغم من أن طرابلس حظيت في زمن النورمان بحكم ذاتي تحت إمرة بني مطروح، فإن المؤرخين يعتبرون أن ليبيا ظلت تحت حكم النورمان تابعة لصقلية مدة اثني عشر عاماً تقريباً أي إلى وقت ظهور الموحديين⁽¹⁾ على مسرح الأحداث كقوة مغاربية فاعلة، فتحين الليبيون الفرصة وقاموا بالثورة على النورمان⁽²⁾، إذ يذكر التجاني أن النورمان عندما رأوا تغلب

⁽¹⁾ دولة الموحديين (almohads): بدأت دعوة الموحديين عام 514هـ / 1120 م على يد المهدي محمد بن تومرت ، الذي ينتمي إلى قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة التي انتشرت في أغلب أراضي المغرب الأقصى ، وقد مرت الدولة الموحدية بثلاث مراحل رئيسية ، وهي :

– مرحلة التأسيس (514 – 541 هـ / 1120 – 1146 م) : ففي هذه المرحلة حقق الموحدون أول نصر لهم على المرابطين عام 514 هـ / 1122م ثم تتابعت انتصاراتهم عليهم ، وفي رمضان من عام 524 هـ / 1130 م توفي المهدي فخلفه عبد المؤمن بن علي وتابع جهوده حتى أزال دولة المرابطين من المغرب واستولى على عاصمتهم مراكش عام 541 هـ / 1146م ، ومن ثم على كامل بلاد المغرب (حتى تونس وليبيا عام 555هـ / 1160 م) والأندلس (541 – 549 هـ / 1146-1154 م).

– مرحلة الازدهار (541 – 610 هـ / 1146 – 1213م): فقد بلغت الدولة أوجها في عهد عبد المؤمن بن علي (524-558هـ/1129-1163م) وابنه أبي يعقوب يوسف (558-580هـ / 1163-1184م) ثم أبي يوسف يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1199م) ، مع بناء العديد من المدن الجديدة وتشجيع الثقافة والحياة الفكرية. وقد وقعت في هذه المرحلة معركة الأرك عام 591هـ / 1195م والتي انتصر فيها الموحدون على الملوك النصارى الإسبان . وفي عهد الناصر (595-610هـ/1199-1213م) تم القضاء على العديد من الثورات في إفريقية.

– مرحلة الانحلال والانهيار (610 – 668 هـ / 1213 – 1269 م) : إلا أن الموحديين تلقوا هزيمة قاسية على يد نصارى الإسبان في معركة حصن العقاب (609 هـ / 1212 م) وبدأت الدولة في الضعف ، حيث زادت الصراعات الداخلية على العرش والثورات والأزمات الاقتصادية ، مما أدى إلى تفكك الدولة الموحدية إلى دول متعددة ، فقد استقل الحفصيون بتونس وإفريقية منذ عام 626 هـ / 1229 م ، كما استقل بنو عبد الواد أو بنو زيان بالمغرب الأوسط وذلك في عام 633 هـ / 1235 م ، ثم قضى بنو مرين على ما تبقى من سلطة الموحديين ببلاد المغرب باستيلائهم على المغرب الأقصى والعاصمة مراكش وذلك عام 668 هـ / 1269 م؛ انظر : البيهقي، ابوبكر بن علي الصنهاجي ، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحديين ، تحقيق ، عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1971م ، ص 11- 94 ، ابن خلدون ، العبر ، ج6 ، ص 305- 351 ، محمد المنوني ، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث ، ج1 ، مراكش 1983 م ، ص39؛ حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص 181 ، 182 ، عبادة كُحيلة ، المغرب في تاريخ الاندلس والمغرب ، ط1، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة 1997، ص 109 – 121.

⁽²⁾ في حالة الفوضى التي حدثت في أواخر العصر الزيري حصلت الغزوة الموحدية في إفريقية، حيث قام بهذه الغزوة الخليفة عبد المؤمن بن علي بنفسه، وقد تمت الحملة الأولى في عام 547هـ/1152م وأفضت إلى إلحاق دولة بني حماد بالدولة الموحدية، وحصلت الثانية في عام 5-554هـ/60-1159م وألت إلي امتداد الهيمنة الموحدية على كامل بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة. وبعد فترة ظهر عنصر أجنبي منافس للموحديين في المنطقة وهو بنو غانية مدعومين بعناصر بربرية وعربية، هذه المرحلة تمتد إلى عهد حملة المنصور الموحدية إلى إفريقية عام 583هـ/1187م ، مما فرض تحرك الخليفة الناصر إلى إفريقية لإبعاد بني غانية عنها، انظر: مجهول، الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1979م، ص148، 153، 154، الزركشي، ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن لؤلؤ: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية 1966م، ص11، ابن عبد الملك المراكشي، ابو عبدالله محمد بن محمد، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة تحقيق محمد شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب 1984م، ج8، ص62، محمد العروسي المطوي، السلطنة الحفصية [تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي]، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م، ص67، إمبوسيو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد اكيمير، مطبعة

الموحدين على مدن المغرب الواحدة تلو الأخرى طلبوا من أئمة المساجد في طرابلس أن يخطبوا من على المنابر بدم الموحدين، لكنهم رفضوا هذا المطلب عملاً بالعتيدة الإسلامية. وهو ما يوضح تلك الروح الإسلامية التي تحكمت على الدوام في مشاعر الليبيين، وتفاعلها مع الأحداث العربية الإسلامية الكبرى، ويقظة الشعور الديني الذي انبعث بقوة مع ظهور الموحدين، والذين أصبحوا الأمل في توحيد المنطقة والوقوف في وجه الحملات المسيحية، كما يتبين منها حسن تقدير أهل طرابلس للظرف السياسي المناسب، حيث تجمعت لديهم كراهية المحتل إلى جانب حسن تقديرهم للحامية الموجودة، مع الأمل في الدعم الموحد لهم عند قيامهم بالثورة، وبعد التشاور والتنسيق قام أهل طرابلس، بنصب الأخشاب والحواجز في الطرقات، لمنع الخيل من الركض بسرعة، ثم أعلنوا الثورة وتنادوا بها، ففزع رجال الحامية وقاموا إلى خيولهم فركضوها، فتعثرت بالحبال والحواجز، فأخذوا ودُبحوا وأحرقت منازلهم بالنار سنة (553هـ، 1158م) وما كاد عبد المؤمن بن علي⁽¹⁾ يفتح المهديّة عام (555هـ / 1160م) ويترد النورمان منها حتى وفد عليه رافع بن مطروح، على رأس وفد من وجوه طرابلس فنلقاهم بالبر والإكرام، وثبت ابن مطروح على طرابلس⁽²⁾ حتى أدركته الشيوخة، فكانت مدة ولايته الأولى والثانية حوالي أربعين عاماً⁽³⁾.

ويعتبر ابن مطروح بحسب وصف خليفة التليسي له - من الشخصيات التي عرفت بالسداد والحكمة والصلاح، واستطاع أن يحقق لليبييا فترة طويلة من الاستقرار والازدهار الاقتصادي، الذي كان له تأثير على حياة السكان بمدينة طرابلس خاصة وليبييا بصفة عامة. ويتضح من خلال التغيير الحاصل أن ليبييا ظلت تحت سيادة الموحدين مع احتفاظها بحكم ذاتي. وبطبيعة الحال فإن ليبييا قد تأثرت بالجو الثقافي الذي بعثه الموحدون في عموم بلاد المغرب،

النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2004م، ص 399، عزيز احمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبييا- تونس 1980م، ص 69، 70.

⁽¹⁾ عبد المؤمن بن علي: هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلى بن مروان الكومي مؤسس دولة الموحدين في المغرب، وأحد العشرة من أصحاب المهدي بن تومرت، تولى أمر الموحدين في عام 524هـ/1130م، إلى أن مات في رباط سلا وهو في طريقه إلى الأندلس في جمادى الآخرة عام 558هـ / 1163م، ودفن في جبل تينملل بجوار قبر المهدي؛ انظر: العمري، شهاب الدين احمد بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة 2002م، ص 155.

⁽²⁾ مرت تعيينات الولاة وأصنافهم بثلاثة مراحل، ففي المرحلة الأولى كان تعيين الولاة من أشياخ الموحدين، وسلالة الحكام السابقين في الحقبة التي سبقت إعلان الحكم الوراثي، ولم يرد ذكر إلا لوال واحد من أبناء عبد المؤمن. والمرحلة الثانية هي دور الازدهار حيث كان الولاة من (السادة). والمرحلة الثالثة هي دور الانحلال وفيها كادت أن تتساوى نسبة أشياخ الموحدين ب (السادة). وكان هؤلاء الولاة يتلقون تكويناً ثقافياً وعلمياً، قبل أن يعهد إليهم بتدبير شؤون الإدارة والأقاليم؛ انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص 408؛ منى حسن احمد محمود، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة بمراكش خلال عصر المرابطين والموحدين، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1984م، ص 251؛ عز الدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي [تنظيماتهم ونظمهم]، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1991م، ص 181، 180، 182؛ كمال السيد أبو مصطفى، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية 1997م، ص 3، 4، 56.

⁽³⁾ ابن غلبون، التذكار، ص 39؛ الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبييا، ص 236-238.

كما ازدهرت العلاقات الاقتصادية مع الدول الأوروبية المطلية على البحر المتوسط، وبخاصة المدن الإيطالية.

لم تدم فترة الاستقرار التي شهدتها ليبيا فترة طويلة من الزمن حتى ظهر مغامر يدعى بهاء الدين قراقوش⁽¹⁾، وكان من جند صلاح الدين الأيوبي، حاول بمبادرة فردية أو بتحريض من صلاح الدين الأيوبي أن يجرب حظه في الاستيلاء على إفريقية، وأن يضمها إلى أملاك صلاح الدين في مصر، فزحف على المناطق الداخلية عبر سيوه، وأجله ثم زويلة، حيث قضى على دولة بني خطاب، وأعلن الدعوة لصلاح الدين الأيوبي في المساجد، وأعانه في بسط سيادته على طرابلس بني رياح وبني ذباب، واستولى عليها سنة (579هـ/1183م) واحتل قابس وبعض المدن التونسية. وفي ذات الوقت ظهر إسحاق الميورقي من أسرة بني غانية⁽²⁾ المطالب بملك المرابطين⁽³⁾. وقد أدت هاتان الحركتان بالخليفة الموحد إلى النهوض بنفسه للقضاء عليها، وقد أفلح في ذلك عندما هزمها في منطقة الحامة بتونس، وعادت قابس وقفصة وتوزر⁽⁴⁾ وطرابلس إلى سلطان الموحدين، وبالرغم من تمكن قراقوش من مساعدة ابن غانية في احتلال طرابلس، ولكنهما تخاصما وتقاتلا وهزم قراقوش، ولكن ياقوت الذي تركه قراقوش على طرابلس قاوم ابن غانية مقاومة باسلة، ولم تستسلم

⁽¹⁾ قراقوش: هو شرف الدين قراقوش التقوى مملوك تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين الأيوبي، وهو شخصية أخرى غير بهاء الدين قراقوش الأسدي وزير صلاح الدين ونائبه في مصر، وكان في الأصل مملوكاً لعمه أسد الدين شيركوه. وكان شرف الدين قراقوش هذا قائداً للجنود الغز الأتراك؛ انظر، ابن غلبون، التذكار، ص53، 54؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والاندلس، ص306.

⁽²⁾ بنو غانية (banû ghāniyya): هم محمد بن غانية وأولاده الذين استقلوا بالجزر الشرقية، أي جزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة) وأعلنوا ولائهم للمرابطين وللخلافة العباسية، وأخذوا في احتلال بعض المناطق في شمال أفريقية؛ انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى 2006م، ص223 – 226؛ ابن زرع، الانيس المطرب، ص147.؛ ابن ابي دينار، المؤنس في اخبار افريقية وتونس، ص22؛ محمد العروسي المطوى، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي في المغرب الاسلامي، دار الغرب الاسلامي، 1986، ص63؛ أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والاندلس، ص299.

⁽³⁾ دولة المرابطين (almoravids): تأسست دولة المرابطين عام 448هـ / 1056م، واعتمدت في قيامها على قبائل الملتمين، لاسيما فروع من قبيلة صنهاجة مثل لمطه وجزولة ولمتونه ومسوفة وجداله، بالإضافة إلى الدعوة الدينية للداعية عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان أساس هذه الدعوة تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي لحقت به، والدعوة للجهد، وقد شمل نفوذها كامل المغرب الأقصى والاندلس. واستمرت دولة المرابطين قائمة إلى أن أطاح بها نهائياً الموحدون عام 541هـ/1147م؛ انظر، ابن خلدون، العبر، ج6، ص242 – 252؛ حسن احمد محمود، قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م، ص39، 40؛ عبد المجيد النجا، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت " الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن – فيرجينيا – الولايات المتحدة الأمريكية 1995م، ص44؛ عبادة كحيلة، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى 1997م، ص96 – 106؛ زامبور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرين، دار الرائد العربي، بيروت 1980م، ص113؛ حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص180، 181.

⁽⁴⁾ قفصة وتوزر: مدن من بلاد الجريد بأفريقية؛ انظر: الحميري، الروض المعطار، ص447؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص240.

له المدينة إلا بعد أن حاصرتها سفن ابن غانية، وحصل سكانها على الأمان ونفي ياقوت إلى مبورقة، وأقام ابن غانية تاشفين بن غازي على طرابلس⁽¹⁾.

واستطاع ابن غانية أن يسيطر على إفريقية وطرابلس لمدة عشر سنوات تقريباً، ثم زحف الخليفة الناصر الموحيدي⁽²⁾ على إفريقية، وطرد منها أنصار ابن غانية فثار أهل طرابلس مستغلين خروج ابن غانية إلى منطقة الجبل، ولكن ابن غانية عاد إلى طرابلس ودمرها، ويتفق المؤرخون على أن الدمار الذي حصل للمدينة يعود إلى هذه الفترة بعد الازدهار الذي شهدته خلال حكم بني مطروح حيث تعطلت حركة التجارة وكسدت الصناعة والزراعة أهملت لعدم توفر الامن للمزارعين⁽³⁾.

وعندما عادت طرابلس إلى السلطة الموحدية عُين عليها عبد الله بن إبراهيم بن جامع، وعندما آلت الخلافة الموحدية إلى الناصر الموحيدي تمكن من إخماد ثورة ابن غانية نهائياً، فنصب لولاية إفريقية، أبا محمد عبد الواحد الحفصي نائباً عنه، وظل الحفصيون يحكمون باسم الموحيدين حتى تاققت أنفسهم إلى الاستقلال فأعلنوا ذلك في عهد الأمير أبي زكريا الحفصي سنة (725هـ/1325م) الذي أعلن نفسه أميراً للمؤمنين ، وبذلك أصبح إقليم طرابلس داخلاً في التشكيل السياسي الحفصي ، وقد توفرت لطرابلس بقيام الدولة الحفصية حماية حقيقية ، وذلك لقرب مركز السلطة الحفصية في تونس من طرابلس إذ أصبح بوسع السلطان الحفصي ان يسرع لنجدة طرابلس في وقت قصير ، إذا دعت الحاجة وليس كما كان يحدث في ظل حكم الموحيدين⁽⁴⁾.

¹ التجاني ، رحلة التجاني ، ص245 ؛ إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ص34.

² الناصر الموحيدي: هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع له بالخلافة في عام 595هـ/1199م بعد وفاة أبيه، وقد كان أبوه أمر ببيعته في عام 586هـ/1190م وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهراً . وكان مولده في آخر عام 576هـ/1180م ، وسنه يوم بويع له البيعة الكبرى العامة سبع عشرة سنة وأشهر، وكانت وفاته عام 610هـ/1214م، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهراً؛ انظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص254.

³ عبداللطيف البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ، بيروت ، 1972، ص332؛ الغنای ، سقوط دولة الموحيدين ، ص225.

⁴ كانت الأحداث الأخيرة في عهد الناصر الموحيدي لاسيما ظهور بني غانية في المنطقة، هي التي مهدت لقدوم الحفصيين لحكم هذه البلاد. ففي عام 602 هـ / 1205م ولي الحفصيون عمالة أفريقية، وقد ظل عبد الواحد الحفصي خاضعاً لسلطة الخليفة الموحيدي، ومع قدوم عام 627 هـ / 1229 م كان استيلاء الأمير أبي زكرياء الحفصي علي بلاد افريقية فمنذ هذا التاريخ أصبح أبو زكريا أميراً وبإيعه أشياخ الموحيدين الكبراء، وقد اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم؛ انظر: ابن القطان المراكشي، ابومحمد حسن بن علي الكتامي: جزء من كتاب [نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان] ، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ص32؛ ابن قنفذ القسنطيني، ابوالعباس احمد بن حسين بن علي: الفارسية في ميادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عيد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1968 م، ص131، 132؛ الأبي، ابو عبدالله بن محمد بن خليفة الوشنتاني، إكمال إكمال المعلم، المكتبة الخديوية، القاهرة 1328هـ، ج5، 264، ابن الخطيب، لسان الدين ابو عبدالله محمد، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية 1975-1977م؛ ج1، 310، 311؛ ابن ابي زرع، ابوالحسن علي بن عبدالله الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م، ص233، 271؛ القرماني، احمد بن يوسف، أخبار الدول وأثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1992م، ج2، ص411-413؛ علي محمد الصلابي، إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحيدين، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى 2004م، ص345.

ويبدو أن سكان طرابلس قد ضاقوا ذرعاً بالثورات التي عاصروها أيام قراقوش، وابن غانية، وأحبوا حياة الاستقرار التي بدأت طلائعها تبدو مع قيام الدولة الحفصية التي أعادت بناء المدينة، فنشطت حركة التجارة البحرية، وفي ظل الاستقرار أيضاً ظهر عدد من الأعلام الذين اشتهروا في ليبيا وتونس*

وخلال العهد الحفصي فإن الليبيين لم يهملوا مدنها فقد قاموا بتحسين طرابلس وترميم سورها، وأقاموا حامية في طرابلس للدفاع عنها وقت الحاجة، وكان أغلبهم من مجريس، وكان موطنهم جنزور، كما يشير إلى ذلك التجاني بقوله: أجناد مرسومون في ديوان العطاء، كلهم من أهلها قد عدوا هنالك جنداً لمن يلي طرابلس، ورسم لهم عطاء يقبضونه من خراج طرابلس فكانوا يذيقون الأعراب شراً، ويكفون عنهم فساداً كثيراً وضراً⁽¹⁾. وخلال القرنين الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر واجهتنا مشكلة ندرة المعلومات الخاصة بالوضع السياسي في المناطق الداخلية الليبية فمن أجل تأمين استقرار إفريقية نقل الموحدون القبائل الهلالية إلى المغرب الأقصى حيث انتقلت فروع من قبائل بني سليم من برقة إلى طرابلس الغرب وتونس الحالية، وحتى منطقة فزان . إذن فقد تناولنا في هذا الفصل المدلول الاصطلاحي .

لليبيا وكيف كان معروفاً منذ القدم، كما تناولنا مصطلح إقليم طرابلس وبرقة وكيف كانا هما المصطلحان اللذان لهما سبق البروز والاستمرار في الاستعمال للإشارة للمناطق الليبية خاصة الشمالية منها لاسيما في العصر الإسلامي. كما وضحنا في هذا الفصل تضاريس السطح المتنوعة في ليبيا، حيث أن الأراضي الليبية احتوت على السواحل الطويلة والسهول والمرتفعات بالإضافة للصحاري الممتدة والواحات. كما تناولنا تنوع ظروف المناخ في تلك المنطقة ما بين مناخ البحر المتوسط المعتدل إلى مناخ الصحراء شديد الحرارة والجفاف، وكيف كان لهذا التنوع في التضاريس والمناخ من أثر على توزيع الغطاء النباتي والثروة الحيوانية والتوزيع السكاني في مناطق ليبيا المختلفة. كذلك درسنا كيف أن المدن والمناطق الليبية المختلفة كانت محل تأثير وتأثر في الأحداث السياسية الكبرى، التي مرت بها منطقة بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى على وجه الخصوص. كما تطرقنا في هذا الفصل للتنوع الديموغرافي والسكاني الذي اتسمت به المدن والمناطق الليبية المختلفة قبيل الهجرة الهلالية، وسنرى كيف تأثرت التجارة البرية في ليبيا بتلك الظروف والأوضاع الطبيعية والسياسية والديموغرافية التي عاصرتها تلك المناطق خلال فترة البحث، وذلك في الفصول القادمة.

* شهدت طرابلس بعض التقلبات السياسية في العهد الحفصي فكانت تارة يغلب عليها الاستقلال الذاتي بالتدبير مثلما حدث عندما استقل بنو ثابت (الوشاحيون من عرب بني سليم) بالمدينة وظلت تتأرجح طوال أيام حكمهم بين التبعية والاستقلال ، فحينما يستقلون بها وحينما آخر يقدمون طاعتهم للسلطان الحفصي في تونس ، وتارة أخرى تكون طرابلس قاعدة لفرع حفصي معارض يتطلع إلى تولى رئاسة البيت الحفصي ، وتارة أخرى تظرب امورها ويضيع وضعها الاستقلالي لتصبح مجددا ولاية تابعة للحفصيين ؛ انظر: ابن خلدون، العبر ، ج6، ص85 ، 368؛ الطاهر احمد الزاوي ، ولاية طرابلس من الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي ، دار الفتح للطباعة ، بيروت ، 1970م، ص130.

⁽¹⁾ التجاني ، رحلة التجاني ، ص 216 ، 217.

الفصل الثاني

مصادر النشاط التجاري في ليبيا

1.2. المصادر الداخلية

لقد تباينت الأحوال الطبيعية والإنتاجية بمختلف أقاليم ليبيا بحسب درجة قساوة المناخ، وتبعاته على الحياة الاقتصادية، حيث برز إقليم طرابلس في الشمال الغربي، وبرقة في الشمال الشرقي كمنطقتين اقتصاديتين متميزتين عن غيرهما، في حين برزت المنطقة المحصورة فيما بين تاورغاء، و اجدايية كصحراء قاحلة غير قابلة للاستغلال الزراعي، وبدرجة أقل المناطق الجنوبية، والتي لم تكن قادرة على الإنتاج إلا في نطاق الواحات⁽¹⁾، وهذا ما جعل الإنتاج الزراعي أو الفلاحي في ليبيا لا يعرف انتظاماً، وذلك بسبب تذبذب تساقط الأمطار، والتي بدونها تتعرض المنطقة لحالة من الجفاف، مما يؤثر بالتالي على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية⁽²⁾.

وإذا كان هذا الإطار الطبيعي العام للموارد الطبيعية، فإن الجغرافيين والرحالة⁽³⁾، قد اهتموا كثيراً برصد معالم ووضعية البلاد، سواء من الناحية الطبيعية، خاصة مصادر المياه ومناطق الجفاف الصحراوي، أو وضعية الإنتاج الفلاحي، إلى جانب النشاط الرعوي، وتربية الحيوانات المنتشرة في كل البلاد، كما دونوا ملاحظاتهم حول أماكن تواجد بعض المعادن وطرق استغلالها، وبعض أنواع الصناعات التي عرفها الناس في هذه الأقاليم في ذلك الوقت، دون أن ينسوا التطرق إلى وصف مظاهر كل من التبادل التجاري المحلي والخارجي، مما يسمح بتكوين نظرة شمولية على الجانب الاقتصادي لهذه المنطقة خلال تلك الرحلة، حيث وإن التوافق قد جمع بين الشهادات المختلفة لهؤلاء الجغرافيين والرحالة، ولم يبرز الاختلاف إلا حسب الفصول التي صادفت مرورهم عبر الإقليمين طرابلس، وبرقة⁽⁴⁾، وقد كان للعوامل الجغرافية الأثر الأكبر في تحديد الجوانب الاقتصادية⁽⁵⁾.

(1) الحموي، الروض المعطار، ج5، ص ص 341 ، 342.

(2) البرغوثي، تاريخ ليبيا الإسلامي، ص 16.

(3) البعقوبي، البلدان، ص 343؛ ابن حوقل، الروض المعطار، ص ص 69، 70؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 298؛ التجاني، رحلة التجاني، ص ص 258، 259؛ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 655.

(4) محمد الحراري عبدالسلام، ليبيا عبر كتابات الرحالة المغاربة، ط3، دار القلم، 2008، ص 164.

(5) زغلول، المغرب العربي، ج1، ص 100؛ محمد عابد الجابري، العصبية والدولة - معالم خلدونية في التاريخ الاسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م، ص18.

إذ يبدو من الوهلة الأولى أن العماد الاقتصادي للسكان في إقليم طرابلس وبرقة كان يتمحور حول ثلاثة جوانب اقتصادية، تمثلت في الزراعة⁽¹⁾، والرعي⁽²⁾، والصناعة، وبعض الحرف الأخرى⁽³⁾، ومن الجدير بالذكر أن نونه إلى أن هذا لم يكن مطلقاً، فقد تداخلت وسائل المعاش فيما بينها على أرض الواقع.

1.1.2. الزراعة

هناك سمة مميزة للنشاط الاقتصادي في بلاد المغرب تتمثل في ثنائية: الفلاحة والتجارة، فقد أدى النشاط الزراعي لبلاد المغرب دوراً أساسياً ومهماً في نشاط الحركة التجارية لهذه البلاد، فقد سجلت المنتجات الزراعية في مقدمة السلع التجارية – لاسيما الفائضة عن حاجة الاستهلاك المحلي⁽⁴⁾.

وكانت المزروعات مختلفة بطبيعة الحال من منطقة لأخرى، بحسب الارتفاع وطبيعة الأرض والعامل البشري وكميات الأمطار وكميات المياه الجوفية⁽⁵⁾. ومن تلك العوامل درجة خصوبة التربة التي تحكمت في تنوع المزروعات وكثافتها⁽⁶⁾؛ حيث يمتد إقليم تربة البحر المتوسط على الأجزاء الساحلية في ليبيا حيث يعتبر من أفضل أنواع التربة لممارسة الزراعة، خاصة بمنطقة الجبل الأخضر التي تنمو فيه نباتات كثيفة⁽⁷⁾. وإذا كانت التربة في المنطقة الشمالية المحاذية للبحر المتوسط هي الأكثر خصوبة وملائمة للزراعة، فهذا لا يعني أنها في بقية الأقاليم

(1) البعقوبي، البلدان، ص 343، 345، 346.

(2) المصدر السابق، ص 343؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69، 70.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69، 71، 72.

(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص 70، 71، الحبيب الجنحاني: المجتمع العربي الإسلامي " الحياة الاقتصادية والاجتماعية"، سلسلة عالم المعرفة العدد 319، الكويت 2005م، ص 86؛ صباح إبراهيم الشبخلي: النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن 4 هـ دراسة من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط العدد 6 ربيع 1998م، ص 13، 14.

(5) البكري: معجم ما استعجم، ص 8-10، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن 1906م، ص 224-226، البعقوبي: البلدان، مطبعة ليدن 1890م، ص 212، 213، جورج مارسيل: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ص 89، 90، ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 112، 113.

(6) بصرت بعض كتب الفلاحة التربة في عشرة أنواع هي: "الليننة والغليظة والسوداء والبيضاء والحرشاء والجبلية والرملية والكدنة والحمراء والصفراء..". وبيئت أن لكل نوع من هذه الاراضى نباتٌ يوجد فيه، وعملٌ وتديبير خاصٌ به غير = والملاحظ أن هذا التصنيف اعتمد على حجم الحبيبات المكونة للتربة ولونها في وقتٍ واحدٍ؛ انظر: ابن بصال: كتاب الفلاحة، نشره خوسيه مارية مياس بيكروسا، مطبعة كرىماديس، تطوان، المغرب 1955م، ص 41؛ التجيبي: اختصارات من كتاب الفلاحة، تحقيق أحمد الطاهيري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 2001م، ص 80.

(7) طريح: جغرافية ليبيا، ص 138. تشكلت تربة هذا الإقليم من تقنت الصخور: الجيرية والرملية، وقليل منها منقول بواسطة الأنهار القصيرة السريعة الجريان. وتعتبر تربة الترس (Tirs) من أكثر التربات انتشاراً بهذا الإقليم، وهي موجودة في بعض المناطق السهلية المنخفضة، ومن خصائصها أنها صلصالية، لونها مائل إلى السمرة، تتشقق في فصل الجفاف، لتمامك ذراتها الدقيقة، كما أنها فقيرة إلى عنصر البوتاس، غنية بأكسيد الحديد. وتتركز في سفوح هضاب الإقليم، التربة الجيرية المفتتة من الجبال، كما تنتشر به التربة السوداء التي اكتسبت سوادها من تراكم وتحلل النباتات في العصور القديمة، وهي تربة جيدة الخصوبة نجدها على ضفاف الأودية في الغالب، وبهذا الإقليم أيضاً تربة صلصالية خصبة غنية بمركبات البوتاس، يغلب عليها اللون الأحمر، وهي تنتشر في سهول الأنهار. وتتميز التربة في بعض مناطق هذا الإقليم باللون البني نتيجة وجود نسبة من المواد العضوية، وقد ترتفع فيها نسبة الطين أحياناً، وهي تعطي إنتاجاً وفيراً، إذا وجدت الري والعناية اللازمين؛ انظر: رفلة فليب واحمد سامى مصطفى، جغرافية الوطن العربي دراسة طبيعية اقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 4، 1970م، ص 36؛ سعودى محمد عبدالغنى: الوطن العربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، دت، ص 61، 62.

غير صالحة تماماً، لكن الزراعة فيها ربما تحتاج إلى شروط خاصة، وعناية أكبر⁽¹⁾. فقد عُرفت المنطقة الجنوبية من بلاد المغرب، بأنها صحراء واسعة الأرجاء، تربتها رملية، "...سائلة تنقلها الرياح من مكان إلى مكان، وليس لأحد بها مستقر، لا اعتدال الرمال عليها، وكثرة جري الرياح بها..."، وهذه المنطقة "...لا تُنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة..."، لكنها لا تخلو من بعض المناطق التي اشتهرت بوجود الزراعة فيها، حيث توجد في الصحراء أيضاً بعض الأراضي الطينية، حول الأودية. ولم تسلم الواحات، بدورها من اعتداء الرمال عليها، حيث حولت بعضها إلى مناطق قاحلة، مثل ما هو حال واحة غدامس التي: "...لم تكن صحراء، وإنما كانت خصيبة عامرة..."⁽²⁾. وقد تطرق الجغرافيون خلال حديثهم عن بعض المدن في بلاد المغرب، لموضوع التربة، فوصف ابن حوقل النصيبي – الذي زار بلاد المغرب بين سنتي (330هـ/941م و340هـ/951م) – تربة مدينة برقة بأنها "...جمراء خلقية..."، والخلوقية من الخلق، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره، وتغلب عليه الحمرة والصفرة، وقد ذكر كل من الشريف الإدريسي (ت548هـ/1154م)، ومحمد بن عبد المنعم الحميري (ت727هـ/1327م)، نفس الوصف لتربة هذه المدينة، غير أن صاحب نزهة المشتاق أضاف أن هذه التربة كانت مشهورة تخرج من برقة "...فينتفع بها الناس ويتعالجون..." واشتهر في مدينة أطرابلس (طرابلس) فحص، خصب التربة، كان يسمى فحص "سوجين"، "...يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة، وهم يقولون فحص سوجين يصيب سنة في سنين..."⁽³⁾.

كما تأثرت توزيع ونوعية المزروعات في ليبيا بنوعية ووفرة مصادر الري المختلفة، حيث اعتمد سكان المناطق الليبية في سقى وري زراعتهم على عدة مصادر للمياه، والتي منها: مياه الأمطار غير أن الاعتماد عليها كان قليلاً بالنسبة للأشجار المثمرة، والمحاصيل الأخرى عدا الحبوب التي كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على مياه الأمطار التي تسقط في المناطق الساحلية، وبسبب تذبذب الأمطار، والجفاف والقحط نتيجة بوار الأرض، ما يؤدي بالتالي قلة الإنتاج الزراعي والحيواني أيضاً، وذلك لما للماء من أهمية كبيرة في حياة النبات والحيوان معاً⁽⁴⁾. ولقد أسس السكان المواجه⁽⁵⁾ والصحاري لحفظ مياه الأمطار المستخدمة في الزراعة، وخاصة زراعة الأشجار المثمرة التي تتطلب كميات كبيرة من المياه.

(1) صلاح الدين على الشامي، الوطن العربي دراسة جغرافية، منشأة المعارف، الاسكندرية مصر، ط4، 1996، ص102.

(2) مجهول، الاستبصار، ص32؛ الإدريسي: نزهة المشتاق في آتراق الآفاق، ج1، ص121-122؛ ابن خلدون: العبر، ج1، ص109، 110.

(3) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره البارون دوسلان، الجزائر 1857م، ص13؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص69.

(4) التجاني: رحلة التجاني، ص183.

(5) المواجه: عبارة عن حفرة في الأرض عمودية مستطيلة الشكل، يتخذ شكل القارورة المستديرة القاعدة الضيقة الفم، ويضع المواجه بعد حفره إلى التهيئة فيبنى القاع والجدران بالحجارة، وقد تطلّى بالملاط لتصبح كثيمة تمنع تسرب الماء المخزن في الطبقات الأرضية المتصلة بها، ويتم اختيار موضع حفره بعناية بعيداً عن الخنادق والمراحيض والآبار حتى تبقى مياهه نظيفة وصالحة للشرب. وكانت هذه الخزانات منتشرة ومعروفة منذ عهد الفينيقيين ومن بعدهم الرومان، واستمر وجودها وازدهارها بعد الفتح الإسلامي للمغرب. والملاحظ أن المصادر سميت الخزان الباطني بأسماء كثيرة فهو الماغل والماجن والصحريج وبئر المطر والحوض والفسقية والجب، لكن هذه الأسماء لا تدل على شيء واحد دائماً، فقد أكد محمد بن عميرة وجود فرق بين المصطلحات الثلاث الصحريج والماجل والجب التي تترجم كل منها بـ (bassain, Reservoir, Citerne) وإن كانت جميعها تستخدم لتخزين ماء المطر، لكن الضبط الدقيق لهذه المصطلحات يبقى أمراً صعباً، لاختلاف التسميات باختلاف المناطق، كما أن هذه الأسماء كانت تتغير مع الزمن؛ انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص298؛ ابن وحشية ابوبكر احمد بن علي بن قيس الكسداني: الفلاحة النبطية، ج2، تحقيق:

كما كانت هناك أيضاً الخزانات التي تملئ بالماء عند نزول المطر، وتفرغ بعد ذلك⁽¹⁾.

أما الآبار فيلاحظ أن الصحراء الكبرى التي تتقاسمها كلٌّ من الجزائر وتونس وليبيا تحوي مخزوناً مائياً ضخماً، تجمعت مياهه خلال العصور المطيرة قبل عشرات الآلاف من السنين. ويتم استغلال المياه الجوفية عن طريق العيون التي تندفع من خلالها هذه المياه الى السطح، أو بطريقة حفر الآبار بحثاً عنها، وهذه مُكلفةٌ لأنها تحتاج إلى الكثير من الجهد والنفقات في حفر الآبار وإلى الآلات لرفع المياه، وكانت الآبار معروفة ببلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي، فقد لاحظ اليعقوبي أن في مدينة برقة آباراً للروم قديمة، واستمر وجودها بعد ذلك⁽²⁾.

وتحدثت المصادر عن انتشار السواني⁽³⁾ المستخدمة في رفع المياه من الآبار في المناطق الليبية، وقد أخبر الإدريسي (ت548هـ/1154م)، أن قصر اليهودية الواقع في منطقة طرابلس، فيه زراعات قائمة على مياه تُستخرج بالسواني من الآبار، وأن قصر "توكره" الواقع غرب ظلميته أحاطت به أرض عامرة: "...وسوان يُزرع عليها القطاني والشعراء محيطة بها"، أما مدينتنا أجدابية وبرقة اللتان لم يكن بهما ماءً جارٍ، فكانت "...مياههم من المواجهل والسواني التي يزرعون عليها قليل من الحنطة، والأكثر الشعير، وضروب من القطاني والحبوب"⁽⁴⁾.

وقد تحدث البكري عن مدينة ودان، التي كان زرعها يسقى بالنضح، والنضح لغة هو الرش بالدلو، غير أن هذه الآبار لم تكن تخصص للسقي إلا في بعض الحالات النادرة، حيث تكون المنطقة قليلة الماء مثل ودان الواقعة في الصحراء، كما أن الحقل الذي يسقى بالدلو يجب أن يكون صغيراً، لأن سقي حقل كبير بالدلو أمرٌ مستحيل⁽⁵⁾.

توفيق مهند ، منشورات المعهد العلمي للدراسات العربية بدمشق، دمشق، 1993م، ص202؛ الونشريسي احمد بن يحيى :المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والانديس والمغرب ،ج2، تحقيق:محمد حجي وآخرون، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 1401هـ/1981م، ص431 ؛ الفرطاسي ، ابوالعباس احمد بن محمد بن بكر النفوسى ، القسمة واصول الارضيين ، تحقيق:بكير بن محمد الشيخ بلحاج ومحمد بن صالح ناصر،المطبعة العربية،غرداية الجزائر ،ط2، 1997م، ص227؛

⁽¹⁾ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص298، 311.

⁽²⁾ التجاني: رحلة التجاني، ص119، 186، 315-318، 309، 311.

⁽³⁾ السواني: كانت العجلات التي تُحركها الدواب في مدارٍ، لرفع الماء ببلاد المغرب، تسمى بثلاثة أسماء هي: الدّولاب، أو الناعورة، أو السانية، مع ملاحظة أن مدلولات كلمة "سانية" قد اختلفت في المصادر، فهي في لسان العرب؛ "ما يُسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره"، بمعنى أنها يمكن أن تُطلق على الحيوان، بينما كان هذا اللفظ في اصطلاح الأندلسيين يُطلق على الدواليب نفسها، حيث كانوا يقولون في أمثالهم بالعافية: "بحال حمار السانية يمشي فارغ ويجي=فارغ"، فقصدوا بالسانية الآلة، وليس الدابة التي تُحركت، وانفرد صاحب كتاب الاستبصار بمعنى آخر لكلمة سانية، حيث قال في حديثه عن مدينة فاس: "...وتطرد فيها جداول ما لا تحصى تخترق كلتي المدينتين، تُسمى بالسواني، لايد لكل دارٍ من ديار المدينتين منها"، مما يعني أن كلمة السواني كانت تطلق هناك على جداول المياه؛ انظر: الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، ص311، 314؛الزجالي ،عبدالله بن احمد:أمثال العوام في الاندلس، مستخرج من كتابه:رى الاوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام ،ج2،تحقيق:محمد بن شريفة ، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية ، المملكة المغربية،طبعة 1971م،ص152؛ الاشبيلى ، ابوزكريا يحيى بن محمد بن احمد الاشبيلى: كتاب الفلاحة ج1،مردية،طبعة1802هـ،ص147،146؛ ابن منظور محمد بن مكرم الافريقي المصري:لسان العرب المحيط، مجلد2، دار صادر ،بيروت،دست،ص225؛مجهول:الاستبصار،ص21 .

⁽⁴⁾ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص315.

⁽⁵⁾ البكري ، المسالك والممالك،ج2،ص659؛ الذرة تزرع بها اعتمادا على مياه الآبار الكثيرة،الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص312 ؛ ابن منظور:لسان العرب المحيط،ج2، ص618.

إلى جانب الآبار، ومياه الأمطار اعتمد السكان والمزارعون منهم على مصدر آخر للمياه في سقي أراضيهم، وخاصة سكان المناطق الجبلية بالذات، حيث اعتمدوا على تلك السيول المنحدرة من الجبال نتيجة سقوط المطر، حيث تتجمع هذه المياه في الابطح التي تحيط بالمزارع، وتخرق هذه السيول من المياه المتجمعة مذناب أو مسارب تسير معها حتى تصل المزارع، أو الأراضي المزروعة فترويها، ويذكر التجاني: أنه كان هناك مجموعة من الإحساء ذات المياه العذبة، التي يحيط بها النخيل. وهناك طريقة أخرى لحفظ مياه الأمطار، وهي إقامة السدود حيث حفظت هذه المياه الفائضة، وما يسمى بالفيضانات كما هو الحال حول التخوم الطرابلسية، حيث أستغلّت هذه المياه في زراعة الذرة البيضاء⁽¹⁾.

ويلاحظ تأثير التربة والمياه على توزيع المناطق الزراعية في ليبيا، حيث نرى أن المصادر قد ركزت بشكل ملحوظ على وجود تنوع وكثافة للمزروعات في المدن والمناطق الساحلية الشمالية ذات التربة الخصبة وذات نسبة الأمطار العالية. فوجد مثلاً الإدريسي يركز على كثافة وتنوع تلك الزراعات في مدينة طرابلس الساحلية فيقول: "ومدينة طرابلس من جميع جهاتها كثيرة شجر الزيتون والتين وبها فواكه جمّة"⁽²⁾. كما يوضح أن مدينة سرت بها زراعات أيضاً مع ذكره قربها من البحر: "ومدينة سرت بينها وبين البحر ميلان وعليها سور تراب وما استدار بها رمل وبها بقايا نخيل ولا زيتون بها وبها كثير من شجر التوت وبقايا شجر التين أيضا كثير"⁽³⁾.

وكان هناك العديد من المحاصيل والمزروعات يمكنها أن تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في الأنشطة التجارية الليبية⁽⁴⁾ ومنها؛ الحبوب مثل القمح أو الحنطة والشعير والذرة وضروب من

(1) التجاني ، رحلة التجاني، ص309، 310.

(2) الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص297.

(3) المصدر السابق ، ج1، ص298.

(4) عن مواعيد وتخصيب الفواكه وجمع بعض المحاصيل كالزيتون في تلك المنطقة بحدثنا الحسن الوزان فيقول: وفي آذار (مارس) تهب رياح عنيفة من الغرب وفي الشمال تخصب الأرض وتكون الأشجار مزهرة. وفي نيسان (ابريل) وعندما تمر الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر أيار (مايو) تقطف ثمار التين الناضجة كما في الصيف. ويأخذ العنب في النضوج = = في الأسبوع الثالث من حزيران. وتنضج كل ثمار التفاح والكمثرى والمشمش والخوخ في حزيران وتموز (يونيه ويوليه) وتكون ثمار التين الخريفي ناضجة في آب (اغسطس) وكذلك العنب. ولكن تكثر في أيلول (سبتمبر) ثمار التين والدراق. وبعد منتصف شهر آب (اغسطس) يأخذ الناس بتجفيف العنب تحت الشمس. وإذا هطل المطر في أيلول (سبتمبر) يصنع من العنب الباقي خمر أو سلاف مطبوخ، ولا سيما في إقليم الريف. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) تجني ثمار التفاح والرمال والسرطل وأخيراً الزيتون في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، ولا يتم جني الزيتون بواسطة سلم يركز على الشجرة ويقطف الثمر باليد، كما يحدث في أوروبا، إذ لا يمكن صنع سلال عظيمة الطول تكفي للوصول إلى أعالي هذه الأشجار، لأن أشجار الزيتون في هذه المنطقة ضخمة وكبيرة جداً، ولا سيما في قيصرية وموريتانيا. ولكن أشجار الزيتون في تونس تكون مماثلة لأشجار أوروبا. وعندما يبدأ الناس جني الزيتون يصعدون إلى الأشجار ومعهم عصي طويلة جداً يضربون بها الأغصان لإسقاط الثمار. ويعرفون أن في صنعهم هذا ضرراً للأشجار لأنهم بهذه الطريقة يتلفون البراعم وكثيراً من الأغصان الصغيرة الفتية. فضلاً عن ذلك يحدث أن يكون الزيتون في إفريقيا وفيراً جداً في عام وفي عام آخر يفترقه الناس فلا يرون حبة واحدة. وهناك بعض أنواع الزيتون الكبيرة لا تصلح لصنع الزيت ولكن تؤكل مصبرة في كل الفصول؛ انظر ، الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 2005م، ص88.

القطاني. وقد انتشرت زراعة الشعير في مناطق الطبيعة الجافة والمناطق الجبلية والسهول الساحلية، كما وجدت في هذه المناطق نسبة لا بأس بها من الذرة والدخان. كذلك كان من أهم المنتجات الزراعية في ليبيا التمور وكانت من الأنواع الممتازة التي يحسن أكلها بسبب أنها تكون طرية. وكذلك كان يزرع الزيتون في عدة مناطق ليبية⁽¹⁾. إلا أن النخيل لم يكن يزرع من أجل تموره فحسب، إذ كانت تستعمل جذوعه وأليافه وسعفه لصنع الحبال والسلال التي تستخدم في مجال التجارة البحرية⁽²⁾.

كما اشتهرت مناطق بلبيبا بإنتاج الفواكه مثل العنب والتين والرمان والموز والتفاح والكمثرى والخوخ⁽³⁾. وكانت فاكهتها مميزة في طيبها وجودتها وتفردتها عن باقي نظرائها في مناطق أخرى من المنطقة آنذاك⁽⁴⁾.

وقد كان شجر التوت له أهمية خاصة فيما تنتجه تلك المناطق من أنسجة حيث أنه غذاء دود القز الذي ينتج الحرير، وفي هذا السياق يذكر البكري أن شجر التوت كان كثيراً وذات نوعية جيدة يساهم في إنتاج حريراً مميزاً من حيث الجودة عن غيره من الحرير⁽⁵⁾، واشتهرت أيضاً هذه المناطق بالبستنة وزراعة الباستين، والتي احتوت على أنواعاً عديدة من النباتات العطرية والطبية والصيغية⁽⁶⁾، ومن الرياحين والنباتات العطرية وجد في مدينة طرابلس صنف من أصناف النرجس، يُوصف بأنه رقيق الورق رائحته فوحاء عطرة⁽⁷⁾. كما كانت هناك ما يشبه الغابات المتشابهة من شجر العرعر⁽⁸⁾ والصرو والخروع والابا والقصب وغير ذلك⁽⁹⁾، وظهر إلى جانب هذه النباتات، نباتات أخرى استخدمت كعقاقير، وأصباغ، كشجرة الطلح التي تشبه العرعر، وتنتج صمغاً شبيه بالمصطكى يستعمله العطارون، أو باعة العقاقير في إفريقية لتقليد المصطكى، نظراً

⁽¹⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص311؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص479.

⁽²⁾ البكري، معجم ما أستعجم، ص8-47، 10؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص310، 311؛ روبرت برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2، ص229؛ حسن خضير أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362 - 567 هـ / 973 - 1171 م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى دت، ص107، 108.

⁽³⁾ ابن حوقل، صورة الأرض، ص72؛ التجاني، رحلة التجاني، ص214، 215؛ العبدري، ابو عبدالله محمد بن احمد الحاجي رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، تحقيق: محمد الفاسي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ص184؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص480، 481.

⁽⁴⁾ التجاني، رحلة التجاني، ص122.

⁽⁵⁾ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، ص17.

⁽⁶⁾ ابن حوقل، صورة الأرض، ص85، 84؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص224-226؛ البكري، معجم ما أستعجم، ص32؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص277-279، 304؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص404؛ الحميري، الروض المعطار، ص299؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج2، ص248؛ روبرت برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، ج2، ص231؛ احمد الطويلي، في الحضارة العربية التونسية، دار المعارف بسوسة، تونس دت، ص13.

⁽⁷⁾ الحميري، الروض المعطار، ص299.

⁽⁸⁾ العرعر: شجرة كبيرة ورقها يشبه ورق السرو يقال له السرو الجبلي؛ انظر، مسالك الابصار، ص370.

⁽⁹⁾ التجاني، رحلة التجاني، ص312-316.

للشبه الكبير بينه وبين المصطكى في اللون والرائحة⁽¹⁾. كما كانت بعض المناطق الريفية الخصيبة جداً تزرع بالسفرجل، وقد تميز السفرجل المزروع في المناطق الليبية بأنه لا يوجد في بقاع الأرض مثله⁽²⁾.

كما كانت بعض المرتفعات ينتج منها الزعفران، مثل جبال غريان الذي كان ينتج منه الزعفران بكثرة، وهو متميز من حيث اللون والنوعية وأفضل بكثير وأعلى سعراً من الأنواع التي تجلب من مختلف أنحاء العالم، فإذا كان سعر زعفران اليونان أو تونس مثلاً يساوي في القاهرة عشر أشرفيات للرطل الواحد، فإن الرطل من زعفران غريان يساوي خمس عشرة أشرفية، وذلك حسبما رواه لي أحدهم الذي كان حاكماً في هذا الجبل. وقد قال لي هذا الشخص أن هذا الجبل كان دخله السنوي في عصر أمير طرابلس، مقدار ستين ألف دوبرل، وكان محصول الزعفران في أثناء حكمه، يبلغ ثلاثين قنطاراً، وهذا يمثل خمسة عشر حمل بغل⁽³⁾.

وقد عرفت بعض مناطق ليبيا زراعة القطن المنسوب الذي لا يجانسه صنف من أصناف القطن⁽⁴⁾. كما كان يزرع بالغيطن والأودية نوع من الشجر كان معروفاً آنذاك باسم (العشر) وهو شجر ناعم النبات شديد الخضرة يضرب إلى سواد ماء، وهو ينبت صعداً وله أوراق عظيمة ونور مشرق، وثمره أخضر كالاترج تملأ الواحدة يد حاملها وهي مملوءة بشيء يشبه القطن تسميه العرب الخرفع – بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء – ربما حشيت منه المرافق والوسائد، وربما صنع منه ثياباً أيضاً⁽⁵⁾. ولا ينبغي أن نهمل استغلال الموارد الطبيعية المتمثلة في الحلفاء والأسل والنخل البري، وقد كانت تستخدم في صناعة نسيج الحلفاء والسلال⁽⁶⁾.

وقد اهتم الجغرافيون المسلمون بمناطق تركيز المزروعات كثيراً في مصادرهم، فقد ذكر البكري الكثير من الخضار والزراعة في أكثر من مدينة من مدن الحيز الجغرافي لبحثنا⁽⁷⁾، كذلك يفعل الحميري⁽⁸⁾، كذلك المقدسي⁽⁹⁾، ثم الإدريسي⁽¹⁰⁾، وقد استمر هذا الخضار حتى نهاية القرن الثالث عشر وهذا يخالف بعض آراء الباحثين أن الغزوة الهلالية قد دمرت الزراعة. فقد كثرت

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 660.

(2) التجاني، رحلة التجاني، ص 308؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 480، 481.

(3) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 106، 479.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 311.

(5) التجاني، رحلة التجاني، ص 312، 313.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 285؛ روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص 232.

(7) البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 8 – 10.

(8) الحميري، الروض المعطار، ص 11، 32، 299، 578.

(9) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 224 – 226.

(10) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 279 – 281.

الزراعة والغراسات في عهد الأمير الحفصي أبو زكرياء⁽¹⁾. ويمكننا تقسيم التواجد الزراعي في ليبيا إلى منطقتين رئيسيتين هما منطقة الشمال الساحلي، ومنطقة الجنوب الصحراوي؛ والتي كانت المزروعات في كل من المنطقتين ذات طبيعة وخصائص تميزها عن الأخرى.

أما المنطقة الشمالية الساحلية فأول ما يقابلنا منها من ناحية الشرق مدينة برقة، والتي تذكر عنها المعلومات المصدرية أنها كانت على الأقل في فترة من فترات بحثنا، كان بها جبلان ذوات أشجار وثمار وعيون جارية وآبار⁽²⁾. كما يذكر اليعقوبي أن ساحل البحر الممتد لمدينة برقة، والذي يسمى (أجبة) كان به جنان ومزارع وثمار كثيرة⁽³⁾.

كما كان لمدينة أجدابية إنتاجها الزراعي، ولكنه يبدو أنه كان قليل، يقول عنها ابن حوقل: "واجدابية لها زرع بالبخس وليس بها ولا ببرقة ماءً جارٍ، وبها نخيل حسب كفايتهم وبمقدار حاجتهم". كذلك كانت مدينة (سرت) ولكنها كانت أكثر إنتاجاً من اجدابية "وسرت...بها قبائل من البربر، ولهم مزارع في نفس البر تُقصد نواحيها إذا مُطرت وتُنتجع مراعيها. ولها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال اجدابية ومالها في وقتنا هذا، وبها نخيلهم تُجتسى أرطابها، وليس بها من القسب والتمر ما تُذكرُ حاله لأن نخيلهم بقدر كفايتهم، ولهم أعناب وفواكه وأسعارهم صالحة على مرّ الأوقات"⁽⁴⁾.

ومن مراكز إنتاج المحاصيل الزراعية أو المزروعات المختلفة مدينة طرابلس ومحيطها، وقد كانت أشهر المدن إنتاجاً للفاكهة، حيث يذكر صاحب الاستبصار طرابلس بأنها كثيرة الفواكه. ويصفها ابن حوقل بأنها: "بها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره"⁽⁵⁾. كما كانت في فترة من فترات البحث على الأقل محاطة من جميع جهاتها بكثيرة من الشجر والبساتين⁽⁶⁾. أما من داخلها فلا تكاد دار منها تخلو من نخلة أو كرمة على اصطلاحهم، فإنهم يسمون شجرة التين الكرمة، والكرمة في اللغة إنما هي شجرة العنب، وقد جاء النهي عن تسميتها بذلك في الحديث الصحيح⁽⁷⁾.

كما ضم محيط إقليم طرابلس العديد من المناطق والقرى المزروعة بمحاصيل مختلفة، ومن تلك المناطق جبال غريان التي تبعد عن طرابلس بمقدار خمسين ميلاً تقريباً. وينبت فيه الكثير من المزروعات مثل الشعير والتمور والزيتون والزعفران، كما قلنا سابقاً⁽⁸⁾. وكذلك مجموعة من

¹ ابن قنفذ القسطنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 112، 113.

² اليعقوبي، البلدان، ص 132؛ أبي الفداء، تقويم البلدان، ص 137.

³ اليعقوبي، البلدان، ص 132.

⁴ ابن حوقل، صورة الارض، ص 70؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 298.

⁵ ابن حوقل، صورة الارض، ص 72.

⁶ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 297.

⁷ التجاني، رحلة التجاني، ص 246، 247.

⁸ الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص 479.

القرى مثل (قرية الغار) وهي قرية على حافة البحر - بالقرب من طرابلس - وتكثر فيها التمور، وأرضها قاحلة، ويزرع فيها قليل من الشعير الذي يتغذى به السكان؛ و(قرية صرمان) وهي قرية كبيرة أهلة بالسكان، قرب طرابلس القديمة، وتكثر فيها التمور، ولكن لا ينبت في أرضها غير الشعير. وقرية (زاوية ابن يربوع) وهي قرية أخرى لا تبعد كثيراً عن البحر، ينبت فيها القليل من القمح، ويظهر فيها كثير من النخيل. وقرية (جنزور: أو زنزور) وهي قرية قريبة من البحر على مسافة اثني عشر ميلاً من طرابلس، وهي خصيبة جداً بالتمور والرمان والسفرجل. كما كانت (زواغة) هي أكبر قرية في ذلك الموضع وأضخمها وبها نخل كثير ومنها يظهر للمتوسم بعض مباني طرابلس، وبينهما نحو خمسين ميلاً. بالإضافة لمنطقة (تاجوراء) وهي منطقة ريفية على مسافة ثلاثة عشر ميلاً تقريباً شرقي طرابلس، وفيها بضع قرى مع حدائق مزروعة بالنخيل وبأشجار مثمرة أخرى⁽¹⁾.

كما كان إقليم (مسلاته) الساحلي الذي يبعد عن طرابلس مسافة خمسة وثلاثين ميلاً، يحوي بعض القصور والقرى الكثيفة، التي يوجد بها كثير من النخيل ومن شجر الزيتون. وكذلك إقليم مصراتة الساحلي أيضاً الذي يبعد عن طرابلس بنحو مائة ميل، يشتمل على قصور وقرى يقع بعضها في السهل⁽²⁾.

كما كانت جربة جزيرة تقع قريبة من الشاطئ في أقصى شمال غرب المناطق الليبية، وتظهر فيها مزارع لا تحصى من النخيل والكرمة والزيتون وأشجار مثمرة أخرى⁽³⁾. ويتصل بجربة جربة إلى جهة المشرق جزيرة زيزوا وهي صغيرة جدا وفيها نخل وكروم⁽⁴⁾. أما منطقة الجنوب فكانت عبارة عن واحات صحراوية تتجمع حولها وفيها مدن سكانية ومراكز تجارية رئيسية واختصت بنوعية خاصة من المزروعات والإنتاج الزراعي كان أبرز ما فيه هو بروز النخيل والتمور كصنف رئيسي فيه.

وتعتبر منطقة ودان من تلك المناطق الجنوبية التي برزت كمناطق زراعية اختصت بزراعة وإنتاج التمور والذرة والتوت والتين؛ يقول عنها ابن حوقل: "وودان ناحية ومدينة في جنوب مدينة سرت، وكانت مضمومة إليها، وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجله، وإن كانت أوجله أوسع قسوباً وأفسح ناحية، فتمور ودان الرطبة العذبة وأرطابهم أغزر وأكثر"⁽⁵⁾. كما يقول أبي الفداء عنها: "وودان هذه ناحية في جنوبي سرت وهما قصران وبينهما رمية سهم والقصر الذي يلي البحر خال، والذي يلي البرية مسكون، ولها آبار كثيرة يزرعون بها

⁽¹⁾ التجاني، رحلة التجاني، ص211-215، 319؛ العبدري، رحلة العبدري، ص184؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص480، 481.

⁽²⁾ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص482.

⁽³⁾ المصدر السابق، ص466.

⁽⁴⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص306.

⁽⁵⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص70.

الذرة وبغريها غابات وبها توت وتين ونخيل"⁽¹⁾. ويقول الإدريسي: " وودان جزائر نخل متصلة وعمارات كثيرة ... ولها آبار كثيرة ويزرعون بها الذرة وبغريها غابات وحولها شجر التوت كثير وشجر تين ذاهب ونخل كثير وتمور لينة حلوة أما وإن كانت تمور أوجلة أكثر فتمور ودان أطيب ومنها يدخل إلى بلاد السودان وغيرها"⁽²⁾.

ومن تلك المناطق الصحراوية أو الواحات الجنوبية منطقة أوجلة، حيث يقول عنها ابن حوقل: "جزيرة أوجله منها على أيام بين غربها وجنوبها، وهي ناحية ذات نخيل عظيمة وغللات من التمر جسيمة"⁽³⁾؛ ويقول عنها العبدري رايماً عن البكري: "أوجلة مدينة عامرة كثيرة النخل، وأوجلة اسم الناحية، واسم المدينة أرزاقية، وأوجلة وقرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه"⁽⁴⁾، ويذكرها الإدريسي أيضاً فيقول: "...وهي في ناحية البرية يطيف بها نخل وغللات لأهلها"⁽⁵⁾.

ومن تلك المراكز الزراعية الصحراوية مدينة زويلة، تقول عنها المعلومات المصدرية: " ..هي ارض نخل ومزارع ذرة وغيرها"، "ولها نخل كثير وتمرها حسن"⁽⁶⁾. كما كانت غدامس أيضاً منطقة كبيرة سكانها أغنياء يملكون أموالاً وبساتين من نخيل. كذلك كانت فزان هي أيضاً منطقة كبيرة تقوم فيها قصور ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء، بالمال وبحدائق النخيل"⁽⁷⁾.

من خلال ما سبق يتضح أن الانتاج الزراعي في المدن والمناطق الليبية كان متنوع من حيث نوعية الأصناف الزراعية والمحاصيل التي كانت تنتجها تلك المناطق، وقد اتضح أن هذا التنوع كان نتاج عوامل كثيرة، منها تنوع العوامل الطبيعية مثل اختلاف التربة وقلة الموارد المائية أو توافرها من منطقة لأخرى بالإضافة للعامل المناخي، وقد نستخلص من ذلك أن هناك تركيز لانتاج المحاصيل والمزروعات المختلفة في المناطق الشمالية الساحلية ذات التربة الخصبة في بعض مناطقها، وذات الوفرة النوعية لمياه الري، بالمقارنة بالمناطق الجنوبية الصحراوية التي تعتبر نادرة المزروعات فيما عدا بعض الواحات المتناثرة في تلك الانحاء. حيث تميز الشمال بانتاج العديد من المحاصيل والمزروعات مثل الغلات والفواكه والنباتات العطرية والطبية. فيما ندر وجود بعض الغلات مثل الذرة والشعير وبروز التمور كمنتج رئيسي في المناطق الجنوبية الصحراوية. ومن ذلك نستنتج أنه بالطبع كانت المحاصيل والمنتجات الزراعية المختلفة سابقة الذكر قد شاركت بشكل

(1) أبي الفداء، تقويم البلدان، ص138.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص312.

(3) ابن حوقل، صورة الارض، ص70.

(4) العبدري، رحلة العبدري، ص202.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص312.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص313؛ اليعقوبي، فتوح البلدان، ص134.

(7) الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص516، 517.

رئيسي كإحدى السلع والبضائع الرئيسية في الأنشطة التجارية الليبية، خلال فترة بحثنا وهذا ما سنراه في الفصول القادمة.

2.1.2. الثروة الحيوانية

شهدت الاراضى الليبية وجود ثروة حيوانية لا بأس بها مقارنة ببقية مناطق الشمال الإفريقي، على الرغم من الظروف التي شهدتها المنطقة من حروب واضطرابات مثل الهجرة الهلالية، وحركة بني غانية، وحياة الترحال وعدم الاستقرار، وايضا الأضرار التي لحقت بالزراعة، أدت كل هذه الظروف إلى تركيز السكان على ممارسة حرفة الرعي إلى جانب الزراعة، وتربية الماشية بشكل كبير، وغالباً ما اقترنت الزراعة في الأرياف بتربية الماشية⁽¹⁾؛ وكذلك عرفت المنطقة الحيوانات الأخرى التي أستخدمت في عمليات عدة كالحروب، والتجارة، والنقل والمواصلات، كالخيل، والحياد العربية الأصيلة، والبغال، والحمير والإبل⁽²⁾.

وتصمت أغلب المصادر عن وصف أنواع الماشية في بلاد المغرب. وقد كان البربر يربون الماشية، فيكسب أهل العزّ والغلبة منهم الشاه والبقر، ويكسب أهل النجعة الإبل، كما كانوا يتخذون لباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، ويوتهم من الشعر والوبر، وكان أهل المدن يبيتون مواشيهم داخل المدينة، ويسرحونها خارجها نهاراً⁽³⁾.

ويبدو أن هناك مناطق اقتصت بتربية نوع معين من الماشية، فاقتصت مدينة "سرت" بلحوم الماعز، رغم وجود الإبل والغنم بها، وعُرفت مدينة "بونة" بكثرة أبقارها، وكانت قبائل "مزاتة" و"ضريسة" التي تسكن فحص مدينة "باغاية" يربون الإبل، ويضعون زمن الشتاء إلى الرمال، حيث لا مطر ولا ثلج، خوفاً على نتاج إبلهم. أما "رهانة" وهم قومٌ من البربر انتشروا في أطراف جبل "دمر" الذي يقع على ثلاث مراحل من جبل "نفوسة"، فقد ذكر الإدريسي (ت548هـ/1154م) أنهم اشتهروا بتربية الإبل دون غيرها⁽⁴⁾.

ومدينة برقة التي تميزت - حسب البكري - بكثرة الماشية، لملائمة مراعيها حتى كانت أكثر ذبائح أهل مصر منها، ويقول الحميري (ت727هـ/1327م): "إن أغنامها عظيمة الخلق، كثيرة الشحم، لذينة اللحم"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الماشية من الناحية اللغوية تقع على الإبل والبقر والغنم، والجمع مواشي؛ ولقد صنف الفلقتشندي الحيوانات في منطقة المغرب الأدنى إلى ثلاث أصناف: مواشي وطيور ووحوش، فالمواشي منها: الخيل العراب المشابهة لخيول برقة والحمير والإبل، والبقر والغنم، والطيور منها: الدجاج والأوز والحمام، والوحوش منها: الغزلان وبقر وحمير الوحش؛ انظر: الشماخي، ابو العباس احمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق: محمد حسن، تونس، 1979م، ص202؛ البكري، المسالك والممالك ج2، ص655؛ مجهول، الاستبصار، ص113، 112؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص85؛ الفلقتشندي، صيحة الأعرابي في صناعة الإنشاء، ص45.

⁽²⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص70.

⁽³⁾ ابن خلدون، العبر، ج6، ص116.

⁽⁴⁾ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج3، ص580.

⁽⁵⁾ الحميري، الروض المعطار، ص91؛ البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص146، 145.

ومن أشهر المراعي في ليبيا الجبل الأخضر، وكذلك كانت الحدود الغربية الليبية قريبة من مناطق رعي يبدو أنها كانت مصدر للماشية في الأراضي الليبية، مثل المناطق الجبلية الدائمة الخضرة كجبل زغوان⁽¹⁾ مثلاً الذي اشتهر بتربية الأغنام والأبقار والخيول، إلى جانب البغال، حيث يعتبر هذا الجبل المصدر الرئيسي لها، في منطقة المغرب الأدنى، واستخدمت هذه البغال في الحياة الاجتماعية اليومية كوسيلة جيدة للمواصلات، وفي حمل الأثقال ونقل المحاصيل⁽²⁾.

وكانت المواشي تُربى في الصحراء أيضاً، حيث اشتغلت قبائل "صنهاجة" بتربيتها منذ دهور قبل الفتح، وعليها كان اعتمادهم في معاشهم، فهم لم يعرفوا حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً، بل كان عيشهم من لحومها وألبانها "ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله"، لكنهم اقتصوا بتربية الإبل أكثر من غيرها، كما اشتهروا بكثرة أعدادهم، ويبدو أن القبائل التي تمارس الرعي المتنقل كانت كثيرة، لأن ابن خلدون يذكر أن عمران إفريقية والمغرب كان كله أو أكثره بدوياً، وأهله أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن في الجبال، ومن القبائل التي ذكرت المصادر أنها كانت تنتقل طلباً للنجعة في بلاد المغرب "قبيلة زناتة" التي أخذت من "...شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين"، وكانت بطونها التي استقرت في المغرب الأوسط بين تلمسان وتاهرت طاعنة ترتحل من مكان إلى مكان غيره⁽³⁾، وكانت صنهاجة الجنوب أكثر القبائل ارتحالاً في صحراء بلاد المغرب، يقول ابن خلدون:

"هذه الطبقة من صنهاجة هم الملمثون الموطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب أبعدها في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يُعرف أولها، فأصحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتبأذاً عن العمران، واستنناساً بالإنفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر..."⁽⁴⁾.

ويتضح من كتب الجغرافيا التي تحدثت عن بلاد المغرب كثرة المراعي، حيث لا تكاد تخلو منها منطقة واحدة، لكنها اختلفت في خصوبتها واتساعها وملاءمتها لأنواع الحيوانات، وقد لاحظ الإصطخري(ق4هـ/10م) أن برقة الواقعة في مستوٍ من الأرض، خصبة، يحيط بها من كل جانب بادية يسكنها طوائف البربر، وتحدث كل من البكري والحميري عن مراعيها التي تصلح بها السائمة، كما يذكر ابن الأثير أن العرب لما حلوا بأرض برقة وما ولاها سنة (442هـ/1050م) وجدوها بلاداً كثيرة المرعى. أما مراعي مدينة سرت فكانت ملائمة لتربية الماعز أكثر من الضأن، وهي تُقصد

(1) جبل غوان: جبل شديد البرولى بعد نحو ثلاثين ميلاً جنوب شرق تونس، كان مسكوناً في عهد الرومان، ومن زغوان أخذ الماء إلى قرطاج؛ انظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص104، 105.

(2) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص106.

(3) ابن خلدون، العبر، ج6، ص241، 242؛ اليعقوبي، البلدان، ص17؛ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص164.

(4) ابن خلدون، العبر، ج6، ص241؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994م، ج7، ص128؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص257.

وتُنتج إذا مُطرت؛ يقول عنها ابن حوقل: "...لها من وجوه الأموال والغلات والصدقات في سائمة الإبل والغنم ما يزيد على حال اجدابية"⁽¹⁾.

وتميزت المنطقة الجنوبية الواقعة بين بلاد المغرب ، وبلاد السودان، بكونها صحراء جافة تكاد المراعي تنعدم بها، ووصفها ابن حوقل بأنها "...مفاوز وبراري منقطعة قليلة المياه متعذرة المراعي لا تُسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورد والصدر..."، وأضاف الإدريسي أن أكثرها "...صحارٍ متصلةٌ غير عامرةٍ وجهاتٌ وحشةٌ وجبالٌ حرشٌ جردٌ لا نبات فيها، والماء بها قليل جداً، لا يوجد إلا في أصل جبلٍ أو في ما أطمأن من سبخها، وبالجملة أنه هناك قليل الوجود، يُتزوّد به من مكانٍ إلى مكانٍ..."، ولكن هذا لا يعني انعدام حياةٍ رعويةٍ في بعض المناطق منها، حيث أن المؤلف الأخير يقول أن: "...في هذه الصحاري المذكورة يقع أقوام رحالةٌ ينتقلون في أكنافها ويرعون في أدانيها وأطرافها ، وليس لهم ثبوتٌ في مكانٍ ولا مقامٍ بأرضٍ وإنما يقطعون دهرهم في الرحلة والانتقال دائماً، غير أنهم لا يخرجون عن حدودهم ولا يفارقون أرضهم ولا يمتزجون بغيرها ولا يطمنون إلى من جاورهم..."⁽²⁾.

وقد ينعكس الوضع السياسي على ازدهار تربية الماشية أو العكس؛ فمثلاً عمّ الرخاء بلاد المغرب وساد الأمن معظم أنحاءها في أيام الموحدين، وخاصة في فترة حكم الأمير "أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي" (533-580هـ/1138-1184م)، الذي "...كثرت الأموال في أيامه وتمهدت الطرقات وضُبت الثغور، وصلح أمر الناس بالبادية والحاضرة، فازدهرت تربية الماشية وتضاعفت أعدادها"⁽³⁾.

— الأغنام والماعز:

كان عدد الماعز في المنطقة قليل مقارنةً بالأغنام الضأن، وكان يتواجد الماعز في ودان التي يحتفظ السكان بها للاستفادة منها في ألبانها، واستخدام شعرها في صناعة الخيام ونسجها، يقول ابن الوزان عنها: "يملكون بعض الماعز، ولكنهم يربونها لحليها"⁽⁴⁾. وكانت الأغنام المنتشرة بالمنطقة بشكل عام تنتمي إلى سلالة توفر كميات كبيرة من الصوف، وكان صوف جربة يحظى بسمعه لا مثيل لها في بلاد المغرب بفضل نوعيته الرفيعة⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ الحميري ، الروض المعطار، ص91 ؛ الإصطخري ، المسالك والممالك ، ص33 ؛ ابن حوقل ، صورة الارض، ص70، 71 ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص295، 296.

⁽²⁾ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص109.

⁽³⁾ ابن ابي زرع ، الفاسي على ، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط، 1972م، ص206 ؛ خير الدين الزركلي ، الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980م.

⁽⁴⁾ الحسن الوزان ، وصف أفريقيا، ص489.

⁽⁵⁾ التجاني ، رحلة التجاني، ص122 ؛ الحسن الوزان ، وصف أفريقيا، ص265 ؛ روبر برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي

ومن غير المستبعد أن تكون المناطق الليبية قد عرفت ذلك النوع من الشياه التي كانت تتميز بالذنب القصير بأصل خلقتها، والتي وردت في كتب النوازل ذكرها. وقد أفتى السيوري⁽¹⁾ أن ذلك لا يعيها، ولا ينقص من ثمنها وبأنها تُجزء في الأضحية، وهي بلا شك الضأن ذات الذنب الرقيق التي كانت تعيش في المغرب القديم⁽²⁾.

وقد عرفت المنطقة حيواناً شبيهاً بالأغنام يسمى الدمان، يتواجد بكثرة في ليبيا، ويذكر أنه حيوان داجن يشبه الخروف في شكله، إلا أن قامته قامة حمار قصير، وأذناه طويلتان متدلّيتان، ويعتقد أنه هو الحيوان الذي يسمى باسم (التهري)، ويملك سكان طرابلس القطعان الكثيرة من هذا النوع من الأغنام، وينتفعون بها كثيراً، حيث يستخرجون منه كمية كبيرة من اللبن، ويصنعون منها الزبد والجبن، وتمتاز بأصوافها الجيدة القصيرة، والشيء الغريب في خلقتها أن إناث هذه الأغنام لها قرون بخلاف الذكور منها، وتمتاز غنم الدمان هذه بالهدوء، وتتكاثر في صحراء ليبيا بالذات⁽³⁾.

— الأبقار:

مما لا شك فيه أن هذه العناية قد أدت إلى ازدهار تربية البقر وزيادة أعدادها، حيث أشارت بعض المصادر إلى كثرتها في مناطق وفترات مختلفة، فتحدث ابن حوقل الذي زار المغرب بين سنتي 941هـ/941م و340هـ/951م، عن كثرة البقر ورخص ثمنه في المناطق الليبية⁽⁴⁾.

ومما يدل على النمو المطرد في أعداد الأبقار كصنف رئيسي من أصناف الماشية في المناطق الليبية، وجود مراكز رئيسية في المدن الليبية لدباغة جلود البقر، فقد ذكر الإدريسي عن برقة أنها كانت مركز رئيسياً لدباغة الجلود البقرية القادمة من أقصى الصحراء وواحاتها⁽⁵⁾.

ووجد نوعاً من البقر الصغير الحجم، عُرف في القديم بجنس "قائمة"، وسماه الحسن الوزان: "بقر الجبال"، لأنه انتشر فيها بكثرة، وقال إنه يتميز بقصر القائمة: "إلى حد أنه يشبه العجول التي بلغ سنّها العامين من البقر العادي، يستخدمها أهل الجبال في الحرث، ويدعون أنها قوية جداً وصبورة على التعب"⁽⁶⁾.

(1) أبو القاسم السيوري: هو عبد الخالق بن عبد الوارث؛ يقول عنه القاضي عياض: "قيرواني من ذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب والمعرفة بخلاف العلماء، وكان زاهداً فاضلاً دينياً نظاراً، وأية في الدرس والصبر عليه، لازم مدينة القيروان بعد خرابها، إلى أن مات بها سنة 460هـ/1068م؛ انظر: القاضي عياض، ابوالفضل عياض بن موسى، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ص326.

(2) البرزلي، ابى القاسم بن احمد البلوى التونسي، فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 2002م، ج1، ص605؛ الونشريسي، ابوالعباس احمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م. ج2، ص31؛ جوليان اندريه، تاريخ إفريقية الشمالية ج2، ترجمة محمد مزالي - بشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ط1، دبت، ص207.

(3) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص642، 643.

(4) ابن حوقل، صورة الارض، ص94، 95.

(5) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص311.

(6) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص264؛ جوليان، تاريخ إفريقية الشمالية ج1، ص207.

كما اشتهرت مناطق ليبية بوجود نوع من الأبقار يسمى البقر الوحشي، ومن تلك المناطق منطقة ساحلية تسمى المنهوشة يوجد بها قطعان من الأبقار الوحشية⁽¹⁾. ويبدو من أسمها أنها كانت الأبقار التي تربي وتعيش في الطبيعة بلا مالك لها.

— الخيول :

من الإشارات المصدرية الدالة على بروز الخيول كعنصر فعال في الأنشطة المختلفة لسكان الاقاليم الليبية قول الإدريسي: " ومن قافز إلى ظلميثة إلى لك هي لقبيلة من البربر متعربين يقال لهم مزاتة وزناتة وفزارة، وهم يركبون الخيول ويعتقلون الرماح الطوال". وهذا يدل على أن الخيول كانت وسيلة مواصلات رئيسية في تلك المنطقة، سواء أكان ذلك وقت السلم أو في وقت الحرب⁽²⁾.

وقد اهتم الفاطميون باقتناء الخيول، حيث امتلك الداعية "أبو عبد الله الشيعي" الكثير منها، وقد ذكر "أبو عبد الله الصنهاجي" أنه توجه إلى سجلماسة لإنقاذ "عبيد الله" وابنه، "بملاء الأرض من الخيل والرجال"، وعندما استنفذ عبيد الله قاده فرساً عتيقاً فركبه، وكان الشيعي يحرم الخيل، فيكتب على أفخاذها "الملك لله"، وهذه العادة معروفة ببلاد المغرب، حسب ما جاء في بعض فتاوى المعيار، التي أشارت إلى أن الخيول المحبسة في سبيل الله كانت تُوسم، فيكتب عليها "حبس الله".

ويقول المالكي أن "عبيد الله المهدي" حين غضب على أحد وزرائه رماه في إسطنبول الدواب تمشي عليه، فركضت على بطنه حتى مات، ويستنتج من هذه الرواية أنه كان يملك إسطبلات للدواب، وقد جهز ابنه أبا القاسم عندما أرسله لغزو مصر، بأعداد كبيرة من الخيل، قدرت بـ خمسمائة ألف فرس.

وكان بعض رجال "عبيد الله المهدي" يعتقدون أن خيله مقدسة، فيبيتونها في المساجد إذا خرجوا، ويروي ابن عذاري المراكشي، أنه قالوا لمن أنكر عليهم ذلك: "إن أرواثها وأبوالها طاهرة لأنها خيل المهدي"⁽³⁾.

وظلت الدولة الفاطمية تعتمد على خيول بلاد المغرب حتى بعد انتقال خلفائها إلى القاهرة، حيث أخرج "نصير الدولة" باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري (374 – 406هـ / 984 – 1016م)، هدية إلى الخليفة "الحاكم بأمر الله" في مصر، في سنة 405هـ / 1058م، كان فيها مائة فرس⁽⁴⁾. وليس من المستبعد أن تكون هذه الخيول من الأراضي الليبية، خاصة إذا ما علمنا أن منطقة

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص314، 315.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص313.

(3) ابو عبدالله محمد الصنهاجي ، أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق ، جلول احمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص19 ؛ ابن عذاري ، البيان المغرب، ج1 ، ص150 ؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص405؛ الونشريسي ، المعيار المغرب والجامع المغرب، مج7، ص218، 423.

(4) الزركلي ، الاعلام، ج2، ص41؛ ابن عذاري ، البيان المغرب، ج1، ص260.

جنوب طرابلس اشتهرت بتربية الخيول ، والتي كانت تصدر إلى اسبانيا (1). وقد انفرد الحسن الوزان بذكر خيول قصيرة قال إنها تنتشر في الجبال، لا تُصَفح حوافرها، وهي في غاية الخفة بحيث تقفز كالقط من أعلى إلى أسفل(2) ، لكن هذه الخيول لم تكن النوع الوحيد الذي انتشر في بلاد المغرب خلال فترة الدراسة، إذ وجدت إلى جانبها الخيول العربية الأصيلة، التي كان أول دخولها إلى بلاد المغرب مع الفاتحين، إلا أن أعدادها تزايدت بعد دخول الهلاليين للاراضي الليبية ، لأنهم كانوا يكسبون الكثير منها، وقد كتب "اليازوري"(ت450هـ/1058م) وزير الخليفة المستنصر الفاطمي صاحب مصر، إلى الأمير "المعز بن باديس الصنهاجي" (398 – 454هـ / 1008 – 1062م) ليخبره بإرسال الهلاليين إلى بلاد المغرب، فقال: "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"(3).

وقد تواجدت الخيول العربية بكثرة عند السكان العرب البدو في صحراء ليبيا، حيث يوجد الكثير منها، ولا يستعملونها إلا للصيد فقط، وكانوا يطعمونها لبن الناقة مرتين في النهار والليل،

(1) وقد لاحظ عمرو بن العاص رضي الله عنه عندما افتتح بلاد طرابلس سنة 22هـ/643م ، وفرة الخيل هناك، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يخبره بما أفاء الله عليه، و"أن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية وملوكها كثيرٌ وأهلها في عدد عظيم وأكثر ركوبهم الخيل"، ومما يدل على كثرة الخيل عند الفتح ما ذكره صاحب معالم الإيمان، أن الروم خرجوا في سببلة للقاء "عبد الله بن سعد بن أبي سرح"، ومعهم من الخيل ما لا يحصى، وكان ملكهم "جرجير" حاكم سببلة يركب برذوناً أشهب؛ ويذكر ابن عذاري أن: "عقبة بن نافع" حين خرج غازياً للروم والبربر – وهم إذ ذاك مجوس ونصارى – بمدينتي باغاية وقرطاجنة وما والاها، "أخذ من سبيهم وخيلهم شيئاً كثيراً"، وأنه غنم خيلاً لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها"، وكانت "من نتاج خيل أوراس المطل عليها". وقد اندهش العرب لقوة وصلابة هذه الخيول، وراحوا ينقلونها إلى المشرق، حيث كانوا يتنافسون على امتلاكها، ومن أمثلة ذلك ما يرويه "ابن عذاري" أن الفاتح "حسان بن النعمان" عندما عاد إلى المشرق، حمل معه أنواع الدواب والرقيق وسائر أنواع الأموال، فسلمه أمير مصر "عبد العزيز بن مروان" (ت85هـ/704م)، جميع ما كان معه من الخيل، وأثارت هذه الخيل اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك، فسأل عنها موسى بن نصير بعد عودته إلى المشرق، وقال له: "أي الخيل رأيتها في تلك البلاد أسبق؟ فأجابه موسى بقوله: الشُّقر". واستمر حمل الخيل إلى المشرق في فترات لاحقة، حيث خرج الأمير "عبيدة بن عبد الرحمن" من إفريقية سنة 115هـ/733م، "بالكثير من الخيل والدواب"؛ وقد ذكر عيون "محمد بن الأشعث" (ت149هـ/766م)، والي الخليفة العباسي المنصور على إفريقية، عندما عادوا إليه من عسكر إمام الإباضية "أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميري" (ت144هـ/761م)، في جملة ما ذكره أن "خيلهم من نتاجهم"، ويستنتج من رواية ابن خلدون عن الإباضية الذين حاصروا والي العباسيين على المغرب "عمر بن حفص" (ت154هـ/771م)، وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفاً، الخيل منها خمسة وثلاثون ألفاً، أن أعداد هذه الخيل كانت كبيرة؛ وتقيد المصادر بأن الخيل التي غنمها "عقبة بن نافع الفهري" من مدينة باغاية، كانت قوية "لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها؛" انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص10، 11؛ الدباغ، ابوزيد عبدالرحمن بن محمد الانصاري: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد ماضور ، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1388هـ ، ج1، ص37، 38؛

الوزان ، وصف افريقيا ، ص263 ؛ De Mas Latri, p. 216

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص10، 11؛ الدباغ، معالم الايمان، ج1، ص37، 38.

(3) ابن خلدون، العبر، ج4، ص62؛ ج6، ص16، 17؛ الزركلي، الاعلام، ج7، ص270.

ويعتنون بنشاطها وخفتها، ويتكونها ترعى العشب في فصل الربيع، ولا يركونها في هذا الفصل بالذات⁽¹⁾.

وكانت الخيول العربية الأصيلة تمتاز بالسرعة والصمود، خاصة في المعارك والحروب، التي كان سكان المنطقة يخوضونها، ويفتخر السكان بتربية الخيول الأصيلة، وتتنافس القبائل العربية على ذلك، وهي عادة معروفة عند العرب قاطبةً، سواء في المشرق الإسلامي، أو في المغرب الإسلامي في ذلك الوقت فترة العصور الإسلامية وما قبلها⁽²⁾.

— الإبل:

تعتبر الإبل⁽³⁾ من أهم وسائل المواصلات في بلاد المغرب العربي الإسلامي بصفة عامة، ومن أشهر أنواع الإبل التي عرفتها المنطقة هي الجمال ذات السنم الواحدة، والتي وجدت بكثرة عند البدو وسكان الصحراء الذين كانوا يستعملونها للركوب في ترحالهم المستمر، وحمل الأثقال، ويستغلون لبنها ولحومها كغذاء، ووبرها وجلودها في صناعة الملابس⁽⁴⁾.

ويعتبر الحسن الوزان الإبل الأفريقية من أفضل أنواع الإبل، لأنها تحمل الأثقال مدة أربعين أو خمسين يوماً، دون أن تستلزم علفاً في المساء، وإنما تكتفي بأن تُنزل عنها الأحمال، وتترك لترعى في البرية قليلاً على العشب والشوك وأغصان الشجر، وفي استطاعتها أن تبقى خمسة عشر يوماً دون أن تشرب ماءً، وهي تتفعل بالأحدا، فأصحابها لا يرغمونه على المسير بالسوط والمهماز مثل الخيل، وإنما يُغنون لها أحياناً، فتطرب لها وتتابع سيرها، حتى يشق على حُجاتها إتباعها⁽⁵⁾.

وقد كانت هناك مناطق ومراكز بعينها في المناطق الليبية ذكرتها المصادر كنقاط لتجميع وتربية وبيع الإبل. فقد ذكر كلُّ من المالكي والديباغ عن أبي عثمان سعيد بن محمد بن صبح الغساني المعروف بابن الحداد(ت302هـ/914م) أنه قدم من طرابلس في رقعةٍ فيها سبعون جملًا، يملكها رجلٌ واحدٌ يقال له أبو عوانة، ولما نزل هذا الأخير بالقيروان، اشترى ثلاثين جملًا حتى كملها مائة جملٍ بأحمالها وأعوانها ثم توجَّه يريد السودان⁽⁶⁾. وهذا يدل على أن طرابلس كانت من ضمن تلك

(1) الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص640.

(2) الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص641.

(3) الجمل حيوان أهلي هادئ، وتوجد أعداد كبيرة منه في إفريقيا، وخاصة ليبيا، وتولف الجمال ثروة العرب وأرزاقهم، وعندما يريد أحدهم الكلام عن ثروة أمير أو شريف عربي يقول عادة: "لدى فلان كذا من آلاف الإبل"، ولا يقال أبداً: "لديه كذا من الدنانير أو كذلك من الأملاك". وكل العرب الذين يملكون إبلاً هم أمراء يعيشون أحراراً، لأنهم يستطيعون مع هذه الحيوانات البقاء في الصحاري، حيث لا يقدر ملك أو أمير أن يذهب إليها بسبب الجفاف؛ انظر، الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص634.

(4) الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص641.

(5) الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص634-638.

(6) المالكي، عبدالله بن عبدالله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 1994م، ج2، ص101، 102؛ الديباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان.

المراكز المعروفة بوجود الإبل فيها بكثرة. ويذكر التجاني أن قبائل المحاميد كانت ترعى إبلاً كثيرة بالقرب من غمراسن في شمال غرب ليبيا⁽¹⁾.

كما ذكر الإدريسي أنه كان هناك بأطراف جبل نفوسة قبائل من البربر قد اشتهروا بتربية الإبل كما اشتهروا بتكاثر أعدادها لديهم، وذلك بسبب إغارتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ونهبهم واستيلائهم على ما لديهم من إبل؛ يقول الإدريسي: "وفي أطراف هذا الجبل - يقصد جبل نفوسة - قوم من البربر يسمون رهانة وهم قوم ينتجون الإبل ويركبون أمضاها وأسرعها خطأ ويسبغون فرقا إلى ما تباعد منهم من قبائل العرب فيضربون عليهم ويغيرون على إبلهم ويعودون بغنائمهم إلى جبلهم ومواقع مساكنهم التي يأوون إليها وليس لهم شغل إلا هذا، وليس أحد من العرب المجاورين لهم إلا ويتشكى أذيتهم وقليل ما يظفر بأحد منهم لسرعة جري نجيهم ودلالتهم بتلك الأرض وتحصنهم في أمكنتهم"⁽²⁾. وهذا النص يدل على أن قبائل تلك المنطقة سواء العربية أو البربرية منها كانت قد اشتهرت في تلك الفترة بكثرة تربيتها للإبل كصنف أساسي من أصناف الماشية المعروفة آنذاك؛ كما يدل هذا النص على أن أعداد الإبل التي كانت تربي في تلك الفترة كانت كبيرة لدرجة أن تلك القبائل البربرية لم يكن لها أي مصدر رزق آخر كانوا يعيشون عليه سوى تربية الإبل أو نهبها من جيرانهم.

وبطبيعة الحال وجدت الإبل بكثرة في المناطق الصحراوية، وخاصة صحراء ليبيا، ففي فزان مثلاً كان سكانها يأكلون لحومها لأن اللحم بها قليل جداً، فيعتمدون على لحوم الإبل الموجودة لديهم بكثرة ويبيعون لحومها بأسعار مرتفعة. وتعتبر الإبل عن الثروة، فيقاس ثراء وغناء المالك لها بمقدار ما لديه من إبل، وليس بمقدار ما يملكه من النقود، وهذا يدل على مدى القيمة الكبيرة للإبل ومدى مكانتها، وأهميتها في حياة العرب، فالبدوي لا يستطيع الإقامة في الصحراء بدون الإبل، ويذكر أن إبل المغرب الأدنى أفضل بكثير من إبل آسيا⁽³⁾.

مما سبق نستنتج أن المدن والمناطق الليبية قد احتوت على ثروة حيوانية لا بأس بها، وقد تنوعت أنواع تلك الماشية والحيوانات وتحددت كثافتها من مكان لآخر، نتيجة توافر المراعي والغذاء لتلك الحيوانات، إلا أنه بصفة عامة فقد تميز الشمال بتنوع ثروته الحيوانية وكثافتها عن الجنوب الصحراوي، حيث أن الجنوب الصحراوي تميز بوجود أنواع من الحيوانات تشتهر بقدرتها على تحمل الظروف القاسية للصحراء، وتأتي الإبل في مقدمة تلك النوعية من الحيوانات، التي برزت كحيوان صحراوي أكثر منه حيوان سهلي إن جاز التعبير. وبالطبع فقد كانت تلك الحيوانات أو الماشية تُستخدم بشكل مباشر أو غير مباشر في الأنشطة التجارية المختلفة، سواء أكان من خلال

(1) التجاني ، رحلة التجاني ، ص205.

(2) الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص299 ؛ عبد الرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربي (22-462هـ/642-1070م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى2001م، ص86 ؛ جورج مارسية ، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الاسلامي، ص89 ، 90 ؛ أحمد الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، كلية الآداب بدمنهور ، جامعة الإسكندرية ، 2003م ، ص110.

(3) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا، ص637.

استخدامهم كسلعة تباع وتشترى أو أحد المنتجات القائمة عليهم مثل الألبان والجلود واللحوم والأصواف، أو استخدامهم بطريقة غير مباشرة في تلك الأنشطة التجارية في حمل البضائع والسفر من مكان لآخر.

ج - الصناعة والحرف والأخرى:

لقد نالت حرفة الصناعة أهمية كبيرة بين السكان إذ اعتبر ابن خلدون: "الملكات الصناعية تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تفيد عقلاً لأنها مجتمعة من الصنائع..."⁽¹⁾.

ناهيك عن كونها "ما ينبغي للإنسان أن يتعلمه بعد معرفته بدينه"⁽²⁾، لهذا لم يستتف بعض الفقهاء عن ممارسة بعض المهن، فنجد عبدالله الشعاب المتوفى بطرابلس سنة (243هـ/857م) كان نجاراً⁽³⁾، وعبدالله الغيمي السرتي المتوفى (314هـ/926م) كان فخاراً⁽⁴⁾، ومنهم من كان قطاناً مثل ربيع القطان الذي دفن بطرابلس سنة (287هـ/900م)⁽⁵⁾، وعبدالله بن سعد بن اللحام أو اللحام الذي دفن بالرمادة سنة (331هـ/942م)⁽⁶⁾، وغيرهم الكثير مما اهتموا بالحرف الصناعية ولهذا يمكن لنا أن نقول بأن الحرفيين والصناع قد مثلوا شريحة كبيرة من الطبقة العامة بين السكان حيث ربط ابن خلدون بين استبحار العمران وازدهار الصنائع⁽⁷⁾.

ويذكر في هذا الخصوص أن برقة وأقاليمها: "كانت بها الأمصار المستبحرة، مثل زويلة وبرقة وقصر حسان وأمثالها"⁽⁸⁾ إلى جانب هذا فقد كان حثق صناع برقة وطرابلس وجودة صناعتهم جعلها ذات مقصد للتجار، فضلاً عن شهرتها الذائعة الصيت، إذ كانت لبدة بها قرب البحر: "قصر أهل به صناعات وسوق عامرة ... وزيتون يستخرجون زيته في وقته"⁽⁹⁾ أما طرابلس فهي بيضاء نظيفة الشوارع متقنة الأسواق وبها من بضائع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات، واشتهرت إلى جانب منطقة جنزور بمنسوجاتها الصوفية (البرانس وملابس البحارة) وكان يوجد بها مائة وخمسون مصنعا للنسيج⁽¹⁰⁾.

ومن الصناعات اليدوية التي ذاعت شهرتها الدباغة، فقام الدباغون ببرقة بإنشاء: "ديار لدباغة الجلود البقرية والنمور الواصلة إليها من أوجله"⁽¹¹⁾، وهي من أجود الدباغ لا يفوقها شيء في الجودة كأنها ثياب الخبز في النعومة والإشراق⁽¹²⁾، وكانت بطرابلس تكثر صناعة قرب الماء التي تستعمل في حفظ الماء، وتقدم للحجاج المسافرين، غير أن قرب مصراته قد فاقتها في الجودة⁽¹³⁾.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 301.

(2) الإشبيلي، بكر بن إبراهيم، التيسير في صناعة التفسير، تحقيق: عبدالله كانون فصله من مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد السابع والثامن، 1959، 1960، ص 41.

(3) التيجاني، رحلة التجاني، ص 247.

(4) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 89.

(5) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 329.

(6) المصدر نفسه، ج2، ص 276.

(7) ابن خلدون، المقدمة، ص 281.

(8) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 204.

(9) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 308؛ الحميري، الروض المعطار، ص 508.

(10) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 297؛ مارمول كربخال، إفريقيا، تعريب محمد حجي وآخرون، ج3، دار المعرفة، الرباط، ص 121، 127.

(11) المصدر نفسه، ص 311؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص 69.

(12) ابن حوقل، صورة الارض، ص 69.

(13) العياشي، ابوسالم عبدالله بن محمد بن ابي بكر، الرحلة العياشية او ماء الموائد، طبعة فاس، 1316هـ، ص 60، 61.

والغالب أن وفرة الجلود وكثرتها والكيفية التي تعامل معها الصناع قد ساعد على قيام صناع آخرين بصناعة الأحذية والأدوات الجلدية والسروج المستعملة في ركوب الجمال والخيول وبعض الحيوانات الأخرى⁽¹⁾، وعن الخبازين فقد اشتهر أهل شروس أم قرى جبل نفوسة بجودة خبزهم، إذ كان "أكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون، وإذا خبز كان أطيب طعاماً من خبز الحنطة، ولشعيرهم لذة ليست لخبز من أخباز الأرض؛ لأنه ينفرد بلذة ليست في خبز إلا ما كان قد تأقن صانعه فيه"⁽²⁾. فكان الخبازون: "لهم في صنعة الخبز منه حرفة ومهارة فاقوا في ذلك على الناس"⁽³⁾، ولا شك أن هذا قد ترتب عليه قيام مهنة طحن الحبوب، وصناعة الطواحين والأفران والرحى، ومع قلة سعرها ورخصها، إلا أن أهلها مستكفون بها غاية، وراضون بها في النهاية، وهي جديرة بذلك⁽⁴⁾، وعن صناعي الثياب تشير المصادر إلى حذقهم ومهارتهم وكثرة إنتاجهم لها في إجدابية وسرت ونفوسة وطرابلس فقد ذاعت شهرة طيقان الأكسية الزرق الفاخرة والكحل النفوسية السود والبيض والأمتعة الكثيرة من الصوف المرتفع، والتي يقصد التجار طرابلس من أجلها⁽⁵⁾، فضلاً عن جودة العمائم والطيغان النفوسية التي تقوم بصناعتها اليهوديات⁽⁶⁾، كما أن صناعي الثياب ببرقة وإجدابية اشتهروا بصناعة الأكسية والثياب الصوفية فكانت "أكثر ما يخرج منها"⁽⁷⁾، وإلى جانب هذا قام البعض باحتراف صناعة الأصبغة اللازمة للثياب، فاشتهرت مدينة سباب بزراعة النبات الذي يصنع منه الصبغ المعروف بالنيل⁽⁸⁾، ولما كانت مهنة صناعة الثياب تحتاج إلى أيدي عاملة وفيرة لاستكمال خطواتها ابتداءً من تحويل المواد الخام إلى ملابس ثم صناعتها وانتهاءً بخياطتها فمن الراجح إقامة الحوانيت لهم وتوفير الأمن اللازم حتى تم لهم رواج صنعتهم، وتشير المصادر إلى اهتمام أهل برقة بتربية النحل⁽⁹⁾، وشهرة أسواقها ببيع العسل، والشمع المستخرج⁽¹⁰⁾، ومما يرجح قيام شريحة من الصناع بتوفير خلايا النحل وصناعتها وآخرون امتهنوا تربية النحل واستخراج الشمع للاستخدام واستخلاص العسل، وإلى جانب ذلك نجد قيام صناعة القطران بإقليم برقة حيث كان يستخرج من قرية تسمى "مقه"⁽¹¹⁾، وتتمثل طريقة تصنيعه في استعمال قطع العرعر، ومن ثم استخراج القطران منه، وبعد ذلك يسافرون به إلى مصر للاتجار فيه⁽¹²⁾

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص 92، 93.

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 93.

(3) المصدر نفسه والصفحة.

(4) العياشي، رحلة العياشي، ص 60، 61.

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص 70، 71.

(6) البغطوري، مقرين بن محمود البغطوري، تاريخ جبل نفوسة القديم أو أشياخ جبل نفوسة أو سيرة نفوسة منقولة عن الاصل الموجود في مكتبة جربة التونسية، ورقة 78.

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص 69، 70.

(8) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص ص 656، 657.

(9) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 319؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 85؛ حيث يسميه "قصر العسل"؛ قدامة، ابن جعفر الكاتب البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق: جميل الرافع، مكة المكرمة، 1987، ص 442.

(10) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69؛ البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 650.

(11) مقه: قرية من قرى برقة تقع فوق جبل وعر لا يرقى إليها فارس كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفاكهة، وبها شعراء عريضة من شجر العرعر؛ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 650؛ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية المغرب، ص 5.

(12) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 103.

أيضاً كان يوجد بسرت والأراضي المجاورة لها الشب والذي عرف بالشب السرتي حيث كان يستخرج من هذه النواحي⁽¹⁾، وهو يعد من المواد الرائجة تجارياً حيث كان يوجد عليها طلب سواء بالأسواق الداخلية أو الخارجية.

ومما لا شك فيه أن كثرة زراعة النخيل في ليبيا قد نتج عنه قيام صناعات كثيرة من أهمها صناعة الأوعية والحصائر من سعف النخيل، وكذلك استعملت جذوعها في صناعة أسقف البيوت والدور، وقامت صناعة تجفيف التمور وحفظها⁽²⁾، ولانستبعد كذلك أن من تمورها قد صنع الرُب (الدبس) .

كذلك وجدت بليبيا في هذه الفترة صناعات أخرى بسيطة فرضتها متطلبات الحياة اليومية منها صناعة الدلاء التي كانت تستعمل في رفع المياه من الآبار وكانت تعرف بـ "انجفة" وببلاد المغرب "بالخطارة"⁽³⁾، وأيضاً استخرجت كميات كبيرة من ملح الطعام من السبخة الكبيرة التي كانت تقع إلى الشرق من طرابلس⁽⁴⁾، حيث كان يصدر الفائض منه إلى المدن المجاورة وإلى مناطق جنوب الصحراء بواسطة طرق القوافل ، ايضاً هناك ملاحه رأس المخبز الواقعة غربى زوارة بطرابلس ، والتي اشتهرت بجودة ملحها ، واقبل عليها الجنويون والبنادقة وغيرها من السفن الاوربية وفقاً للمعاهدات الموقعة مع حكام طرابلس ، و اشار إليها التجاني إلى ان ملحها مفضل على باقى السباخ ، ويتزود منها اكثر البلاد النصرانية ، وذكرها البكري حيث وصفها بانها ملاحه كبيرة وملحها لايفوقه ملح ومنها يحمل الى الكثير من البلاد⁽⁵⁾،

ولما كان لهذه السلعة من رواج تجاري وأثمان غالية، فقد تمت مفايضة الملح بالذهب في مناطق غرب إفريقيا ووسطها.

في حقيقة الأمر هناك شريحة أخرى وهي البناءون⁽⁶⁾، وقد وقع على عاتقهم ما شهدته المنطقة من ازدهار عمراني يتضح هذا مما حوته مدن برقة وطرابلس من أسوار ومحارس وحصون ومساجد وموانئ ودور⁽⁷⁾ وقصور ومنازل وحمامات وفنادق⁽⁸⁾، وقد ذكر البكري مهارة البنائين عند حديثه عن إجابية بقوله: "وبها جامع حسن البناء ... له صومعة مثمثة بديعة العمل" وقوله عن طرابلس: "... على مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان ... ومبنى جامعها أحسن مبنى ... وحمامات كثيرة جميلة"⁽⁹⁾.

وإلى جانب ذلك كان النجارون مثل أبي محمد عبدالله الشعاب أحد الصلحاء الفضلاء من أهل طرابلس، كان نجاراً فرمى آلته، وأتم بناء مسجد ولزم السكن به، فنسب إليه وسمي مسجد

(1) ابن حوقل ، صورة الارض، ص 71.

(2) البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي، ص 289.

(3) الإدريسي ، وصف أفريقيا الشمالية، ص 22.

(4) البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية المغرب، ص 8.

(5) De Mas Latri, Ibid, 217; رحلة التجاني ، ص 206 ؛ البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ج1 ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص 84 ؛ البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ، ص 293.

(6) صناعة البناء تعد أول صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل في المدن ؛ ابن خلدون ، المقدمة، ص 285.

(7) اليعقوبي ، البلدان ، ص 343 ، 345.

(8) البكري ، المسالك والممالك ج2 ، ص 651.

(9) المصدر نفسه ، ص 653 ، 661.

الشعاب⁽¹⁾، ونظرا لتوفر خام الحديد في جبال مدينة طرابلس تم استغلاله من قبل الحدادين في صنّاع الأبواب الحديدية وغيرها⁽²⁾، كالسيوف والرماح والخناجر والسكاكين والإبر، وسجلت المصادر وجود مناجم الفضة في جبال غريان بطرابلس⁽³⁾، وجدت كذلك صناعة الفخار، والذي يباع في حوانيت خاصة به، واشتهر بهذه الصناعة أبو محمد عبدالله الفخار (توفي 309هـ/921م)⁽⁴⁾.

ومن الحرف الأخرى التي كانت تمارس بليبيا في العصر الإسلامي احترام طبقة من الناس مهنة صيد الأسماك وبيعها في الأسواق بالوزن أو جزافاً⁽⁵⁾، وكانت أسواق السمك تقع على الطريق العامة، لما تعوده من الروائح⁽⁶⁾، وكان وزن الحوت الكبير عشرة أرطال وكانوا يستخدمون دهنه في الإضاءة⁽⁷⁾، ومنهم من احترف الصيد البري⁽⁸⁾، مثل صيد الغزلان⁽⁹⁾، وصيد الحيوانات المفترسة⁽¹⁰⁾، وصيد الطيور⁽¹¹⁾، كذلك وجد الدلالون⁽¹²⁾، والمنادون⁽¹³⁾، وقد أفرد لهم الشيرازي⁽¹⁴⁾، باباً مما يدل على دورهم في الأسواق وأهميته وكثرتهم بها.

كذلك وجد فئة من الشطار وهم المتصفون بالدهاء ففي مدينة جادو بجبل نفوسة عصر المعز بن باديس (454هـ/1062م) كان أحد الشطار وهو ابن فلاوسن يأخذ أبناء اليهود من الفنادق ولا يرددهم حتى يقدونهم بالأموال⁽¹⁵⁾، وأيضاً هناك الحصادون الذين يؤجرون أنفسهم للحصاد، ويتسابق المؤجرون على الأقوياء منهم لكثرة أعدادهم⁽¹⁶⁾.

ومن أصحاب هذه الحرف البوابون⁽¹⁷⁾، والخفارون، والحراس الذين يؤجرون لحراسة المزارع والبساتين والدروب والحوانيت والمرافقون للتأمين من اللصوص، ويدفعون لهم الأجرة على قدر ما لكل واحد مما هو محروس، وكانت شريحة من الخفارين تقوم بفرض المغارم على الأهالي والمجتازين مقابل حمايتهم مما كان يعرضهم للقتل أثناء إغارتهم فقد وقع هذا على الزاهدة أم زيد بجبل نفوسة (مطلع القرن 5هـ/11م) جراء ذلك "دينار من الخفارة" تجده⁽¹⁸⁾.

-
- (1) التيجاني، رحلة التجاني، ص ص 247، 248.
(2) اليعقوبي، البلدان، ص 343؛ البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 651؛ احمد بك النائب الانصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، دار ف المحدودة، لندن، 1984م، ص 10.
(3) الانصاري، المنهل، ص 10؛ القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1995م، ص 148؛ جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين، دار الوفاء، الإسكندرية، (د.ت)، ص 217.
(4) المالكي، رياض النفوس ج 2، ص 189.
(5) ابن عمر، يحيى عمر بن الأندلسي، النظر والأحكام في جميع أحوال السوق، تحقيق: فرحات الدشرابي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975م، ص 121؛ ابن فرحون، ابراهيم بن علي محمد، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق: مأمون الجنان، بيروت، 1996م، ص 442.
(6) ابن عبدالرؤوف، أحمد بن عبدالرؤوف، رسالة في الحسبة، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة، نشرها: ايفانوف، 1934م، ص 96؛ المالكي، رياض النفوس، ج 2، ص 432، 433.
(7) مجهول، الاستبصار، ص 112، 113.
(8) البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 655.
(9) الشماخي، السير، ص 190، 239؛ المالكي، رياض النفوس، ص 28، 18.
(10) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 85.
(11) الشماخي، السير، ص 202.
(12) الدلالون جمع دلال: وهو الذي يتوسط بين البائع والمشتري، ويقوم بالنداء على السلعة لبيعها؛ الشيرازي، عبدالرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: الباز العريني، القاهرة، 1946، ص 64.
(13) ابن الأخوة، محمد محمد بن القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة، نشر: رويين ليفي، كمبردج، 1938م، ص 135.
(14) الشيرازي، الرتبة في طلب الحسبة، ص 64.
(15) الشماخي، السير، ص 301.
(16) المالكي، رياض النفوس ج 2، ص 433؛ الشماخي، السير، ص 267.
(17) المالكي، رياض النفوس ج 2، ص 329، 464.
(18) الشماخي، السير، ص 193، 231.

وقد شكل الحمالون فئة من طبقة العامة، حيث كانوا يؤجرون أنفسهم لحمل السلع والبضائع سواء على دوابهم أو فوق أكتافهم مقابل أجره يتقاضونها من أصحابها، ويذكر الدباغ: "أن عبيدالله المهدي تخاصم بطرابلس أول وروده مع قوم الحمالين وهو لا يعرف بنفسه، فلما نظر إليه أبو العباس⁽¹⁾ القاضي قال: "وكل يخاصم عنك، ونزه نفسك عن المناصرة"⁽²⁾، مما يوحي بالوضعية المتردية اجتماعياً لهذه الفئة على الرغم من توفر العوامل التي أدت إلى كثرتهم حيث كانت المنطقة تجارية وتعج بالسفن والقوافل التجارية وقد حفظت المصادر اسم أحد أفراد هذه الفئة وهو زهرون بن حسنون الحمال الطرابلسي⁽³⁾.

ومن الحرف الأخرى التي زاولها عامة برقة وطرابلس ويندرج أصحابها ضمن هذه الطبقة تغسيل الموتى⁽⁴⁾، والجزارة⁽⁵⁾، وطبخ اللحوم ونحوها في الأسواق⁽⁶⁾، وغريلة الحبوب، والقيام بخدمة رواد الحمامات، ويسمى الدلاك، وتسمى الطيابة للنساء، ومنهم الباعة المتجولون في غير مكان [ليس لهم دكان أو حانوت]، أو الذين يبيعون السمن والعسل والزيت والشحم في الحوانيت وأهل الأسواق⁽⁷⁾، والكيالون⁽⁸⁾ الذين يقومون بتكئيل الحبوب، بالإضافة الى ذلك كل الاعمال التي تتطلبها مشاغل الحياة اليومية، وبالإضافة الى ذلك هناك شريحة اخرى أمتهنت عملية التوسط بين البائع والمشتري للتوفيق بينهما، ولم تخلو الاسواق من المحتسبين والامناء لمراقبة وضمان سير العملية التجارية، وفي نفس الوقت لمنع التجاوزات والحد من الغش والتزوير والمحافظة على النظام المتعارف عليه بالاسواق، وتطبيقه على كل الفئات والسلع المحلية والوافدة

2.2. المصادر الخارجية

تنوعت المصادر الخارجية مثلما تنوعت المصادر الداخلية السابق ذكرها، حيث شملت السلع والبضائع الوافدة من الخارج، بالإضافة لسلعتين رئيسيتين في عالم بلاد المغرب والصحراء آنذاك، وهما الذهب، والرقيق، حيث مثلت طرق التجارة البرية والبحرية عاملاً أساسياً في ازدهار التجارة وقدم السلع الوافدة من الخارج؛ فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية، ويلاحظ على الطرق التجارية العظمية في العصر الإسلامي أنها كانت تبدأ أو تنتهي عند موانئ نهريّة أو بحريّة⁽⁹⁾، حيث تفرغ فيها البضائع أو تحمل منها، وتعتبر الطرق التجارية العصب

(1) أبو العباس اسحاق بن ابراهيم الأردني الصايغ هو قاضي طرابلس المعروف بابن طريقة، توفي شهيداً إذ قتله اللصوص قبل سنة 3 أو 4 أو 5 ثلاثمائة؛ الدباغ، معالم الايمان ج 2، ص 333،330.

(2) المصدر السابق ج 2، ص 383،386؛ وعن وضعية هذه الشريحة ببلاد المغرب؛ انظر: الحسن الوزان، وصف افريقيا، ص 240.

(3) المالكي، رياض النفوس ج 2، ص 101، 383؛ الدباغ، معالم الايمان ج 2، ص 312، المجليدي، أحمد بن سعيد، التسيير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1970، ص 55.

(4) الدباغ، معالم الايمان ج 3، ص 111، 110؛ الشماخي، السير، ص 130.

(5) ابن عمر، النظر والاحكام، ص 36.

(6) ابن عبدالرؤوف، رسالة في الحسبة، ص 96.

(7) المجليدي، التسيير في أحكام التسعير، ص 49، 55، 73؛ ابن عمر، النظر والاحكام، ص 36.

(8) ابن عمر، النظر والاحكام، ص 105.

(9) يعتبر محور مسالك البحر المتوسط هو المحور الأهم والرئيس للنشاط التجاري البحري لبلاد المغرب عامة بحكم الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الأدنى التي تطل علي هذا البحر في الأساس، والبحر المتوسط كان هو أول من تعامل معه المغاربة وغيرهم من التجار الأجانب بحكم الجغرافيا. وكان هناك ثلاث مجموعات من الطرق أو المسالك البحرية. المجموعة الأولى هي مجموعة الطريق الساحلي: حيث تميز البحر المتوسط في تلك الفترة بالملاحة الساحلية القريبة من الشاطئ ومن خصائصها الانتقال من مرفأ إلى مرفأ ومن جزيرة

الرئيسي للتجارة وبها يمكن أن تزدهر أو تتدهور ، وقد توفر لبلاد المغرب الأدنى شبكة من الطرق التجارية عبرت جميع أنحاء البلاد، وقد سهلت هذه الشبكة من الطرق البرية، قدوم البضائع والسلع إلى مراكز التجارة البحرية سواء في داخل المناطق الليبية أو من خارجها⁽¹⁾.

حيث ربطت عدة طرق بين المدن الليبية الجنوبية وبلاد السودان خاصة السودان الغربي الذي كان مصدراً رئيسياً للذهب والرقيق، ومن تلك الطرق طريق يربط بين واحة الجريد في جنوب

إلى جزيرة دون الابتعاد عن الشاطئ كثيراً أو دون فقدان رؤية اليابسة بالعين المجردة لفترة طويلة. وكان الطريق الساحلي للضفة الجنوبية من البحر المتوسط أهم تلك الطرق في فترة البحث، وتتعدد نقط بداية هذا الطريق، إما من إشبيلية أو من سبتة وجزيرة طريف أو من ألمرية أو من مالقة، ثم بعد ذلك تسير السفن محاذية لسواحل بلاد المغرب. فيمر على طنجة وسبتة بالمغرب الأقصى، ثم مدينة وهران ومنها إلى تنس، ثم إلى بجاية "ومنها إلى بونة، ثم إلى تونس ومنها إلى سوسة ثم إلى المهدية ومن المهدية يمر هذا الطريق بسلسلة من الموانئ من أهمها صفاقس وقابس وطرابلس وبرقة وطبرق لينتهي بالإسكندرية. وكانت مدينة الإسكندرية بداية الرحلة نحو سواحل بلاد الشام. أو التوقف بها للتوجه بعد ذلك إلى سواحل البحر الأحمر. أما الطريق الثاني فهو طريق صقلية: حيث كان علي جميع المراكب والقوافل العابرة بين شرق وغرب حوض البحر المتوسط أن تمر عبر المحور المركزي: صقلية وتونس، وكانت الأحداث السياسية والعسكرية توقف حركة التجارة في المنطقة أكثر من مره، ولكن موقعها الجغرافي حافظ عليها كنقطة حساسة للمرور. من خلال جميع طرق المتوسط شرقاً وغرباً. كما كان السفر بين مصر والمغرب الأدنى يتطلب أحياناً المرور عبر صقلية خاصة وقت الحرب. ويرى البعض أن السفر بين مدينة وأخرى داخل إقليم المغرب الأدنى نفسه كان يتطلب أحياناً المرور عبر صقلية لاسيما وقت الاضطرابات. أما مجموعة الطرق الثالثة هي الطرق المباشرة: فقد كانت السفن التجارية لا تحتاج الرسو في موانئ أخرى أثناء رحلتها عبر تلك الطرق بين موانئ بلاد المغرب لاسيما موانئ المغرب الأدنى وبين بعض موانئ حوض البحر المتوسط. فمثلاً تلك الرحلات التي سُجلت بين المدن الإيطالية وخاصة جنوة، وبين مدن المغرب خاصة المغرب الأدنى، نجد أن عدداً من الرحلات سُجلت إلى ميناء طرابلس أعوام 551هـ/1157م و554هـ/1160م و559هـ/1164م ؛ انظر: رسالة من أبي سعيد بن أبي الحسن الأيزاري في بلرم إلى أخيه الأكبر أبي البركات في الفسطاط، في حدود عام 1140م ، ترجمة أمين توفيق الطيبي في كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ج2 ، ص155 ، 156 ، نشر ، Princeton University ، Letters of Medieval Jewish Traders ، S.D : Goittein. Press 1973. Pp 325 ، 326 ، ص325 ، 326 ؛ البكري ، المغرب في بلاد افريقية والمغرب ، ص30 ، 31 ، ص66 ، 81 ، 82 ؛ ابن جبير ، ابوالحسن محمد بن احمد ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، د.ت، ص12 ، 17 ، 18 ، 32 ، 33 ، 40 – 44 ، 279 ، 284 – 295 ، 317 ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ج1 ، ص310 ، 311 ، 322 ، 365 ؛ المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص228 ؛ الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، ج2، ص293 - 295 ، عبد المالك بكاي، التجارة في عهد بنى زيري ، ص71 ، 72 ؛ عز الدين موسي، النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي ، ص321 ، 322 ؛ جواتين ، س. د ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ط1 ، ترجمة : عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ، الكويت، 1980 ، ص217 ، 218 ؛ عبدالهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ اقدم العصور الى اليوم ج6 ، مطبعة فضالة ، المحمدية ، المغرب ، 1987 ، 1986 ، ص222 ؛ أوليفيا ريمي كونستيل، التجارة والتجار في الأندلس ، ترجمة ، فيصل عبد الله ، مكتبة العبيكان ، الرياض 2002م ، ص77 ، 78 ؛ حسن خضيري أحمد ، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362-567 / 973-1171م) ، ط1 ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، د.ت ، ص99 ، 100 ، الطاهر قدوري ، مرجع سابق ، ص2. سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي(عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي المتوسط 1450 – 1517)، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الاولى 1989م، ص27 ، 28

⁽¹⁾ شوقي عبد القوى عثمان حبيب، التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك (648 – 922 هـ/1250 – 1517م)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2000م، ص65 ؛ صباح إبراهيم الشبخلي، النشاط التجاري في المغرب (300-399/912 – 1008م) ، ط1 ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 2000 ، ص28 ، 29.

تونس إلى ورقلة وغدامس⁽¹⁾ ، وآخر يربط طرابلس الغرب إلى غدامس وفزان وينتهي إلى برنو وجاو⁽²⁾، وثالث كان يربط مصراته إلى واحة سيوة إلى زويلة إلى تادمكة⁽³⁾ ومنها إلى جاو وتمبكتو⁽⁴⁾. ويرى بارث أن من أهم الطرق الرئيسية التي ربطت المناطق الليبية هو الطريق الذي يبدأ بغدامس وينتهي إلى بلاد السودان الغربي⁽⁵⁾.

ولقد أثرت تلك الشبكة من الطرق في جلب الكثير من البضائع من عمق الصحراء الإفريقية في الجنوب، إلى داخل المناطق الليبية والعكس كذلك، وذلك من خلال القوافل التجارية، فكانت رحلات القوافل عبر هذه الطرق البرية، في فصل الشتاء حيث تعمل ثلاثة قوافل برية تمر من سجماسة وتصل إلى القيروان وطرابلس وبرقة ومنها إلى مصر، هذا فضلاً عن قافلتين في فصل الصيف؛ وبالنسبة للطريق الصحراوي فكان يتعذر على التجار المسير فيه في غير فصل الشتاء

⁽¹⁾ ورقلة: تقع في صحراء نوميديا الجزائر الآن، ووصفها الحسن الوزان بأن بيوتها جميلة، فهي واحة واسعة ويكثر بها النخيل وتعتبر مركزاً تجارياً هاماً، ونقطة اتصال حيث تربط المغرب الأوسط بالسودان الغربي، أما مظاهر الحياة فيها = كما وصفها الوزان تزخر بكثرة الصناعات، وقد كان سكانها على درجة من الغنى بسبب علاقتهم بمملكة أغادس، وقد يأتي إليها الباعة والتجار بمنوجاتهم لإبدالها بالسلع السودانية التي تأتي لها، حيث يستقبلون طيباً، وأهم سلعهم القمح واللحم والملح والسمن والأقمشة الصوفية والكتانية والأسلحة وغيرها؛ انظر: الحسن الوزان ، وصف افريقيا، ص508.

⁽²⁾ جاو: كانت جاو عاصمة سنغاي منذ أيام آل ضياء الأولى وسني علي ، واستمرت عاصمة للبلاد في عهد الأسكيين بداية من عهد الاسكيا محمد الكبير، فبلغت في عهده أقصى إتساعها وازدهارها. فقد وصفها الوزان بأن بيوتها حقيرة عدا التي يقيم فيها الملك وحاشيته، وإن سكانها تجار على جانب كبير من الثراء، ويأتي إليها باستمرار عدد كبير من الزنوج لشراء الأقمشة التي تجلب إليها من الشمال الأفريقي وأوروبا، وبها أيضاً مكان يباع فيه الرقيق وخاصة في الأيام التي يجتمع فيها التجار. وتحدث الوزان أيضاً عن وفرة الذهب في جاو بدرجة أن التجار لا يستطيعون دائماً بيع كل ما يجلبونه إلى السوق، وربما يضطرون إلى العودة بما تبقى لديهم من هذا المعدن الثمين ؛ انظر: الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ص534، 544.

⁽³⁾ تادمكة: من مدن بلاد السودان، وأهل تادمكة بربر مسلمون من الطوارق، انظر: الحميري ، الروض المعطار ، ص128.

⁽⁴⁾ تمبكتو: تقع تنبكتو في شمال مالي عند الأطراف الجنوبية من الصحراء الكبرى، وقد حدد الحسن الوزان موقعها بقوله: "...على مسافة اثني عشر ميلاً من فرع النيجر" مما اكسبها موقعا ممتازاً في منحني نهر النيجر، كونها أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من الشمال الأفريقي، كما أن موقعها جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وبين تجارة السودان. وتتفق جل المصادر التاريخية، على أن تنبكتو قد تم بناؤها في أواخر القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي من قبل قبائل طوارق إيمغراشن، إحدى قبائل الملثمين؛ انظر، الحسن الوزان ، وصف افريقيا، ص539.

⁽⁵⁾ أحمد إلياس حسين، طرق التجارة في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى، مركز جهاد الليبيين، طرابلس 1979م، ص 211؛ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثارها الحضارية حتى القرن 16م، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، بغداد، 1984، ص74.

نتيجة لهبوب رياح السيروكو⁽¹⁾، التي كانت تثير الكثير من الرمل وتغطي الآبار⁽²⁾. اذن يمكن القول أن تعدد المنافذ والمراكز التجارية التي تدخل منها السلع القادمة والخارجة قد ساهم في استقدام الكثير من السلع والبضائع الخارجية، التي كانت بارزة في الأنشطة التجارية الليبية، والتي عملت على النهوض بحركة التجارة آنذاك.

1.2.2. السلع الوافدة

تعد التجارة من أبرز الجوانب الاقتصادية التي عبر من خلالها إقليما برقة وطرابلس عن مكانتهما التجارية، وذلك في الرواج والشهرة الواسعة التي نالتها مواردها الزراعية والرعيية والصناعية، وقد ساهم الموقع التجاري الهام⁽³⁾ في كسب موارد مالية كبيرة⁽⁴⁾.

ونلاحظ أن الازدهار الاقتصادي الذي شهده العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى، يرجع أساساً إلى ازدهار النشاط التجاري، وهذا ما يشير إليه الحبيب الجحاني بقوله: "وليس من المبالغة إذا قلنا هنا أن الازدهار الاقتصادي يكاد ينحصر عصرئذ في النشاط التجاري...."⁽⁵⁾، هذا وقد عبر الرحالة والجغرافيون العرب⁽⁶⁾ عن الازدهار التجاري الذي شهدته مدن برقة وطرابلس سواء الساحلية منها أو الصحراوية منذ وقت مبكر (مطلع القرن 3هـ/9م)، مما يؤكد امتزاج المنطقة ومشاركتها الفعالة مع العالم الإسلامي تأثيراً وتأثراً مما كان له بالتالي مردوده في الواقعين الاجتماعي والثقافي للسكان.

هذا وقد تعارف على أن المدن قد تنشأ بفضل مرور طرق التجارة وتجمعها بها، برغم انعدام مواردها الاقتصادية المحلية⁽⁷⁾، إلا أن هذا لا ينطبق على مدن برقة وطرابلس بنطاقها الساحلي والصحراوي، إذ تؤكد أغلب المصادر الإسلامية أن ازدهارها التجاري وشهرتها يرجع إلى ما تنتج من سلع وبضائع، إضافة إلى ما يرد إليها من منتجات أخرى⁽⁸⁾.

ويؤكد ما تم تناوله سابقاً ابن حوقل عندما تعرض للحديث عن برقة حيث علل سبب رواجها التجاري بقوله: "... لأنها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو [أي يشبهه] والجلود المجلوبة للدباغة بمصر والتمور الواصلة إليهما من جزيرة أوجله، ولها أسواق حادة حارة [يقصد كثيرة البيع والشراء] مع بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من

⁽¹⁾ رياح السيروكو: هي رياح محلية تهب على بلاد المغرب العربي في الفترة الممتدة من مايو حتى سبتمبر وتكون قادمة من الصحراء الكبرى باتجاه الشمال وهي جافة ومحملة بالغبار والرمل، وتسمى الشهيلى في تونس وفي الجزائر بالسيروكو وفي ليبيا بالقبلي وفي المغرب بالشرقي وفي جزر البليار تسمى كلما، انظر: يوسف عبد المجيد فايد، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، القاهرة دت، ص 61، 62.

⁽²⁾ حسن خضيرى أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص 99.

⁽³⁾ ابن حوقل، صورة الأرض ص ص 69، 70.

⁽⁴⁾ حمدان، الجمهورية العربية الليبية، ص 93، 103.

⁽⁵⁾ الجحاني، المغرب الإسلامي، ص 14.

⁽⁶⁾ اليعقوبي، البلدان، ص 343 وما بعدها؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69 وما بعدها؛ البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 649 وما بعدها.

⁽⁷⁾ عوض، تجارة القوافل، ص 66؛ الجحاني، المغرب الإسلامي، ص 146.

⁽⁸⁾ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69.

المشرق والواردة من المغرب، ... وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية"⁽¹⁾، وهذه السلع والبضائع التي أشار إليها ابن حوقل تعد من منتجات برقة المحلية⁽²⁾، وأن التمور واردة إليها من واحة أوجله، وهناك سلع وبضائع ترد إليها من المشرق والمغرب⁽³⁾.

وعندما يأتي ابن حوقل للحديث عن مدينة طرابلس يؤكد ذلك بقوله: "وهي ناحية واسعة الكور كثير الضياع والبادية ... وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ، والفرسك، والكمثرى اللذنين، لاشبه لهما في مكان وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع، وطبقان الأكسية الزرق والكحل النفوسية..."⁽⁴⁾، ونعتقد أن هذه السلع والبضائع هي منتجات طرابلس ونواحيها⁽⁵⁾، إذ أشار ابن حوقل إلى أنها "لا شبه لها بمكان"⁽⁶⁾، وقوله أيضاً "القليلة الشبه بالمغرب وغيره"⁽⁷⁾، كذلك أسهمت بقية المدن الأخرى بمنتجاتها المحلية وما يرد إليها من البضائع في الازدهار التجاري الذي شهدته مدن برقة وطرابلس، مثل مدينة إجدابية⁽⁸⁾، وأوجله⁽⁹⁾، وودان⁽¹⁰⁾، وزويل⁽¹¹⁾، وس... باب⁽¹²⁾، وف... زان⁽¹³⁾، ونفوسة⁽¹⁴⁾، وغدامس⁽¹⁵⁾، التي اشتهرت بالجلد الغدامسي⁽¹⁶⁾، ومما تقدم يتضح لنا بأن إقليم برقة وطرابلس وسائر نواحيها قد أسهمت بنصيب كبير في الازدهار الاقتصادي الذي شهدته الأسواق الليبية من خلال مشاركتها بالسلع والبضائع المتوفرة إلى جانب ما يرد إليها من الخارج ويلقى قبولاً في أسواقها، وهنا يجب أن نشير إلى أن الحيز الأكبر لما بأسواقها من بضائع كان منتجات محلية⁽¹⁷⁾، والدليل على ذلك هو قصد التجار إليها لما اشتهرت به برقة من توفر القطران والعسل، وسرت بالشب السرتي، وفواكه طرابلس، وشهرة لحوم أغنام برقة في برقة⁽¹⁸⁾، بالإضافة إلى شهرة سرت بالماعز وأصواف الأغنام⁽¹⁹⁾. أيضاً كانت مصر والإسكندرية⁽²⁰⁾، والجلود الغدامسية، وتمور أوجله، وشعير نفوسة، ورخص أسعار الأغذية بأسواق برقة، والقمح يأتي إلى ساكني صحراء برقة

-
- (1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69.
 - (2) اليعقوبي، البلدان، ص 343؛ البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 650؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ج 1، ص 310، 311.
 - (3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69.
 - (4) المصدر نفسه والصفحة.
 - (5) البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 654؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ج 1، ص 297، 298؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 110؛ الحميري، الروض المعطار ج 4، ص 28.
 - (6) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 71.
 - (7) المصدر نفسه والصفحة.
 - (8) نفسه، ص 70؛ ويذكر أن أكثر ما يخرج منها الأكسية وشقة الصوف.
 - (9) المصدر نفسه، والصفحة؛ وقارن اليعقوبي، البلدان، ص 345؛ إذ يذكر أن تمرها لا شيء أجود منه.
 - (10) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 71.
 - (11) البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 657؛ إذ يذكر أنها مجمع الرفاق وأنها أول بلد السودان وبها نخيل وزروع وإبل؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 146.
 - (12) البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 656، 657.
 - (13) الإدريسي، نزهة المشتاق ج 1، ص 112؛ ويذكر أنها زراعة الشعير والذرة وبها معدن الفضة.
 - (14) الحموي، صورة الأرض ج 5، ص 297.
 - (15) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص 57؛ حيث يذكر أنها تجلب منها الجلود الغدامسية المدبوغة وهي من أجود الدباغة ولا شيء فوقها" كأنها ثياب الخز في النعومة".
 - (16) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 145.
 - (17) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69، 71، 72.
 - (18) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69.
 - (19) المصدر نفسه، ص 70، 71؛ إذ يذكر أن المراكب تخرج منها بالشب السرتي، ولحوم الماعز والأصواف.
 - (20) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 143.

من العرب والبربر عن طريق البحر بواسطة الصقليين⁽¹⁾. وبصفة عامة فإن بلاد المغرب الأدنى ، كانت تستورد الحبوب من حنطة وشعير من المدن الإيطالية، ومن مناطق أخرى مثل قطلونيا ومختلف المناطق التي تتألف منها مملكة ميورقة. ويرجح أن القمح كان يرد أيضا من قبرص إلى طرابلس، ويجب ملاحظة أن استيراد القمح من أوروبا كان عند الضرورة فقط وليس قاعدة ثابتة⁽²⁾. وتذكر وثيقة من الجنيزة كُتبت بعد عام 531هـ/ 1140م تقريبا، أن شحنة من القمح نقلت من اشيلة إلى طرابلس .

2.2.2. تجارة الذهب

لقد عرف الإنسان معدن الذهب منذ فترات تاريخية موعلة في القدم، حيث اشتهرت منطقة السودان الغربي بإنتاج هذا المعدن الغالي، ويشير هيرودوت إلى ذلك بقوله: "إن هذه التجارة قام بها القرطاجيون مع أهل السودان بطريقة التبادل الصامت"⁽³⁾، وبالفعل اشتهرت هذه المنطقة بتصدير الذهب في عمليات تبادلها التجاري عبر الصحراء الكبرى مع مناطق الشمال الأفريقي، حيث كان يأتي على رأس السلع المصدرة من ناحية الرواج والسعر المرتفع.

وتذكر المصادر التاريخية، بأن الفينيقيين قد عرفوا التجارة في هذا المعدن مع بلاد السودان بعد أن استطاعوا عبور الصحراء إلى تلك المناطق بقوافلهم التجارية⁽⁴⁾.

ومع مرور الحقب التاريخية وبصفة تدريجية أصبح الذهب يمثل عموداً مهماً من أعمدة اقتصاديات المنطقة الشمالية لإفريقيا في العصر الروماني أولاً وتجارته في حوض البحر المتوسط، ومن بعد ذلك العصر الإسلامي في هذه المنطقة ومناطق غرب أوروبا ثانياً⁽⁵⁾، وعندما استقر المسلمون بالشمال الإفريقي بعد أن أتموا فتحهم لهذه البلاد بدأوا في بناء أركان دولتهم الجديدة حيث تقطنوا للدور المهم الذي كان يمثلته الذهب في الاقتصاد الدولي فاتجهوا إلى التجارة مع مناطق جنوب الصحراء حيث تم إرسال حملة إلى منطقة غانا المشهور بتوافر هذا المعدن بأراضيها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وقد عادت محملة بالذهب وضمنت الوسائل الكفيلة بالحصول عليه مستقبلاً ليصبح قوة داعمة للاقتصاد الإسلامي الذي اعتمد عليه لما له من قيمة عالية منذ القرن الأول

(1) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا، ص483.

(2) Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque (seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis. pp280 – 284 , Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, relativement au commerce de leurs États et au tribut dû par le roi de Tunis au roi de Sicile depuis le règne de Charles d'Anjou. Capmany, pp286 – 291,

روبار برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ج2، ص268، 270.

(3) هيرودوت ، تاريخ هيرودوت ، ترجمة حبيب بترس، بيروت ، 1886، المجلد الأول ، ص 331، 332.

(4) Basil Davidson, The African to Cultural History, 1st ed, long man (England- 1969), p . 137.

(5) أحمد إلياس حسين ، سلع التجارة الصحراوية، الصحراء الكبرى، تحرير، عماد الدين غانم، منشورات مركز الجهاد الليبي، طرابلس، 1979، ص 204.

الهجري/ السابع الميلادي⁽¹⁾

وفي حقيقة الأمر أن هذا المعدن، كان يتم الحصول عليه بعد الانتصار في المعارك التي تدور بين القوى المتقاتلة غير أن هذا لم يكن واقعاً بين المسلمين وبلاد السودان حيث كان الذهب يمثل مورداً دائماً للمسلمين⁽²⁾.

وبما أن ليبيا كانت دائماً جزءاً مهماً وفاعلاً في منطقة الشمال الأفريقي، فإن مادة الذهب كانت من أهم السلع الوافدة إليها، حيث كان التجار الليبيون كغيرهم من تجار المنطقة يسافرون إلى مناطق وجود التبر الواقعة جنوب الصحراء، عبر الطرق والمسالك الصحراوية التي كانت معروفة لديهم آنذاك ومن بينها طريق طرابلس مروراً بغدامس ومنها إلى منطقة تجمع تجار المغرب في سجماسة للخروج فيما بعد إلى بلاد السودان لجلب الذهب حيث كانت تجارتها "... غير منقطعة منها إلى السودان وسائر البلدان وأرباح موفورة ورفاق متقاطرة..."⁽³⁾، وقد كان تجار شمال الصحراء ينقلون معهم إلى بلاد السودان الملح والحبوب والأقمشة وكثيراً من السلع الأخرى، ويأتون بالذهب الذي نسجت عنه القصص إلى أن وصلت في اعتقادي إلى حد الأساطير فنجد ابن حوقل يذكر أن الذهب ينبت في بلاد غانا في الرمال كما ينبت الجزر ويقطف حين بزوغ الشمس⁽⁴⁾، كذلك العمري قد روى عن (منسا موسى) أن هنالك نوعاً من الذهب يجمع في زمن الربيع وينبت في الصحراء عقب هطول الأمطار، وله ورق شبيه بالبنجيل أصوله التبر⁽⁵⁾، أيضاً يوجد نوع آخر من التبر يتم جمعه عقب سقوط الأمطار، واشتهرت مناطق بعينها في السودان الغربي بتوافرها على كميات كبيرة منه من بينها جزيرة ونقارة التي تبعد مسافة ثمانية أيام عن مالي، وكذلك بلاد القرويين وغياروا وكوغة التي تقع إلى الجنوب والغرب من غانا⁽⁶⁾، وفي هذا الصدد تحدث الرحالة ابن بطوطة عن وفرة الذهب ببلاد السودان الغربي، وبصفة خاصة بتغازة: "... قرية تغازة على حقاتها يتعامل فيها بالقنطير المقنطرة من التبر..."⁽⁷⁾، ونتيجة للأهمية الاقتصادية لمعدن الذهب ترتب على ذلك تكوين وإقامة علاقات تجارية بين مملكة مالي ومن بعدها مملكة سنغاي مع بلدان الشمال الإفريقي⁽⁸⁾، وبالتالي المحافظة على تأمينها من قطاع الطرق واللصوص، وقد شهدت المدن الواقعة بالصحراء الليبية حركة تجارية هامة مثل غدامس وزويلة وفزان وغات لما جذبته من اهتمام لأنظار التجارة من مختلف الأصقاع باعتبارها المركز الصحراوي لمعدن الذهب القادم إليها من مناطق السودان الغربي، وهذا الأمر حتم على العديد من التجار غير المحليين من مختلف البلاد الإسلامية، وأيضاً المسيحية على الاستقرار والإقامة بها⁽⁹⁾.

(1) لمياء محمد شرف الدين، تجارة طرابلس مع بلاد ماوراء الصحراء في العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، السنة الرابعة والعشرون، العدد الثاني، مركز الجهاد الليبي، طرابلس، 2001، ص 154.

(2) بوفيل، تجارة الذهب، ص 183.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 96، 99.

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 87.

(5) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1، ص 209.

(6) شرف الدين، تجارة طرابلس مع بلاد ماوراء الصحراء، ص 154.

(7) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 441.

(8) زيايدة عبدالقادر، مملكة سنغاي في عهد الأسبقين 1493-1591، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص 83.

(9) إسماعيل محمود، مغربيات فاس، 1977، ص 170.

وبسبب هذا النشاط بدأت هذه المدن تشهد ازدهاراً لحركة القوافل التجارية العابرة من المغرب إلى بلاد السودان وأيضاً إلى المشرق والعكس.

وازدادت حركة التبادل التجاري بما في ذلك الذهب خلال القرن الرابع الهجري عبر الطرق الصحراوية المارة بالأراضي الليبية والمتجهة إلى مصر والمشرق والقادمة من مناطق السودان والعكس، لتتمو عليها حركة تبادل تجاري أخرى عن طريق البحر المتوسط إلى البلاد الأوروبية كإيطاليا، وفي ظل العهد الحفصي فقد كان طريق الواحات الليبية يعد من أهم الطرق الصحراوية المتصل بكاغوا وعن طريقه يتم التبادل الخارجي إلى مناطق الشرق الأوسط، وأسواق البندقية بواسطة ميناء مصراتة، وإلى أسواق صقلية عن طريق ميناء طرابلس⁽¹⁾.

– تجارة الرقيق :

تعتبر تجارة الرقيق من السلع المهمة التي كانت تتم فيها المتاجرة التي عرفها العالم منذ القدم فقد أشار هيرودوت إلى عملية القنص التي يقوم بها الليبيون ومطاردتهم للأحباش⁽²⁾، وكذلك قيام قرطاجنة بجلب الرقيق أو استيراده من فزان⁽³⁾، وفي هذا الشأن اشتهرت مناطق جنوب الصحراء، وخاصة منطقة السودان الغربي بالنشاط الدائم للحصول على الذهب والرقيق والعاج، وقد ذكر اليعقوبي: "من أن أهل زويلة يخرجون الرقيق من السودان لقربهم منه ويسبونهم⁽⁴⁾، ويعتبر استقرار المسلمين في الجنوب الليبي وبالتحديد بمنطقة زويلة بداية الاتصال عبر طريق الجرمانتين القديم إلى بحيرة تشاد وأغاديس ونهر النيجر، حيث لعبت العناصر الإباضية التي تواجدت بزويلة فيما بعد دوراً رئيسياً في هذا الاتصال، وكان في طليعة هذه العناصر قبيلة هوارة التي اعتنقت المذهب الإباضي، وتخصص كثير من أفرادها في تجارة السودان، واتخذوا من زويلة مركزاً لنشاطهم التجاري منذ سنة 143هـ/760م⁽⁵⁾، ومع استمرار هذا الاتصال نتج عنه تواجد جماعات سودانية بجبل نفوسة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى أن كثيراً من أهل الجبل عرفوا لغة الكانم⁽⁶⁾.

ومن البلاد التي اتصلت أيضاً بالسودان الغربي من أجل الحصول على الرقيق إلى جانب ليبيا بالطبع نجد بلدان المغرب، ومصر، وبلاد جنوب جزيرة العرب، وكان الثمن المتعارف عليه للعبد مائتي درهم، وذلك في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي⁽⁷⁾، وازدهرت هذه التجارة في غانة نتيجة لعمليات الهجمات المتوالية على منطقة لملم⁽⁸⁾، حيث يذكر الإدريسي: "أن

(1) إبراهيم حركات ، دور الصحراء الأفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين، السنة الثالثة، العدد الأول، طرابلس، يناير 1981م، ص 36.

(2) هيرودوت ، تاريخ هيرودوت، المجلد الأول، ص 327.

(3) زاهر رياض ، الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، د - ت ، ص 35 ، 36.

(4) اليعقوبي ، كتاب البلدان، ص 335.

(5) محمد علي ديوز ، المغرب الكبير، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، 1963م ، ص 349.

(6) الشماخي ، السير، ص 274.

(7) آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج1، ترجمة: محمد عبدالهادي، أبوريدة، طبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، 3 ط ، 1957م ، ص 296، 297.

(8) لملم أو دمدم: قرية يسكنها وثنيون يأكلون لحوم البشر، كما ذكر الإدريسي ، نزهة المشتاق ج1، ص 112.

أهل بريس وسيلي وتكرور وغانة يسبون أهلها ويجابونهم إلى بلادهم"⁽¹⁾، واشتهرت العاصمة الغانية "كومبي صالح" بأنها سوق رائجة ومصدرة للعبيد⁽²⁾.

وكان للرقيق دور مزدوج في الحرب والسلم فهم جنود محاربون وقت الحرب وفي نفس الوقت حرس للبلاد في وقت السلم.

وفي حقيقة الأمر أن تجارة الرقيق التي كانت تتم عبر الصحراء اعتبرت من السلع المهمة في ذلك الوقت لما جلبته من مردود اقتصادي كبير على محترفيها، وفي هذا الشأن نجد أن هذه التجارة اعتمدت عليها دول الضفة الجنوبية للصحراء الكبرى مع ليبيا وبقية بلدان المغرب⁽³⁾، ولقد عُرفت مدينة زويلة بهذا النوع من التجارة، لما احتوته من أعداد كبيرة للرقيق الزويلي في العالم⁽⁴⁾، ونتيجة لهذا النوع من التجارة نشأت علاقات تجارية وطيدة بين المناطق المصدرة للرقيق والواقعة جنوب الصحراء، والتجار الليبيين الذين كانوا يقومون بتصديره إلى المناطق الأخرى في الشمال والمشرق العربي، وقد ساعد على نجاح هذه التجارة مشاركة أصحاب الأمر أي السلاطين فيها، والدليل على ذلك أن ما يات كاتم ويرنو التي كانت بلادهم تشتهر بالجواري والفتيان الأشداء قد أرسلوا بعض العبيد إلى سلاطين تونس في العهد الحفصي⁽⁵⁾.

ويجب علينا هنا أن نوضح بأن التجار المسلمين وحسبما وقع تحت أيدينا من معلومات تم رصدها أثناء زمن الدراسة لم يعملوا على صيد الرقيق بل كان تجار بلاد السودان هم من يقومون بعملية الصيد حتى أطلق عليهم اسم (الجلابة) حيث كانوا يقومون بجلب وإحضار الرقيق بعد صيده إلى الأسواق الخاصة بهذا النوع من التجارة والتي كانت تعرف باسم "أسواق النخاسين" والمنتشرة في تلك المناطق وخاصة في "جاو" التي ذكرها الوزان: "... يباع فيها يوم السوق عدد لا يحصره عدد من الرقيق من ذكور وإناث..."⁽⁶⁾.

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن هذه التجارة كانت تعد من السلع المهمة الوافدة إلى ليبيا والدليل أن مدينة زويلة الليبية قد تخصصت في هذا النوع لما كان له من عائد مالي كبير أسهم في دعم الاقتصاد المحلي في تلك الفترة إلى أن أصبحت تضاهي في أهميتها سلعة الذهب وصنفت من أهم السلع منذ العصور القديمة⁽⁷⁾.

(1) الادريسي ، نزهة المشتاق ج 1 ، ص 112.

(2) إبراهيم علي طرخان ، إمبراطورية غانا الإسلامية، القاهرة، 1970م، ص 74.

(3) شرف الدين ، تجارة طرابلس مع بلاد ماوراء الصحراء، ص 152.

(4) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص 345 ؛ كذلك البكري ، المسالك والممالك ج 2 ، ص 660.

(5) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص 697.

(6) الوزان ، وصف إفريقيا، ص 544.

(7) محمد زروق ، قضية الرق في تاريخ المغرب ، مجلة البحوث التاريخية ، منشورات مركز جهاد الليبيين ، السنة الثانية ، العدد الثاني ، طرابلس ، 1986م ، ص 280.

الفصل الثالث

طبيعة التعامل التجاري في ليبيا

1.3. المجتمع التجاري في ليبيا

1.1.3.1. العرب

لقد جاء العرب إلى ليبيا قبل الفتح الإسلامي وذلك لغرض التجارة والاستيطان، أو هرباً من المطاردة التي كانت تحدث في أعقاب المعارك الطاحنة التي شهدتها مناطق تواجدهم الأصلية في شبه الجزيرة العربية واليمن والعراق وبلاد الشام، غير أنه وأثناء عملية الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي شهدت هذه الفترة توافداً كبيراً للعناصر العربية كجنود في جيش عمرو بن العاص لنشر الدين الإسلامي، وبعد فترة اختلطوا بالبربر، وذلك بالمصاهرة والتي نتج عنها امتزاج الدماء والأنساب(1)، وبعد هذا التواجد المبدئي بدأت تشهد المنطقة قدوم جماعات أخرى من العرب قدمت من المشرق في العصر الأموي من شبه الجزيرة العربية ومصر والعراق(2)، وجاءت جماعات أخرى من الشاميين واستقروا بالبلاد بعد أن انتهوا من الحملات التي أرسلها الخلفاء العباسيون إلى الشمال الإفريقي(3).

كذلك شهدت المنطقة لجوء الفارين والمعارضين للحكم بمركز الخلافة في المشرق الإسلامي بعد فشل ثوراتهم(4) حيث وجدوا الملاذ الآمن والبعيد عن ملاحظتهم، كذلك وفرة الخيرات ورغد العيش، وقد نتج عن هذا الاستقرار فيما بعد قيام وظهور دويلات عدة استقلت بالشمال الإفريقي(5) كالأغالبة، والأدارسة، وبنو مدرار، والرستميين، وهي التي كان يغلب عليها الطابع العربي متمثلاً في بعض القبائل كقبيلة قيس(6)، وبنو ربيعة، وقريش، والأوس والخزرج وقبيلة جهينة التي هاجرت في القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي إلى منطقة الشمال الإفريقي(7).

(1) حسن عيسى عبدالظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني، الزهراء للإعلام العربي، 1991م، ص 52؛ محمد الصادق عفيفي، بن تاويت، محمد، الأدب المغربي، ط2، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1969م، ص16.
(2) ابن عذاري، البيان المغرب ج1، ص 123.
(3) حسن علي حسن، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس، (عصر المرابطين والموحدين)، مكتبة الخانجي، القاهرة
محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية في المغرب الإسلامي، الكويت، 1987، ص 18، 19.
(4) السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير (دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية)، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 415، 416.
(5) ابن أبي زرع، الانيس المطرب بروض القرطاس، ص 19، 20.
(6) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 123.
(7) حورية عبدالسلام سلام، علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة، 1977م، ص 95.

كذلك كان هناك أخلاط من خرسان واليمن ومن العراق متمثلاً في البصرة والكوفة. (1)

ويبدو أن الحركة التجارية قد لاقت استحسان بعض كبار الفقهاء والقضاة وأهل العلم من العرب فقد فضل بعضهم احتراف هذه المهنة وفضل البعض الآخر امتهان القضاء والفتوى في الأمور التجارية، وفي هذا السياق اختلفت الأهداف والدوافع باختلاف النهج الذي ينتمي إليه الفقيه أو القاضي، وقد تباينت آراء أصحاب المدرستين (الحجازية والعراقية) في عملية التبادل التجاري ونشاطه وطرق الكسب والربح فيه.

وفي حقيقة الأمر احترف من العرب في العمل التجاري إسماعيل بن عبدالله المعروف بتاجر الله الذي كلفه الخليفة عمر بن عبدالعزيز (99-101هـ) تعليم أهل أفريقية الشرائع والتعاليم الإسلامية(2)، وعون الخزاعي، وعبدالرحيم الربيعي(3)، ومحمد بن عبدالعزيز المدني ابن خالة الخليفة أبي جعفر المنصور(4)، وأيضاً أبو عوانة العراقي والذي اشتغل في تجارة الحبوب بين البصرة وطرابلس والقيروان وتاهرت وسجلماسة(5).

وفي هذا الشأن، ونظراً للأهمية التي كان يوليها العرب للتجارة ذكر ابن حوقل نصاً يفيد بأن القوافل التجارية التي كانت تأتي من العراق وعلى رأسها: "تجار البصرة والكوفة والبغداديون"(6) متجهة نحو سجلماسة ومروراً ببلاد أفريقية بما فيها برقة وطرابلس على الطريق الساحلي أو برقة و زويلة وجبل نفوسة أي بمعنى المراكز التجارية الليبية كانت في حركة " ... دائرة ... دائمة ... غير منقطعة"(7) يجنون من خلالها الأموال والأرباح الكبيرة والفوائد الجمّة التي: " ... قل ما يداينها التجار في بلاد الإسلام سعة حال"، وقد فاقت أرباحهم من خلال الاتجار في القمح والذهب والرقيق آلاف الدنانير(8).

(1) البيعقوبي ، فتوح البلدان، ص ص 345،342.

(2) أبو العرب ، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ، طبقات علماء أفريقية وتونس، تقديم وتحقيق: علي الشابي، نعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر، 1968م، ص 85؛ الدباغ، عبدالرحمن بن محمد الأنصاري، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج3، تحقيق: محمد ماضور ، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1388هـ، ص ص 385 ، 421.

(3) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية ج1 ، ص 385 ، 421 ؛ القاضي عياض، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، 1968م، ص 137، 158.

(4) أبو العرب ، طبقات علماء افريقية وتونس ، ص 159، 163.

(5) ابن حوقل ، صورة الارض، ص 60.

(6) المصدر نفسه ، ص 61.

(7) نفسه والصفحة.

(8) نفسه ، ص 62.

2.1.3. الأمازيغ (البربر)

هم سكان البلاد الأصليين، إذ عاشوا بها منذ أزمنة بعيدة(1)، وقد وقع اختلاف بين المؤرخين حول أصل كلمة "بربر" فذهب البعض إلى تفسيرها تفسيراً لغوياً؛ لغة القوم رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التي لا تفهم فقبل لهم "ما أكثر بربرتكم" كما يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة، وقيل أن شعب المغرب اتخذ التسمية من اسم أحد آبائه البعيدين وهو "بر" أو "بربر"(2)، وقيل أن العرب لاحظوا أن لغة البربر يكثر فيها استعمال حرف الباء والراء فقالوا ما هذه "البربرة"(3)، والغالب أن هذه التسمية ترجع إلى إطلاق الرومان لكلمة "برباروس" على الشعوب الخارجة عن نطاق الحضارة الرومانية فأطلقوه على سكان بلاد المغرب وعنهم أخذ العرب(4).

إذ من الواضح أن هذه التسمية أطلقت عليهم من الخارج بيد أنهم يطلقون على أنفسهم كلمة "مازيغ" الذي ظل محفوظاً في لغتهم وتقاليدهم(5)، بحيث إن معنى هذه الكلمة هي الأحرار(6).

كذلك اختلف المؤرخون والنسابة حول أصل البربر، فنجد أن ابن حزم الأندلسي يذكر روايات متغايرة حول أصولهم، إذ يقول: "قال قوم أنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادعت طوائف منهم إلى اليمن إلى حمير، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان"(7)، وقيل أن موطنهم الأصلي فلسطين، فلما قتل داود عليه السلام جالوت رحلوا إلى بلاد المغرب(8)، وقيل سبب رحيلهم من الشام إلى المغرب أن نزاعاً وقع بين أولاد سام وأولاد حام بن نوح، فانهزم بنو حام ورحلوا إلى المغرب(9)، وزعم البعض أنهم من مصر من أبناء فارق بن مصر بن حام أو من أبناء مصر ايم بن حام أو من أبناء قبط بن حام(10).

وذهب البعض إلى أن البربر جميعاً من اليمن، وأنهم من أبناء النعمان بن حمير بن سبأ، وقد رجح ابن خلدون رأي الطبري القائل بأن أصلهم من بلاد كنعان وحاول البعض التوفيق بين هذه

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 200؛ حسن علي حسن، تاريخ المغرب العربي عصر الولاة، مكتبة الشباب، القاهرة، 1977م، ص 275، 276؛ كارلتون وآخرون، السلالات البشرية الحالية، ترجمة: محمد السيد غلاب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1995، ص 148.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 176، 192؛ ابن أبي دينار، المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس، ص 29؛ الوزان، وصف أفريقيا، ص 42؛ ويذكر الفرد بل أن سكان المنطقة في العصر اليوناني يطلق عليهم (الليبيين) الفرق الإسلامية في شمال أفريقيا، ترجمة: عبدالرحمن بدوي، بنغازي،

(3) زغلول، المغرب العربي، ج1، ص 82.

(4) الفرد بل، الفرق الإسلامية في شمال أفريقيا، ص 48؛ السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت)، ص 47؛ Gautier, Le passe de Lafrigue de nord, paris, 1952, P. 125.

(5) إسماعيل كمال، سكان طرابلس الغرب، ص 14.

(6) محمد حسين، الأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح، تونس، 1986، ص 21.

(7) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، 1962م، ص 461.

(8) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 91؛ ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص 170؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص 26؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 97، 101؛ حيث يذكر البكري أنهم "من ولد جالوت إلا اليسير منهم" البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 671.

(9) الشطبي، عبدالله بن محمد بن علي، الجمان في أخبار الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم 330، ميكروفيلم رقم 14197، ص 119؛ السلاوي، أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لخبار دول المغرب الاقصى ج1، تحقيق: جعفر الناصري، الدار البيضاء، 1954م، ص 53.

(10) زغلول، المغرب العربي، ج1، ص 83؛ جورجى زيدان، طبقات الأمم، ص 228.

الروايات [برغم اختلافها] فقال: إنهم من أصول متعددة حميرية، ومضرية، وقببط، وعماليق، وكنعانية، وقرشية اجتمعت في بلاد الشام(1)، هذا بينما انتهى "جوتيه" إلى القول بأن البربر ترجع أصولهم إلى أصول زنجية مصرية إيجية(2)

والواقع أنه لا يمكن التسليم بهذه الآراء التي أوردها المؤرخون بشأن أصول البربر وموطنهم الأول(3)، فقد بحث هذه المشكلة الدكتور لوبلان Dr. Le blanc وخرج بالنتيجة التالية:

"إن البربر نتاج ثبت منذ زمن بعيد، ويمكن إدراكه لدى بعض الجماعات الواضحة العرقية، تقول أنهم نتاج لتقاطع شعوب قادمة من أوروبا وآسيا في عصور مختلفة كل الاختلاف والأساس الأول هجرات تمت في عصر ما قبل التاريخ، هجرات متوالية لناس طوال الجوامع وعراضها"(4)، وهذه النتيجة قد تكون أقرب إلى الحقيقة، وذلك لعدم هذه الشعوب في المنطقة وتوافد الهجرات المتغيرة المناطق منذ أزمان سحيقة، فأدى ذلك إلى اندماج هذه العناصر، وهم من أطلق عليهم البربر فيما بعد.

أما ظاهرة انتساب البربر إلى العرب، فلم تظهر إلا فيما بعد اتصال العرب بالبربر، مع تشابههم في أوجه كثيرة، فضلاً عن محاولة البربر المساواة بالعرب، فاتخذوا من ذلك وسيلة تبرير رغبتهم، بالإضافة إلى ما قام به أبطال العرب في صدر الإسلام من أعمال أثارت إعجاب كل من اتصل بهم، مما جعل البربر يدعون الانتساب إلى العرب صانعي الحضارة الإسلامية(5).

هذا وقد وقع إجماع المؤرخين والنسابة وغيرهم على تقسيم البربر إلى فرعين رئيسيين هما البتر والبرانس(6)، على غرار التقسيم القبلي لعرب شبه الجزيرة العربية، وانقسامهم إلى عرب الجنوب (القحطانية) وعرب الشمال (العدنانية) (7)، ويرجح ابن خلدون القول بأن البرانس والبتر من ولد مازيغ بن كنعان الذي ينتسب إلى حام بن نوح، وأن البتر هم شعوب الايبير لقب "مادغيس" وقد حاول بعض الباحثين إعطاء تفسير لهذا التقسيم اعتماداً على نمط العيش، فالبرانس في نظرهم مستقرون أهل حضارة والبتر رحالة أهل بادية بينما بني آخرون هذا التقسيم على أساس ثقافي، إذ تأثر البرانس المستقرون بمظاهر الحضارة اللاتينية في الوقت الذي ظلت فيه قبائل البتر بمعزل عنها لبدواتها وترحالها المستمر(8). وفي نفس السياق، أعطى البعض تفسيراً لغويّاً لكلمتي البتر

(1) زغول، المغرب الكبير، ج1، ص ص 82، 85؛ ماء العينين، شبيها حمداي، قبائل الصحراء المغربية، الرباط، 1998م، ص 18، 20؛ سالم، المغرب الإسلامي، ص 47؛ بل، الفرق الإسلامية، ص 44؛ كارلتون، السلالات البشرية الحالية، ص 148.

(2) Gautier: op.cit, p.42(2)

(3) عبدالمنعم سيد عبدالعال، لهجة شمال المغرب "تطوان وما حولها"، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1968م، ص 30.
(4) بل، الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا، ص 44، 45؛ حسن، تاريخ المغرب، ص 297؛ حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 292، 293؛ زغول، المغرب العربي ج1، ص 85؛ سالم، المغرب الإسلامي، ص 47، 48؛ عبدالعال، لهجة شمال المغرب، ص 36.

(5) حسن، تاريخ المغرب، ص ص 280، 281.

(6) الاصطخري، المسالك والممالك، ص 36؛ ابن خلدون، العبرج، ص 176؛ مجهول، نبذة تاريخية في أخبار البربر، تحقيق: بروفنسال، رباط الفتح، 1934، ص 69؛ البيهقي، البلدان، ص 352؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 461؛

Bermond: Berberesert et Arabes, paris, 1942, p.301.

(7) زغول، المغرب العربي، ج1، ص 176؛ سالم، المغرب الإسلامي، ص 49؛ حسن، المغرب العربي، ص 281.

(8) ابن خلدون، العبرج، ص 176؛ ويعزو البعض قيام النسابة وغيرهم بهذا التقسيم للبربر إلى التشابه الكبير بين العرب والبربر، الذي يرجع بدوره إلى البيئة الطبيعية المتشابهة بين بلاد المغرب، مما ترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة من الاجتماع وال عمران؛ زغول، المغرب العربي، ج1، ص 87؛ سالم، المغرب الإسلامي، ص 49؛ محمود شيت خطاب، ص 18.

والبرانس انطلاقاً من اسم اللباس الذي يرتديه كلاهما أي البرنس الطويل المخروطي مقابل البرنس القصير المبتور(1).

وفي حقيقة الأمر يبدو أنه لا يمكن القبول بهذه الأراء إلا بحذر وحيطه، ذلك أن الحضارة والبادوة والثقافة والتجارة كانت متبادلة بين القبائل، وقد ناقش وليام مرسي (Marcais) ذلك، ويرى من المستحيل اعتبار البتر بدأ رحلاً والبرانس حضراً، إذ من الصعب تصور البتر رحلاً على الوجه الأكمل مثل فلاحى نفوسة المستوطنين بنجاد طرابلس، كما نجد البرانس قد ضمت حضراً ورحلاً(2)، أما معيار اللباس الذي تبناه وليام مرسي فقد انتقده جوتيه، لأنه لا ينطبق على القبائل البربرية برمتها، إذ كانت صنهاجة اللثام بربر برانس ولا يرتدون البرنس مطلقاً(3)، ويرى آخرون أن أساس التمييز بين البتر والبرانس شبه سلالي، ذلك أنهما يمثلان موجتين مختلفتين، تمثل إحداهما أهل البلاد الأصليين، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا البلاد منهم، والغالب أن هذه النظرية أقربها إلى الصحة نظراً لوجود ما يدل عليها من الروايات التاريخية لدى النسابة(4)، وهذا ما يميل إليه الباحث ذلك لأنه يتماشى مع القول بأن أصول البربر نتاج لشعوب قادمة في عصور مختلفة وهجرات متوالية تمت في حقبة ما قبل التاريخ، ومما يؤيد هذا ما ذهب إليه الحسن الوزان أن البربر شهدوا حروباً طاحنة استولى فيها المنتصرون على البوادي، بينما سكن المغلوبون المدن وصاروا أرقاء للمنتصرين(5)، ومع هذا تظل مسألة البتر والبرانس يكتنفهما الكثير من الغموض، ناهيك عن الكثير من الخلط بين فروع البرانس وفروع البتر، مما يعني أن الأمر ليس قاطعاً.

ويقسم النسابة والمؤرخون البتر والبرانس إلى قبائل وأجسام متعددة، فأما البرانس فمن قبائلهم المشهورة سبعة أجسام هي: إزداجة و مصمودة(6)، وأوربة، وعجيسة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغية (هواره) ويضيف إليها البعض: لمطة وهسكورة وجزولة [كزولة] (7)، أما البتر فمن أشهر قبائلهم أربعة أجسام هي: أدارسة، ونفوسة، وضريسة، وبولو الأكبر(8).

وتنقسم هذه الأصول إلى فروع صغيرة، فمن قبائل لوا: قبيلتا نفاوارة ومن لواته ومزاته وسدراته أخت قبيلة مغراوة، وينحدر من نفاوارة قبيلة ولهاصة، ومن قبيلة ضريسة تنحدر قبيلة زناته(9)، وقد سكنت هذه القبائل برقة وطرابلس. وساهمت مساهمة كبيرة في النشاط التجاري عبر الصحراء، فقد سَجَل للبربر دورهم البارز في حركة القوافل التجارية، وفي تزويد مناطق الشمال

(1) جوليان ، أندرية، تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ج2، ط3، الدار التونسية للنشر، 1985م، ص 241 ؛ 242 '224. Gautier: op.cit, p.p.

(2) جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ج2، ص 27 ، 28 ؛ 41 ؛ 42. Gartier: op.cit, p.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 48 ؛ 241. Gartier: op.cit, p.

(4) عبدالوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، المغرب، 1968، ص 294 ، 295.

(5) الوزان، وصف افريقيا، ص 44 ؛ كرنجال، مارمول ، أفريقيا ج1، تحقيق: محمد حجي وآخرون ، الرباط، 1984م، ص 90 ؛ للمزيد عن مسألة البتر والبرانس، ينظر: حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1947م، ص 6 ، 7 ، 8 ، 9 ؛ حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين، مطبعة النهضة، القاهرة، 1957، ص 28 ؛ حسن، قيام دولة المرابطين ، ص 21 ؛ زغلول، المغرب العربي، ج1، ص 9 ، 96.

(6) ابن حزم ، صورة الارض ، ص 295 ؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 178 ، 179 ؛ السلاوى ، الاستقصا لآخبار المغرب الاقصى ج1، ص 65 ؛ عبدالظاهر، الدعوة الاسلامية في غرب افريقيا ، ص 55.

(7) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 177 ؛ السلاوى ، الاستقصا ، ج1، ص 65 ؛ ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 496.

(8) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص 296 ؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 178 ، 179 ؛ السلاوى ، الاستقصا، ج1، ص 65 ؛ سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص 52 ؛ عبدالظاهر، الدعوة الاسلامية، ص 55.

(9) ابن خلدون ، العبر ج6، ص 178 ، 179 ؛ ابن حزم ، جمهرة انساب العرب، ص 296.

والجنوب بالسلع التي يحتاجها السكان، فكانوا بمثابة همزة الوصل بين شمال وجنوب الصحراء، إضافة إلى اهتمامهم بمراقبة الأسواق ومعرفة السلع الهامة التي يشتد عليها الطلب، فقد كانت هناك بضائع وسلع في الشمال يحتاجها سكان الجنوب في مقدمتها الملح، والمنسوجات، والحلي الملونة كالخرز والودع، والتي كان لها بريق خاص يدفع بالأفارقة من الزوج للحصول عليها، مما حفز التجار البربر إلى جلب مثل هذه الحلي إلى جنوب الصحراء(1)، ويذكر الحسن الوزان أن السودان لا يرحلون إلا إذا تبدل الطقس، واستمرت الأمطار، فإن ذلك يؤدي إلى وفرة العشب، وحينئذ نجد في كل صحراء ليبيا العديد من البحيرات، ويكثر الحليب الذي يتغذى عليه التجار المتنقلون من محطة إلى أخرى عبر الصحراء(2).

3.1.3. أهل الذمة

1.3.1.3. اليهود

لقد استقر اليهود منذ وقت مبكر في برقة وطرابلس، بسبب الهجرات اليهودية من بلاد الشام بعد خراب القدس سنة 60م، ووصول أعداد كبيرة من يهود أسبانيا في نفس الفترة، وقاموا بنشر ديانتهم بين البربر، وتمخض عما أحدثوه من ثورات وتمرد على الدولة البيزنطية سنة 115م، أن تمت مطاردتهم ففروا بعيداً عن السلطة الرومانية والتجأوا إلى الدواخل، بينما لجأ البعض إلى طرابلس(3)، ويرى البعض أن قسماً كبيراً من هؤلاء اليهود قد انحدر من نسل البربر الذين اعتنقوا الديانة اليهودية بعد هجرة اليهود إلى بلادهم(4)، فقد كان بسرت خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي قريتين باسم اليهودية(5)، أو اليهوديتين(6)، ومرد هذا أن اليهود سكنوهما منذ وقت مبكر(7).

وظلت الجاليات اليهودية تقطن المنطقة حتى وقت متأخر ففي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي كان في ظلميثة قصر يسمى قصر اليهود، تقيم فيه الجالية اليهودية تحت خفارة العرب(8)، وكان قصرهم على شكل برج كبير، وعدد اليهود المقيمين فيه بلغ مائتي يهودي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي(9).

(1) طرخان، امبراطورية غانا الإسلامية، ص 65.

(2) الوزان، وصف أفريقيا، ج1، ص 92.

(3) جون رايت، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، تعريب: عبدالحفيظ الميار، ط1، طرابلس، 1972م، ص 49؛ البرغوثي، التاريخ الليبي، ص 416؛ الطيب محمد حمادي، اليهود ودورهم في دعم الاستيطان البطلمي والروماني في إقليم برقة، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1994م، ص 107.

(4) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى القرن 5 هـ، ترجمة: إسماعيل العربي، ط3، دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1990م، ص 83؛ طريح، جغرافية ليبيا، ص 47.

(5) اليعقوبي، البلدان، ص 344.

(6) ابن خردادبة، المسالك والممالك، ص 86.

(7) محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة: عبدالسلام ادهم ومحمد الاسطى، دار الفرجاني، طرابلس، 1995م، ص 118.

(8) ابن سعيد، بسط الأرض، ص 80.

(9) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 42.

وكان بمدينة درنة ببرقة جالية يهودية أيضاً، إضافة إلى الجالية اليهودية الموجودة في اجدايبة(1)، وإن كانت هذه الروايات تدل على تواجدهم في فترة متأخرة ربما كانوا بإعداد أكثر في فترات سابقة أي فترة زمن الدراسة(2)

وأشارت المصادر إلى أن أقدم الجاليات اليهودية وأكثرها هي الموجودة بمدينة "جادو" في جبل نفوسة(3)، إذ تشير آثارها الممتدة الأطراف إلى أنه بالغرب من سوق جادو الكبير توجد حارة وبيعة ومقبرة لليهود(4)، إلى جانب هذا فقد كانت مدينة شروس بجبل نفوسة بها حارة لليهود بجوار قصر شروس، وما زال بعض اليهود الطرابلسيين يحملون ألقاباً منسوبة إلى شروس، كما اكتشف بها قبور لعائلات يهودية(5)، هذا فضلاً عن تواجد اليهود في افطمان(6)، وزويلة(7)، ولقد تمتع اليهود بمكانة عالية، وكان لهم دور مهم في الحركة التجارية التي عرفتها ليبيا في هذه الفترة وما بعدها(8)، وكان للإزدهار الاقتصادي الذي شهدته المنطقة وعدل الولاة والمعاملة الحسنة التي لاقاها اليهود، فنجد أبوزكريا يحيى الأرجاني (296هـ/908م) حاكم نفوسة وقاضيها "ولد له ولد" فجمع له اليهود أربعين ديناراً فقالوا خذها خرجاً لولدك فقال لو قدرت أن أصونكم لأخذت الجزية فأبى أن يقبلها وأطعمهم عنباً، وانصرفوا، فقالوا: ما رأينا مثل هذه البلاد، لا يطمع سلطانها في أمور الناس، فأخذوا في اشتراء الربع(9)، هكذا كان عدله ورفضه قبول هديتهم خير حافز لإقامة اليهود وشرائعهم الدور والسكنى بالمنطقة.

وقد حظي اليهود في العصر الفاطمي بتسامح كبير، بل كان اليهود ذوي صلات وطيدة بالمعز لدين الله الفاطمي، مما جعلهم يتجسسون له على الإباضية(10)، بل وتقبلوا أسواق مما عاد عليهم بالثراء المادي(11)، ولا غرو فقد أصبح قتل اليهودي أشد بأساً من قتل المسلم، فكان الهارب من مخالفه في المذهب يدعي أنه يهودي، لينجو من القتل(12)

هذا وقد أسهم اليهود في النشاط التجاري بشكل كبير فسكنوا المدن التجارية، وترددوا عليها مثل ظلميثة(13)، واجدايبة(14)، وجادو، بل سكنوا بالقرب من الأسواق في هذه المدن، وتزايدت

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 311.

(2) صالح مصطفى مفتاح المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع، 1978م، ص 192.

(3) البيغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة رقم 151، 152؛ الشماخي، كتاب السير، ص 171، 172؛ البكري، المسالك، ج2، ص 656؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 144.

(4) Despois, Jean: Le Djebel Nefousa, Paris, 1935, p. 245

(5) البيغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 68؛

Lewick: Etudes, Ibalites Nord Africaine. wrszaw, 1955, p. p. 45 , 88.

(6) الشماخي، السير، ص 114؛ وأفطمان تقع جنوب شرقي شروس، وهي قرية كبيرة، ويبدو أنها خلت من السكان أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أنظر:

Lewick.T: op, cit, p. p. 120 , 121.

(7) الشماخي، السير، ص 114.

(8) المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي، ص 181.

(9) البيغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 151، 152؛ الشماخي، السير، ص 171، 172.

(10) الشماخي، السير، ص 313، 316.

(11) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 273.

(12) الشماخي، السير، ص 326.

(13) ابن سعيد، بسط الأرض، ص 80؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 149.

(14) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 311.

أعدادهم بالأسواق وترددوا على المناطق التجارية المجاورة بالسلع والبضائع(1)، مما مكنهم من جني مكاسب وثراء مادي، فقبل "تجار جادو من المترفين"(2)، فقاموا بنقل السلع من بلاد السودان إلى الشمال الإفريقي، وخاصة في العصر الفاطمي الذي لقي فيه اليهود عناية كبيرة من الخلفاء الفاطميين(3)، وقد امتهن اليهود مهنة صياغة الذهب والفضة(4)، وقام نساؤهم بعمل خواتم الفيروزج، وثياب الطيقان، ولم يجد المشائخ في التزين بها أي غضاضة(5)، كما كانت المرأة المسلمة تتعامل مع التاجر اليهودي وتستدين منه السلع والأموال(6)، وقد بلغ الأمر بالتجار اليهود أن يماطلوا في دفع ثمن السلع التي اشتروها من المسلمين(7)، ومنهم من يخادع في ذلك ويدعي عند القاضي أنه صاحب حق، ولكن يبدو أن القضاة قد اعتادوا على ذلك منهم، فآثروا الروية في أحكامهم للمتخاصمين من اليهود، ويبدو أن كثرة اليهود والتسامح الديني جعل النفوسيين يعتادون على الترحاب بهم في الطرقات بقول لمن يلقيه من اليهود "مرحباً"(8)، لاسيما لمن جاؤوا المسلمين في المساكن، وكان الجار المسلم يصبح على اليهودي ويقول له: "لم ندر من هو على الهدى والطريق"(9)، وليس بغريب أن نجد أحد اليهود ينصح والي نفوسة إبان بن وسيم قائلاً له: "يا إبان متلك لا يغضب على أمر الدنيا، فوطن نفسك على أن لا ترى في الدنيا ما تحب وكن فيها كمسافر قدم بضاعته إلى مدينة أخرى ليقدم عليها"(10).

2.3.1.3. النصارى(11)

وتتمثل أهم مراكز تجمعاتهم في طرابلس وبرقة بالمدن الساحلية خاصة، إذ كان انتشار المسيحية بين القبائل البرنسية، التي تعيش قريباً من الساحل وفي المدن، فكانوا يتعايشون مع الروم المسيحيين، أما البتر الذين يعيشون في البادية فقد كان انتشار المسيحية بينهم محدوداً(12)، وكان أهل طرابلس وبرقة إبان الفتح الإسلامي على علاقة قوية مع أهل مصر، إذ كانت الطرق بينهما مطروقة مأمونة حتى أن بعض قبائلها كان يحسب من قبطن مصر(13)، بالإضافة إلى خروج عناصر قبطية مع جيوش الفتح الإسلامي نحو المغرب(14)، وفرار بعض العناصر القبطية إلى المغرب

(1) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 151؛ الشماخي، السير، ص 171، 172؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 153، 154.

(2) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 152؛ الشماخي، السير، ص 172.

(3) آدم منز، الحضارة الإسلامية، ج1، ص 112، 113.

(4) الباروني، سليمان بن أيوب بن يوسف، أخبار مشائخ أهل الدعوة، مخطوط بالمركز الوطني للمحفوظات، رقم 2118، ورقة 5.

(5) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 78.

(6) الشماخي، السير، 252.

(7) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 68.

(8) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 115؛ الشماخي، السير، ص 275، 276.

(9) البغطوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 113.

(10) المصدر نفسه، ورقة 100؛ وقارن الشماخي، السير، ص 138.

(11) أطلقت المصادر أفاضاً متعددة على أهل الذمة في بلاد المغرب، كالمستعربين والمولدين والأفارقة الروم والفرنجة والمعاهدة، ناريمان عبدالكريم احمد، معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، القاهرة.

(12) لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص 80.

(13) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص 89؛ مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 53.

(14) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص 11؛ مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 84.

أثناء الفتح(1)، فإن ذلك من العوامل التي ساعدت على تواجدهم ببرقة وطرابلس، وكذلك على تواجد عناصر قبطية أخرى بواحات برقة واجدابية وحول طرابلس.

فقد كانت توجد جالية مسيحية بقرية تاكنست شـرق برقة(2) إلى جانب جالية من النصارى الأقباط بإجدابية(3) وأخرى حول مدينة طرابلس(4)، بالإضافة إلى أقباط مصريين في الواحات الممتدة بين برقة ومصر مثل بهنس ألواح الفرفون(5)، ويذكر اليعقوبي والبكري أن نفوسة كانت نصارى أيام الفتح الإسلامي(6)، ومن ثم ظلت جاليات مسيحية بها إلى وقت متأخر، ويذكر البيهقوري أن امرأة نفوسية كانت "صالحة في أيام النصرانية قبل الإسلام"(7).

قد يتبادر إلى الذهن أن هذا التواجد يصدق على القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إذ أورده البكري المتوفى سنة (487هـ/1094م)، بيد أن ما يدعو إلى الظن بأن البكري قد نقل عن مصادر متقدمة ما رواه المالكي عن وجود كنيسة بطرابلس، قد وقع خلاف على حجر بها بين المسلمين والنصارى في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بالإضافة إلى أن هذه الجاليات ليس لها تواجد خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي(8).

وإذا كان أحد المصادر الجغرافية المتقدمة عن البكري لم تشر إلى النصارى ببرقة وطرابلس بهذه التسمية، فإنه من المرجح أن مصطلح "الأفارقة والعجم والروم"، كان يطلق على أهل الذمة بما فيهم النصارى، إذ مما لا شك فيه أن النصارى كان لهم تواجد في المنطقة، خاصة وأن المسيحية ظلت بالمنطقة لقرون عديدة قبل الإسلام، ومن الغريب إهمال المصادر لهذه الشريحة، فلعل العداء والحروب القائمة بين الدولة الإسلامية والبيزنطية جعل الكتاب المسلمين يهتمون هذه العناصر، ويغضون الطرف عنها تقليلاً من شأنها، وكأنها غير مرغوب فيها وربما ذكروها لكن ضمن قولهم "أخلاق من الناس" ولو صح هذا لكان للنصارى جاليات في الرماة ومدينة برقة وبرنيق وسرت(9)، وربما هذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول: "بأن سرت بها أقباط يتكلمون لغة غريبة(10)، ولا غرو أن يدعي بعض بطون لواته أنهم من الروم"(11).

4.1.3. التبو والطوارق

يتواجد التبو في منطقة فزان، ويتكون منهم أغلب سكان القطرون، وينتشرون في شمال تيبستي، ويمتدون حتى شمال وادي، وتقيم جماعات منهم في بلاد الكانم، وبحر الغزال، والتبو في الأصل شعب يحب الاستقلال بنفسه(12)، واشتهروا بنشاطهم في العمل كخدم للتجار، وأدلاء

(1) إبراهيم حركات، المجتمع الإسلامي والسلطة، المغرب، 1998، ص 99.

(2) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص 441.

(3) البكري، المسالك والممالك ج2، ص 651؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 144.

(4) البكري، المسالك والممالك، ص 653؛ المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي، ص 19.

(5) اليعقوبي، البلدان، ص 332؛ البكري، المسالك والممالك ج2، ص 662، 663.

(6) البكري، المسالك والممالك ج2، ص 656؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 144.

(7) البيهقوري، تاريخ جبل نفوسة، ورقة 186.

(8) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 391.

(9) اليعقوبي، البلدان، ص 342، 347.

(10) المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي، ص 191.

(11) اليعقوبي، البلدان، ص 344؛ البكري، المسالك والممالك ج2، ص 650.

(12) ريمون فيرون، الصحراء الكبرى، ترجمة: جمال الديناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، (دب)، ص 34.

للقوافل، حيث كانوا يرافقونها إلى مسافات بعيدة، مجتازين الصحراء جنوباً وشمالاً، غرباً وشرقاً، ويتميز التبو بأنهم شعب نشيط يتولى رئاسته سلطان يقوم على إدارة شئونه بمساعدة مجموعة من الأشراف والمحاربين(1)، وهم أي التبو في الأصل يرجعون إلى أنهم بربر مسلمون، يحملون إسلامهم أينما ذهبوا ويجذبون الناس إليه(2)، ويمتد وطنهم من منطقة فزان شمالاً وحتى بحيرة تشاد جنوباً، وتعد منطقة تيبستي المعقل الرئيسي لهم(3).

أما الطوارق فينتشرون في الصحراء الكبرى، ويتميزون بوضع اللثام على وجوههم، والعمائم على رؤوسهم، واشتهروا بالذكاء الفائق في مجالات التجارة، ولعبوا دوراً مهماً بواسطة التجارة في شمال أفريقيا، فسيطروا على كثير من الطرق التجارية بليبيا، من أشهرها الطريق الممتد من غدامس إلى غات و اير وممالك الهوسا الغنية، والطريق الآخر الممتد من طرابلس إلى فزان وكوار، واهتموا بحفر الآبار، وإظهار المظهور منها، ووضع العلامات على الطرق(4).

5.1.3. الأفرقة

تعود أصولهم إلى أخلاط من القبائل السودانية ومن المراكز الواقعة جنوب الصحراء وكذلك إلى بقايا أمم قديمة وأجناس بربرية كانت تجمعهم مهنة الخدمة(5) في المزارع والتجارة وبعض الحرف الأخرى لدى الروم(6)، وعلى الرغم من إسلام الكثير منهم واعتناقهم الدين الإسلامي غير أن نسبة كبيرة منهم بقيت محتفظة بلغتهم الخاصة، وهي في الغالب ربما كانت خليط ما بين البربرية واللاتينية أو محلية(7).

وقد تواجدت أعداد ليست بالقليلة من أهل السودان(8)، وكذلك الزوج(9) بالشمال الأفريقي، حيث أسهم في ذلك عملية رخص أثمانهم في سوق الرقيق وأيضاً للحاجة الماسة لهم في الأعمال اليومية(10).

ولا يجب أن ننسى وجود أفرقة في برقة وبين طرابلس وقابس وفي الجريد وطرابلس كذلك، حسب اليعقوبي، وأنهم لم يختلفوا من بعض المناطق في زمن الإدريسي. إن هؤلاء السكان كانوا يمثلون أغلبية أهل سرت، ولم يكن للبربر الأصليين إلا حي يديره أحدهم، وهو مسئول أمام رئيس قبائل مزاتة. وبالعكس سكان الودودين المؤدبين تجاه الأجانب، والذين يتعاملون بطريقة

(1) محمد سليمان أيوب، مختصر تاريخ فزان، المطبعة الليبية، طرابلس، 1967، ص 48.

(2) الوزان، وصف إفريقيا الشمالية ج1، ص 132.

(3) أيوب، مختصر تاريخ فزان، ص 48.

(4) بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص 103؛ زاهر رياض، الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا، ص 74.

(5) المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي، ص 182.

(6) ابن عبدالحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، ص 116؛ احسان عباس، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري، دار ليبيا، بنغازي، 1967م، ص 10.

(7) خطاب، قادة الفتح الإسلامي، ج1، ص 20.

(8) ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص 84.

(9) عبدالظاهر، الدعوة الإسلامية وقيام دولة الفولاني، 58.

(10) عبلة محمد سلطان، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدن جنوب المغرب (عصر المرابطين والموحدين)، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة، 1992م، ص 139؛ عبدالظاهر، الدعوة الإسلامية وقيام دولة الفولاني، ص 38.

صحيحة في التجارة، يتصرف سكان سرت - بربر، وربما أفارقة - بطريقة خسيصة في التعاملات التجارية، فهم يحددون بأنفسهم أسعار الشراء والبيع (1).

6.1.3. الأسواق والفنادق

تعتبر الأسواق والفنادق بصفة عامة من أهم الكيانات الاقتصادية التي كانت تمثل عمود التجارة في المناطق الليبية وباقي البلدان الأخرى، وهذا ما سنحاول التطرق له من خلال سردنا بالتفصيل:

1.6.1.3. الأسواق

الأسواق هي مواضع تشتمل على ما يحتاجه الناس من سلع وبضائع قد تكون ضرورية، وهي الأقوات كالحنطة، وقد تكون كمالية كالفواكه والأواني والمراكب، وتعتبر الأسواق المجال الذي تتم فيه العملية التجارية، وكانت نشأتها انطلاقاً من فكرة التجمع الذي يتيح للناس عملية البيع والشراء، ومن حيث هيكل السوق في المدينة فهي تتشكل من مجموعة من الحوانيت التي تتركز بها الحياة الصناعية والتجارية، والمخازن المخصصة لحفظ أنواع البضائع بها، وحظائر لإيواء الدواب، وفنادق لإقامة الغرباء. وتعقد في السوق العمليات التجارية المختلفة من كيل وخزن وبيع وشراء نقداً ومقايضة، ولم يقتصر دور السوق في العصر الوسيط على العمل التجاري فحسب، بل عرف أيضاً وظائف متنوعة اجتماعية وثقافية، فقد كانت تتخذ مسرحاً للتشهير بالمخالفين، وللإعلان عن الوفاة (2).

وقد انتشرت الأسواق في العديد من المدن والمناطق الليبية خلال فترة البحث، حيث نجد أن المصادر لا تذكر مدينة أو منطقة ليبية إلا وذكرت أنها كانت بها أسواق، فالبيكري مثلاً يذكر أن مدينة أجدابية تحتوي على أسواق حافلة مقصودة (3). وكذلك ذكر مدينة سرت وذكر ما بها من أسواق عديدة وليس سوقاً واحداً (4). كما يذكر أن مدينة طرابلس كانت حافلة بالأسواق الجامعة (5). وهو ما يؤكد الحميري بأن طرابلس كان بها أسواق حافلة (6).

كما كان في وسط القبائل التي تحيط بجبل نفوسة مدينة كبيرة تسمى جادو لها أسواق عدة (7). كما كانت مدينة زويلة وهي بجوفي مدينة أجدابية، بها أسواق يجتمع بها الرفقة من كل جهة منها (8). كذلك كانت مدينة سبها عامرة بالأسواق: "هي مدينة كبيرة بها جامع وأسواق" (9)، وإيضاً مدينة أوجلة: "أوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثيف وفواكه وبمدينتها مساجد وأسواق" (10)،

(1) مجهول، الاستبصار، ص 109، غير انه لم يتناول اللغة التي كانت مستعملة في سرت ذلك الوقت.
(2) ابن خلدون، المقدمة، ص 453؛ فاطمة بلهاري، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، الرباط، 2010م، ص 80.
(3) البيكري، المسالك والممالك، ص 177؛ الحميري، الروض المعطار، ص 12.
(4) البيكري، المسالك والممالك، ص 177، 178.
(5) المصدر السابق، ص 179؛ مجهول، الاستبصار، ص 110.
(6) الحميري، الروض المعطار، ص 389.
(7) البيكري، المسالك والممالك، ص 181.
(8) المصدر السابق، ص 182.
(9) البيكري، المسالك والممالك، ص 183.
(10) المصدر السابق، ص 184.

كما كان يوجد بمدينة زلة سوق عامر(1). وعادة ما تنسب ، سماء الأسواق إلى القبائل المشرفة عليها كسوق هوارة وكتامة ومغراوة، أو يطلق عليها اسم القائم عليها كسوق إسماعيل وسوق إبراهيم، كما قد تنسب إلى الجماعة الدينية كسوق المسلمين وسوق اليهود(2).

وكان أغلب المتسوقين من الرجال الذين يقصدون الأسواق لاقتناء ما يحتاجونه من سلع معروضة بها، كما لم تخل الأسواق من النساء اللائي كانت لهن بعض الحرية في التنقل، وهو الأمر الذي لم يكن منتشرًا في الريف حيث معظم المتسوقين من الرجال والنساء الطاعنات في السن. وكانت بعض النسوة التي تتراد الأسواق تتبادلن أطراف الحديث مع التجار والسماصرة خاصة في أسواق الغزل والقماش، وكنّ يلفتن الانتباه بأصوات النعال التي تلبسها، لهذا دعا بعض الفقهاء إلى تعيين موضع متستر حتى لا يخالطن الرجال إضافة إلى اختيار ثقافة السماصرة، فيما دعا فقهاء آخرون إلى منعهن من التسوق نهائياً، بل وصل الأمر ببعضهم إلى التجريح في شهادة من يترك زوجته وهي شابة تتراد الأسواق مع قدرته على منعها(3).

ومما كتبه الجغرافيون والرحالة عن الأسواق في المدن الليبية، نلاحظ أيضاً أن هناك بعض المدن متخصصة في إقامة أسواق تعقد بشكلًا يوميًا أو أسبوعيًا أو موسميًا، فالأسواق اليومية هي أسواق المدن، وهي ثابتة دائماً وذلك لغرض البيع والتعامل مع الناس يوميًا لتلبية حاجيات الناس الاستهلاكية من مأكّل ومشرب وملبس، إلى جانب ذلك كانت هناك أسواق أسبوعية سواء في المدن أو في القرى، ولا توجد إشارات كثيرة حول هذه الأسواق، ولكن التجاني نوه إلى ذلك في حديثه عن مدينة زنزور "جنزور حالياً" بقوله إنها: "...سوق نافعة ضخمة يجتمع البربر بها من الأقطار المتناثية في كل جمعة، فيبيعون هنالك جميع ما يجلبونه.." (4).

وتحدث الحسن الوزان عن أسواق جربة التي وصفها بالمعرض، ويقصدها الكثير من الناس الوافدين من خارج الجزيرة، ويحتشد فيها سكان الجزيرة لبيع بضائعهم وسلعهم، وهم يسوقون ماشيتهم، ويحملون الكميات الكبيرة من الصوف، ومعظم اعتمادهم في المعيشة على تجارة قماش الصوف الذي يصنعونه، ويحمل بعد ذلك لتونس والإسكندرية إضافة إلى أنهم يصدرون الزبيب أيضاً؛ وبلدة حومة السوق ما هي إلا تسمية منبثقة عن تلك السوق الأسبوعية الكبرى، التي كانت تُقام في جربة، وتسمى سوق جربة الأسبوعية بالمعارض، أو المعرض نظراً لكثرة وتنوع البضائع المعروضة فيها والاعداد الكبيرة من المتسوقين. ومن الأسواق الأسبوعية أيضاً سوق يفرن، الذي يقد إليه الناس من قبيلة هلاله وأعراب زناتة للتزود بما يحتاجون إليه من بضائع(5)، وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي بالقرب من سوق (زنزور القديم) الواقع بإقليم طرابلس كان السكان البربر يأتون كل يوم جمعة من أقصى المناطق لتبادل منتجاتهم(سوق أسبوعي)، أما الأسواق الموسمية

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق ج1، ص312، 313؛ أبي الفداء، تقويم البلدان، ص138.

(2) فاطمة بلهاري، التكامل الاقتصادي، ص115.

(3) المرجع السابق، ص117.

(4) التجاني، رحلة التجاني، ص215؛ علي محمد سميو، التجارة والأسواق في إقليم برقة وطرابلس من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين مع المقارنة بما جاء في المصادر التاريخية من 5 إلى 7هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، عدد 1، ليبيا سبتمبر 2014، ص181.

(5) الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص94.

فتكاد تكون غير منتشرة في كثير من المناطق الليبية، إلا ما ذكره أيضاً التجاني من أن زاوية أولاد سنان كان بجوارها مجمع للعرب وسوقهم، وبها يباع مجتلبهم وسوقهم، ويظهر أن هذا السوق ربما كان نقطة أو محطة للقوافل التجارية والصحراوية التي اعتادت ارتياد هذه المواضع لغرض البيع والشراء في مواسم معينة، إلى جانب هذا فإن الطرق التي كان يرتادها الحجيج في طريقهم إلى الأراضي المقدسة كانت تشهد مثل هذه الأسواق التي كان يقيمها السكان المحليون لأجل البيع والشراء للركب(1).

كما يحدثنا ابن سعيد عن سوق قرية "تروجه" وهي على بعد أربعين ميلاً من الاسكندرية، وهي في الجنوب بميله إلى الغرب، يتسوق فيها عرب البحيرة وعرب برقة، ولها شهرة بذلك، وهو ما يدل على وجود علاقة تجارية بين أهالي مصر وأهالي برقة، كما أن هذا السوق يعد مجمعاً للسلع المصرية والبرقية، حيث يتم التبادل فيما بينهما من البضائع والسلع المختلفة. ومن جهة أخرى كانت هناك بعض الأسواق التي تعقد ولها صلة بالمزارات المحلية، التي تقام عند أضرحة الأولياء الصالحين، حيث تقام أسواق كبيرة يرتادها الزائرون من كل مكان، وتساعد على إجراء العمليات التجارية الواسعة النطاق، كذلك من الجدير ذكره أن مواسم الأعياد الدينية كانت هي الأخرى تستثمر لعرض السلع والبضائع المختلفة، التي من شأنها أن تلبى حاجة الناس في هذه المناسبة أو تلك، وكانت أغلب الأسواق تقام عادة في الأحياء العامرة أو بالقرب من المساجد في المدن والأرياف، كما كان لها نظم معينة، وهو ما لاحظته التجاني عند زيارته لمدينة طرابلس، حيث ذكر أن لها أسواقاً ذات نظام تخصصي، مثل: سوق الخبازين، وسوق الثمارين، وسوق الحدائين، والصباعين، بالإضافة إلى ذلك أسواق الخضر والفواكه واللحوم، وسوق الأغنام، الذي ذكره في مجمل حديثه عن باب هوارة - أحد أبواب المدينة - إذ قال: "...وبين يديه من داخل المدينة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم، يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم"(2).

أما نظم الأسواق في الإقليمين فأغلب الجغرافيين والرحالة تحدثوا عنها وذكروا بأن هذه الأسواق كانت منظمة تنظيمياً دقيقاً؛ إذ كان على كل سوق شخص مسئول عن استيفاء الضرائب من أصحاب التجارات والحوانيت، فابن حوقل يصف هذه الحالة عندما يتحدث عن مدينة سرت بقوله: "...والمتولي صداقاتهم وجباياتهم وخراجاتهم وما يجب على القوافل المجتازة بهم صاحب صلاتهم، وإليه جميع مجاري البلد، والنظر فيه، وفيما ورد إليه وصدر في استيفاء ضرائبه ولوازمه، واعتبار المناشير بموجب ما على الأمتعة وتصفحها خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بأفريقية"، أما عامل طرابلس فقد كان يعين مسئولين لتحصيل الضرائب على البضائع الواردة إلى الأسواق(3).

وكان يقوم على ضبط الأسواق مجموعة من المسئولين التابعين للأسر الحاكمة التي سيطرت على المنطقة في مراحل فترة بحثنا المختلفة، ومن هؤلاء قضاة المدن ومساعدتهم من شهود العدول والمحتسبة وأمناء السوق.

(1) التجاني، رحلة التجاني، ص214؛ علي محمد سميو: التجارة والاسواق، ص181.
(2) التجاني، رحلة التجاني، ص245؛ البكري، المسالك والممالك، ص177 - 179؛ مجهول، الاستبصار، ص110؛ علي محمد سميو، التجارة والاسواق، ص182.
(3) ابن حوقل، صورة الارض، ص70، 71؛ علي محمد سميو، التجارة والاسواق، ص182، 183.

فكانت الشئون البلدية والتجارة راجعة بالنظر لا محالة إلى القاضي لاسيما قاضي قضاة المدينة أو رئيس القضاة أو قاضي الجماعة. فقد كان لقاضي الجماعة دور كبير في مراقبة ومتابعة عمليات البيع والشراء بين التجار المحليين فيما بينهم، وبينهم وبين نظرائهم الأجانب، والوقوف ضد أي خرق للتقاليد والعادات التجارية المتعارف عليها، مثل ألا يذهب التجار المحليين للتجار الأجانب في فنادقهم لعقد الصفقات بل العكس يجب أن يحدث (1) ، ومن أجل مساعدة السلطة في أداء واجبها، فقد هيا قاضي القضاة مجموعة من كبار القضاة، وموظفين مدنيين يساعدون في حفظ النظام العام، ومراقبة التجارة والتعامل مع التجار. ومن هؤلاء شهود العدول والمحتسبة ، وكان شهود العدول(2) من الوظائف المهمة، حيث كانت من الوظائف المرغوب فيها، وبالإضافة إلى ذلك كانت تمثل أحياناً مرحلة انتقالية للارتقاء إلى خطة أعلى أو فترة تدريبية قبل تولي القضاء، وقد كان العدد الإجمالي لأولئك العدول يتغير بحسب مشيئة قاضي الجماعة أو السلطان. وأخيراً تجدر الملاحظة إلى أن بعض أولئك العدول كانوا ملحقين بمختلف الإدارات السلطانية، لاسيما ديوان البحر وغيره من المصالح المالية الأخرى. وقد كان أولئك العدول المعروفون باسم "شهود المخزن" يتمتعون بوضعية أحسن من وضعية أغلب زملائهم الآخرين. ولكن خضوع العدول على مثل ذلك النحو لسلطة غير دينية ولمصالح دنيوية، لم يكن دائماً بمعزل عن انتقادات ذوي النوايا السيئة أو المتورعين. فقد اضطر ذات يوم أحد الفقهاء، جواباً علي سؤال طرح عليه إلي التأكيد علي أن الصلاة وراء "شهود المخزن" صحيحة(3) ، والراجح أن وظيفة شهود العدول شملت أيضاً الشهادة علي عقود التجارة لاسيما أن هؤلاء الشهود كانوا من الفقهاء والشيوخ الأجلاء مثل الشيخ أبو عبد الله وغيره(4) ، ويجوز الشهادة للسماسرة في ما بين البائع والمشتري، إن لم يكن في شهادتهم ما يهتمون فيها من زيادة الجعل أو فسخ بيع، ويجوز شهادة الدالين أيضاً علي ما يقع في عقد ما باعوه وأخذوا عليه أجره عاملة إذا كانت فيهم العدالة موجودة(5).

أما وظيفة مراقب السوق (المحتسب أو صاحب السوق)(6) فكانت من الوظائف المهمة في تلك المرحلة أيضاً، والذي حفظت نشاطاته في كتب الحسبة وهي (دليل مكتوب باليد

(1) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان أفريقية إلى حكومة بيزة، مؤرخة ب 596 هـ، ص 23 - 28 ؛ الأبي ، إكمال إكمال المعلم ، ص 180 ؛ أوليفيا ريمي كونستبل ، التجارة والتجار ، ص 183.

(2) رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان أفريقية إلى حكومة بيزة ، ص 23 - 28 ؛ روبر برنشفيك، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص 68.

(3) الونشريسي ، ابوالعباس احمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والاندلس والمغرب، تحقيق ، محمد حجى وآخرين ، وزارة الاوقاف والشئون الإسلامية ، الرباط، 1981م ، ص 142 ؛ الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية (تاريخ أفريقية في عهد بنى زيري من القرن 10 الى نهاية القرن 12م ، ترجمة ، حمادى الساحلى، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، 1992م ، ج2، ص 138 - 140.

(4) الأبي ، إكمال إكمال المعلم ج4، ص 180.

(5) البرزلي ، فتاوى البرزلي (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 2002م ج4، ص 230.

(6) ظلت الحسبة بالمغرب قبل عصر الموحدين من اختصاص القاضي، فهو الذي كان يتدخل في ما يُرفع إليه من مخالفات أخلاقية أو اقتصادية، بينما كانت في الأندلس خطة مستقلة ومتطورة. ومع مجيء الموحدين تم اعتماد الحسبة فأصبح يباشرها محتسبون يعينهم القضاة، لكن الموحدين حصرها في مجال مراقبة الأسواق، فعرفت عندهم بحسبة السوق أو حسبة الطعام ورغم اهتمام حكام المغرب لاسيما المغرب الأدنى بخطة الحسبة في تلك الفترة، فإن المحتسبة في المغرب في تلك الفترة اعتمدوا فيما يبدو علي المؤلفات الأندلسية لأنه لم يعثر حتى الآن علي أي كتاب للحسبة من تأليف أحد المغاربة، وربما كان ذلك لأن الحسبة كانت في الأندلس في تلك الفترة تمثل عهدا ذهبي، وربما كان ذلك أيضاً لأن أغلب من تولوا الحسبة في تلك الفترة كانوا أندلسيين؛ انظر: محمد عادل عبد العزيز إبراهيم، مرجع سابق، ص 44؛ محمد المغراوي: الموحدون وأزمات المجتمع، مطبعة جذور للنشر، الرباط، الطبعة

لاستخداماته)، ومن الناحية النظرية كانت مهمة المحتسب: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" بين جماعة المسلمين، وتحت هذا العنوان العريض فإن من واجبه أن يراقب ساحة السوق، وما به من معاملات تجارية والتفتيش على السلع وكشف حالات الغش التجاري في تلك الأسواق وضبط الموازين والمكاييل والعملة المستخدمة والبحث عن المزيف منها(1).

أما أعوان المحتسب فهم "الأمناء" الذين يساعده في الرقابة على السوق، وما به من معاملات تجارية ومالية، وهذا ما نستشفه من كلام المراكشي، فيذكر أن المنصور خليفة الموحدين: "كان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق، وأشياخ الحضر، في كل شهر مرتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم"(2).

ومما سبق يتضح لنا أن أسواق ليبيا كانت عامرة وتنعم بشيء من الازدهار، الأمر الذي ترتب عليه انتعاش في الحركة التجارية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، وساهم في ظهور وبروز العديد من المراكز التجارية داخل المدن الكبيرة، وتبين لنا هذا من خلال الازدهار التجاري الذي شهدته المنطقة.

2.6.1.3. الفنادق

الفندق هو عبارة عن بناية مركبة من عدة غرف للسكن وحوله ساحة مركزية، به مستودعات ومخازن لبيع البضائع ومكاتب القنصلية وموثق للعمليات التجارية وكنيسة، وكانت هذه الفنادق موجودة عادة في وسط المدينة وفي بعض الأحيان في نواحيها، ويتألف مبنى الفندق من عدة طوابق تلتف حول صحن مكشوف في الوسط، يخصص الطابق الأرضي لحفظ السلع والبضائع، بينما جعلت الطوابق العليا لسكن التجار، وكانت الفنادق المخصصة للأجانب تتمتع بحرية تامة، حيث نجد فيها كنيسة ومحلات خاصة وحمامات، ويمنع المسلمون من دخولها إلا لأسباب تجارية، وتقدم الفنادق خدمات كثيرة فهي مؤسسات اقتصادية هامة، ينزل إليها الغرباء والتجار من الحواضر فيجدون فيها الرعاية والسلامة من النزول إلى غاية المغادرة، وتتم فيها العمليات التجارية تحت رقابة الجمارك التي تتكفل بقبض المبالغ المفروضة على التجار الأوربيين وتمنحهم تأشيرة تسمح لهم بالتنقل في المدينة(3).

وتشير المعلومات المصدرة أن مدن ليبيا خلال فترة البحث تضمنت وجود تلك الفنادق، فقد ذكر البكري ومن وراءه الحميري: أن مدينة أجدابية كانت تحتوي على الفنادق، وقد اقترن ذكر وجود الفنادق بذكر وجود الحمامات والأفران، وكان وجودهم ضرورة لا بد منها لوجود الفنادق وخدمة نزلائها؛ وقد كانت الفنادق بالمدن الليبية لا تسقف بخشب بل بقباب من الطوب، ولعل

الأولى 2006م، ص77.

(1) أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار، ص184.

Nelly hanna ; money , land and trade ' an economic history of the muslim Mediterranean ', I.B. Tauris & Co Lt, London 2002 , p164 .

(2) ابن عذاري، المعجب، ص236؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج42، ص219؛ أحمد الجمال، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، كلية الآداب بدمهور، جامعة الإسكندرية، 2003م، ص132، 133؛

(3) محمد زبير، المغرب في العصر الوسيط، الدولة المدنية، الاقتصاد، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الرباط، 1999م، ص372.

ذلك لكثرة ما يهب من رياح في تلك المناطق (1) ، وكانت تلك الفنادق تقوم بمهمة مزدوجة فوظيفتها الأولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة والثانية إيواء النزلاء من التجار الوافدين، وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر ازداد عدد فنادقها ، وكان الفندق هبة من الدولة للتجار الأجانب كما يستشف من المعاهدات، ويتبع إدارة الجمارك ، ويحق لها أن تسترده في أي وقت تشاء (2).

وتشير الدراسات الى ان بعض الفنادق تُخصّصت في تخزين سلعه واحدة، واشتهرت باسمها ؛ ففي عصر المعز بن باديس(406-454هـ/1016-1062م) كان هناك فندقاً يُعرف بفندق الكتان، كان مخصصاً للكتان والملابس البيضاء المصنوعة منه(3) ، وفي أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كانت بعض الفنادق مستودع للخمر ومركزاً لبيعها، لذلك صدرت أوامر بهدم "فندق الخمر" بتونس لمكافحة تجارة وشرب الخمر وبناء جامع البحر مكانه(4) ، ولعل تخصيص كل فندق بسلعة واحدة كان معروفاً في المدن الليبية أيضاً، وكانت الفنادق الموجودة في كثير من الأحيان ملك لأشخاص، فقد سئل المازري عن شريكين في فندق توفي أحدهما، وترك ورثة ثم توفي الآخر وترك ورثة، وقد أدى هذا إلى وقوع نزاع بين الورثة على الفندق، كما كانت هناك فنادق ملك للدولة ، وهناك بعض الفنادق التي تتكون من طابقين ويتم الدخول إليها عن طريق باب ضخم يسمح بمرور جمل محملاً ويوجد بالباب باب صغير يُطلق عليه (باب بوخوخة) يُستخدم من قبل النزلاء ثم سقيفة وفناء للفندق تفتح عليه حجرات الطابقين، ويُستغل هذا الفناء في تخزين

(1) البكري ، المسالك والممالك، ص177 ؛ الحميري، الروض المعطار، ص12.
(2) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي أبي يحيى زكرياء وحكومة بيزة في عام 713 هـ ، نشر (Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino تحت رقم 29، ص86 – 97؛ Un Traité de paix et de commerce conclu dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis, en 1271, 14, février. revu sur l'original de l'expédition notariée faite à Tunis, en 1278 pour le roi de Majorque, par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrechiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris 1960., pp280 – 284 , Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, relativement au commerce de leurs États et au tribut dû par le roi de Tunis au roi de Sicile depuis le règne de Charles d'Anjou. Capmany, en 1285, 2 juin, t. IV, p. 9. Archives de la couronne d'Aragon. Ex regist. Petri III, ab ann. litteræ B, fol. 81, publié par Mas Latrie ; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrechiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris 1960., pp286 – 291, Un Traité de paix et de commerce pour quarante ans entre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, négocié à Tunis par philippe Giulianí, ambassadeur vénitien, en1 avril 1251 (A tunis). Venise. Archives generals. Libri. Pactorum, I, fol.164 v; et Libri. II, fol.3, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrechiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris 1960, pp199 – 202.

محمد عبد الغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1999م ، ص206، 207 ؛ جمال، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص241.

(3) ابن عذاري ، البيان المغرب ج1 ، ص280.

(4) الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص47.

البضائع وفي عمليات التعاقد التجاري والبيوع وغيرها(1) ، وكانت الفنادق تحتوي على مقر سكن القنصل وكنيسة ومقبرة وفرن ومكان كاتب العدل وربما يكون فيه حمام عمومي(2) ، وهناك بقايا من هذه الأحياء من طرابلس إلى سبته يمكن للباحث العثور عليها(3) ، وكانت الإقامة في الفندق تكلف التاجر غالباً فهو يقوم بتسليم أمواله لصاحب الفندق، وهو يشتري له ما يريد، ويمكن أن يشتري له جارية إذا أراد ذلك.

يتضح لنا مما سبق أن المراكز والمدن الليبية قد احتوت على العديد من الأسواق والفنادق المتنوعة خلال فترة البحث، وأن تلك الأسواق والفنادق كانت بمثابة المؤسسات الأساسية التي تدور من خلالها التجارة الليبية في تلك الفترة.

2.3. آلية التعامل التجاري في ليبيا

استطاعت الممالك الأفريقية التي تقع على جانبي الصحراء الكبرى بما في ذلك ليبيا أن تنمي اقتصادها، بحيث أصبح بإمكانها أن تصدر الفائض من منتجاتها المختلفة إلى المراكز التجارية الواقعة شمال وجنوب الصحراء ونتيجة لارتفاع الدخل، والانتعاش الاقتصادي لهذه الدول من خلال فرض الضرائب على البضائع الصادرة والواردة، أدى هذا كله إلى ضرورة إيجاد آلية معينة يتم على أساسها تنظيم عملية التبادل التجاري(4)، ومن بين هذه الآلية على سبيل المثال لا الحصر طريقة التجارة الصامتة، أو تجارة المبادلة التي تعتمد على التبادل الصامت بين التاجر والمشتري، وقد تركزت هذه الوسيلة في مبادلة الملح بالذهب، وبصور ذلك المسعودي هذا النوع من التجارة في بلاد غانة بقوله: "وملكها عظيم الشأن ويتصل ببلاد معادن الذهب وبما منهم [أي من تجار هذه البلاد] أمم عظيمة ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم، فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه، وانصرفوا، فيأتي أولئك السودان ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي أصحاب الأمتعة، فإن أرضاهم أخذوه، وإلا عادوا ورجعوا، فيعود السودان ليزيدوهم حتى تتم المبايعة"(5).

ويتفق العمري مع المسعودي في طريقة التبادل الصامت ويذكر: "وهم يبدلون نظير كل صبرة ملح ثقله ذهباً، وإذا جاء التجار وضعوا الملح ثم غابوا فيضع السودان إزاءه الذهب، فإذا أخذ التجار الذهب أخذوا هم الملح " (6) ، وقامت قرطاجة بصك عملة خاصة بها، نتيجة للازدهار والنمو الاقتصادي الذي بلغته، ودلت الحفريات التي قام بها متخصصوا الآثار في كل من مدن طرابلس ولبدة وصبراته أن العملات التي تم اكتشافها بهذه المدن في الفترة من القرن الرابع إلى الثالث ق.م

(1) سامية مصطفى مسعد ، العلاقات بين المغرب والاندلس في عصر الخلافة الاموية ، ص155 ؛ سعيد علي حامد ، تاريخ ومعالم الحضارة وال عمران في ليبيا ، ص154 .

(2) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيى زكرياء وحكومة بيزة في عام 713هـ، ص86 – 97 ؛ الحسن الوزان ، وصف افريقيا، ج2، ص74 ؛ صالح بن قرية واخرون، المسكوكات المغربية من الفتح الاسلامي الى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1986م ، ص314، 315.

(3) عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج5، ص231-234.

(4) الشيخ الأمين عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي واثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص78.

(5) المسعودي ، علي بن الحسين، أخبار الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 879، ورقة، 38 ميكرو فيلم.

(6) العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ص508.

عملات قرطاجة(1)، كذلك عرفت منطقة برقة في ذات الفترة عملة ضربت في مدينتي برقة وقورينا(2)، وبذلك نستطيع أن نقول أن آليات التعامل والتبادل التجاري قد تنوعت حسب الزمان والمكان.

1.2.3. العملة أو السكة(3)

وهي كلمة لها معان كثيرة تدور كلها حول النقود التي تتعامل بها الشعوب، وبالذات النقود المعدنية سواء أكانت من الذهب، أو الفضة، أو النحاس، أو البرنز، وتكمن أهمية دراسة السكة الإسلامية في التعرف على الكثير من المظاهر الحضارية الهامة، فإلى جانب كونها وسيطاً لمبادلة السلع، وأداة لتخزين الثروات دون أن تتبدد أو تقسد فإنها أيضاً وحدة للحساب نتعرف من خلالها على القيمة للأشياء، ويعرف ابن خلدون السكة بأنها "النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يدخلها من الغش أو النقص ان كان يتعامل بها عدد... ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك، ونقش فيه نقوش خاصة فيوضع على الدينار بعد ان يقدر ويضرب عليه بالمطرقة؛ حتى ترسم فيه تلك النقوش، وتكون علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر، ومذاهب الدولة والحاكمة.."(4)، ويعكس لنا النقد أو العملة المتبادلة في أي بلد كان الأوضاع الاقتصادية، فهي توضح مدى التقدم والاستقرار الذي تنعم به، وذلك برسم صورة لطريقة التعامل بين افراد المجتمع، وايضا عن طريق قيمتها نستطيع ان نقف على مدى رواج التجارة أو تدهورها، لانه عن طريق قيمة العملة وقوتها الشرائية تنعكس على مدى قوة النظام الاقتصادي لاي دولة وحظها في الرفاهية والتقدم.

كان نظام التعامل التجاري الدولي خلال فترة الدراسة يركز علي أهم وسيلة للتعامل ألا وهي العملات المعدنية خاصة الذهبية منها(5). وقد عرفت المدن والمناطق الليبية المختلفة مثل برقة وطرابلس وغيرها، المعاوضة بالمبيعات أو المقايضة، والتبادل في المثلونات، وبدون استعمال العملة كالدينار والدرهم، والتعامل بهما عندهم مبهم، وهذا مثال على ذلك النوع من التعامل، حيث يُذكر أن أحد الحجيج قد ساوم بجمل يعطيه به بكرةً وزيادة دينارين(6).

(1) عبدالحفيظ الميار، الفينيقيون في ليبيا من 1100 ق.م حتى القرن الثاني الميلادي، الدار الجماهيرية، طرابلس، 1996م، ص 172.

(2) رجب عبد الحميد الأثرم، تاريخ برقة السياسي والاقتصادي من القرن السابع ق.م وحتى بداية العصر الروماني، ط2، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، (د.ت)، ص 42.

(3) مايسة محمود داود، المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة "دراسة فنية وأثرية" دار الفكر العربي، (د.ت)، ص 102؛ حسان حلاق، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي "الحياة المالية والاقتصادية والإدارية"، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص 68؛ صالح ونيس عبدالنبي، العملة العربية من خلال دينار أموي من الذهب، مجلة البحوث التاريخية، السنة الرابعة، العدد الأول، مركز جهاد الليبيين، طرابلس، يناير 1990، ص 155.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص 201؛ حسني محمد نويصر، الآثار الإسلامية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998م، ص 207.

(5) رسالة من التاجر محرز القابسي الي التاجر الكبير باج البيزي، تاريخها بعد عام 597 هـ، ص 48، 49، رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي الي التاجر البيزي الكبير باج، مؤرخة بعد عام 597 هـ، ص 50 - 52، حسن خضير أحمد: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص 133.

(6) العبدري، رحلة العبدري، ص 204.

وفى حقيقة الامر ان العملات التى كانت مستخدمة لاتمام عمليات التبادل التجارى في تلك الفترة كانت متنوعة المصادر، فمنذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بدأت النقود تسافر مع التجار، ومن كل الأنحاء سحبت نقود من كل الأنواع بواسطة التجار إلى المدن والأسواق التجارية فنجد العملات المغربية (1) وأخرى إسلامية، وكذلك عملات أجنبية متنوعة، وهذا مايجتم علينا ان نستعرض كل نوع من هذه العملات على حدا .

تعد العملة المغربية من أهم تلك العملات وذلك بسبب جغرافية وموضوع الدراسة، فقد كان انتقال الحكم من دولة إلى أخرى ومن حاكم لآخر في منطقة المغرب الأدنى له الأثر الكبير في تعدد العملات التي تدخل في مجال التجارة البرية بالمنطقة ، ففي عصر بني زيري عرف سكان المغرب الأدنى أنواع من النقود كان يتعامل بها، مثل سكة الفاطميين ثم سكة استقلال الزييين عنهم، ثم سكة ملوك الطوائف؛ وسنحاول التعرف علي هذه الأنواع كلا على حدا.

(1) مصادر المعادن المستخدمة لسك العملة: يعتبر الذهب والفضة من أهم المعادن النقدية التي استعملت لسك العملة في دور الضرب المغربية في العصر الاسلامي. وقد سمحت وفرة المعادن بخلق صناعة نقدية متقدمة. ويرجع ذلك إلى عاملين أولهما : استغلال مناجم الفضة التي توافرت محلياً ، وثانيهما : الحصول على الذهب السوداني عن طريق تجارة القوافل. فخلال فترة البحث اتسع نطاق استثمار المعادن، وحظيت مناجم الفضة باهتمام خاص من قبل الخلفاء الموحديين ، لارتباط معدن الفضة بالمجال النقدي. وكان الإنتاج يتم في ثلاثة مناجم رئيسية للفضة ؛ وهى منجم "تامدولت" جنوب مدينة تامدولت القديمة بالأطلس الصغير، ومنجم "جبل عوام" بالقرب من فاس بجبال الأطلس المتوسط. ، ومنجم "زجندر" الواقع على إرتفاع 2000 متر بجبل (سيراو) بالأطلس الكبير. وإذا كانت المناجم الثلاثة الرئيسية تستغل جميعها، فإنه من الممكن أن نتصور حجم الإمكانات التي كان يتوفر عليها من الفضة. وإذا أضفنا إلى هذه المناجم مناجم مغربية أخرى، كمنجم حصن وركناس، ومعدن "السليمية" بالسوس الأقصى، ومن جبل فازار. أو تلك التي تقع بمدن الأندلس لاسيما بناحية البيرة ومرسية وبقر قرطبة بموضع يقال له كرتش وبناحية تطيلة سمور الكثير أيضاً – والتي ذكرها جميعاً الإصطخرى في زمنه ، ومن غير المستبعد أن تكون مازالت موجودة خلال فترة البحث – أدرنا سبب وجود ذلك العدد الهائل من القطع الفضية المربعة التي تتوزعها مختلف المتاحف أما المعدن الثاني الأساسي في صناعة العملات فكان الذهب، وكان مصدره الأساسي بلاد السودان الغربي. نتيجة قلته في المغرب والأندلس. وقد كان جلّ الذهب الذي يذهب لصناعة العملات المغربية يأتي من منطقة في السودان الغربي تسمى ونقارة ونقارة (Ouangara). وتشمل منطقة ونقارة أكثر من إقليم مثل إقليم بامبوك "Bambuk" الواقع بين روافد السنغال العليا (باخوى وبانفج وفاليمي)، وكذلك إقليم بيور "Bure" عند نهر تنكسو "Tinkiss" رافد نهر النيجر ، وإقليم لوبى Lobi عند أعلى نهر فولتا وأشانتى. ولقد كانت مناجم إقليم بيور "Bure" تتميز بسهولة استخراج الذهب منها ، كما كانت أغزر إنتاجاً بالمقارنة بحقول الذهب التقليدية بمنطقة بامبوك؛ انظر: المقريري ، رسالة في النقود الإسلامية، ضمن كتاب ثلاث رسائل، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية 1398 هـ، ص18؛ الإدريسي ، مصدر سابق، ص23؛ الزهرى ، مصدر سابق، ص115؛ مجهول ، الاستبصار، ص185، 187، 213؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب، ص293؛ مجهول ، كتاب عن الصناعة المعدنية بالسوس ، تحقيق عمر أفا ، في (متنوعات محمد حجي) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الأولى 1998 م، ص136 ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب، قسم الموحديين ، ص147 ؛ ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب ، ص212 ؛ القزوينى ، آثار البلاد واخبار العباد، ص199؛ أحمد الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص138-140 ؛ حسن على حسن ، تاريخ المغرب العربى ، ص395 ؛ على محمد الصلابى ، اعلام اهل العلم والدين باحوال دولة الموحديين ، ص153 ؛ كولين ماكيفيدى ، أطلس التاريخ الإفريقي ، ترجمة مختار السويفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2002م ، ص89 ؛ كرم الصاوي باز ، تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب ، في الفترة من [ق3 – 5 هـ/11-9م] ، أعمال ندوة التواصل العربي الأفريقي عبر الصحراء الكبرى ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة 2003م ، ص10؛ Michael Brett : Ifriqiya as AMarket for Saharan Trade from the Tenth To The Twelfth Century A.D, The Journal of African History , Vol. 10 , No.3 .1969 .pp .348,349.

2.2.3. الدينار والنقود

الدينار(1) عبارة عن قطعة نقدية تعارف عليها الناس منذ القدم، وقد استخدموها في معاملاتهم النقدية اليومية، فأصل كلمة دينار "دندر" أي بمعنى تلاًأً وجهه(2) ويتبع الدينار قاعدة الذهب(3)، وهو أساس التعامل اليومي عند الناس(4)، وعرفت النقود الذهبية بالسودان منذ زمن وقبل الفتوحات الإسلامية لليبييا، وأشار لذلك البكري في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى تداول الدينار في تادمكة حيث ذكر: "... ودنانيرهم تسمى الصلغ لأنها ذهب محض غير مختومة"، ويعتقد بأنه على نفس الوزن المعمول به في المشرق والمغرب الإسلاميين آنذاك وهو مثقال واحد(5)، وأوضح المقرئزي أيضاً أن: "المثقال من الذهب يطلق عليه اسم دينار"(6).

وقد وجدت العملات العربية ببلاد السودان وخاصة الدنانير المغربية والمصرية، وتحديداً في مالي وجاو اللتين كانتا تعدان من أهم المراكز التجارية في تلك الأثناء(7).

ونتيجة للإرتباط التجاري الذي كان سائداً في تلك الفترة، وصلت أنواع كثيرة من العملات المتداولة في ليبيا والعالم الإسلامي إلى جنوبي الصحراء، حيث أشار الحسن الوزان إلى ذلك: "... والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك"(8)، ويضيف: "... ويمتلك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية وتستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة"(9)، وبذلك نفهم بأنه كانت تتوفر كميات كبيرة من الذهب الخالص لدى السكان في تلك النواحي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم بن الأغلب، مؤسس الدولة الأغلبية، الذي اتخذ من المغرب الأدنى موقعاً له (184 - 296هـ/800-909م)، قام بضرب عملة جديدة تميزت بظهور الرموز على الدينار(10) المصنوع من الذهب بحيث أصبح الشكل العام للدينار في عهد الأغلبية الوجه المركز كتب عليه: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ارسل بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" (11).

(1) عرف العرب قبل الإسلام الدينار الذهبي الروماني، وجاء ذكر الدينار في القرآن الكريم عند قوله تعالى: (ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمتم عليه قائماً) سورة آل عمران، الآية (75)، ويوزن الدينار 25.4 من الجرامات (66 حبة) وأقدم دينار إسلامي يرجع إلى سنة 667هـ/695م، وقد ضرب آخر دينار في بغداد بعد سقوط الدولة العباسية، واختفت كلمة دينار حوالي سنة 661هـ/1262م؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج9، مادة (دينار) وفي عصرنا الحديث ظهر الدينار الورقي في بعض دول الخليج وشمال إفريقيا مثل العراق، الكويت، وتونس وليبيا.

(2) بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، د - ت، ص 252.

(3) سيده إسمايل كاشف، دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، تحرير: أحمد بدون وآخرون، القاهرة، 1963، مجلد 14، ص 100.

(4) عبدالحميد حمودة، اسواق القيروان في عصر الأغلبية، منشورات معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، 2001، ص 61.

(5) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 173.

(6) المقرئزي، اتعاض الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ص 277.

(7) شوقي عطا الله الجمل، دور العرب الحضاري في أفريقيا، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1987، ص 164.

(8) الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 163.

(9) المصدر نفسه، ج2، ص 166.

(10) محمد، موسوعة النقود، ص ص 829، 830.

(11) محمد باقر الحسيني، دراسات في النقود الثورات والشعارات والمناسبات المضروبة في أفريقيا، مجلة المسكوكات، العدد السابع، 1976، ص 34.

ومع مرور الوقت، وتوالي الولاة على حكم دولة الأغلبية كان الدينار دائماً ما يتعرض إلى زيادة النقوش التي تؤرخ لكل فترة حكم على حدة بأن يذكر اسم الأمير الأغلب أو تاريخ السنة التي ضرب فيها الدينار(1).

كذلك وجدت الدراهم الفضية والفلوس النحاسية التي كانت تتداول بكثرة في الأسواق لشراء السلع أيضاً وجد دينار ضرب بطرابلس سنة (445هـ/1053م)، في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر مكتوب عليه:

الوجه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله ولي الله.

الظهر: الإمام أبوتميم المستنصر بالله أمير المؤمنين.

الهامش: باسم الله ضرب هذا الدينار بطرابلس سنة خمسة وأربعين وأربعمائة.

الهامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله(2).

هذا بالنسبة للدينار والدرهم والفلوس الذي استمر التعامل به طيلة فترة الدراسة وما بعدها، وقد كان يتأثر في شكله ووزنه بالظروف السياسية والاقتصادية التي تمر بالمنطقة فمثلاً عندما تستقر الأمور السياسية تشهد البلاد نمواً اقتصادياً يرتفع وزن الدينار، كذلك حتمت عملية الأسعار على السلع أن يجزأ الدينار إلى النصف، والرابع، ورباعي، وثمانى، وخضعت بالتالي أوزانها لنفس الظروف التي كان يتعرض لها الدينار(3)، وهذا الأخير كان دائماً يضرب من الذهب(4).

وقد استعمل هذا النوع من العملة في عمليات شراء وبيع الحاجيات اليومية للأهالي متمثلة في المواد الغذائية والملابس والدواب وغيرها كذلك استخدمت في عمليات التبادل التجاري بين المدن والمناطق والدول، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك عندما ذكر أن سعر الخيل والملح كان يقدر بالمتقال، مضيفاً بأن منسيا موسى ملك مملكة مالي كانت عطاياها التي يغدقها على كبار القادة والأعيان في دولته بالمتقال(5).

وفي حقيقة الأمر، أن هذه الأنواع من العملة كان من الضروري إيجاد مكان خاص يخضع لشروط معينة تم وضعها فيها حيث أنشئت دور سميّت بدور ضرب السكة في أغلب الأحيان تقع في الحواضر أي المراكز بالقرب من مقر الإمارة والمسجد، ويكون على رأسها أشخاص مشهود لهم بالمهارة في صناعة مثل هذا النوع من النقود كالسبك والنقش والوزن، وأيضاً تم تأمين هذه الدور بإيجاد أشخاص أسندت لهم مهمة حراستها(6).

بالنسبة لسكة الفاطميين فقد ظهرت أثناء السيطرة الفاطمية على المغرب الأدنى حيث كانت الدنانير تُضرب باسم الخليفة الفاطمي، وكانت تلك النقود عبارة عن قطع مستديرة تفصل بين نصوصها حلقات من خطوط معدنية يتراوح قطرها بين 20 ملم و22 ملم أما وزنها فهو إما 3,62 غ

(1) ابن عذاري، المسالك والممالك ج 1، ص 98.

(2) شبكة المعلومات الدولية.

(3) محمد مرمول صالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 175.

(4) بن قرية، المسكوكات المغربية، ص 383.

(5) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 449.

(6) حسن حسني عبدالوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ج 1، مكتبة المنار، تونس، 1964، ص 411.

أو 4,36 غ، وكانت هذه القيمة في حكم المعز بن باديس (406 – 454 هـ / 1016 – 1062م) حتى عام 439 هـ / 1047م (1). ثم راجت دنائير ودرهم بني زيري وهم تحت تبعية الفاطميين في أسواق مصر، وكان الطلب عليها كبيراً في شكل مدفوعات لثمن البضائع المستوردة من مصر وسوريا ، وعمامة بلاد المشرق الإسلامي (2).

وبعد أن أخذ المعز قراراً بالاستقلال عن الدولة الفاطمية أمر بتبديل السكة (3) في ضوء القطيعة مع الفاطميين في مصر، حيث أحدث بعض الإصلاحات النقدية من ضرب دينار سمي بالتجاري (4)، وربما يكون السبب وراء تسمية هذا الدينار بالتجاري هو بسبب استعماله في كل المعاملات هذا من الجهة والدفع به إلى الرواج من جهة أخرى (5).

(1) الرسالة – أو السجل – المعروف باسم الهداية الامرية في إبطال الدعوة النزارية، قام بنشرها جمال الدين الشبلي: مجموعة الوثائق الفاطمية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى 2002م، تحت رقم 4، ص 68؛ صالح بن قربة، المسكوكات المغربية، ص 475، 476؛ عاطف منصور محمد رمضان، الكتابات غير القرآنية علي النقود الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، القاهرة 2002م، ص 180.

(2) حسن خضير احمد، علاقات الفاطميين بمصر، ص 136.

(3) أدوات ومراحل صناعة العملة: شملت الآلات والأدوات المستخدمة في صناعة العملات في تلك الفترة "الأتون" أو الفرن المستخدم في صهر وتنقية المواد الخام، والمساعدة في عملية إعداد السبائك للسك، وكان وقود هذه الإفران هو الحطب والفحم. وكان هناك "الغريبال" الذي يُستخدم في غربلة التبر في بداية عملية التنقية، كما كان هناك "المهراس" وهي الأداة التي تدق فيه ويهرس تبر الذهب في مراحله الأولى. أما "البوطة" و"الكوجة" فهما الألتان اللتان استُخدما في صهر وسبك المعدن على النار. ومن هذه الأدوات أيضاً "اللقاط" و"الميشق"، والأولى هي أداة تشبه المقص الكبير لوضع المعادن في الفرن أو إخراجها، والثانية قطعة من القماش تستعمل لتناول القدور من على النار. كما عرفت تلك الفترة أيضاً وجود أداة تسمى "المراط" وهو قالب يصب فيه المنصهر ليصبح سبيكة. كما استخدمت "المطرقة" و"الزبرة" وهي قطعة حديد تُستعمل في طرق القطع المقطعة لعمل الدنانير والدرهم للحصول على أكبر قدر ممكن من استواء سطحها وتهذيبه. ومن تلك الأدوات أيضاً "الميزان" الذي استُخدم في جميع مراحل عملية صناعة العملات للتأكد من سلامة الأوزان وضمائر العاملين. ومن أشهر الأدوات المستعملة في صناعة العملات في تلك الفترة "الختم" الذي يُطبع به العملات ويحمل عليه رموز وكلمات وأشكال أرادها من يصنع تلك العملات. وكان هناك "جولق الأزواج": "والجولق هو الصندوق، والأزواج هي الأصول التي كانوا يطبعون السكة بها، والصنح الرسمية التي كانوا يعيرون العملة بها، وهذه الصنح كان يُطلق عليها "إمام الذهباً مراحل صناعة العملات فهي كالتالي: - المرحلة الأولى (التنقية): تعني تنقية معدن الذهب أو الفضة الخام من الشوائب التي تكون عالقة بها. أما المرحلة الثانية (التمديد والتقطيع): يقوم بهذه العملية شخص يُدعي المداد، حيث يصنع من الفضة أو الذهب صفائح، يحميها ثم يسويها بطرف مطرقة، ثم يحميها عدة مرات حتى تتوهج إلى أن تبلغ حد التقطيع، وعندها يقطعها إلى مربعات أو دوائر حسب نوع العملة المرادة. ويقوم السكاك بتحكيك هذا التبريع أو تدوير الدوائر وإزالة الزائدة على المربع أو الدائرة. أما المرحلة الثالثة (الطبع): حيث يقوم السكاك بطبع هذه الدراهم أو الدنانير بطابع حديد ينقش فيه كلمات مقلوبة، حتى تخرج رسوم تلك النقوش علي القطعة المعدنية المراد سكها ظاهرة ومعدولة، والطابع المستعمل يكون مزدوجاً لتسهيل عملية الطبع من الوجهين؛ انظر: ابن ممتي، اسعد بن مهذب بن زكريا، كتاب قوانين الدواوين، تحقيق، عزيز سوريال عطية، ط 1، 1990م، ص 128 – 130، 331، 332؛ أبو الحسن بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص 113، 114، 128 – 137؛ ابن خلدون، المقدمة، ص 158، 183؛ ابن بكرة، منصور الذهبي الكامل، كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمي، القاهرة 1954م، ص 29، 80؛ يحيوي العمري بن قربة: الدراهم المغربية الأندلسية المربعة من خلال مجموعة المتحف الجهوي بمليانة، (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم الآثار، كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية 2003 – 2004م، ص 18-20.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص 278؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 2، ص 259.

(5) الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ج 1، ص 278؛ صالح يوسف بن قربة، انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى، في (ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 1995م، ص 495؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ج 2، ص 259.

غدت من أكثر العملات الدولية تداولاً واحتراماً في المشرق والمغرب وغدت دول العالم الإسلامي والنصراني تتنازع عليه، خاصة في حوض البحر المتوسط(1).

فقد كان التجار المغاربة الوافدون على الإسكندرية يحرصون على أن يتقاضوا أثمان سلعهم بالعملة المرابطية التي كانت بالتأكيد أكثر قيمة من غيرها من العملات المتداولة في مصر آنذاك، بل أن سمعة العملة المرابطية امتدت شرقاً إلى أبعد من مصر، فثمة وثيقة صينية مؤرخة في عام 582هـ/1187م تقول: إن مولابتي (Mulaprit) وهي محرفة عن كلمة مرابط(2). كما كانت بعض السفن تدفع ما عليها من عشور في ميناء عدن بالدنانير المرابطية(3)، كما قيل أن الدينار المرابطي وصل الي القسطنطينية(4)، كما ذكر ابن منقذ وجود الدنانير المغربية في بلاد الشام(5). لذلك يمكن القول أن الدينار المرابطي كان هو العملة القوية التي تحكمت في أسواق العالم لفترة طويلة من الزمن، فكانت بمثابة "العملة الموحدة" في سائر الجهات المشهورة حينذاك(6). بما فيها المناطق الليبية.

كما دخل الدينار الموحد في سياق التعامل التجاري في المغرب الأدنى بعد سيطرة الموحدين عليه وبالطبع وصل للمناطق الليبية التي خضعت لحكم الموحدين أيضاً، وقد امتازت معظم الدنانير الموحدية المضروبة لغرض التعامل التجاري بأنها ذات سمعة قوية، وانتشر التعامل بالدنانير الموحدية بين التجار الدوليين بسبب ما كانت تمتاز به من وزن مضاعف منذ عهد حاكمهم الثالث أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (580-590هـ/1184-1193م)(7)، ولذلك عُرف الدينار الموحدى عند النصارى الإسبان(دوبلة Dobra)(8). وقد أشار إلى الدنانير اليعقوبية ابن يوسف

(1) عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين، ص226، حسين مؤنس: عالم الاسلام، ص278؛ عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج5، ص؛ رشيد بوربيبة: الدولة الحمادية (تاريخها وحضارتها) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، جامعة الجزائر، الجزائر 1977 م، ص145؛ احمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية2005م، ص291؛ صالح يوسف بن قربة: انتشار المسكوكات ، ص175.

(2) A. Lawsuit of lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November 12, 1097, pp213 – 215 ، عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج5، ص83، 84، صالح بن يوسف بن قربة: انتشار المسكوكات المغربية، ص179

(3) ابن حوقل، صورة الارض ، ص32.

(4) صالح بن يوسف بن قربة: المسكوكات المغربية ، ص179، حسن خضير أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ، ص139.

(5) المقرئ، المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية ، تحقيق ، محمد زينهم ، مديحة الشراوى ، مكتبة مديولى ، القاهرة، 1998م ، ص13.

(6) A. Lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November 12, 1097, pp213 – 215 .

الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ، ج2، ص289-291 ؛ عبد الهادي التازي ، الدبلوماسية المغربية، ج5، ص83.

(7) ابن عذارى ، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص182، 183 ؛ حسن خضير أحمد ، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب العربي، ص140 ؛ رأفت محمد النبراوي ، النقود الإسلامية (منذ القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري) ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، الطبعة الثانية 2003م ، ص271، 274.

(8) عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين ، ص228 ؛ أحمد إسماعيل الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة العربية ، ص136، 137 ؛ جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصرى المرابطين والموحدين، ص231 ؛ محمد الشريف ، تدقيقات جديدة حول المسكوكات الموحدية ، مجلة مواسم ، طنجة-المغرب، العدد5-6، دت ، ص50 ، 51.

الحكيم ، كما أشار إليها أيضاً ابن بعرة المصرى الكاملى، وإعتبرها من أجود العملات الأجنبية التي كانت ترد على دار الضرب المصرية(1).

غير أن الموحدون لم يلبثوا فى عهد أبى يوسف المنصور أيضاً، أن ضربوا نصف دينار موحدى يزن ديناراً عادياً عرف في المصادر الإسبانية باسم نصف دبله Media dobla، كذلك ضرب الموحدون ربع الدينار المعروف عند النصارى الأسبان بإسم ربع دبله Cuarta dobla (2)، وبذلك سكت الدينارين المزوجة وكذلك كسور الدينارين مما يزيد من سرعة التعامل بهذه العملات(3) ، ولا تختلف نقود الحفصيين عن نقود الموحدون عامة من حيث شكل العملة ومواصفاتها الفنية، وطبيعي أن يتكون نقد الحفصيين مثل نقد الموحدون على دنائير وضعفها وأجزائها مثل الثلث والربع(4)، ويقال أن الدينار الذي ضربه حكام تونس في عصر الدولة الحفصية يزن أربعة وعشرين قيراطاً(5).

من جانب آخر كان نتيجة التبادل التجاري بين المشرق الإسلامى وبلاد المغرب الإسلامى، لاسيما المغرب الأدنى أن عرف النشاط التجاري في تلك المنطقة وجود عملات تلك البلاد كوسيلة للتعامل التجاري، وما يدل على ذلك تطرق ابن بعرة المصرى الكاملى إلى الدينارين اليعقوبية المغربية، وإعتبرها من أجود العملات الأجنبية التي كانت ترد على دار الضرب المصرية، وبالطبع لم تكن هذه الدينارين اليعقوبية ترد إلى مصر، إلا فى المقابل قد وردت العملات الإسلامية خاصة المصرية منها، لاسيما الدينارين منها إلى بلاد المغرب آنذاك عامة وفي مقدمتها المناطق الليبية المجاورة لمصر(6).

كما كانت الدينارين الفاطمية والتي ضربت في المشرق هي الأخرى وحدة قياس العملة وهي "جواز الشرق" حسب ما تشير اليه وثائق الجيزة(7) ، لذلك كان الدينار الفاطمي من أهم العملات التي استخدمت في مجال التعامل التجاري بين مصر والمغرب عامة والمناطق الليبية علي وجه الخصوص، لاسيما أن الدينار الفاطمي ظل محافظاً علي جودته، الأمر الذي أدى إلى انتشاره في الأسواق الخارجية، وكان أهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة التي تدل علي جودتها فكان يُنقش عليها عبارة (عال) أو (عال غاية)، وهذه العبارة تبين جودة العيار، وقد حافظ الدينار الفاطمي علي نقاوته طوال عهد الفاطميين. ويجب الإشارة إلى أن الدينار الموحدى كان أقل من الدينار الفاطمي، ومن

(1) ابن بعرة: كتاب كشف الاسرار العلمية، ص43 ؛ ابن أبى زرع ، الانيس المطرب ، ص230 ؛ أحمد إسماعيل الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص136، 137.

(2) محمد أحمد أبو الفضل ، الأندلس في العصر الإسلامى ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية1996م ، ص286، 287.

(3) حسن على حسن ، تاريخ المغرب العربى ، ص229 ؛ جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصرى المرابطين والموحدون، ص231، 234 ؛ محمد أحمد أبو الفضل ، الأندلس في العصر الإسلامى، ص288.

(4) روبرت برنشفيك ، تاريخ افريقية في العهد الحفصى، ج2، ص73، 74 ؛ رأفت محمد النبراوي ، النقود الإسلامية ، ص289، 290.

(5) الحسن الوزان، وصف افريقيا ، ج2، ص81.

(6) ابن بعرة ، كتاب كشف الاسرار العلمية ، ص43 ؛ أحمد اسماعيل الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص136،

(7) جواتين ، دراسات في التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية ، ترجمة عطية القوصى ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى1980م، ص242 ، 243 ؛ السيد محمد الملط ، نقود العالم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة1993م ، ص57.

المرجح أن ذلك حدث قبل أن يضاعف الموحدون الدينار (1)، وهذا ما يفسر لنا ذكر ابن جبير أن الدينار المصري في عصره كان يساوي في القيمة التجارية ضعف قيمة الدينار المؤمني (2). كما ظل الرباعي الفاطمي – أي ربع الدينار – متداولاً. وقد تبين أن العملة المعروفة عند النصارى باسم tari مشتقة من الكلمة العربية (طري)، بمعنى حديث الضرب، وهي صفة استُعملت لنعنت الرباعي في صقلية العربية، ومن صقلية انتقلت التسمية إلى إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ومالطة (3). كما عُرفت بلاد المغرب العملات الأندلسية في تعاملها مع التجار الأندلسيين، حيث لاحظ تاجر قيرواني أن "الدرهم الأندلسية كثيرة هنا" أي ببلاد المغرب الأدنى عامة (4)، كما تدفقت العملات الأوربية إلى بلاد المغرب في فترة الدراسة، فقد اكتُشفت عملات أجنبية ترجع إلى القرنين السادس والسابع الهجريين، لاسيما عملات المدن الإيطالية التي وصل تجارها إلى بلاد المغرب للتجارة، ومنها المدن الليبية الساحلية مثل طرابلس، ومن هذه العملات عملات فلورنسا والبندقية وجنوة وبيزة (5).

فقد عمدت جمهوريات إيطالية كفلورنسا منذ عام 649هـ - 1252م إلى ضرب نقود من الذهب الخالص بوزن 3.5 جرام عُرفت بالفيورينو Fiorino. وخلال الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي حظى النقد الذهبي الفلورنسي بمكانة مرموقة حتى أن المسؤولين عن دار الضرب في فلورنسا كانوا يدعون بكل اعتزاز أن نقودهم الذهبية هذه تقبل في أي مكان من العالم. كما طرحت البندقية الدوكاتوا الذهبي عام 682هـ - 1284م والذي جاء بنفس وزن وعيار الفيورينو، كما تذكر كتب التاريخ الأوربي أن الجنويين قد تعاملوا مع بلاد المغرب الأدنى بالليرة (lire)، وقد لعبت هذه العملات الإيطالية آنذاك دوراً بارزاً في المبادلات التجارية الدولية خاصة مع بلاد البحر المتوسط لاسيما بلاد المغرب الأدنى (6)، ومن أسماء العملات الأوربية أيضاً التي عُرفت في بلاد المغرب عملة الـ (بيزنطي) (Besants) (7)، كما تردد في وثائق الجنيزة ذكر أرباع الدنانير التابعة لصقلية أو التاريز، وفي عام 454هـ - 1063م كان الفلفل يُباع فقط في المهديّة بعملات صقلية وبيزة (8). كما كانت العملات الفضية لها مكانة قوية في معاملات التجارة البحرية – حسب وثائق الجنيزة – ولقد كانت

(1) المقربيزي، اعطاء الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمي محمد احمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية 1996 م، ج1، ص116؛ حسن خضير أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص141، 143، 144.

(2) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص24، 30.

(3) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والاندلس، الدار العربية للكتاب، 1997م، ص328.

(4) أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض 2002م، ص78.

(5) سحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة الرباط في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1996م، ص109، 110؛ عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج6، ص243.

(6) سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي (عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي المتوسط 1450 – 1517)، دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1989م، ص188، 192؛

.Hilmar C. Krueger ; Op,Cit , p 381 .

(7) Un Traité de paix et de commerce pour quarante ans entre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou- Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp199 – 202

المرابطين والموحدين، ص231، عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج6، ص2.

(8) جواتين، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص242 – 243، السيد محمد الملط، ص57.

قيمة العملات الفضية المرسلّة من تونس تتغير قيمتها وفقاً للضرب وحالة العملات الأخرى(1)، وقد ورد ذكر النقود الفضية أكثر من مره في رسائل التجار المغاربة مع نظرائهم الايطاليين في تلك الفترة(2). خصوصاً الدراهم الموحدية المربعة(3) التي لعبت دوراً كعمله دولية في التجارة والمبادلات بين الغرب النصراني والمغرب الإسلامي حتى نهاية العهد المريني، كما تركت أثراً عميقاً في عملات أوربا الغربية ونالت إعجاب الأوربيين، فأقبلوا عليها اقبالاً شديداً، وقلدوها وضربوا نقوداً على شاكلتها عرفت باسم المليار (Milliars)، على الرغم من أن (Milliars) كان يشار إليه في المعاهدات الدولية خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وهو لا يخرج عن كونه تقليداً موحدياً محضاً(4) والمليار (Milliars) مربع الشكل، لكنه ذو قيمة منخفضة جداً عن الدرهم المربع الموحدي(5)، من جانب آخر عُرفت العملات النحاسية ففي جربة كانت تتم الصفقات بالنقد النحاسي(6) .

3.2.3. المكايل والموازين

بالنظر الى شح المعلومات المتوافرة لدينا حول موضوع المكايل والموازين في ليبيا فإن اعتمادنا سوف يتركز على مبدأ التخمين تارة ، وثانياً على مبدأ المقارنة بالمماثلة تارة اخرى ، وبما ان الاراضى الليبية الساحلية منها على وجه التحديد (برقة وطرابلس) كانت تتأثر سلبا ويجابا بما كان يدور في مصر وافريقية طوال العصر الوسيط لذلك من المناسب الاستعانة ببعض مكايل هاتين المنطقتين واوزانهما التي من الممكن أنها استخدمت و لنفس الاغراض في اسواق ليبيا المحلية ،

(1) جواتين ، دراسات في التاريخ الاسلامي، ص242 – 243.
(2) رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي إلى التاجر البيزي الكبير باج، مؤرخة بعد عام 597هـ، ص50 – 52.
(3) فالدرهم الموحدي كان عبارة عن قطعة معدنية من الفضة، مربعة غير منتظمة الشكل طول ضلعها 14 × 16 سم، يتوسطها مربعان متداخلان، الأول خال من الزخرفة والثاني من حبيبات متراصة متلاصقة تشبه حبات اللؤلؤ. وكانت الدراهم المربعة وأصافها تحمل كتابتين مركبتين من الوجهين نفذت نصوصهما بطريقة الحفر البارز، بأسلوب الخط النسخي الموحدي؛ انظر ، صالح يوسف بن قربة ، شخصية عبد المؤمن بن علي من خلال نقوده، ص4.

(4) ومن الدراهم الموحدية مجموعة دراهم المتحف الجهوي بمليانة والتي وجدت في جرة من الطين بضواحي عين الدفلة، والتي بلغ الجيد منها ثلاثمائة قطعة، تظهر عدة خصائص للدراهم الموحدية. ومن أبرز الخصائص الفنية التي وجدت على هذه المجموعات هي أنها كانت في أغلبها لم تسجل تاريخاً لضربها ولا تحتوي على الهامش. أما مكان الضرب فنادر ما نجده مدوناً عليها ، باستثناء أصناف الدراهم المؤنمية مما يعقد مسألة التاريخ. فقد يسجل مكان الضرب على بعض القطع في كتابة مركز الوجه أسفل الكتابة المركزية مجزئاً إلى مقطعين بمعنى فصل الحروف عن بعضها كأن يكتب مثلاً (بجا) في جهة، و(ية) في الجهة الثانية. ويؤكد د/صالح بن قربة أنه من المستبعد جداً الانتهاء إلى معرفة الأسباب التي كانت وراء عزوف النقاش (الفتاح) عن تسجيل مدينة الضرب، فهل يمكن تفسير ذلك بضيق المسافة المخصصة لنص الدرهم ؟ أم هو مسألة فنية محضة؛ انظر ، يحيوى العمري بن قربة ، الدراهم المغربية الاندلسية المربعة من خلال مجموعة المتحف الجهوي بمليانة ، ص66 ؛

(5) UnTraité de commerce , conclu dix ans, entre Abou-Abd-Allah Mohammed Monstancer-Billah, roi de Tunis, et la république de Gènes , pp118 – 121, UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp199 – 202 de Tripoli، عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين، ص231؛ صالح بن يوسف بن قربة: انتشار المسكوكات المغربية، ص185، 186 ؛ رأفت محمد النبراوي ، النقود الإسلامية، ص283.
(6) ابن الشماع ، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس 1984م، ص67 ؛ الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية 1966م، ص38؛ الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية ج2، ص256، 257.

والمكايل في التجارة تختلف وتتوسع تبعاً لطبيعة المواد المُكالة، فهي تختلف بين الجوامد والسوائل(1). فقد عرف المغاربة عامة والليبيون على وجه الخصوص "المد" في تعاملاتهم، وقد جعله البكري وزن ثمانين أوقية(2)، بينما يذكر الإمام الشاطبي أن مقدار المد ملء اليدين المتوسطتين من غير قبضهما(3)، ويذكر أبو الحسن أن المد رطل وثلث(4)، وبذلك كان المد محل خلاف بين أصحاب الاختصاص في تقديره في تلك الفترة(5).

أما "الصاع" الكامل فهناك اتفاق بين أصحاب الاختصاص أنه يساوي أربعة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم، والصاع يساوي نصف وبيبة، والوبيبة ثلاث كيلات، وقد سمي الصاع في عصر الموحيين بـ"السطل"(6)، كما عرفت المنطقة ما يسمى بـ"المكوك" وهو أثنا عشر مدأ أي نصف "وبيبة" وهو يساوي أيضاً صاعاً ونصف، أي أن "الوبيبة" تساوي أربعة وعشرين مدأ(7)، وهناك من يرى أنها تساوي اثنين وعشرين مدأ بمد النبي ﷺ (8)، كما عرفوا "الإردب" وهو يساوي ست وبيبات، ويبدو أن الإردب عُرف عن أهل مصر في تلك الفترة(9)، كذلك عرفوا "الكر" (بالضم) وهو ستون قفيزاً بالعراقي وأربعون إردباً بالمصري(10)، وكان القفيز من المكايل المعروفة أيضاً في العصر الموحي والحفصي أيضاً(11).

وكان يساوي ثمانية مكايك وجمعه أقفزة وقفزان(12)، وكان القفيز من المكايل التي تفاوت الناس في تقديرها؛ لاختلاف الاصطلاح فيها(13)، وربما يرجع ذلك إلى وجود سدس القفيز وربعه ونصفه في عصر الموحيين(14)، وبالنسبة إلى الحبوب وجميع المواد الجافة كانت منطقة المغرب الأدنى عامة تستعمل القفيز الذي يساوي 187,58 لتراً، ويتجزأ الي16 وبيبة تساوي كل واحد منها 11,72 لتراً، وتتجزأ بدورها الي12 "مدأ" أو "صاعاً"، ويساوي الصاع حوالي 0,98 لتراً، فالقفيز يتضمن حينئذ 192مدا(15)، وكان القفيز في مدينة طرابلس أثقل من قفيز تونس، إذ ينبغي جمع ما

(1) مجهول، كتاب في الأوزان والمكايل، مخطوطة بدير الاسكوريال، نشر موقع ziedan.com، ورقة 3، 4، روبر برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج2، ص262.

(2) عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص283..

(3) فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجان، نهج لواز، الوردية - تونس، الطبعة الثانية 1985م، ص133.

(4) أبو الحسن بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص146؛ حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس [عصر المرابطين والموحدين]، ص230.

(5) أبو العباس السبتي: إثبات ما ليس منه يُد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، تحقيق محمد الشريف، المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة 1999م، ص57.

(6) أبو العباس السبتي، إثبات ما ليس منه يُد، ص56، 57؛ مجهول، تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية، وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك، تحقيق محمد الشريف، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد 11 صيف 1999م، ص15؛ القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، ج5، ص325، ج4، ص216، 118.

(7) أبو العباس السبتي، إثبات ما ليس منه يد، ص128؛ مجهول، تلخيص القول، ص16؛ ابن رفاعه، الإيضاح والتبيان في معرفه المكيال والميزان، دار الكتب المصرية، نشر موقع ziedan.com، ورقة 8، 9.

(8) أبو العباس السبتي، إثبات ما ليس منه يد، ص130.

(9) المصدر السابق، ص132.

(10) مجهول، تلخيص القول في الاكيال والاوزان، ص16.

(11) العمري، مسالك الابصار ج4، ص140؛ روبر برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج2، ص260، 261.

(12) أبو العباس السبتي، إثبات ما ليس منه يد، ص131، مجهول، تلخيص القول، ص16؛ محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الخامسة 1985م، ص308.

(13) عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص293، 307.

(14) المصدر السابق، ص308، 313.

(15) العمري: مسالك الابصار، ج4، ص140؛ روبر برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي ج2، ص262.

بين 69 و79 قفيزاً للحصول علي 100 قفيز تونسي، أي أن قفيز طرابلس يساوي حوالي 252 لتراً، ويتجزأ الي عشر "برشلة" تساوي أكثر بقليل من 12,5 لتراً. وكان المكيال الأكثر استعمالاً بالنسبة الي الحبوب في مدن عنابة والقلّ وقسنطينة يُسمى "الثمينة" أي ثمن القفيز التي تساوي في المدينة الأولى 23,13 لتراً وفي الثانية 29,69 لتراً(1).

كما استعمل الجريب وهو مكيال يساوي أربعة أفضرة، كذلك استعمل "الوسق" وكان من المكايل الأكثر استعمالاً في العصر الموحدى وسمي أيضاً بـ "الصفحة"، والوسق وسق جمل أي حمل جمل. ولا خلاف على تحديد الوسق، فالكل – أصحاب المعاجم والفقهاء – يذكر أن الوسق ستون صاعاً، وأن الخمسة أوسق تساوي ثلاثمائة صاع. ن ربع أردب . و كان فى بغداد يسع مكوكان ، و كل مكوك خمس عشر آق ، و كان القفيز أيضاً مقياس للأرضومن المكايل أيضاً الفقة(2).

وأخيراً لا ينبغي أن نهمل ذكر المكايل المتمثلة في الأيدي البشرية، والمستعملة بكثرة بالرغم من قلة دقتها، وهي: القبضة والحفنة. ففي تونس كانت العادة الجارية بها العمل أخذ خمس حفنات (ملء اليدين) من كل كيس حبوب مستورد من الخارج، إلا أن الأمر في عهد بني خراسان اقتصر على أخذ أربع قبضات (ملء اليدين) من أعلى كل كيس قادم من بيزة نتيجة العلاقات الودية بين الجانبين(3). وبالضرورة كانت تلك المكايل معروفة في المناطق الليبية.

وبالنسبة إلي السوائل والزيت علي وجه الخصوص كانت الوحدة العادية للكيل تتمثل في "المطر" أو "المطيرة" ويبدو أن "مطر" جربة كان يساوي 20,69 لتراً. وهو حسب ما دلنا عليه البكري كيل يسع خمسة أفضرة من الزيت وقفيز الزيت ثلاثة أرطال فلفلية، وعليه فإن المطر يساوي 15 رطلاً فلفلية(4) ، و عرفت المنطقة أيضاً "القسط" ومعناه نصف صاع ويساوي رطلين وتلثين(5)، ويُستعمل القسط في كيل الزيت والسوائل، وهو في العراق ستون قفيزاً وأربعون أردباً في مصر، ولا توجد لدينا معلومات حول قيمة هذا المكيال في المغرب الأدنى عامة .

كما أشارت بعض المصادر أيضاً بالنسبة إلي العصر الإسلامي الحفصي، إلي وحدة أخرى لكيال الزيت وهي "الجرة"(6)، التي يبدو أنها كانت تساوي في تونس ثلاثة "أمطار" أو حوالي خمسين لتراً بدون أن تعلم هل أن تلك العلاقة بين المطر والجرة كانت مضبوطة بدقة أم لا. كما أن الوحدة

(1) البكري ، المسالك والممالك، ص27 ؛ روبر برنشفيك، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى، ج2، ص262.
(2) السقطى، ابو عبدالله محمد بن ابى محمد الملقى، كتاب في آداب الحسبة ، تحقيق، ليفى بروفنسال، مطبعة ارنست لورو، باريس، 1931م، ص16؛ عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، ص307، 310 ؛ أبو العباس السبتي ، إثبات ما ليس منه بد ، ص56 ؛ أبو الحسن بن يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة ، ص146 ؛ ابن آدم القرشي ، كتاب الخراج ، تحقيق حسين مؤنس ، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى1987م، ص157 ؛ العمري: مسالك الابصار، ص140، 193 ؛ حسن على حسن ، تاريخ المغرب العربي، ص230، 231 ؛ جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، ص234 ؛ محمد ضياء الدين الرئيس ، الخراج والنظم المالية ، ص233؛ جمال أحمد طه ، مدينة فاس، ص234.

(3) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق بن أبي خراسان حاكم تونس إلي حكومة بيزه ، لتوضيح خلوا سفينة جاءت من الإسكندرية من الأسري البيزيين وتسهيلات للتجار البيزيين في تونس خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino 1863، تحت رقم 1، ص1 ، 6 ؛ الهادي روجي ادريس ، الدولة الصنهاجية ج2 ، ص298 ؛ روبر برنشفيك ، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ج2 ، ص263.

(4) البكري ، المسالك والممالك، ص27 ؛ روبر برنشفيك ، تاريخ افريقية فى العهد الحفصى ج2 ، ص262، 263.

(5) أبو العباس السبتي ، إثبات ما ليس منه بد ، ص127.

(6) مجهول ، كتاب في الأوزان والمكايل، ورقة4.

المستعملة بالخصوص لكيال الخمر كانت تساوي هي أيضاً حوالي خمسين لتراً، وهي "المزربولة" المتراكبة من "قرنينين"، وبما أن المادة أوربية فإن المكيال المستعمل هو أوروبى أيضاً(1). كما أستخدم كوزاً من الفخار لكيال المواد السائلة مثل الزيت إلا أننا نجهل مقدارهما، كما عُرفت " القلة " وهي الجرة الضخمة، وتقدر القلة بـ (250) رطلاً عراقياً(2)، وهي من مضاعفات المطر وهي ثلاثة أمتار أي $3 \times 5 = 15$ قفيز زيت، و $3 \times 15 = 45$ رطلاً فلفلياً، ومن وحدات الكيل المشتركة التي كانت معروفة لدي المغاربة والمصريين في تعاملهم التجاري الصاع والمد والقسط والقفيز والموك والويبة والأردب(3).

4.2.3. الأوزان

مثلما تعددت المكايل فان الأوزان أيضاً تعددت، فقد مثل الدينار – المثقال – الدرهم أساس نظام الأوزان عامة(4)، ونسبة وزن الدينار إلى الدرهم من الوجهة الشرعية هي كنسبة (7/10)، بينما هي من الوجهة العملية (2/3). وعلى التحديد الوثيق لهاتين الوحدتين يتوقف تحديد جميع الأوزان الأخرى، وهذه العملية صعبة للغاية نتيجة اختلاف الدرهم والمثقال حسب المكان؛ أما عن قيمة مثقال الوزن في عهد الموحدين والحفصيين فيذكر ان وزنه كان 4,72 جرام، في وزن الذهب والمواد الثمينة، وقيمة درهم الوزن الشرعي من حب الشعير خمسون حبة وخمسا حبة أو (4,50 حبة)، أو ما يساوي ستة دوانق، وقيمة درهم الوزن في عصر الموحدين والحفصيين مقابل درهم النقود المؤمني الموحد، نجد أن درهم الوزن المتفق عليه يساوي درهماً واحداً وأربعة أخماس الدرهم من الدراهم المؤمنية، وجدير بالذكر أن علي بن يوسف الحكيم قد ذكر أن العصر الموحد عرف تواجد لدرهم وزن من العصر الأموي أيضاً، وكانت تساوي نفس وزن درهم الوزن الشرعي أي تساوي خمسين حبة وخمسا حبة من حب الشعير المتوسط (5).

ويتجزأ الدرهم الي "قيراطين" ويبلغ وزن القيراط 0,75 جرام(6)، وهو يساوي ثلاث حبات من حب الشعير، كذلك وجد "الدانق" وهو وزن يساوي ثمان حبات شعير وخمسا الحبة(7)، وفي أسفل

(1) روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص262، 263.

(2) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص307، 310.

(3) حسن خضيرى احمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص149، 150.

(4) درهم ودينار الكيل: يسمى درهم السنة والدرهم الشرعي، وهو من حيث الاستعمال يعتبر أصلاً، وزكاة الحبوب يحدد نصابها بهذا الدرهم، ولذلك سمي كيلياً أي درهم الكيل. أما المثقال فهو اسم لما له ثقل سواء كبير أو صغرى وغلب عرفه على الصغير، وصار في عرف الناس اسماً على الدينار، ويرجع إطلاق المثقال على الدينار في العصر الإسلامي إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام 67 هـ / 495م، بعد إصلاحه نظام النقد في الدولة الأموية، إذ جعل المثقال وحدة الذهب وقرر أن يكون وزن الدينار متقارباً واحداً كما كان قبلاً (أي 5، 65 حبة أو 25، 4 جراماً) وقد حدث مثل ذلك أكثر من مرة في عهد المماليك بمصر؛ انظر: مجهول: تلخيص القول، ص8، 9؛ الفلقشندي، ص15، 297.

(5) أبو الحسن بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة، ص144؛ مجهول: كتاب في الأوزان والمكايل، ورقة 1، 2؛ مجهول، تلخيص القول، ص8؛ ابن رفاعه، ابوالعباس نجم الدين احمد الشافعى، الايضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان، ورقة4، فالتر هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة كامل العسلى، منشورات الجامعة الأردنية، عمان1970م، ص9؛ محمد ضياء الدين الرئيس، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص351؛ روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2، ص260.

(6) روبر برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج2، ص260، 261.

(7) أبو العباس السبتي، إثبات ما ليس منه بد، ص139.

السلم يتم اللجوء لضبط الوزن بصورة مدققة الي "حبة"⁽¹⁾ الشعير التي يبدو أنها كانت تساوي 0,059 جرام(2).

أما باقي الأوزان فقد كان هناك أيضاً "النواة" وهي تساوي زنة خمسة دراهم وزن، كذلك عُرِفَت الأوقية أيضاً، ويكون فيها من دراهم الكيل المؤمنية تسعة عشر درهماً وخمس درهم(3).

كما كان الرطل أيضاً وحدة وزن شائعة خلال فترة البحث، ففي عصر المازري اعترفت امرأة غاب عنها زوجها في صقلية منذ خمس سنوات ، بأنه ترك لها عدة أشياء من بيتها " رطلان بوزن صقلية من القطن المندوف " ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الرطل المعمول به في إفريقية، كان يختلف عن رطل صقلية. كما عرف الرطل الرومي في تلك الفترة وهو يساوي تسع وقيات، والراجح أن الرطل خلال القرنين 5،6 هـ/12،11م = 140 درهماً = 437,5 جرام(4).

كما عرف المغاربة عامة والليبيون خاصة في تلك الفترة "الربع" وهو مفرد جمعه أرباع، وكما ورد في الكتب التي تناولت الحديث عن الحسبة فهو يزن خمسة وعشرين رطلاً، والرطل يساوي تقريباً 504 جرام بالوزن الحالي، فالربع إذن يزن أثنى عشر كيلو وستمئة جرام. وقد ذكر لنا البكري أن زيت مدينة صفاقس كان يباع بالربع للتجار الأجانب الواصلين لصفاقس عن طريق البحر(5).

وكانت وحدة الأوزان الكبيرة عندهم القنطار، والقنطار اسم لجملة من المال، ويقال أنه ألف ومائة أوقية، ورأى آخر يقول أنه سبعون ألف دينار، ويرى ثالث أنه يساوي مائة رطلاً من الأبطال التي تساوي ست عشرة أوقية، أي أن القنطار يساوي 50,4 كغ. ولكن بالنسبة الي بعض المواد مثل الفواكه الجافة أو الأقمشة، يقتضي العرف المعمول به في التجارة أن يُسَلَم البائع 102 أو 105 أو 110 رطلاً إضافياً علي كل قنطار واحد، الأمر الذي يرفع وزن القنطار من 1 الي 5 كج تقريباً(6).

وقد استُخدمت وحدة "القنطار" في الأعمال التجارية عند المغاربة خاصة في تعاملهم مع تجار المدن الإيطالية(7)، وتتضمن فتوي مطولة للمازري بعض الأوزان مثل القنطار الذي استُخدم في

⁽¹⁾ الحبة في اللغة: واحدة الحب وتجمع أيضاً على حبات وحبوب ، وهي الحبوب المختلفة في كل شئ ، وحبّة القلب سويداؤه . وهي وزن للنوع من الحبوب التي يتركب منها الدرهم والدينار وباقي الأوزان زنتها قدر شعرتين ، والشعيرة حبة شعير غير مقشورة ، يساوي المثقال منها خمسين حبة، أي إن زنة الحبة تساوي 1/50 من المثقال ، بينما هي 1/60 من الدينار؛ مصطفى عبد الكريم الخطيب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى 1996م، ص136.

⁽²⁾ الأبي ، إكمال إكمال المعلم ج3 ، ص110، ج4، ص274 ؛ روبرار برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2، ص260، 261.

⁽³⁾ ابن غالب الأندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، نوفمبر 1955م، ص296 ؛ عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين، ص 294 ؛ مجهول ، تلخيص القول، ص14 ؛ ابن رفاعه ، الإيضاح والتبيين في معرفة المكيال والميزان ، ورقة 9. والمراد بها وزن نواة الثمر من ذهب وعلى قدر هذه الأوقية اعتبر صدقات أزواج، انظر: نفس مجهول ، تلخيص القول، ص14 ؛ ابن رفاعه ، الإيضاح والتبيين في معرفة المكيال والميزان، ورقة 9.

⁽⁴⁾ مجهول ، كتاب في الأوزان والمكاييل، ورقة6 ؛ مجهول ، المصدر السابق، ص14 ؛ ابن رفاعه ، الإيضاح والتبيين في معرفة المكيال والميزان ، ورقة 9 ؛ ابن غالب الأندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ص 296 ؛ عبد الواحد المراكشي ، وثائق المرابطين والموحدين ، ص 294؛ جمال طه ، مدينة فاس ، ص234.

⁽⁵⁾ ابن عذارى ، المغرب ، ص 20 ؛ ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة { تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين } ، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة 1987م، ص352 .

⁽⁶⁾ مجهول ، تلخيص القول، ص16 ؛ ابن غالب الأندلسي ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس ، ص298، 299 ؛ جمال أحمد طه ، مدينة فاس ، ص234 ؛ روبرار برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2، ص261.

⁽⁷⁾ رسالة من التاجر محرز القابسي إلى التاجر الكبير باج البيزي ، حول معاملات تجارية بينهم ، تاريخها بعد عام 597 هـ ، نشرها

تقدير الكتان، ووحدة كبش القرنفل(1)، كما استُخدمت أيضاً وحدة "البالة" أيضاً في تقدير الكتان والقطن وكانت بالة الكتان تزن سبعة قناطر، ويبدو أن هذا الوزن لم يكن موحداً من بالة إلي أخرى(2).

5.2.3. المقايضة

تعتبر المقايضة طريقة تعامل تجارية قديمة، ولم تكن مجهولة في ذلك الوقت، بل استمرت كوسيلة متعارف عليها من ضمن المبادلات التجارية التي كانت تتم في نطاق عملية المقايضة، والتي كانت رائجة في كثير من المناطق المغربية واستمرت حتى العصور الحديثة والمقايضة تُستعمل فيها السلع المقايض بها كوسيلة وسلعة للإستهلاك في نفس الوقت وهي ما تعرف (بالنقود السلعية COMMODITY MONEY) وهي سلع بعينها ذات أهمية خاصة (3).

وقد عُرفت تلك الوسيلة خاصة في المعاملات التجارية مع تجار السودان الغربي والتي كانت تعتمد على وسائل سلعية رئيسية كالذهب، فقد كان السودانيون يشترون السلع المغربية بالتبر، حتى أنه في بعض الأحيان كان الزبائن من السود يضطرون إلى إعادة مسحوق الذهب معهم لنقص في المواد المراد شراؤها(4). كما استخدم القمح والصوف والجلود والشمع والزعفران كوسائل مقايضة بين تجار المغرب ونظرائهم الأوربيين، لاسيما تجار مدينة بيزة الإيطالية.

كذلك استُخدم العبيد والجواري كوسائل تجارية للمقايضة أيضاً(5). فيذكر البكري أن العبيد كانوا يباعون بالثياب القصار الحمر(6)، فيقول: "يجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية أفريقية وما هنالك ومبايعتهم بثياب قصار حمر"(7).

وقد شهدت مدينة تمبكتو توافد التجار والعلماء الذين قدموا إليها من كافة البقاع، وكان أكثر هؤلاء التجار هم تجار طرابلس، وغدامس. والذين كانوا يجلبون المنسوجات والملح وتتم مقايضتهما بتبر الذهب والصمغ، وريش النعام، والبخور، حيث حملت القوافل التجارية القادمة من طرابلس وغدامس معها إلى مالي البضائع والسلع الواردة إليها من أوروبا عبر البحر المتوسط، وكان التجار الليبيون من طرابلس هم الذين يحملون هذه البضائع إلى السودان الغربي(8).

Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم 14، ص 48، 49؛ رسالة من التاجر

المغربي هلال بن خليفة الجمونسي الي التاجر البيزي الكبير باج، حول معاملات تجارية بينهم، مؤرخة بعد عام 597 هـ، نشرها

Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم 15، ص 50 – 52.

(1) المازري، فتاوي المازري، ص 281، 283؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ج2، ص 287.

(2) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب 1997م، ص 243.

(3) عبد الهادي علي النجار، الإسلام والاقتصاد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1983م، ص 108.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 23، 24؛ جوزيف كي - زيربو، تاريخ افريقيا السوداء، الدار الجماهيرية، الجماهيرية الليبية، الطبعة الأولى 2001م، ص 257.

(5) جوزيف كي - زيربو، تاريخ افريقيا السوداء: ص 351.

(6) إن استعمال القماش كوسيلة للدفع ليس أمراً مجهولاً في الصحراء. إذ يشير البكري أن السكان في سيلا بساحل التكرور، إقليم من غانا، يستعملون نقوداً الذرة البيضاء، والملح، وحلقاً من النحاس، وقطعاً من قماش القطن الرفيع/ وزر يسمونها ش. كيات. وفي كانم كان يستعمل كنفد - حسب العمري - قماش منسوج في المكان يسمى دندي، وكل قطعة قماش طولها عشرة أذرع، ويمكن الشراء ابتداء من ربع ذراع. كما يمكن التعامل على أساس غوري(نوع من الصدف)، وزجاجيات وقطع من النحاس أو نقود فضية، وكان يرتبط كل هذا بأسعار القماش؛ انظر، البكري، المسالك والممالك، ص 179؛ العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ص 75، 76.

(7) البكري، المسالك والممالك، ص 183.

(8) العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، ص 78.

وعرف عن المقايضة في بداية الأمر انها لا تتم عن طريق المواجهة المباشرة بين البائع والمشتري، بل يعرض كل منهما بضاعته وينسحب، ولذلك أطلق على هذا النوع من المقايضة اسم التجارة الصامتة، ومن السلع الهامة التي كانت تُعرض من قبل الطرفين لإتمام عملية المقايضة يعرض التاجر السوداني الذهب كسلعة رئيسية، ثم السلع الأخرى كريش النعام، وناب الفيل، وغيرها من البضائع الإفريقية، وفي المقابل يعرض التاجر المغربي الملح كسلعة أولية، وتأتي المنسوجات في المرتبة الثانية بعد الملح، ويتم الاتفاق بطريقة غير مباشرة، فإذا رضي التاجر السوداني بالبضاعة المعروضة عليه، واقتنع بها وضع محلها وبدلاً منها الذهب، أو أي سلعة أخرى، وانتشر هذا النوع من المقايضة والتجارة في الدواخل، حيث مناجم الذهب بكثرة، ولكن النوع الثاني من المقايضة، والذي كان سائداً في معظم الدول الإسلامية في المغرب العربي، واستمر حتى العصور الحديثة، هو ذلك النوع من المقايضة التي تتم في المراكز التجارية على أطراف الصحراء، وبحضور الطرفين، أهالي المنطقة المغاربية الذين كانوا يمتلكون الملح وللتجار نقطة التقاء الطرفان هي نهر السنغال لتتم عملية مبادلة الملح بالذهب، ولم تقتصر عملية التبادل هذه على الذهب والملح فحسب، بل تعدتها إلى سلع أخرى، حيث يذكر ابن بطوطة مثلاً أن المسافر من بلاد المغرب كان لا يحمل زاداً ولا أداماً، ولا ديناراً ولا درهماً، بل يحمل معه قطع الملح والحلي والزجاج المعروف بالنظم، وبعض السلع العطرية، والتي كانوا يستبدلونها باللبن والدجاج، ودقيق النبق والأرز والفوني، وغيرها من المواد الغذائية التي يحتاجها المسافر في الطريق.

ومن المظاهر والشواهد التاريخية على هذه العملية التجارية (المقايضة) ما أورده الحسن الوزان، وهو من مؤرخي القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حيث يذكر أن أهل مصراتة أغنياء، وهم تجار يأخذون البضائع الأوروبية من سفن البندقية، ويحملونها إلى الجزائر، فيستبدلونها بالرقيق والزباد، والمسك الوارد من أثيوبيا والسودان ويحملون كل ذلك إلى أوروبا، وإلى تركيا محققين بذلك أرباح طائلة. ومن خلال هذا النص نلاحظ أن المقايضة تجاوزت سلعة الذهب إلى سلع أخرى كالرقيق، والزباد (1).

وقد لعب تجار الواحات البرقية ولاسيما أوجلة دوراً هاماً في التجارة مع بلدان السودان الإسلامي إذ قاموا بمقايضة سلع الشمال مثل الخيول والثياب والأسلحة والملح بمنتجات السودان مثل التبر والعاج والرقيق. واستمر وصول الرقيق إلى أسواق الواحات البرقية في أوجلة وودان، كما وصلت القوافل التجارية عن طريق البر قادمة من مصر محملة بالحديد والنحاس والفواكه المجففة والبقول والملح وترجع منها بالتبر والرقيق (2).

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 684؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ص 469.
(2) المقرئ، جني الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم 972 جغرافيا، ميكروفيلم 4624، ورقة 24، 296؛ ابن مليح، أنس الساري والساربان من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب، سيد الأعاجم والأعراب، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الشؤون الثقافية والتعليم، فاس 1968م، ص 36؛ التطيلي، رحلة بنيامين، ص 170؛ الهادي الميروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، دار الملتقى، بيروت 1993م، ص 181؛ جان كلود زليتنز:

مارس ايضا سكان منطقة زليطن هذا النوع من التجارة بحيث قايسوا سلعهم مع المصريين ومع الصقليين ، وتشير ايضا الدراسات التاريخية بأن نساء مصراتة على سبيل المثال إشتهرن بصناعة البسط والبطانيات في بيوتهن، والتي قام التجار بمقايضتها بالاغنام والصوف والسمن مع سكان الارياف ببرقة ، وقد أشار أبو الفدا إلى أن اليهود في ظلميته كانوا يزاولون التجارة بالمقايضة مع العرب(1).

كما يرجح استخدام الماشية والغنم كوسائل للتعامل في بعض مناطق بلاد المغرب، فقد ذكر الإدريسي مثلاً أن سكان جزائر بني مزغنة كانت أكثر أموالهم من المواشي والبقر والغنم، وهذا يتعلق بالبادية حيث تقل النقود المعدنية في أيديهم(2) ، ولا يستبعد وجود تلك الوسيلة في التجارة اللبية آنذاك.

6.2.3. الوديعة

كانت الوديعة من بين الأنظمة المرتبطة بالتعاملات التجارية، والتي انتشرت في بلاد المغرب بصفة عامة ، حيث كان بعض الناس يعمدون إلى وضع حوائجهم عند أصحاب الحوانيت ليبيعونها نيابة عنهم، وبهذا يصبح التاجر مودعاً وتجري عليه أحكام الوديعة(3).

كما كان بعض الناس يرسلون الودائع مع التجار الذين ينتقلون من إقليم لآخر من أجل بيعها لهم وهو ما يمكن أن يصنف ضمن نطاق الوكالة التجارية أيضاً، غير أن نشاطها لا يمتد إلى أقاليم بعيدة، وخدمت هذه الوكالة بالدرجة الأولى العناصر المترفعة عن ممارسة النشاط التجاري، كأفراد الأسر الحاكمة والقضاة، حيث كانوا يوكلون أشخاصاً معروفين لتولي نشاطاتهم التجارية والإشراف عليها. وقد لعب اليهود دوراً كبيراً في نظام الوكالة، حيث كان الحكام وكبار القوم من المغاربة يوكلون لهم تدبير مواردهم نظراً لمعرفتهم بدقائق الأمور التجارية(4).

كما اختلطت الوديعة بهذا الشكل مع ما يسمى السمسرة، حيث يعطي صاحب البضائع بضائعه للسمسار الذي يقوم بعرضها في مزاد علني، حيث يعمد السمسار إلى كراء حانوت يجعله مقراً لتصريف شؤونه ، فيعد ان يستلم السمسار السلعة من التاجر يقوم بعرضها بقصد المزداد، حتى يرسوا السعر على أحد المشتريين، هنا يشاور السمسار صاحب البضاعة في البيع، فإن رضي بالسعر وأذن له فإنه يبيع ويكون أجر السمسار على المشتري أو البائع بحسب الاتفاق المسبق(5).

طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، الدار الجمهورية، مصراته، الطبعة الأولى 2001م، ص 20 – 23.

(1) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، 34؛ الحسن الوزان ، وصف افريقيا، ص 516 ؛ محمد السنوسي الغزالي ، السبك الحديث في تاريخ برقة القديم والحديث، مطبعة الاخوان المسلمين، القاهرة 1939م، ص 177 .

(2) الادريسي ، نزهة المشتاق ج-1، ص 89 ؛ عبد الرحمن فهمي محمد ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات "فجر السكة العربية"، مطبعة الكتاب ، القاهرة 1965، ص 3 ؛ يحيوى العمري بن قربة ، المسكوكات المغربية، ص 11.

(1) المازري، فتاوى المازري ، ج-3، ص 59 .

(4) الونشريسي ، المعيار المغرب ، ج-9، ص 75 .

(5) الونشريسي ، المعيار المغرب ، ج-8، ص 356؛ المازري ، فتاوى المازري ، ج-2، ص 730، 738 .

كما كانت الدلالات وهن النساء اللاتي تحملن بضائع التجار إلى المنازل، من أجل بيعها بأثمان محددة، وتتقاضين أجوراً نظير عملية البيع، ومثلهن المتصرفات اللاتي يقضين حاجات النساء من الأسواق، أما البراحون فهم الذين ينادون عن السلع في الأسواق. ورغم أهمية هذه الفئة إلا أن المصادر أهملت الحديث عنها، وذلك لأن أفرادها من عامة الناس، ومعروف في المصادر التاريخية إهمالها الحديث عن فئة العامة (1).

7.2.3. الصكوك والسفاتيح *

عرفت الصكوك في بلاد المغرب العربي منذ وقت مبكر؛ فالمصادر تشير إلى وجودها منذ القرن 4هـ/10م، ويعتقد أن الصك كان يحمل البسمة ويذكر فيه اسم الطرفين: حامله ومقدمه وشهود عدل، ولا يستبعد أن يؤرخ له بالدقة (2)، وقد استعمل التجار في فترة الدراسة طريقة التعاقد الكتابي هذه حفاظاً على الحقوق ولمواجهة متطلبات النشاط الاقتصادي المتزايد (3)، مما ساعد علي نمو الحركة التجارية في العالم الإسلامي عامة وبلاد المغرب العربي خاصة وبمفهومها الجغرافي الحالي، حيث استخدم أهل المغرب الصكوك أو الحوالات وخطابات الاعتماد وازداد الاعتماد عليها من قبلهم لأنها كانت وسيلة من الوسائل المأمونة من الضياع والسرقة، حيث استُخدمت الصكوك في المعاملات التجارية كدفع الديون وفي أعمال البيع المختلفة (4)، وعُرفت هذه الوسائل في تعامل التجار المغاربة مع نظرائهم من التجار الأجانب في النشاط التجاري البحري، حيث عُرفت الصكوك وخطابات الضمان في تعامل التجار المغاربة لاسيما الليبيين مع نظرائهم التجار المصريين وتجار المدن الإيطالية (5)، وكانت العادة أن التاجر المعروف إذا دخل السوق أودع ما معه من المال لدى أحد الصرافين، وأخذ بدله رقاعاً أو أوراقاً عليها طابع (ختم) الصراف يسجل فيها الحد الأقصى الذي يستطيع التاجر أن يتعامل به، وبهذه الرقاع يشتري ما يريد ويعطى البائع منها ما يساوي قيمتها. ويذهب الناس بهذه الرقاع إلى الصراف ليأخذوا قيمتها النقدية، وكان الناس يفعلون ذلك تقديماً لحمل مقادير كبيرة من العملة معهم أثناء وجودهم في السوق، ولتجنب ماقد يتعرضون له من عمليات

* الصكوك: مفرداً صك وفي معناها العام هي: (الصحيفة التي فيها أسماء الناس)، وهي كلمة فارسية الأصل بها كتاب يسجل عليه (أرزاق الناس وأعطياتهم ومستحققاتهم المالية لتحصيلها أجلاً)؛ محمد بن الحسن بن دريل، جمهرة اللغة، مؤسسة الحلبي، القاهرة، (د.ت)، ص 392؛ ابن منظور، لسان الخطيب، 102، ص 457؛ أما السفاتيح فتذكر الروايات التاريخية أن استخدام السفاتيح، قد ظهر منذ العهد الاولي للإسلام، حيث كان الزبير بن العوام يأخذ الورق من التجار ويكتب لهم سفاتيح إلى أفرع بمكة من البصرة والكوفة فيأخذوا منه أجود من ورقهم، كما كان عبدالله بن عباس يأخذ الورق بمكة من التجار والمسافرين على أن يكتب لهم إلى الكوفة ليأخذوا مثل ورقهم؛ الثعالبي، ابن منصور عبدالملك بن محمد اسماعيل، الإعجاز والإيجاز، شرح اسكندر اصاف، المطبعة العمومية، مصر، 1879م، ص 135.

(1) الونشريسي، المعيار المغربي، ج5، ص 238.

(2) فاطمة بلهوارى، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغربية خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، الرباط 2010، ص 64، 65.

(3) ممدوح حسين علي حسين، الحروب الصليبية في شمال افريقيا، ص 660، 661.

(4) المازري، فتاوى المازرى، ص 107، 108؛ سامية مصطفى مسعد، العلاقات بين المغرب والأندلس، ص 165، 166.

(5) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، ج6، ص 252؛ جمال أحمد طه، مدينة فاس، ص 239؛ حسن خضير أحمد،

علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص 145؛

Goitein.S.D : jews and arabs. Pp.118 ,119

السرقه ، وكذلك ليوفروا الوقت الذي يضيع في فحص العملة للتأكد من سلامتها في كل حالة شراء. وفي آخر مدة السوق يقفل التاجر حسابه مع الصراف ويأخذ المتبقي له أو يدفع الزائد عليه؛ وهذه أشبه بعمليات "خطابات الضمان" (1) ، وكان السعر السائد لعمولة صرف الصكوك والحوالات 10% في العالم الإسلامي عامة. ولكي تتصور مدى الاتساع الدولي لهذا التصرف التجاري في تلك الفترة، علينا أن ننظر إلى الجهات التي تنقل بينها رجال المال من سكان البصرة وأهل فارس، فهؤلاء ظهروا في كل مركز من مراكز التجارة، حيث تواجدوا في جدة عند نهاية طريق الحج وفي سجماسة ببلاد المغرب وهم كذلك في طرابلس الغرب وبيروت ومصر (2)

8.2.3. السفاتج

كلمة السفتجة فارسية وتعنى باللغة العربية الورقة ، ويذكر ابن منظور كلمة سفاتج من "سفتج" أى الخفيف والسريع ، ومن القول سفتج فلان لفلان النقد ، أى عجلة (3) ، وتستعمل السفاتج أو الحوالات للدفع في بلاد أخرى ، وهى ان يعطى تاجرا مالا لمن له مال بالبلد الذى يريد ان يسافر اليه باسعار ذلك البلد ، ويأخذ منته سفتجة ليستظهرها لمن عنده المال في ذلك البلد ، وتساعد هذه العملية كما ذكرنا سابقا على تأمين المال للطرفين أى الشخص الدافع والشخص القابض ، وحمائته من غرر الطريق ومخاطره (4) .

وفى حقيقة الامر ان نظام السفاتج او الحوالات كانت تستخدم في التجارة مع البلدان النائية ، وكان الصرافون هم الذين يقومون بتحويل السفاتج إلى نقود مقابل خصم من المبلغ المحول ، كما كان هذا النظام يسمح بتحويل الديون من اشخاص الى آخرين ، ويسهل اداء الديون بين التجار دون تنقلهم شخصيا ، ويحدد اجل السفاتج وفق اتفاق الاطراف المعنية ، ويمكن صرفها دفعة واحدة أو على دفعات حسب اتفاق تلك الاطراف ، إذ كان يتعامل في الحوالة الواحدة من ثلاثة الى اربعة اشخاص وهم الساحب وهو الذى يحررها أى يكتبها ، ويسلمها مقابل مبلغ مالى أو بضائع ، والحامل وهو الذى يستلمها من الساحب ، والمسحوب عليه وهو الذى يتلقى الحوالة في البلد الاخر ويتكفل بدفع المبلغ المدون على الحوالة ، والمستفيد وهو الذى يستلم المبلغ المدون على الحوالة من المسحوب عليه ، وإذغ كان الحامل ينتقل بنفسه الى البلد الآخر فيكون هو المستفيد في نفس الوقت ومن الجدير بالذكر هنا ان نظام الحوالة على الصيارفة هذا ، قد لقي معارضة من بعض فقهاء المالكية واعتبروها "ربا".

ورغم ذلك فان نظام السفاتج ظل مستعملا طيلة العصر الوسيط حيث اشترط الفقهاء لجواز العملية أن يتم الدفع للغريم) وهو المحال او المنتفع بالمال (بحضور المحيل وبقبول الاطراف

(1) المازري ، فتاوى المازرى ، ص205؛ عبد الواحد المراكشى ، وثائق المرابطين والموحدين، ص607 ؛ الحبيب الجحاني، المجتمع العربى الإسلامى " الحياة الاقتصادية والاجتماعية " سلسلة عالم المعرفة ، العدد319، الكويت ،2005م، ص107 ؛ حسين مؤنس ،

اطلس تاريخ الاسلام ، ص28.

(2) أرشيبالد رولويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص263.

(3) ابن منظور ، لسان العرب ج4 ، ص606

(4) ابوشامة ، علاقة الدولة الحفصية مع بلاد المغرب والاندلس ، ص363 ؛ محمد حسن ، المدينة والبادية بافريقية في العهد الحفصى ، جامعة تونس الاواى ، 1999م ، ص525 .

المعنية التي ذكرناه وقد استخدمت السفائح او الحوالات في بلاد إفريقية وظل الامر معمولاً بها حتى نهاية القرن التاسع الهجري / العاشر الميلادي ، ومما له دلالة واضحة على ذلك ماشارت اليه رسائل (الجنيزة) عن وجود سفنجة بمبلغ مائتي دينار محولة من أحد تجار طرابلس إلى تاجر بالفسطاط ، وقد استعملت هذه الآلية بكل أنواعها في عمليات التبادل التجاري داخل ليبيا وخارجها، وفي نفس الوقت أثرت وتأثرت بما كان يجري في أسواق المناطق العربية الأخرى، وكذلك الأسواق الأفريقية، فغريباً نجد هذه الآلية المستعملة في ليبيا كان يتعامل بها التجار مع مختلف المناطق العربية الأخرى، وخاصة ما يتعلق منها بالصكوك، وعلى صعيد البلدان الواقعة جنوب الصحراء، فنجد المكيال والأوزان بأسمائها العربية قد انتقلت إلى أسواق تلك النواحي، حيث ساهمت تدريجياً فيما بعد بالقضاء على ماكان يعرف بالتجارة الصامتة أو المبادلة " المقايضة "، وطبق تجار الشمال الأفريقي بما فيهم التجار الليبيون النظم الحضارية في عمليات التبادل التجاري، مثل البدء بالتعامل بالنقود الذهبية(1) والفضية والنحاسية، فالعملات العربية كانت متداولة في عمومها ببلاد السودان الغربي، وذلك بحكم الارتباط والتواصل التجاري الذي كان يربط جانبي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية، وإلى جانب هذه الأساليب في التعامل التجاري، إضافة إلى حسن المعاملة التي اتبعها التجار نجدها كلها قد ساهمت في دخول الكثير من الأفارقة للإسلام.

9.2.3. الودع

يقال أن الصين أقدم الأمم التي استعملت الودع كعملة، ثم بدأ التعامل بالودع ينتشر في سائر أنحاء العالم بما في ذلك ليبيا(2). والودع هو نوع من الأصناف البحرية يستخرج من البحر وفي نفس الوقت سلعة عزيزة المنال، ولذلك غالى التجار في ثمنه ورفعوا من قيمته إلى الدرجة التي أصبح يساوي في قيمته كثيراً من العملات وأصبح له قوة شراء عالية. ويذكر العمري أن العملة في بلاد التكرور بالودع، وأن التجارة أكثر ما تجلب إليهم الودع وتستفيد به فائدة جلييلة(3). وقد ظل الودع ينهال بكثرة على بلاد السودان من ليبيا وسائر بلدان الشمال الأفريقي حتى بدأ يفقد قيمته الشرائية تدريجياً، وانخفض سعره أمام المثقال الذهبي، فأصبح المثقال يساوي ثلاثة آلاف ودعة، ومن ثم استخدم الودع لشراء السلع البسيطة(4).

(1) الونشريسي ، المعيار المغرب ج9 ، ص87؛ نجاه باشا، التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن هـ ، منشورات الجامعة التونسية ، 1976م ، ص110 ؛ عيسى بن الذيب ، التجارة في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، 1990م ، ص264؛ بخصوص عملية تداول سكان السودان الغربي للعملات الذهبية العربية؛ ينظر البكري، المسالك والممالك، ص 181؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا ، ج2، ص 163 ، 164 ، 165؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 684؛ محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي ، ط3، دار القلم ، الكويت ، 1978م ، ص 211.

(2) الألوري، آدم عدا، موجز تاريخ نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 37.

(3) العمري، مسالك الابصار ، ج2، ص 499.

(4) محمود كعت ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، انجي، 1913، ص 183؛ الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 54؛ الفلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، ص 291.

10.2.3. القماش

عرف التعامل بالقماش في كثير من مدن السودان، فكان له قوة شرائية كقوة النقود، ولم يكن للودع والخرز والنحاس أية قيمة طالما لا يوجد القماش، ويذكر البكري بأن أهل مدينة سلى القريبة من غانا: "أنهم يبايعون بالذرة وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات"(1)، وذكر العمري بأن أهل كانم: "يتعاملون بقماش نسيج عندهم اسمه دندي طول كل ثوب عشرة أذرع يشترون من ربع ذراع فأكثر"، كما يشير إلى أن العملات التي يتعامل بها أهل كانم كانت "تسعر بالقماش"(2)، وهو ما يعرف في هذا العصر توفر الغطاء النقدي من الذهب أو الاحتياطي وهذا إن دل فإنما يدل على القوة الشرائية الكبيرة للقماش، وفي تمبكتو بمالي استعمل نوع من القماش يسمى توركودي "Turkudi" كعملة محلية، وكان هذا القماش ينسج في مدينة كانو، إحدى مدن الهوسا، ويقوم تجار غدامس بتصديره إلى غات، وهي سوق صحراوية، في الصحراء الجنوبية الغربية بليبيا، ومن هناك يتجه غرباً إلى عين صالح ثم جنوباً إلى تمبكتو(3)، كما كان أهل زويلة يبادلون الثياب القصار الحمر بما عندهم من عبيد(4).

(1) البكري، المغرب، ص 173.

(2) العمري، مسالك الابصار، ص 490.

(3) بوفيل، تجارة الذهب، ص ص 394 ، 395.

(4) البكري، المغرب، ص 11.

الفصل الرابع

مسالك ومراكز النشاط التجاري في ليبيا

1.4. عوامل دعم الاتصال بين ليبيا والمراكز التجارية

لقد ساهمت عدة عوامل في دعم الاتصال بين ليبيا والمراكز التجارية سواء الداخلية منها أو الخارجية ، حيث تمثلت تلك العوامل في اولا الصحراء ، وماتوفر بها من المياه ، وكذلك القافلة ، والتجار.

1.1.4. الصحراء

تعتبر الصحراء من اهم العوامل التي يمكن من خلالها التحدث عن الاطار العام الذي كونه التجارة بصفة عامة ، وتجارة الذهب بصفة خاصة ، وللتطرق لمعرفة ودراسة هذا العنصر اعتقد انه ومن الضروري محاولة الاجابة على سؤالين هامين ، الاول ماذا تعنى كلمة او مصطلح الصحراء ؟ والسؤال الثانى ماهو الدور الذي لعبته هذه المنطقة في ربط الشمال بالجنوب وانجاح الحركة التجارية ؟ وللاجابة على هذين السؤالين يتحتم علينا التطرق الى العامل الطبيعي والعامل البشرى :

2.1.4. العامل الطبيعي

في بداية الامر أرى انه ومن المناسب الاشارة ولو بإيجاز إلى معنى هذه الكلمة التي قيل عنها الكثير ، حيث اعتبرها البعض أرضا مستوية ، وهى من الفضاء الواسع الذى لا نبات فيه ، ولقد شبيحت بظهر الدابة الأجرد ، ليس بها شجر ولا جبال ، ملساء (1) ، ويرى البعض الآخر أن معظم اقسامها مفاوز محرقة وقفار رملية وأراضى صخرية عقيمة وسهول يغطى الكثير منها رواسب رملية ومرتفعات صخرية أشبه بجبال ذات أودية واسعة تعلوها الرمال(2). إلا أن الدراسات الحديثة ترجع بنا إلى العوامل المناخية التي تسود هذه الرقعة الجغرافية والتي تميزها عن بعض المناطق الأخرى ، ليتخذ من عامل الحرارة والأمطار أهم المظاهر المميزة لها ، وبناء على ذلك يطلق لفظ

(1) ابن منظور: لسان العرب ، المجلد الثالث ، دار الجيل ودراسات العرب ، 1988، ص 411.

(2) بطرس البستاني ، الصحراء في دائرة المعارف ، الجزء العاشر ، ص 699.

الصحراء على المناطق الحارة والجافة ، وقليلة الأمطار ، ورجح العلماء نسبة التساقط فيها 25 ملم
كما تمتاز ايضا بالفارق الحرارى الكبير ، حيث ترتفع الحرارة في النهار إلى ما يصل 50 درجة

مئوية وفى الليل إلى مايقرب 20 درجة تحت الصفر(1)، إضافة إلى الرياح التى تبلغ درجة عالية من السرعة مما ساعد على تنشيط عملية التعرية التى تمتاز بها الصحراء ، وتفتت الصخور -- هذا ماشكل عراقل أمام حياة الإنسان فيها ، وتذكر بعض الروايات أن هذه الرياح التى تشكل الأعاصير الصحراوية من شدتها ما يطوى قافلة ويدفنها تحت الرمال ، ومن هذه الرياح مايسمى بالشهيلي وهى رياح تهب من وسط الصحراء واطرها ، المثقلة بالرمال والغبار والتى تسمى بالسيروكو(2) ، وذكر ابن سعيد الغربى في كتابه الجغرافيا ، أن هذه الرياح التى تهب من غانا إلى الصحراء الكبرى تجفف المياه وهى في قرب المسافرين (3). ويشبه العلماء الصحراء بالمناطق القطبية لأن درجة التجمد دائما ماتكون عاتقا امام وجود أى نبات بها ، وهذا يرجع إلى تظافر العوامل الثلاثة : الحرارة ، الأمطار ، والإقليم النباتى في تشكيل وتمييز الصحراء عن بقية المناطق الأخرى ، هذه الصعوبات والعراقل التى من شأنها أن تعيق حياة الأنسان في هذه البقعة من الأرض جعلت الدراسات الحديثة تتساءل عن هذه التجارة التى اجتازت الصحراء في فترة من فترات التاريخ ، كما ترددت في الاعتراف بها لاستحالة عبورها والعيش فيها ، إذا تعلق الأمر بالصحراء الكبرى أكبر صحارى العالم بسبب أنها جمعت كل الظروف القاسية التى تمتاز بها كل الصحارى الموجودة في العالم .

تمتد الصحراء من المحيط الأطلسى على الشمال الإفريقي مشكلة بذلك اكبر الصحارى بمساحة تقدر ب 9 مليون كلم2 ، وتشمل سلاسل جبلية وهضاب صخرية ومساحات شاسعة من الأراضى السهلية التى تغطيها الحصباء والكثبان الرملية ، يقدر طولها بأكثر من 5600كلم ، ويصل عرضها من الشمال إلى الجنوب 1930 كلم ، مغطية بذلك كلا من ليبيا والجزائر وتونس والسودان والنيجر ومال وموريتانيا(4)، وتقع معظم هذه الأراضى بين دائرتى عرض 15 و 35 جنوب وشمال خط الأستواء هذا الموقع الفلكى جعل من مناخها مناخا جافا وحارا .

وفى حقيقة الأمر ان الأهم في هذه الدراسة هو معرفة كيفية اجتياز القوافل للصحراء صوب مناجم الذهب ، وهذا مايجعلنا نعتقد ان دراسة الصحراء بهذا الشكل غير كاف وذلك بسبب ماضيها البعيد وحضارتها التى لا يستهان بها ، لكن الصحراء التى اصبحت اليوم تشكل جزءا من سطح الأرض ، لايمكن ان تكون قد استقرت في هذه المنطقة منذ آلاف السنين ، فعلا فإن الدراسات الحديثة التى اعتمدت على الحفريات أكدت ان بعض مناطق الصحراء عرفت نمط من الحياة يشبه النمط الذى نراه اليوم في الشمال ، إن الأختفاء المفاجئ للعصر النيوليتى* ، أصبح يوحي باقتراب ظهور

(1) الصحراء في "الموسوعة العربية العالمية" ، الجزء الخامس عشر ، الطبعة 2 ، بيروت ، لبنان ، موسوعة عزالدين للطباعة والنشر ، 1994 ، ص 56 ؛ العربى اسماعيل : الصحراء الكبرى وشواطئها ، سلسلة الدراسات الكبرى ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983 ، ص 15 .

(2) العربى اسماعيل : الصحراء الكبرى ، 16 ، 17 .

(3) ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا : تحقيق ، اسماعيل العربى ، ط2 ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجماعية ، 1982 ، ص 113 .

(4) الصحراء ، الموسوعة العربية العالمية ، ط2 ، ج 15 ، ص 62 .

*نيوليتى: (Neolitique)، العصر الحديث .

الصحراء وهذا بسبب الاضطرابات المناخية التي اصبحت تعيشها المنطقة ، فالتساقط غير المنتظم للأمطار وهبوب العواصف والزوابع أصبح لها تأثير بارز .

وقد قسم الكتاب المسلمون بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام ، المغرب الأدنى والذي يعتبر موضوع الدراسة من ضمن نطاقه المكاني ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى . أما السودان الغربي فإنه يشمل نهر السنغال وغامبيا وبوركينا فاسو (فولتا العليا) إلى الحوض الأوسط لنهر النيجر . وبما ان الحركة التجارية كانت تمر بثلاث مناطق مناخية واضحة المعالم ، وتدرج من الاعتدال في حوض البحر المتوسط إلى المناخ الحار الجاف في الصحراء الكبرى ، إلى المناخ شبه المدارى والمدارى في غرب أفريقيا .

وتعتبر الصحراء الكبرى هى الطريق الرئيسى للتجارة بين الشمال الافريقى وجنوب الصحراء ولهذا نجد الباحثين والكتاب يطلقون على هذه التجارة اصطلاح او مسمى (التجارة عبر الصحراء) (The Trade Saharan Trans) (1).

1.2.1.4. العامل البشرى

من خلال هذه الدراسة نجد ان المجال قد لايتسع للحديث عن الحياة المزدهرة التي احتضنتها الصحراء الكبرى فى الماضى ، ولا عن العوامل التي شكلت الصعوبات باستمرار فى نظر العديد من الدارسين والمختصين الحاجز المانع لاتصال الشمال بالجنوب ، بقدر مايستدعى الامر العودة الى تلك الصحراء التي ميزتها فترة العصور الوسطى بقوافلها التجارية المنتظمة وبأسواقها المزدهرة وبمحطاتها الهامة ، ولايمكن تدعيم هذه الصفات إلا بالرجوع إلى القبائل التي تقطن تلك النواحي من الصحراء والتي يرجع إليها الفضل فى تعمير هذه المنطقة ، وايضا إلى الفتوحات الإسلامية التي دعمت هذا العامل وعززت روابط الصلة بين شمال افريقيا وأقصى جنوب الصحراء الكبرى أى مايمكن التعبير عنه بالانفتاح الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والسياسى الذى حدث بين المغرب الإسلامى والسودان الغربى .

كان للتأثيرات المناخية الدور الكبير فى تحديد الصحراء على النحو التالى :

— شرقا : الحدود الطبيعية للصحراء ، بما فيها صحراء ليبيا ومصر ، وغربا المحيط الأطلسى
— شمالا : صحراء سرت ، جبل نفوسة ، شط الجريد ، شط مليغينغ ، الأطلس الصحراوى ودرعة ، مجتازين بذلك كل المحطات والمراكز التجارية (غدامس ، فزان ، اوجلة ، جالو ، غات ، مرزق ،

1) حمد محمد الجهيمى ،دراسات في تاريخ مملكة غانا(فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين) ، مجلس الثقافة العام ، سرت ،ليبيا ، 2008م ، ص176 ؛ جميلة امحمد التكيثك ، مملكة سنغاي الاسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير (1493 ، 1528) ، ص113 .

وادي ريغ ، ورقلة ، سجماسة ، وغيرها) ، وجنوبا تصل إلى منعطف نهر النيجر مرورا بما يعرف حاليا بتشتاد إلى غاية النيل في درجة 16 شمالا(1).

كانت العوامل الطبيعية القاسية سببا في قلة الكثافة السكانية الى حد يجعلنا أن نجزم بخلو بعض المناطق من السكان مثل المجابات الكبرى * ، لكن وجود السكان في هذه المناطق كان مؤكدا ، ومانقته المصادر العربية إنطلاقا من القرن الثامن لدليل على ذلك ، وكان وصف الكبرى ، وابن حوقل ، وابن الفقيه، والمسعودي ، وابن بطوطة ، وابن خلدون ، ومن بعدهم الحسن الوزان كافيها لدراسة هذه السلالات البشرية ، وإعادة الاعتبار لتاريخ المنطقة التي كثيرا ما طمست حقيقتها اكاذيب الاستعمار وأساطير بعض المروجين ، ومن بين اهم التجمعات السكانية التي ميزت الصحراء ، الديرير الى جانب الافارقة من فصائل التبو والذين شكلوا قبائل الزغاوة ، "Zaghaoua" ، وتدا "Teda" ، ودازا "Daza" .(2)

ام بالنسبة للقبائل البربرية التي قطنت الصحراء ولعبت الدور الرئيسي والهام في توطيد العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى فتتقسم إلى فرعين : الفرع الاول يعرف ويسمى زناتة والفرع الآخر يسمى صنهاجة وهذا الفرع كانوا بدوا رحلا ، يمتنون رعاية الابل والماعز والغنم ، بينما انقسمت قبائل زناتة الى قسمين ، القسم الاول والذي تمثل في قبائل لواته ومزاتة كانوا بدوا رحلا ، والقسم الآخر حضرا وهم من يرجع إليهم الفضل في تأسيس الواحات في الصحراء ، والتي من بينها واحة اوجلة وجالو بليبيا ، ووادي سوف ووادي ريغ ، وورقلة بالجزائر الحالية وفي حقيقة الامر هذا ما يجعلني اعتقد إنها كانت أهم عوامل التحدى والتعايش مع تلك الطبيعة القاسية . فاستقرار هذه القبائل في المناطق الجبلية مثل فزان وتيببستي والهقار ، لدليل على أن هناك مناطق احتفظت بنوع من الرطوبة سمحت للتجمعات البشرية بالتأقلم معها وتكوين نمط حياة خاص بها ، وملاشارة الى هذه القبائل إلا دليل على تواجدها منذ فترات زمنية بعيدة . والدراسات الحديثة تقول أن الاستقرار كان مؤكدا من 1000 سنة قبل (3).

وبالتالى استطيع القول أن هذا التوسع والوجود الحضارى الاقتصاى في هذه المنطقة ، أكدته المحطات التجارية والاسواق الكبرى التي انتشرت عبر كل هذه الصحارى . إضافة إلى التجمعات البشرية الكبرى التي انتظمت في شكل قوافل تجارية . وأن الصحراء لم تشكل يوما ما عائقا تحدته رغبة الإنسان وإرادة الله في خلقه.

*المجابات الكبرى هي أصعب مراحل السفر التي كان يقطعها التجار في العصور الوسطى .

(1) انظر : LEWICKI(T.), << Le role du Sahara des sahariens dans les relations entre le Nord et le sud >> in << Histoire Generale de l'Afrique du VIIe au XIe siècle UNESCO ,1990,p303

Ibid, p.305. (2)

(3) ريمون فيرون ، الصحراء الكبرى، ص160

2.1.4. الأبار

تعد الأبار من ضمن المنشآت العمرانية التي تدل على وجود النشاط التجارى في كل المناطق التي تواجد الانسان بها سواء كان ذلك في المدن او الارياف والصحارى ، وفى الحقيقة ان اهمية دراستها هنا تعود إلى انها كانت دائما عاملا للجذب ، وفى نفس الوقت لاستقطاب التجمعات السكانية ، وعلى الرغم من قلة الدراسات ، بل وندرتها حول الأبار التي وجدت في الصحراء الليبية إلا اننى حاولت إدماج هذه الفكرة ولو بشكل مختصر ضمن هذه الدراسة ، لما كان لها من دور في تسهيل عملية نقل القوافل التجارية لسلع ومنتجات السودان الغربى بما فيها الذهب عبر الصحراء الكبرى ، إلى مدن الشمال ، ومراكز النشاط التجارى بها ، وهذا باعتبار أن الأبار شكلت معلما من معالم الطرق والمسالك التي سلكتها هذه القوافل ، وفى نفس الوقت اعتمدت عليها أثناء تنقلها من منطقة إلى أخرى ، اضافة إلى انها ساهمت بشكل او بآخر في ظهور العديد من القصور والمدن الصحراوية ، فبغض النظر عن الطبيعة القاسية للصحراء الكبرى ، التي كانت تطمس وتخفى في لحظات وجيزة آثار هذه الأبار عندما تتحرك الرياح التي تساعد على زحف الرمال ، إلا أن استمرارية وجودها اصبحت واضحة على طول المسالك والطرق التجارية التي ربطت ضفتى الصحراء شمالها بجنوبها ، فكان لحكام المغرب الإسلامى دورا هاما في ذلك ، حيث اولوا اهتماما كبيرا بهذه العملية .

وقبل الإشارة إلى البعض من هذه الأبار التي اشارت إليها المصادر التاريخية ، يجب علينا وفى اعتقادى انه ومن الضرورى العودة إلى تلك العملية التي كانت تعتمد عليها عملية حفر الأبار ، وهى كيفية العثور على الماء في الصحراء ، والتي كان للإنسان الكلمة الفصل في أمرها كما ذكر الإدريسي عن أهل بغامة : "وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة (1).

وقد روى الإدريسي ايضا ان عملية الكشف عن وجود الماء تتم باستعمال طرق تثير العجب ، ومن ضمن ما ذكره أن رجلا من البربر كان يستدل على وجود الماء في الصحراء بمجرد ان يشتم حفنة من التراب ، وغالبا ماكانت القوافل تحط رحالها في ذلك المكان وتحفر فيه فيتدفق الماء الزلال (2).

من جانب آخر يصف لنا البكرى مجموعة من الأبار والعيون التي كانت بالقرب من اودغشت على تخوم ليبيا ، وذلك في اتجاه طرق القوافل المسافرة إلى بلاد السودان أو القادمة منه ، فقد كان بجبيل (أزور) الذى كان يمثل امتدادا لجبل نفوسة وجبل درن ، مجموعة من الأبار تسمى (تندفس) يحفرها المسافرون فلا تلبث ان تنهار وتدفن (3).

(1) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص23 .

(2) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص23 .

(3) البكرى ، المسالك والممالك ، ص342 .

ثم يستطرد البكرى في عرض مجموعة كبيرة من عيون الماء والآبار تقع في تلك الطرق الصحراوية بين الشمال والجنوب ، ومنها بئر كبير يقال له (بئر هليون) ، بالإضافة إلى مجموعة آبار من إنشاء عبدالرحمن بن حبيب * مثل بئر الجمالين الذى كان على بعد مرحلة متنادملت ، وهذا البئر كان عمقه اربع قامات ، وكذلك البئر الذى حفر في حجر أدعج صلب طولها اربع قامات وبئر آخر يعرف ببئر (وطنان) وهى كبيرة لاتتفرق ماؤها رعاق ، يسهل شاريه من الانعام والناس ، وهى ايضا من عمل عبدالرحمن ، وبعد اجتياز مجابة جبل الرمل⁽¹⁾ ، يظهر بئر (وانزمين) ، وهى قريبة الرثاء ، يليها بئر فى حد بنى وارث *

وفى حقيقة الامر ان مناطق هذه الآبار دائما ماتكون خالية من السكان عكس آبار المدن الصحراوية ، التى ابرزت لنا الدور الثانى الذى لعبته الآبار والمتمثل فى ظهور التجمعات السكانية على هيئة قصور ووحدات ومدن ، فاذا كانت الآبار التى حفرت على طول طرق المفاوز الصحراوية قد ضمنت استمرارية سير القافلة وسفر التجار من شمال الصحراء الكبرى الى جنوبها ، بتوفير الماء للمسافرين ، فإن الهدف الذى من اجله ظهرت آبار المدن الصحراوية ، يتمثل فى تكوين المحطات والمراكز الصحراوية لهؤلاء التجار ، وضمان راحة القافلة التى تتوقف بها ، لهذا سرعان ماتحولت هذه المحطات الى مراكز جذب للناس من كل حذب وصوب للاستقرار فيها اولا وللاستزراق والعمل ثانيا ، وايضا تحولت هذه المحطات الى قصور ومدن تخزن معدن الذهب .

وفى اعتقادى أن هذا الموضوع يعتبر نموذجا من ادق الموضوعات التى مازالت الدراسات التاريخية والأثرية تحاول إزالة الغبار عليه لما له من اهمية فى كتابة تاريخ المغرب العربى بصفة عامة وتاريخ الصحراء الكبرى بصفة خاصة.

3.1.4. وسائل النقل

ان الحديث عن الطرق التجارية البرية ، وخاصة الصحراوية منها يجرنا بطبيعة الحال إلى ضرورة الحديث عن الوسائل المستعملة فى نقل السلع والبضائع عبر هذه الطرق ، والتى يأتى فى مقدمتها الجمل ، حيث يتواجد بكثرة فى الصحراء الليبية ومناطق شمال افريقيا بصفة عامة⁽²⁾

*هو عبدالرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري: أمير من الشجعان الدهاة، كان مع ابيه بافريقية(تونس الحالية) وقتل ابوه سنة122هـ ،فسار الى الاندلس وحاول اقتحامها ،فلم يفلح،فعادالى افريقية ،فاقام فيها الى سنة 126هـ،فبايعه اهلهما فسار بهم الى القيروان فملكها ، وغزا تلمسان وصقلية وسردنية،فغنم غنائم عظيمة ،ودوخ المغرب ، ولم ينهزم له عسكر قط ، قتلاه اخواهإلياس وعبدالوارث غيلة في قصره بلقيروان سنة137هـ، وبقت امارته مستقلة عشر سنين وسبعة اشهر ؛ انظر : ابن عذارى ، البيان المغرب ،ج1، ص67 ؛ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ،ج5 ، ص148.

(1) البكرى ، المسالك والممالك ،صص157،156.

*بنى وارث من قبائل صنهاجة ، وتقع في الطريق إلى اودغشت ، وهى اصعب مراحل السفر إلى بلاد السودان.

(2) لقد كانت وسائل النقل البرية المستخدمة فى نقل البضائع والسلع بسيطة ، تعتمد اساسا على النقل بالحيوانات ، ولم تنتشر آنذاك وسائل نقل اكثر سرعة وفعالية بسبب الظروف التى كانت تعيشها المنطقة ، عكس ماكان فى اوروبا حيث استخدمت العربات التى تجرها

إن دخول الجمل مجال التجارة الصحراوية الإفريقية وخاصة الليبية منها ، بمثابة ثورة في وسائل النقل عبر الصحراء ، فلم تعد القفار والرمال الزاحفة حواجز عازلة ، حيث حطم استخدام الجمل كل هذه الحواجز ، وتحولت الصحراء إلى معبر للقوافل ، وقامت في مناطق مختلفة محطات تجارية مزدهرة (1) .

وقد لعب الجمل عامة دورا بارزا في اتمام عملية الاتصال بين ضفتى الصحراء بفضل ما تتميز به من سمات وخصائص منها على سبيل المثال لا الحصر ، الصبر على تحمل المشاق والصعوبات ، وقطع المسافات دون كللا او ملل ، وتحمل العطش قد تصل في بعض الاوقات إلى ثلاثين يوما ، وهى خاصية انفرد بها هذا الحيوان دون غيره من سائر الحيوانات ، كما أن ما يحمله من الوزن يفوق حمولة الحيوانات الأخرى ، فضلا على أن سرعته في الصحراء تقدر بحوالى اربعة كيلومترات في الساعة ، اثنان ونصف ميل /الساعة ، وتتميز جمال افريقيا * بتحمل الأثقال مدة اربعين إلى خمسين يوما دون الحاجة إلى علفها في المساء ، انما تنزل عنها الأحمال لترعى في البرية ، ولا يحتاج التجار اثناء عودتهم من السودان إلا لاعداد قليلة من الجمال لحمل المون والذهب .

وقد امتلك اهل فزان عدداً وافراً من الجمال، لذا قصد التجار وقوافلهم إقليمهم، خاصة مدينة زويلة، للتزود ثم الاتجاه إلى بلاد السودان .

وقد حث الفقهاء المسافرين والتجار على حسن اختيار المركوب، حتى لا ينقطع أثناء سفره، كما دعوهم إلى ضرورة الرفق بالدواب بعدم تحميلها للسلع أكثر من طاقتها، وعدم ضربها

انواعا اخرى من الحيوانات ، وإلى جانب الإبل استعملت الحمير والبغال والتي اقتصر استعمالها في المسافات القصيرة ، وبهذا فإنه يتبين لنا أن هذه الدواب كانت من ضمن ادوات النقل التي تم استعمالها ايضا في الركوب والاعمال الفلاحية ؛ انظر : الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ج 2 ، ص 259 .

(1) جميلة امحمد التكنيك ، مملكة سنهاى الاسلامية ، 113 .

*لقد كانت الأبل وسيلة للنقل المستمر بين جانبي الصحراء الكبرى ودعامة رئيسية لإزدهار التجارة في كنف الإسلام ، فلم ينل حيوان آخر من الشهرة والأهمية مثلما نالها الجمل ، حيث كان مرتبطا بحياة البدو الذين تمكنوا من ترويضه واستئناسه ، فالعرب هم الذين ادخلوه بكثرة إلى الأمصار الأخرى والتي من بينها شمال افريقيا ، الذى عرفه منذ فترة سابقة للإسلام ، فبواسطته تغلبوا على المسافات الطويلة عبر الصحراء ، وكان يؤمن احتياجات الإنسان إلى الاتصال والتبادل والتجارة ، لقد ظهر الجل في الصحراء حسبا تبينه الرسوم التي وجدت على الصخور قبل وصول الرومان اليها ، ومن ثم قبل ظهوره في افريقيا الشمالية ، لهذا أسس الجرمنت قوتهم العسكرية معتمدين على الحصان وليس الجمل ، وزودوا فرطاجنة بالفرسان وليس بالمهاريين ، ويقال ان خيولهم كانت تنتج مائة الف مهرا في السنة ، ولا بد ان الجمال كانت نادرة في شمال افريقيا ، فقد كانت الإمدادات المائبة الرومانية في صحراء سرت الليبية تحمل سنة 48 قبل الميلاد على ظهور البغال وليس الجمال ، وقد وجد قيصر انه من المفيد ان يأخذ عنوة سنة 46 قبل الميلاد اثنين وعشرين جملا من جوبا ، وهذا الامر يجعلنا نعتقد ان الرومان قد عرفوا اهمية الجمل في عمليات النقل ، وفي القرن الرابع يبدو انه قد اصبح وجود الجمل في شمال افريقيا من الضروريات . لقد طال النقاش حول الدافع وراء هذا التوسع : من اخذ المبادرة ، وهل كان لأغراض عسكرية او زراعية او تجارية ؟ حسب R . Capot Rey وهو يعارض E.F.Gautier — لم يمثل الجمل — في جميع الأحوال — قوة جديدة ، ربما منحت للبربر الصحراويين تفوقا تكتيكي ، ويعتقد ان الامر تطلب انتظار اكتشاف طريقة جديدة للركوب ليكتس البدو القدرة على الحركة التي نعرفها عنهم ، وتعود اول اشارة لاستعمال البربر للجمال في معاركهم ضد البيزنطيين الى القرن السادس ، ونعتقد كذلك ان هذا الامر تطلب الانتظار حتى يكتسب السكان المعارف اللازمة ، والتعود على هذا الحيوان الصعب ، وتصنيع حوايا لاتجرح الجمل عند الاقدام على اعمال تجارية لمسافات طويلة ، عندما فتح العرب افريقيا الشمالية لم يكن استعمال الجمل قد شاع وعم في عبور الصحراء بعد ، فقد كانت قوات عقبة بن نافع الفهري عندما غادر خليج سرت متوجها نحو ودان وفزان لينتهى الى كوار مكونة من اربعمائة جمل واربعمائة حصان ؛ انظر ، ابن عبدالحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق : عبدالمعزم عامر ، القاهرة ، 1974م ، ص 60 ، 61 ؛ جميلة امحمد التكنيك ، مملكة سنهاى الاسلامية ، ص 112 .

وزجرها الشديد، ولا حجة في كونها ملكاً له، كما أنه عليه أن يريحها من حين لآخر. ويورد العياشي – رغم أن رحلته تمت في القرن 11هـ / 17م مقارنة بسيطة بين حمولة الجمل في بلاد المغرب وحمولته في مصر، فما حملته القافلة التي كان على متنها العياشي على تسعة عشر أو عشرين جملًا، حملة المصريون على ثلاثة جمال فقط، ويعبر عن معاملتهم للإبل: "وقد سخر الله الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليها، يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الحطب والتبن وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه"⁽¹⁾.

4.1.4. القافلة

تعتبر القوافل التجارية هي عماد الاتصال والنشاط التجاري بين المناطق الليبية ببعضها البعض من جهة، وبينها وبين المناطق الخارجية وخاصة جنوب الصحراء من جانب آخر. فقد لعبت القوافل الليبية على خط بلاد المغرب – السودان دوراً هاماً في الاقتصاد المغربي، حيث ساهمت في تحسين مستوى المعيشة وتحقيق الأمن الغذائي وتوفير رؤوس الأموال الممثلة في الذهب، ويشبهه موريس لومبارد وضعية منطقة المغرب العربي بصفة عامة جراء التواصل الاقتصادي مع بلاد السودان عن طريق القوافل بوضعية اسبانيا في القرن 16م، حيث أصبحت مستودعاً للذهب القادم من أمريكا، غير أن أغلب كميات الذهب القادمة من السودان عبر بلاد المغرب يتم تصديرها إلى أوروبا.

وفى حقيقة الأمر ان سردنا كان مركزا على القوافل العابرة للصحراء نحو بلاد السودان، وهذا راجعا إلى النشاط التجاري الكبير بين بلاد المغرب وبلاد السودان، وإلى كون هذه القوافل تجارية محضة، فإن قوافل الحج التي تشترك مع القوافل التجارية إلى بلاد السودان في الكثير من الميزات، إلا أنها كانت تتخذ طابعاً دينياً، وتلاقي نفس الصعوبات تقريباً، فالتجار يسرون من مكان لآخر مع قوافل الحج، وكان منهم من لا يواصل الرحلة إلى بلاد الحجاز إنما يتوقف في بعض المراكز التجارية، والحجاج أنفسهم يشتررون ما يحتاجونه من سلع، وقد يشتررون سلعاً ثم يبيعونها في أماكن أخرى⁽²⁾.

وقد لعبت قوافل الحجاج المغربية دوراً هاماً في اقتصاد بلدانها أو البلدان التي عبرتها، فربط الحجاج لبلاد المغرب وبلاد المشرق تجارياً جعل حركة الحج تروج للحركة التجارية على نطاق دولي، حيث يمكن اعتبار أن جزء هام من المبادلات التجارية بين جهتي العالم الإسلامي تتم عبر رحلات الحج التي تنظم سنوياً⁽³⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن القوافل التجارية تحتاج منذ بداية انطلاقها إلى بعض الأنظمة، حتى يستطيع التجار إيصال بضائعهم بأقل الخسائر إلى أماكن بيعها، وخاصة أن المسافات شاسعة وتفتقر

(1) العبدري، رحلة العبدري، ج 1، ص 225.

(2) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 16؛ العبدري، رحلة العبدري، ص 209.

(3) Atallah dhina : op cit, p36.

إلى الوسائل التي يحتاجها التجار في تنقلاتهم. ولم يُفتَ القائمون بهذه المهمة أن يضعوا لها قوانين خاصة بها تنظمها للإفادة منها، وأهم تلك النظم والقوانين ما يلي⁽¹⁾:

أ - اختيار التوقيت: يجب اختيار الوقت المناسب لانطلاق القوافل، بسبب اختلاف العوامل الطبيعية في الصحراء من فصل إلى آخر، كارتفاع درجة الحرارة صيفاً وشدة برودته شتاءً، وعموماً فإن أنسب الأوقات التي تسير فيها القوافل، إما في بداية الخريف أو في بداية فصل الربيع، عندما تكون العوامل الجوية مناسبة لسير القوافل، وذلك لحاجتهم للماء اللازم. غير أن أنسبها على الإطلاق كانت قوافل الربيع حيث يجتمع تحت قيادتها أكبر عدد من المشاركين، لأنها تقطع أطول المسافات من الشمال إلى الجنوب والعكس⁽²⁾.

وفي الشتاء خاصة والبحر مضطرب، كانت ثلاث قوافل كبيرة محملة بالسلع السودانية تغادر سجلماسة نحو مصر مرورا بطرابلس وسرت وبرقة، وكانت القوافل المصرية (مواسم) تتجه في شهر مايو إلى أفريقية، وكان وصولها إلى القيروان مناسبة لتنظيم معرض. وكانت هذه القوافل البرية المحروسة - هي كذلك - تمكن من بيع سلع وشراء أخرى في البلدات المعبورة حسب أسعار اللحظة والمؤشرات المقدمة إلى التجار من مراسليهم الذين كانوا يستعملون البريد السريع جدا (الفيوج)⁽³⁾. وربما كان يتعذر على التجار المسير في الطرق الصحراوية في غير فصل الشتاء، نتيجة لهبوب رياح السيروكو⁽⁴⁾، التي كانت تثير الكثير من الرمل وتغطي الآبار⁽⁵⁾.

ب - تجهيز القافلة: الإبل هي الوسيلة الأساسية للنقل، وتقع مهمة توفيرها على عاتق التجار، وتختلف أثمانها بناء على جملة من المقاييس من أهمها اللياقة البدنية، وتقوم القبائل الصحراوية بتأجير جمالها للتجار أو بيعها لهم، وقد يصل عدد الجمال المشاركة في القافلة إلى ثلاثة آلاف جمل محملة بمختلف أنواع السلع، أما متوسط القافلة فألف جمل، وكلما كان حجم القافلة أكبر كلما تمكن المسافرون من مواجهة الصعوبات، أما القوافل في الطرق الفرعية فقد يصل عدد جمالها

⁽¹⁾ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط، جمعية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية، 2003، ص 80؛ جبريل ابوبكر على، طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء، ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي، كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية 1995م، ص 83.

⁽²⁾ الحسين عماري، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف إفريقيا مجلة المؤرخ، تصدرها جماعة ليون الإفريقي للتنمية والتقارب الثقافي، الدار البيضاء، العدد 7، مارس 2010، ص 43؛ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية، ص 82.

⁽³⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 319.

⁽⁴⁾ رياح السيروكو: هي رياح محلية تهب على بلاد المغرب العربي في الفترة الممتدة من مايو حتى سبتمبر وتكون قادمة من الصحراء الكبرى باتجاه الشمال وهي جافة ومحملة بالغبار والرمل، وتسمى الشهيلي في تونس وفي الجزائر بالسيروكو وفي ليبيا بالقبلي وفي المغرب بالشرقي وفي جزر البليار تسمى كلما؛ انظر: يوسف عبد المجيد فايد، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة المصرية، د - ت، ص 61.

⁽⁵⁾ حسن خضير أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص 99.

عشرين أو ثلاثين جملاً⁽¹⁾. ويذكر ابن خلدون قافلة مكونة من اثني عشر ألف جمل محملة قادمة من مصر عابرة الصحراء الليبية متجهه إلى مالي، ويشير إلى أن هذا يتكرر في كل السنين، ويفيد الإدريسي بأن لكل تاجر من تجار أغمات في الجنوب المراكشي الأغنياء سبعين إلى مائة جمل محمل في القافلة المتوجهة إلى السودان، يعهدون بها إلى خدمهم أو عبيدهم. وسنلاحظ أنه كان يجب توفير ثلاثة جمال لكل شخص مشارك في الرحلة: أحدها للركوب يستبدل أحياناً بحصان، وواحد لنقل الماء والثالث لحمل التموين. ويختلف – بالطبع – عدد الجمال حسب مدى كفاية نقاط المياه على المسار، فلم تكن لكل الآبار قدرة بئر مرندن في الأيبر الذي كان يكفي لسقي 500 إلى 600 حيوان يومياً من قوافل ملح بلما. في جميع الأحوال، كانت القوافل تمتد على أيام كثيرة، تبلغ الشهر أحياناً⁽²⁾.

ت – تجميع القوافل: يأتي التجار من مدن الشمال: فاس، تلمسان، تونس، طرابلس، نحو مدن سجلماسة، وارجلان، وزويلة، فيبيعون سلعهم لتجار القوافل، ويقوم جزء منهم بحملها بنفسه إلى بلاد السودان، وكانت القوافل المغربية عامة والليبية على وجه الخصوص تنتظر تجار بلاد السودان الذين كانوا في تيوت وتدسي، وتكاوست بالمغرب الأقصى لشراء بعض المنتوجات، فتجتمع هذه القوافل في أماكن محددة للعبور بشكل جماعي، وتقع هذه الأماكن على أطراف المراكز التجارية، مما يتيح فرصة التجهز بعيداً عن الازدحام⁽³⁾.

ث – القيادة والتكشيف والخفارة: كان للقافلة شيخ يساعده مساعدون إذا كانت القافلة مهمة، كما يكون لها خبير عارف جيداً بالمسار وهو الكشاف⁽⁴⁾، إلا في الحالة التي يكون فيها الشيخ نفسه خبيراً، وفي الغالب الشيخ هو الذي يقرر الطريق الذي يجب سلوكه ويعطي توجيهاته للتكشيف، ويختار الحماية المسلحة، ويعالج المشاكل القانونية التي قد تحدث، ويجري الاتصالات مع القبائل التي تعبر أراضيها لتسوية مسألة حقوق المرور والحماية⁽⁵⁾. وكان الكشاف ذات مهمه صعبه فهو رجل ضروري يقوم بمهمة الدليل في مرحلة صعبة من الرحلة الصحراوية، ويجب أن يتمتع بخبرة ومعرفة شاملة بأماكن الآبار، ويكون قادراً على معرفة الطريق وسط الرمال الكثيفة. وقد يكون هذا الرجل من جماعة الطوارق ساكني المنطقة، حيث فرضت قسوة الطبيعة الصحراوية والطرق الغير

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 405؛ امطير سعد غيث، التأثير الإسلامي في السودان الاوسط، دار الرواد، بنغازي 1996، ص 83؛ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية، ص 80.

(2) H.lhote, Recherches Sur Takedda, p351.

(3) الحسين عماري، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص 45.

(4) الكشاف هو الشخص القادر على معرفة الطرق، ويشترط أن يكون على دراية بطريق سير القوافل، وعادة ما يكون من أهل مسوفة، ولا يكون الكشاف دليلاً للقافلة فحسب، بل يتقدمها للبلد المقصود ويقوم باكتراء لإقامة تجار القافلة، وينبه سكان البلد للخروج بالماء، واستقبال القافلة لمسافة أربعة أيام في الصحراء، وفي حالة هلاك الكشاف فإن القافلة بأكملها تصبح مهددة. ومن الشروط الواجب توفرها في الكشاف أن يتمتع بالذكاء، ويذكر ابن بطوطة أن الكشاف الذي اكرته قافلته من مسوفة، وثمن الكراء مائة مثقال من الذهب، ويمكن إرجاع ارتفاع ثمن كراء الكشاف إلى أهمية المهام الملقاة على عاتقه في الأخذ بيد القافلة إلى غاية وصولها إلى المكان المقصود؛ انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 675.

(5) عبدالاحد السبتي وحليمة فرحات، المدينة في العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت، 1994م، ص 139.

ممهدة، بالإضافة إلى اختفاء آثار القوافل في المناطق الرملية والصخرية، إلى وجوب ايجاد أدلاء عارفين بالصحراء وعلامات الاستدلال لمرتادي هذه الطرق، فكان قائد القافلة يعتمد اعتماداً كبيراً على الكشف لضمان وصول البضائع لأصحابها⁽¹⁾.

القافلة الكبيرة عبارة عن مدينة متحركة لها مؤذنها وإمامها وأحياناً قاضيها الخاص بها بالإضافة إلى الشيخ. كما كان لكل مجموعة في القافلة رئيس، ويشكل هؤلاء الرؤساء جماعة يرأسها الشيخ تتولى البت في النزاعات التي قد تحدث. كما كان يتولى الترفيه عن مئات المسافرين موسيقيون ومغنون. من جانب آخر كانت الحراسة المسلحة توفر عناصر الخفارة بالليل، ونظراً لأن الطريق يعج بالمخاطر فقد كان من الضروري على القوافل اصطحاب الخفارة، وهم حراس مسلحون ينتدبون للحراسة والدفاع عن القافلة، وإلا فليهم سلوك الطريق الذي اعتاد الجيش الرسمي السير فيه، عندما يكون في حالة تنقل⁽²⁾، ولتؤمن القوافل التجارية سلامة وصولها كانت تقدم ضمانات أمنية تحقق لها السلامة من قطاع الطرق حتى تصل أحمالها كاملة بأقل الخسائر، ولذلك غالباً ما تجد التجار يحرصون على مهادنة القبائل القاطنة في الصحراء، ويقدمون الهدايا لرؤساء تلك القبائل⁽³⁾. كذلك يجب التنويه إلى اهتمام بعض القبائل القاطنة قريباً من الطرق التجارية بأمن تلك الطرق محاولتها تنظيم ذلك، فكان هناك من القبائل من اقتصت بمهمة خفارة القوافل التجارية (أمن وحراسة القوافل) مقابل بعض البضائع المتنوعة. ويشير ابن بطوطة أنه واثناء رحلته في بلاد السودان أن هناك قبائل بربرية مهمتها خفارة القبائل فيشير: "ثم سافرت من كوكو إلى تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين... ثم وصلنا إلى بلاد بردامه، وهي قبيلة من البربر لا تسير القوافل إلا في خفارتهم"⁽⁴⁾، وفي اعتقادي أن مهمة البحث عن الضمانات الأمنية تخص القائمين على الأعمال التجارية وحدهم، بل حرصت السلطات التي تقع داخل نفوذها هذه الطرق على إقامة علاقات حسنة مع بعضها، وفي كثير من الأحيان تبادل السفارات فيما بينها.

ج - سير القافلة:

إنطلاق القوافل عادة ما يتم في الليل، ويذكر التجاني أن القافلة التي كان على متنها بدأت السير من ثلث الليل الأخير، أما القافلة التي كان ضمنها ابن بطوطة فكانت تنطلق في السير بعد صلاة العصر، وتسير الليل كله ولا تتوقف إلا في الصباح، ويبدو أن توقيت السير تحكمت فيه

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 675؛ جبريل ابوبكر على، طرق القوافل واثرها، ص 84.

(2) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 675؛ روبر برنشفيك، افريقية في العهد الحفصي، ج 2، ص 247، 248.

(3) عبدالفتاح مقلد بكر، سلطنة البرنو حتى سنة 1808م، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1978م، ص 185.

(4) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 696.

الظروف الطبيعية، فإذا كانت الحرارة مرتفعة نهاراً فإن القافلة تسير ليلاً، وتنصب خيامها لتستريح في النهار⁽¹⁾.

وقد ترك لنا الإدريسي البرنامج اليومي لقافلة متوجهة نحو السودان، يقول ما معناه: "تحمل الجمال مبكراً وتسير القافلة حتى ترتفع الشمس فوق الأفق، وتصبح حرارة الهواء والأرض لا تطاق، عندها تتوقف القافلة وتنزل أحمال الجمال ويتم تقييدها، وتحل الحمولة وتنصب الخيام من أجل الظل لتحاكي حرارة الشمس المضررة. عند الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما تبدأ الشمس في الانحدار تبدأ الرحلة من جديد وتسير القافلة حتى هبوط الليل، وهو وقت توقف القافلة من جديد، حيثما توجد ويستراح بقية الليل حتى الفجر، وعندها تبدأ الرحلة من جديد". في الشتاء، وكما نقرأ في روايات مستكشفي القرن الأخير، كان يمكن تقصير توقف منتصف النهار، ولكن هذا التوقف يبقى ضرورياً لراحة الحيوانات والناس. كانت القافلة تسير يومياً تسع ساعات في المتوسط، ولا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة، إلا بشكل استثنائي، عندما تكون المسافة بين نقطتي مياه طويلة للغاية أو عندما يخشي الدليل أن يكون البئر القادم جافاً على سبيل المثال. كان استخراج الرمال من البئر يتطلب أحياناً عملاً شاقاً وخطيراً لساعات طويلة. ويحدث أن يتم التوقف لأيام على بئر إذا كان البئر ذا قدرة كافية وثابتة وتوجد حوله مراعي للجمال⁽²⁾.

أما خلال فصل الشتاء فالقافلة تسير في الفترة الصباحية لتستريح الإبل ليلاً، ذلك أن سير الإبل صباحاً أحسن منه في الليل حسب العارفين بذلك، علماً أنه يمكن للإبل السير ما بين 14 و15 ساعة في اليوم دون توقف وبمقدورها نقل حمولة تصل إلى 250 كلغ.

وخلال توقف القافلة عن السير يختار القائمون عليها مكاناً تكثر به الاعشاب لترعى فيه الإبل، علماً أن وجود الكلاً في طريق القافلة يسبب بطء في سير المركب لانشغال الإبل بالارتزاق، وكانت القوافل تتجنب التخيم بالمناطق التي ينتشر فيها الوباء واللا من⁽³⁾.

ومن الأماكن الأكثر جذباً لتوقف القوافل سواء قوافل الحج، أو القوافل المتجهة إلى بلاد السودان الزوايا، ومن هذه الزوايا التي كانت مقصداً للمسافرين زاوية صرمان قرب طرابلس، فقد كانت الزوايا توفر للتجار والحجاج وعابري السبيل الأمان والطعام، كما تلجأ القوافل إلى الأولياء الصالحين والعلماء للحصول على دعائهم⁽⁴⁾.

(1) التجاني، رحلة التجاني، ص154؛ العبدري، رحلة العبدري، ج4، ص47.

(2) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص108.

(3) العياشي، رحلة العياشي، ج1، ص112، 113؛ التجاني، رحلة التجاني، ص179.

(4) العياشي، رحلة العياشي، ج1، ص133.

ح - دفع الضرائب: من الأمور المهمة التي يقوم بها تجار القوافل هي دفع الإتاوات اللازمة في العديد من المراكز التجارية التي يمرون بها أو التي يبيعون فيها بضائعهم، وكانت عادة ما تدفع كسلع يحتاجها سكان تلك المناطق، فكان الطوارق مثلاً يحصلون على مقادير من القمح مقابل خدماتها التي يقدمونها للتجار مقابل مرورهم، وقد أشار ابن بطوطة إلى ذلك بقوله: "ووصلنا إلى بلاد هكار وهم طائفة من البربر لا خير عندهم ولقينا أحد كبارهم، فحبس القافلة حتى غرموا له أثواباً وسواها". وابن حوقل عند حديثه عن مدينة إجدابيا بقوله: "واليهما القائم بما عليها... وله وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان". تلك هي الأنظمة التي تتبعها القوافل التجارية في رحلاتها عبر الصحراء ومن خلالها تصل القوافل محملة بمختلف البضائع الواردة والصادرة. كما أشار ابن حوقل لتلك الضرائب والإتاوات التي كانت مفروضة على القوافل التجارية العابرة لطرابلس خاصة من منطقة صبرة سواء من الغرب للشرق أو من الشرق إلى الغرب، فيقول: "وكان من صبره وهي منزل من اطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا، ولم اعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من اطرابلس إلى القيروان وعلى القادم من القيروان إلى اطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل اطرابلس من كل جملٍ ومحملٍ وحمل، وذلك كالذي بلبده، وهي أيضاً قرية بينها وبين اطرابلس إلى جهة المشرق مرحلتان من الضريبة على الجمال والأحمال والمحمل والبغال والرقيق والغنم والحمير"⁽¹⁾، وكل هذا من أجل تأمين وصول القافلة وحتى لا تتعرض للاعتداء⁽²⁾.

خ - تأمين مصادر المياه:

أن الأمر لم يخل من وجود العديد من الصعوبات والمشاكل، والتي من أبرزها مشكلة المياه، حيث إن المناطق الصحراوية المغربية لا أنهار فيها، وآبارها قليلة متباعدة وأغلبها ذات نسبة ملوحة عالية، وكانت القوافل تضطر للوقوف عند مصادر المياه أياماً عديدة من أجل الحصول على الكمية الكافية لإكمال رحلتهم؛ حيث يضطر التجار إلى تخصيص عدد من جمال القافلة لنقل قرب الماء، بالإضافة إلى أن تجار الكثير من القوافل كانوا يمولون حفر الكثير من الآبار، كما كان يتم حفرها بالجهود الذاتية لسكان ومرتادي تلك المناطق من القبائل. ويشير ابن بطوطة صراحة عند حديثه عن بلاد السودان بقوله: "وفي البلاد الصحراوية إلى وراء العرق الغربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلبة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء فينبعث فيهم زبرة"⁽³⁾. لهذا قام تجار القوافل بمجموعة من الإجراءات لتأمين مصادر المياه، منها:

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص70، 71؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص676.

⁽²⁾ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية، ص84.

⁽³⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص15، 675؛ ابن خلدون، العبر، ج7، ص119.

1. تسوير الآبار المعرضة للزوابع الرملية وترميمها بعظام الإبل الميتة وتغطيتها بجلودها للحفاظ عليها، وحفر الآبار على أطراف الطرق، مما ساهم في ظهور الواحات في أغلب مسالك القوافل التجارية.
2. تخصيص قريبتين لكل رجل، سعة القربة الواحدة ما بين عشرون(20) وخمسة وعشرون(25) لتراً، تملأ عند كل بئر تصل إليه القافلة، علماً أن عمق الآبار لا يتعدى ستة أمتار في الغالب.
3. شراء المياه عند اشتداد عطش طاقم القافلة، حيث يعتمد سكان مسوفة إلى بيع الماء للقوافل.
4. تخصيص جمال فارغة من الأحمال وعرض الماء عليها حتى تمتلئ أجوافها، ثم تربط أفواهها حتى لا تجتر، وإذا مرّت على طاقم القافلة ذائقة وشحّ في الماء فإنهم ينحرون جملاً من هذه الجمال ويشربون ما في بطونها.
5. اللجوء إلى نوع من الأشجار تحتفظ في جذورها بمياه الأمطار⁽¹⁾.

د – وصول القوافل:

عندما تهمل القافلة بالوصول إلى مقصدها يتقدم الكشافون، أو بعض مرافقيها لتهيئة السكن لأصحاب القافلة، وعادة ما يستقبل حكام المدن أهل القافلة ويضيفونهم كما فعل حاكم إيواتن مع القافلة التي كان ضمنها ابن بطوطة، فأكرمهم بالطعام، رغم أن ابن بطوطة قلل من قيمة هذه الضيافة⁽²⁾.

تلك هي الأنظمة التي تتبعها القوافل التجارية في رحلاتها عبر الصحراء ومن خلالها تصل القوافل محملة بمختلف البضائع الواردة والصادرة .

5.1.4. التجار

يعتبر التجار العنصر البشري الأبرز الذي قامت عليه التجارة البرية منها والبحرية، لاسيما في منطقة الصحراء الكبرى والمناطق الليبية، ومما زاد من قوة ونشاط الحركة التجارية بصفة عامة، والبرية منها على وجه الخصوص في تلك المناطق، تنوع العناصر والطوائف المختلفة للتجار، فقد كانت تجارة المتوسط مع أوروبا في أيدي المسلمين والمسيحيين، بينما كانت تجارة المشرق الإسلامي والهند في أيدي العرب واليهود، وكان البربر – غالبيتهم من الخوارج حتى القرنين الحادي عشر والثاني عشر – واليهود يديرون التجارة العابرة للصحراء، وكان اليهود الذين

⁽¹⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص، 676، 679؛ القزويني، آثار البلاد واخبار العباد، ص19؛ الحسين عمارة، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص42؛ بشار فويدر، القوافل التجارية المغربية (طبيعة التجارة وآثارها)، مجلة طريق القوافل، منشورات المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو، الجزائر، 2001م ص17؛ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية، ص82.

⁽²⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص677.

لم يذكروا الا نادرا في النصوص ، مستقرين خاصة في التخوم الشمالية للصحراء – كما ذكرنا في الفصل السابق – كما كانوا يقابلون في السودان: في ولاثة وقمنورية، أي في الطرف الغربي الأقصى للسودان، وفي ملال (مالي فيما بعد) حيث كانوا يسكنون مع الكفرة، ولكن في مصادر الذهب ذاتها، وفي منطقة تومبكتو، وقد استمروا نشطين في التجارة العابرة للصحراء حتى سلبهم دورهم كوسطاء الوجود الأوربي في خليج غينيا في القرن السادس عشر، وقد تأثر دورهم كثيراً من ذى قبل، أي منذ نهاية القرن الخامس عشر بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له في وادي درعة وفي توات، وبمنعهم في السودان من الدخول الى مدن السنغاي.

وكانت المعاملات التجارية تتم على أساس الثقة من مجموعة إلى أخرى دون صعوبة من أي نوع، فقد كانت القيم التي تحكم التعامل التجاري متشابهة في الأديان الثلاثة. كان مراسلو التجارة الشمال أفريقيين – شركاء أو أقارب أو عبيد – مستقرين على طريق المشرق في القاهرة وقوص وعيذاب وعدن. كما كانوا يوجدون في السودان في كل المراكز الكبيرة يتعاطون التجارة أو يستقبلون القوافل: في أودغست حيث استقر النفوسيون واللواتيون والزنايون والنفزاويون، وفي ولاثة حيث كان التكتشف يسبق قافلة سجماسة ليبلغ مراسلي التجار ليأتوا لتزويدها بالماء، وفي غانا المكونة من مدينتين مختلفتين إحداهما للمسلمين، وفي مالي التي كان بها حي يسكنه البيض، وترتبط بعلاقات دبلوماسية مع سلطان المرينيين في فاس، وفي تومبكتو التي تأوي أثرياء أجنبية وكانت تمنع التعامل مع التجار اليهود، فيها كان أكثر الأحياء ازدهاراً يعود للغداسية، وفي كوكو حيث أراد أفلق بن عبد الوهاب ملك تاهرت، الذهاب قبل سنة 823-824م لينظم فيها علاقات تجارية، حيث استقرت جماعة أباضية، وكان جزء من المدينة مخصص للتجار وفيها أقام ابن بطوطة عند أحد سكانها الذي كان من مواليد مكناس⁽¹⁾.

كما انقسم التجار وصنفوا إلى عدة أصناف من حيث نطاق عملهم، خلال فترة بحثنا في المناطق الليبية ، فهناك التجار المستقرون في أسواقهم وحوانيتهم، ويعملون بشكل يومي، ويعيشون داخل المدينة، وغالبيتهم من أهل المدينة المقيمين داخل أسوارها، وهناك التجار الشركاء أي اثنان مشتركان في تجارة واحدة، الأول مثلاً برأس المال، والثاني بالمجهود المبذول، وتتمثل هذه الشراكة في تقديم صاحب المال إلى تاجر آخر مبلغ من المال، لاستعماله في مؤسسة تجارية ما، ويقتسمون الأرباح فيما بعد حسب النسب المحددة، مسبقاً، وبمعنى آخر يكون الشريكان متضامنان فيما بينهما، وهذا النوع من الشراكة مباح في الإسلام، وأغلب التجار المسلمين يمارسونه، وخاصة الأغنياء المتحكمون في تجارة القوافل، وهناك التجار الذين يتخذون وكلاء لتجارهم، وهم الأغنياء الذين لهم ثروة كبيرة من التجارة، ونتيجة كثرة أعمالهم يكفون أو يوكلون أحداً من التجار لمتابعتها، وهناك أيضاً التاجر المتجول أو الباعة المتجولين الذين كانوا يطوفون البلاد طولاً وعرضاً لترويج

⁽¹⁾ البكري ، المسالك والممالك ، ص158؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 61 ؛ ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص 381 ؛ حسين مؤنس ، تاريخ المغرب والاندلس ، ج1، ص 388.

بضائعهم، ويكون هؤلاء التجار المتجولين مقيمين مع بضائعهم أينما حلوا، وكان يمارسها الوسطاء المأجورين، وليس أصحاب رؤوس الأموال، أو أصحاب البضائع نفسها، ومن الجدير بالذكر أن التجار يصحبون الحملات العسكرية في أوقات الحروب، هم عرضة لكل مكروه يعترض الجيش في الطريق، ولكن أرباحهم كبيرة، لأنهم يتاجرون في أوقات عصيبة وصعبة، والجيش دائماً بحاجة للسلع والبضائع التي يبيعونها وخاصة المواد الغذائية والملابس، وقد تطول مدة ترحال هؤلاء التجار، حسب وضعية الحملة العسكرية، ومدة الحروب التي تخوضها⁽¹⁾.

ومن تصنيفات المصادر التاريخية للتجار في تلك الفترة أيضاً، التصنيفات الثلاث، حيث تذكر هذه المصادر إلى أن هناك ثلاثة أنواع من التجار: الأول ويسمى الخزان، ويقوم بتخزين البضائع، واختيار الأفضل منها، كما أنه عليه ملاحظة الأوضاع السياسية وشخصية السلطان الذي يعيش في دولته من ناحية، وعدله من عدمه واستقرار وضعه لما يترتب على ذلك من سلامة أمواله من ناحية أخرى⁽²⁾. أما النوع الثاني من التجار هو الركاض، وهو الذي يتولى مصاحبة السلع من بلد إلى آخر، ولا بد له من معرفة المسافة التي يقطعها إلى البلد المقصود وأسعار السلع فيها. والنوع الثالث من التجار هو المجهز، وعمل المجهز يتطلب وكيل أعمال لكي يتسلم السلع، ويطلق عليه القابض، ويتولى بيعها وشراء ما ينبغي إرساله وله حقه في الربح⁽³⁾.

كما ترك لنا ابن الخطيب، وهو كاتب أندلسي من القرن الرابع عشر، معلومات ذات أهمية بالغة حول التنظيم التجاري لأسرة المقرري. لقد هيا الأثقاء الخمسة طريق الصحراء بفر آبار فيها وضمان أمن التجارة، ووضعوا أصولهم القائمة والمستقبلية شراكة بينهم مع توزيع الأرباح بالتساوي. استقر اثنان منهم في تلمسان وواحد في سجلماسة، والاثنان الآخران في ولاتة، حيث كسبوا أموالاً وتزوجوا نساء. كان الابنان اللذان بقيا في تلمسان يرسلان إلى الصحراء بالبضائع التي يطلبها أشقاؤهم، ويرسل إليهم هؤلاء بالجلود والعاج ولوز الكولا والتبر. وكان الشقيق الذي في سجلماسة يعلم أشقاءه في تلمسان وولاتة عن هبوط وصعود أسعار المنتجات ويصف لهم ظروف التجار وحوادث البلاد. وقد ازدادت أموالهم وارتفع وضعهم الاجتماعي، ولكن ثروتهم تأثرت كثيراً عندما احتلت التكرور وولاتة. ولحسن الحظ، قابل أحد الأثقاء حينها الملك الذي دعاه بـ "رفيقي العزيز" و"صديقي العزيز جداً" وزوده بالرسائل التي تمكنه من مزاوله تجارة الجملة في كل البلاد، وبإكتسابهم ثقة الملوك كسبوا ثروة دون حدود⁽⁴⁾.

(1) خديجة عبد الله علي ابوسدرية، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، ص 110.

(2) حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 178.

(3) المرجع السابق: ص 179.

(4) لسان الدين الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 37.

كان الأمر يتعلق بمشروع تجاري كبير: تهيئة طرق وحراسة قوافل وخدمات معلومات واتصالات مع المسؤولين الكبار. ستلاحظ خاصة دور المعلومات الذي كان يسمح بعد عبوره الصحراء على مسافة آلاف الكيلومترات بتقرير المشتريات، وحتى بالتأثير على الأسعار في حالات القوة كما هو الحال عند الأخوة المقرري، كما أشار ابن حوقل أثناء كلامه عن مرسى الخرز على ساحل أفريقيا إلى وجود سمسرة وقفوا لبيع المرجان وشراؤه. فكان وكلاء الأعمال والسمسرة موزعين على المراكز التجارية في الشمال والجنوب، وكانت مهمتهم في مملكة غانا - إلى جانب جمع السلع من مختلف أنحاء المملكة - مصاحبة التجار إلى مراكز تبادل الذهب جنوبي غانا، فقد ذكر ياقوت الحموي أن التجار عند وصولهم غانا: "يأخذون معهم السمسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر"⁽¹⁾.

من خلال ما سبق يمكن القول انه كان ايضا للحكام دورا لا يستهان به في إبراز هذه الفئة من التجار التي ميزت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المنطقة، والذين بفضلهم عمرت المدن، وازدهرت المحطات والمراكز التجارية التي اصبح التجار يتوافدون عليها من مختلف الاصقاع والاقطار.

2.4. مسالك وطرق القوافل البرية

تمثل طرق التجارة البرية عاملاً أساسياً في ازدهار التجارة فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية، ويلاحظ على الطرق التجارية العظمية في العصر الإسلامي أنها كانت تبدأ أو تنتهي عند موانئ نهريّة أو بحرية حيث تفرغ فيها البضائع أو تحمل منها، وتعتبر الطرق التجارية العصب الرئيسي للتجارة وبها يمكن أن تزدهر أو تتدهور. وقد توفرت للبلاد الليبية شبكة من الطرق التجارية عبرت جميع أنحاء البلاد، وقد سهلت هذه الشبكة من الطرق البرية، قدوم البضائع والسلع إلى مراكز التجارة البحرية سواء في داخل البلد أو من خارجه⁽²⁾.

ونظراً لاتساع رقعة بلاد المغرب واتصالها برياً بأقاليم وبلدان مختلفة مما أوجب امتلاكها لشبكة طرق بنوعها رئيسية وفرعية، غير أن هذه الطرق تكاد تكون غير معبّدة، وهي مجرد ممرات بسيطة⁽³⁾.

وكانت طرق بلاد المغرب بما فيها المناطق الليبية، تعرف في أحيان كثيرة أعمال قطع الطريق من طرف عصابات تقوم بالاعتداء على التجار والقوافل المارّة، وسفك دمائهم ونهب أموالهم، وتزدهر عملية قطع الطرق خلال فترات ضعف الدولة والاضطرابات التي تتعرض لها،

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص76؛ حمد محمد الجهيمي، دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص179.

⁽²⁾ شوقي عبد القوى عثمان حبيب، التجارة بين مصر و افريقيا في عصر سلاطين المماليك، ص65.

⁽³⁾ روبرار برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج2، ص247.

وكانت أكثر القوافل تعرضاً للنهب تلك التي لا تدفع رسوم العبور، وبالتالي لا تتوفر على جوازات المرور وتصريحات الأمان التي تستظهر عند بعض المدن والقرى التي يمرّون بها⁽¹⁾.

وقد أفتى الفقيه ابن عرفة (716 – 803 هـ/ 1316 – 1400 م) بقتل قطاع الطرق من عرب الديالم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر من عرب المغرب الأوسط، والذين عرفوا بقطع الطرق ونهب المارة، وهذه الفتوى دليل على مدى انتشار الظاهرة وتأثيرها على مختلف الميادين الحياتية ببلاد المغرب، كما أن الغزوة الهلالية على بلاد المغرب كان لها تأثير سلبي على نشاط ومنتشآت الطرق، خاصة الطريق الرابط بين الإسكندرية والقيروان، حيث خرّبت الكثير من الحصون الواقعة على هذا الطريق وطرد وشرّد سكانها، وأولت دول بلاد المغرب أهمية كبيرة لتأمين الطرق وقطع دابر اللصوص، فقد جهّز السلطان يوسف غزوة ضد العرب الذين يقطعون طريق سجلماسة، وذلك سنة 686 هـ، "فقتل منهم خلقاً كثيراً وسبا أموالهم ونساءهم وأمر بقطع رؤوسهم وحملها إلى مراکش وفاس وسجلماسة وتعليقها في الأسوار"، كما أقام السلطان أبو الحسن المريني (732 – 749 هـ/ 1331 – 1348 م) نظاماً لتأمين الطرق يقوم على خيام تبعد الواحدة عن الأخرى باثني عشر ميلاً، يربط فيها جنود على امتداد كل الطرق المتصلة بفاس، وأنشأ القناطر وأنفق عليها أموالاً كثيرة لتحسين طرق المواصلات. وكان لإقامة بعض الصالحين بالمناطق التي تعتبر بؤراً لقطاع الطرق دوراً كبيراً في حماية المارّين بها وتأمينها⁽²⁾.

1.2.4. المسالك البرية الداخلية

في البداية وقبل الخوض باستعراض المسالك البرية الداخلية، يبدو أنه ومن المفيد التطرق إلى دراسة الطرق التي كانت تعبر ليبيا، ومعرفة العصر الذي عرفها العرب فيه، كذلك محاولة معرفة درجة الدقة التي أوردتها الجغرافيون في رسمهم لهذه المسالك، والفترات الزمنية التي قطعت فيها المسافات، وبذلك لن نعود لا على الطرق المؤدية من الواحات إلى جنوب إقليم برقة ولا على هذه الموصلة من الكفرة إلى زويلة وإلى كوار ومن المرجح إلى وادي، بلاد الزغاوة، إن البيانات التي وردتنا غامضة لدرجة لا تسمح بدراستها ومناقشتها. بعض المقاطع في خطوط السير هذه لا يمكن إلا أن تذكر – من بينها أوجلة – الكفرة، وزلة – الكفرة – إذ لا معلومات دقيقة في حوزتنا، وأخرى لا يمكن أخذها في الاعتبار لأنها لم تذكر من قبل الجغرافيين العرب – مثل المسلك المباشر غدامس- توزر (الذي لا بد أنه استعمل، خاصة في زمن حروب بني غانية)، وطريق الكفرة – بحر الغزال – تشاد (الذي سلك في القدم وفي القرن التاسع عشر)⁽³⁾.

⁽¹⁾الحسين عماري، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص43.

⁽²⁾الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، ج2، ص403.

⁽³⁾Forbes, Rosita, Across the Libyan desert to kufara, G . J . LVIII, 2, 1921, P. 168 ; Borchardt, paul, (3) diegrossen ost – west – karawanenstrassen. Durch . die libysche wust, pet. Mitt ., 70 , 1924, p, 221-222.

لنبدأ بالاعتراف بالعجز أننا لم نتمكن من تحديد رسم مسار الطريق مصر – بهنسة – سجماسة التي أوردها الإدريسي. فقد تعذر تحديد الاثنتين والعشرين مكاناً المذكورة بأسمائها والتي تمثل عيوناً مائية وجبالاً وأودية وصحار لم توضح على خريطة الإدريسي. يقال أن المسافة بهنسة – سجماسة – وهي 3000 كم مقاسة في خط مستقيم مباشر – قد قطعت في 34 يوماً أو أكثر بقليل، وهذا خطأ لا يستحق التوقف والتعليق. ربما استعمل هذا المسار – النادر استعماله – من قبل المرابطين بقيادة أدلاء سنة 530 هـ - (6 - 1135 م). إذا لم يكن هناك خطأ من جانب الإدريسي، فإن هذا الطريق كان يمر بليبيا، وبصحرائها جزئياً على الأقل. قد يكون تم سلوك هذا الطريق تجنباً للملاحظة، لاننا لا نجد من بين الأماكن المعبورة التي ذكرت أي بلدة ذات أهمية. قد يمكننا في يوم من الأيام إعداد خرائط مفصلة تماماً من معلومات أكثر حول هذا الموضوع⁽¹⁾.

كان المسافر عند وصوله إلى أجدايبيا من المخيل، أو من برقة أو ميناء برنيق يجد نفسه في ملتقى طرق. حيث يوجد طريق في اتجاه سرت، وآخر نحو الجنوب الغربي، نحو زلة، وبالفعل، ذكر أبو الفدا نقلاً عن الإدريسي طريق برقة – زلة من عشر مراحل في اتجاه الغرب، وهو معدل يستحيل تحقيقه لان طول المسافة 600 كم (برقة – أجدايبيا: 230 كم، أجدايبيا – زلة: 370 كم). مع ذلك فقد قدر البكري والإدريسي المسافة "برقة – أجدايبيا) بستة أيام وهو تقدير صحيح الى حد كبير، ويكمن الخطأ في تقدير المسافة أجدايبيا – زلة بأربعة أيام بدل عشرة أيام على الأقل. لاشك ان العربي الأول الذي قطع هذا الطريق كان عقبة بن نافع عندما توجه من برقة لفتح زويلة سنة 4 – 643 م. وكان طريق ثالث يتوجه الى الجنوب الشرقي نحو أوجلة. المسافة بين أجدايبيا وأوجلة (250 كم) تقطع في سبعة أيام حسب البكري، وفي خمسة أيام حسب الإدريسي الذي تبنى معدلاً أسرع بكثير. وفي نفس المقطع، يقدر الإدريسي المسافة برقة – أوجلة بعشرة أيام، ويعطي للمسافة برقة أجدايبيا ستة أيام كذلك. ومنها نستنتج أنه يعتبر أن في الإمكان الوصول إلى أوجلة انطلاقاً من أجدايبيا في أربعة أيام: ولا شك أن متوسطاً يومياً قدره 82 كم مستحيل التحقيق⁽²⁾.

مثلت أوجلة ملتقى آخر، فمنها كان ينطلق طريقان شرقاً نحو سنترية – سيوة، يمر أحدهما شمال الرملة (550 كم) ويقطع في عشرة أيام. وكان الآخر يخترق الرملة (450 كم) ويستغرق ثمانية أيام. ومن سنترية كان يذهب إلى الاسكندرية، ثم القاهرة، والواحات والنيل.

من أوجلة، كان يتم التوجه جنوباً نحو الكفرة، مروراً بالواحة القريبة جالو. وهذا هو الطريق الذي اتبعه رئيس بني قرة حيث ضل الطريق وتاه.

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ج1، ص130.

(2) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص170 – 185؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ج1، ص311، 312؛ قدرت مسيرة اليوم الواحد ب (38.18 كم)؛ عبلة محمد سلطان، الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص102

كان هناك طريقان إلى الجنوب الغربي، يصل أحدهما تاجرقت، على مسافة 400 كم، ويستمر نحو ودان على بعد 120 كم، وهي مسافة تقطع في ثلاثة أيام. إن هذا الطريق هو "الطريق المباشر عبر الرمال" الموصل من أوجلة إلى ودان الذي ذكره ابن حوقل من قبل، والذي لم يكن مجهولاً لليقوبي. وينتهي الطريق الآخر إلى زلة على بعد 400 كم في عشرة أيام⁽¹⁾، ويؤدي إلى تاجرقت طريق قادم من المدينة الساحلية سرت. ومن بلدة تاجرقت كان يتم التوجه إلى زلة أو بطريق مباشر إلى زويلة (440 كم) يستغرق قطعة أربعة عشر يوماً، وهذا المسلك المباشر يمر بواحة الفقها التي يقول البكري - دون أن يسميها - إنها محطة مملوكة لأهل ودان - والواقعة على طريق آخر تاجرقت - زويلة عبر زلة وتمسة. لم يقدم البكري تقديراً للمسافة تاجرقت - زلة، وقدر المسافة زلة - الفقها (140 كم) بأربعة أيام، والفقها - تمسة (180 كم) بأربعة أيام، وتمسة - زويلة - (75 كم) بيومين⁽²⁾.

كما سبق وذكرنا أعلاه، يحيرنا ما أورده الإدريسي بخصوص المسار زلة - زويلة. فهو من جانب، يقول: "من زلة إلى زويلة عشرة أيام منحرفة إلى الجنوب مع الغرب"، ومن جانب آخر يشرح قائلاً: "من مدينة زلة إلى مدينة زويلة 10 أيام، وبين زلة وزويلة مدينة صغيرة تسمى مستيح". إن اسم هذا المكان غير موجود على الخرائط وغير معروف في المنطقة. هل يتعلق الأمر بطريقين مختلفين؛ أحدهما نحو الجنوب - الغربي ماراً بالفقها - وهي موضع لم يعرف الإدريسي بوجوده - يصل الآخر تمسة بعبور الهروج الأسود، حيث هناك بلدة لا يستطيع اليوم أحد تحديد موقعها؟ إن هذا ممكن، فما زالت توجد طريق ترابية تبدأ من زلة جنوباً على طول مائتي كيلومتر ثم تتحرف نحو الجنوب - الغربي، ولكن يبدو أنه لا توجد على طولها، أي أطلال، وتتطلب هذه الطريق عبور وديان كثيرة، ولكنها ليست أطول 400 كم) من الطريق التي تمر عبر الفقها. يبدو لنا أن الإدريسي يتناول عدة مرات نفس المسلك، ويأتي دائماً بنفس المعلومات، وعليه فإننا نميل لقبول حقيقة هاتين الطريقين، وهو السبب الذي دفعنا لوضعهما على خرائطنا. مع ذلك، علينا ألا نهمل فرضية أن الأمر يتعلق بطريق واحدة: وأن المنزل الذي ذكره البكري هو مستيح عند الإدريسي، وهو اسم بربري لبلدة أعاد العرب تسميتها لاحقاً بالفقها.

بالإضافة إلى الطريق من الشرق - سنترية - أوجلة - تاجرقت - ودان - التي ذكرناها، كانت تصل ودان ثلاث طرق من الشمال. إحداها بطول 210 كم تبدأ من الخليج عند سرت وتصل ودان في خمسة أيام، وهو معدل سريع تمكن منه سهولة الأرض، وتغادر الثانية الساحل عند سويفة بني منكوود - وهي موضع سمي مصراته ابتداء من القرن الخامس عشر على اسم قبيلة بربرية -

⁽¹⁾ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص183، 184؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الآفاق، ص312.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص11؛ الإدريسي، المسالك والممالك، ص41.

لتؤدي إلى زويلة. وعليه فإن هذا الطريق كان يمر بأبي نجيم والجفرة. ويفترض الإدريسي معدل سير سريع جداً على المسافة سوقة - زويلة، لأنه يقدر قطع الثمانمائة كيلو متر في 16 يوماً⁽¹⁾.

كانت الطريق الثالثة تنطلق من طرابلس وتعبّر بلاد هوارة، حيث تمر بنجوع البدو، وعلى طول هذه الطريق توجد محطات وأبراج حراسة وتقود إلى قصر ميمون. من هناك، يتم الوصول بعد ثلاثة أيام إلى صنم من الحجر مقام على مرتفع كرزة⁽²⁾، ثم إلى ودان بعد ثلاثة أيام أخرى. إن قصر ابن ميمون غير معروف لنا، ولا يمكن أن يكون إلا إحدى البلدات القريبة من بني وليد: وبالفعل فالطريق طرابلس - بني وليد - كرزة - أبو نجيم - ودان - زلة هي طريق التوغّل قديماً نحو الجنوب الشرقي، وفيها اكتشفت أطلال، وقطع نقدية وخزف روماني. إن هذه الطريق، وهي الأطول للوصول إلى فزان، هي الآمن نظراً لأن بها الكثير من نقاط المياه.

مثلت ودان إحدى بوابات الصحراء الداخلية، فمنها طريق يقود نحو الجنوب - الشرقي إلى زلة - 160 كم، وهي مسافة لا يمكن قطعها في أقل من أربعة أيام، بسبب عبور كثير من الوديان - ومن هناك إلى الكفرة⁽³⁾.

كان هناك طريق آخر يتوجه جنوباً نحو زويلة، ويصل في يوم واحد إلى هون (20 كم) ثم يصل إلى سبها ماراً بواحة سوكنة التي كان مؤلفو العصور الوسطى يجهلون بها. وكانت المسافة هون - سبها (320 كم)، تقطع - حسب البكري - في خمسة أيام، وهي المدة اللازمة أيضاً للذهاب من سبها إلى زويلة (125 كم). إن الفرق بين المعدلين هون - سبها: 64 كم - يوم، وسبها - زويلة: 25 كم - يوم واضح لا يمكن القبول به، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة المرحلة الأولى جنوب سوكنة عبر جبل السودان، وكان لا بد أن يلاحظها البكري لو كان على بينة بمواقع الواحات الداخلية. لا بد أن يكون المعدل على المسافة ودان - سبها بأقصى سرعة ممكنة لانعدام نقاط المياه بين الوشكة، وأول واحة وهي البوانيس. هكذا في سنة 1819م قطعت قافلة G.F.Lyon مسافة 305 كم الفاصلة بين سوكنة وسبها في ثمانية أيام ونصف محققة متوسطاً يومياً قدره 36 كم، بالرغم من أنها عبرت الجبل. سنلاحظ، أننا إذا لم نأخذ في الاعتبار توزيع المراحل، ولكن إضافتها فقط، فإن تقدير البكري يتطلب سيراً سريعاً ولكنه ممكن: ودان - زويلة (465 كم) في 11 يوماً، أي بمتوسط يومي قدرة 42 كم.

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ج1، ص120؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص 90.

(2) كرزة: هذا الموقع الذي ذكره البكري في القرن الخامس الهجري ما زال موجوداً إلى الوقت الحالي، وهو كوم من أحجار سوداء تقع حالياً بالقرب من مدينة مزدة جنوب مدينة غريان، ويعد من المواقع الأثرية المهمة في ليبيا؛ انظر: علي حامد خليفة: المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط، ص68.

(3) البكري: المسالك والممالك، ج2، ص184.

نذكر فيما يتعلق بالطرق القادمة من الشرق معلومة من بنجامين دي توديل تفيد بأن المسافة بين حلوان - وهي موضع موقعه على مسيرة 12 يوماً من أسوان دون أي تحديد - ومدينة زويلة تقطع في خمسين يوماً عبر صحراء تسمى الصحراء، وهي مكونة من جبال رملية، تغطي القوافل وتهلكها عند هبوب الرياح. ويمكن أن تتوافق مسافة الخمسين يوماً من موضع على بعد 12 يوماً من أسوان مع المسلك النيل - زويلة (حوالي 2000 كم). إن هذه الملاحظة تدعو للتفكير في الأسباب التي دفعت أحمد بن طولون لاختيار الطريق عبر سجماسة مفضلاً لها على الطريق عبر زويلة⁽¹⁾.

لم تكون زويلة، على طريق السودان، فقط نقطة التقاء طرق الشرق، (من مصر - أوجلة، أو من مصر أو النيل - الواحات - الكفرة ومن برقة - أجدابيا) والشمال (من سرت ومن مصراته عبر ودان)، فقد كان يصل إليها كذلك الطريق الذي كان خلال زمن طويل الطريق الاباضي المفضل. نعرف أن الطريق من تاهرت وورقلة كانت تصل جبل نفوسة مرة بالجريد، كما تصل الجبل الطرق القادمة من الساحل الطرابلسي. والبكري هو الوحيد الذي أفاد بطريق كان يصل جادو⁽²⁾ بزويلة. إن أسماء الأماكن التي بينها لم تحدد لسوء الحظ. ولا يمكننا إلا تقديم اقتراحات عن رسم هذا المسار. حسب البكري، بعد مغادرة جادو، يتم الوصول بعد السير ثلاثة أيام في وسط الرمال إلى تيري، وهي موضع في سفح جبل، بعد صعود هذا الجبل تمتد صحراء مستوية لا ماء فيها يستغرق قطعها أربعة أيام، بعدها يتم الوصول إلى بئر يسمى ودرف، ثم تبدأ منطقة جبال عالية تسمى تارغين تستغرق ثلاثة أيام قبل الوصول إلى "تامرما"، وهي مدينة سكانها من بني قلدين وفزانة. وبها الكثير من النخيل وأهلها مهرة في ضرب الرمال. بعد مسيرة يومين من هذه المدينة يصل المسافر إلى "سباب" *، وهي تزرع نباتاً تستخرج منه الصبغة الزرقاء، وبها الكثير من بساتين النخيل، بعد هذه المدينة صحراء مستوية من رمال دقيقة جداً تفصلها عن زويلة مسيرة يوم واحد⁽³⁾.

هكذا قدر البكري المسافة جادو - زويلة بمسيرة ثلاثة عشر يوماً. إن طول أقصر الطرق بين هاتين النقطتين 820 كيلومتراً، وعليه لا بد من زيادة تقدير البكري بحوالي النصف. إن الأمر هنا يتعلق بجزء طويل من Liter Praeter Caput Saxi عند الرومان، ومن الطريق على رأس الحمادة عند العرب، ولكننا نجهل مساره بدقة، على الأقل في جزئه الجنوبي. يتطلب السفر من جادو في اتجاه الجنوب الشرقي المرور بمزدة لا محالة، وهي غير بعيدة من خاصرة الجبل، وتلتقي طريق جادو مع الطريق القادمة من طرابلس. إن التسمية تيري لا تسعفنا، وقد يكون الناسخ أسقط نقطة،

(1) البكري، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، 1857م، ص 12.

(2) جادو: مدينة تقع في وسط جبل نفوسة من ناحية أفريقية؛ انظر: ابن حوقل: مصدر سابق، ص 93؛ البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 665؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 92.

* سباب: بلد كثيرة النخيل تقع في الطريق بين جبل نفوسة وزويلة، البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 156، 157.

(3) البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 182.

وأنه يجب قراء الكلمة "تيزي"، وهي كلمة بربرية تعني جبل، ومن ثم لا بد أن هذا المكان غير بعيد من مزدة، على مسافة 110 كيلومتر من جادو – مسيرة ثلاثة أيام – كما يؤكد البكري. وأمام المسافرين طريقان من مزدة.

يتجه أحد الطريقين، اللذين تنتصب على طولهما أطلال رومانية، جنوباً نحو الطرف الغربي لوادي الشاطئ في نواحي أدري حيث هناك تلال وأطلال بلدات غير معروفة الأسماء، وعندها يتجه هذا الطريق إلى جرمة عابراً رملة الزلاف منحرفاً نحو الشرق ليتحاشى التلال الرملية العالية في منطقة الدوادة، وهو المسار الذي سلكته قافلة Heinrich Bart سنة 1850م. من جرمة يتم التوجه جنوباً على طريق تساوة ثم شرقاً على طول الحافة الشمالية لدهان مرزق حتى تراغن للوصول إلى زويلة. ومن المرجح أن عقبة اختار طريق تساوة ونواحي تراغن عندما ذهب للاستيلاء على قصور القطرون وتجريهي⁽¹⁾.

يبدو لنا، مع ذلك، أن طريق جادو – زويلة التي ذكرها البكري كانت مباشرة أكثر وتمر أبعد إلى الغرب، سالكة مساراً قديماً أيضاً. إننا نقترح هذا بالحذر الذي يجب عند التأسيس على التحويلات المدخلة على الكتابة العربية، وعندما لا تتوافر إلا خرائط بمقياس 1:1000000.

بعد عبور جبل نفوسة، والسير في وسط الرمال، وبعد توغل في الحمادة الحمراء، التي تثير حوافها المرتفعة والمنحدرة فجأة التفكير في جبل – وقد يكون وراء التسمية تيزي لتيزي – ثم الدخول إلى صحراء مستوية يتم الوصول إلى بئر يسمى ودرف. ويوجد على طريق مزدة – وادي الشاطئ موضع يسمى شويرف. عند إسقاط نقاط حرف ش و ي في الكتابة، وإذا أخذنا في الاعتبار أن حرف الألف كثيراً ما يكتب مائلاً، فإن من السهل الخلط بين شويرف ودرف من الناسخ الذي يجهل أسماء الأماكن في المنطقة، خاصة إذا ما كان ينقل من نسخة بعيدة عن الأصلية، سنلاحظ وجود طريق جادو – مزدة – شويرف – براك لا تنقصها نقاط المياه⁽²⁾.

بعد بئر ودرف، تبدأ – حسب البكري – جبال عالية تسمى تارغين – (بفتح الغين) – تارغين (بكر الغين). وبعكس الطريق الغربي مزدة – أدري، يمر طريق شويرف – الشاطئ بجبال؛ جبل الحساونة وجبل فزان الواقعة مباشرة شمال براك. بعد تجاوز هذه الجبال يتم الوصول إلى نخيل تمرما. ونقترح أن تقرأ التسمية الأخيرة تامزاوة، هو اسم لوحة صغيرة من أقدم الواحات في فزان، ما زالت مسكونة حتى اليوم، وتقع على أقل من عشر كيلومترات شمال غرب براك. وقد كانت هذه البلدة معروفة في الوقائع الاباضية أبان القرون الوسطى تحت اسم تامزاوات.

⁽¹⁾ الادريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، 35.

⁽²⁾ Lewicki, Etudes maghrebines et soudanaises. Varsovie, Editions Scientifiques de Pologne. I, 1976, p61.

بعد سفر لمدة يومين من "تمرما" نصل الى سباب، وهي منطقة نخيل كبيرة وأخر مرحلة قبل زويلة. وتعتبر الطريق الوحيدة إلى زويلة من تامزاوة أو براك الطرف الشرقي لرملة زلاف، وهي أرض سهلة وتمر بسببها، ويفضل المرور بالواحات الصغيرة البوانيس، لأن الأرض أسهل. قد يكون مغرباً أن نرى في س. باب - س. ناب إمكانية قراءة سببها، ولعل النسخ المتعاقبة تسمح بهذا، مع أنه بعد صفحة واحدة لاحقة، قدم النص سببها في كتابة صحيحة وقعتها على مسيرة خمسة أيام من زويلة، وليست على مسيرة يومين، كما هو الحال هنا. عليه يجب علينا البحث عن هذه البلدة في البوانيس. إن واحة سمنو الواقعة على مسافة ثمانين كيلو متراً، شمال شرق سببها هي الوحيدة التي تقدم بعض التشابه مع سباب⁽¹⁾.

لاشك أن هذا الطريق التجاري من جادو نحو زويلة، كان من أكثر الطرق استعمالاً طوال الفترة التي كان يربط فيها بين المناطق الأباضية، ومن المستغرب أن البكري هو الوحيد الذي ذكره. بالرغم من أهمية هذا الطريق فإنه لم يكن الطريق الاباضي الوحيد من الشمال الغربي. كان من الممكن الوصول الى زويلة من غدامس، وهذا هو الطريق الذي سلكه ابراهيم بن قراتكين في الاتجاه المعاكس عند ذهابه الى قراقوش في فزان سنة 1177 - 1178م، فقد ذهب واستولى على غدامس قبل ان يتم احتلال جبل نفوسة. ليست لدينا لسوء الحظ أي تفاصيل حول هذا الطريق، الذي ينعدم عليه وجود اي بلدات، وهو وعر ولكنه قديم، لأنه كان يصل بين مركزين تحت النفوذ الروماني؛ غدامس وجرمة. سنلاحظ أن هذه الطرق من الشمال الغربي؛ من غدامس ومن طرابلس مروراً بالجبل، ومن مصراتة كانت تمكن عاصمة أفريقية، من ربط علاقات تجارية مع السودان الأوسط والشرقي. يذكر مؤلفان؛ الاصطخري والمقدسي في القرن العاشر طريق القيروان - زويلة. ولكنهما لم يقدمنا أي بيانات عن هذا المسار. كان السفر - حسبما أوردا - يستغرق شهراً، تقدير متفائل - كان يجب زيادته بالنصف - لأنه يتطلب متوسطاً يومياً يقرب من 50 كيلو متراً، ومن الصعب الاحتفاظ به على مثل هذه المسافة (1400 كم بأقصر طريق: جبل نفوسة والحمادة)⁽²⁾.

ليس هناك نص يفصل تنظيم التجارة في هذه المناطق، من الواضح أن زويلة لم تكن تمثل هدفاً في حد ذاتها، وكان كبار التجار يوجدون حيث الحاجات؛ في الشرق ومصر وأفريقية. كانت زويلة سوقاً كبيرة للعبيد، وللذهب بعض الوقت، ولكنها لم تكن إلا محطة نحو الهدف النهائي؛ السودان. وقد أثري سكانها - كما أثري سكان مرزق لاحقاً - بفضل دورهم كوسيط بين أماكن الجنوب وتجار الشمال. كانت الطرق من هذه الواحة تذهب في كل الاتجاهات الجنوبية.

ايضا هناك طريق يصل إلى النيل عبر الكفرة، وكان متبعاً خلال القرن السادس عشر من أهل غدامس، وهم الوحيدون الذين تجرئوا على سلوكه بسبب علاقاتهم الطيبة مع التبو⁽³⁾، وكان

(1) البكري ، المسالك والممالك ، ج2، ص183.

(2) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص41 ؛ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص246.

(3) اليعقوبي ، البلدان ، ص205.

الاتجاه جنوباً يؤدي إلى كوار⁽¹⁾، ويقدر اليعقوبي المسافة بخمسة عشر يوماً. بسبب ان طريق زويلة - كوار كان طويلاً جداً (زويلة - سجدين: 825 كم، بمتوسط 55 كم/يوم) لدرجة لا يمكن ان يتم قطعه في خمسة عشر يوماً. قد يكون ما أورده اليعقوبي يتعلق بالمسافة بين تجريهي آخر واحة فزانية، وسجدين أول بلدة يمكن أن نصفها بالكوارية (580 كم، متوسط 39 كم - يوم). يتطلب هذا الطريق حذراً شديداً فيما يتعلق بالتزود بالمياه. نذكر بأن الوصول من تجريهي إلى بئر مشرو يتم بعد يومين من السفر جنوباً، وقد لاحظ كل مستكشفي القرن الماضي، وجود الكثير من الجمجم عند هذا البئر، وأغلبها جمجم عبيد. وغير بعيد، من نواحي جادو يوجد بئر ماء الفرس الشهير الذي أنقذ حملة عقبة سنة 4 - 663م، وعن هذا الطريق - وهو الوحيد - وصل عقبة إلى كوار، وعليه يكون أول طريق مركزي عابر للصحراء عرفه العرب. بخلاف الحملة التي قادها عبد الله بن سعد على النوبة سنة 31هـ (2 - 651م) التي أعقبها هدنة، فتحت غزوة عقبة طريق السودان، وكانت بداية تجارة الرقيق من السودان الأوسط، لأنه إلى كانم - من بين أخرى - كانت تمتد الطريق زويلة - كوار. قدر البكري بشكل صحيح المسافة زويلة - كانم بأربعين يوماً (زويلة شواطئ بحيرة تشاد: 1450 كم متوسط 36 كم - يوم)⁽²⁾.

على مسافة 70 كيلومتراً تقريباً جنوب تجريهي، كانت تتفرع من طريق زويلة - كوار طريق تؤدي إلى وادي عبر تبستي. ولا بد من أن للمسار تجريهي - وادي بديل على الجزء الأول منه تجريهي - لارجو يتمثل في المرور بزوار أو برداي، كما هو الحال اليوم. ويعود هذان الطريقان، اللذان توجد على طولهما رسوم على الصخور، إلى ما قبل التاريخ، ولا نرى أي طريق آخر كان يمكن أن تسلكه عربات الجرمنت عندما يطاردون سكان الكهوف الذين تحدث عنهم هيرودوت. كان المقصد النهائي - بعد لارجو - هو وادي في قلب بلاد الزغاوة. وقد عد ابن حوقل شهرين لقطع المسافة فزان - بلاد الزغاوة. تبلغ المسافة بين جرمة ووداي 1700 كيلومتر، ويبدو تقدير ابن حوقل - 30 كم في اليوم صحيحاً. بالرغم من أن اليعقوبي لا يقدم أي إيضاح حول هذا الموضوع، إلا أن من الممكن تخمين أن سكان زويلة كانوا يسلكون أحد هذه الطرق - بشكل خاص - عند ذهابهم لأخذ أسرى من الزغاوة والميرييين والمروييين، وجعلهم رقيقاً⁽³⁾.

من المثير للاهتمام ما ذكره ابن حوقل عن طريق من فزان إلى بلاد الزغاوة. كان هذا الجغرافي يميز بوضوح بين زويلة وفزان. كانت جرمة ما تزال في غاية الأهمية، ويواصل سكانها - من يكونون إذا لم يكونوا الجرمنت؟ - صيدهم الرقيق منافسين في هذا أنشطة زويلة، كما وصفها اليعقوبي. تظهر في نفس المقطع لابن حوقل المسافة زويلة - فزان، وأهمية موطن الجرمنت في

⁽¹⁾ كوار: إقليم من بلاد السودان جنوبي فزان افتتحه عقبة بن عامر عن أخره؛ انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 93، مادة "كوار".

⁽²⁾ اليعقوبي، البلدان، ص 205، 345؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص 29.

⁽³⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 91؛ اليعقوبي، البلدان، ص 205، 345.

القرن العاشر، فهو يقول إن المسافة بين فزان وزويلة تبلغ خمسة عشر يوماً. وباستبعاد خطأ من جانب المؤلف، فإن الأمر هنا لا يتعلق بزويلة - جرمة التي لا تتجاوز المسافة بينهما 240 كيلو متراً، ولا تبرر طبيعة الأرض سرعة بطيئة بمعدل 16 كم فى اليوم. وقد لاحظنا سابقاً أن مدة الخمسة عشر يوماً تتسق مع المسافة التي تفصل زويلة عن الطرف الغربي للإقليم الجرمنتي، أي منطقة غات. للوصول إلى غات من زويلة تتبع الشرقية، والحفرة ومنخفض مرزق حتى تساوة، وعند تساوة لا بد من الاختيار. يمكن، في حالة الرغبة في المرور على جرمة، التوجه نحو وادي الأجال، أو سلوك الطريق سبها - جرمة، وهو نفس الطريق الذي اتبعه - غالباً - عقبه خلال حملته، ثم اتباع الطريق الغربي نحو سردليس - العوينات، ثم السير على طول جبل أكاكوس حتى غات. وهناك طريق أقصر يتبع وادي بروجوج من تساوة محصوراً بين مساك الذي فيه الكثير من الرسوم القديمة على الصخور، ودهان مرزق، وفي نواحي غات تعبر هضبة، ويساعد الممر في جبل أكاكوس من الوصول إلى الواحة. ولا بد أن الإدريسي كان يشير إلى هذا الطريق، عندما اقترح مسافة اثني عشر يوماً بين تساوة وأزقار في جبل طنطنة، الذي نعتقد أنه يتطابق مع تاسيلي - هقار⁽¹⁾.

الطريقان نحو غات قديمتان، ويتفق المتوسط اليومي لهذه وتلك، مع المدة التي وضحها ابن حوقل. ومن المنطقي أن طريق وادي الأجال، جرمة، سردليس كانت تسلكها قوافل خليج سرت عبر ودان، وأن الأخرى عبر تساوة كانت مستعملة من قوافل شمال إقليم برقة عبر زلة - الفقها - تمسة - زويلة.

سنذكر أن طريق زويلة - فزان لا تمثل الإشارة الوحيدة لابن حوقل إلى طريق جرمة. لنتذكر ما أمر به ابن طولون من منع طريق الواحات فزان، إن هجر هذا الطريق لصالح الطريق عبر سجماسة أملتته العواصف الرملية التي كان يتعرض لها المسافرون على الجزء الأول من هذا الطريق. إن مثل هذا المنع ليس له من مبرر إلا على الجزء الذي يعبر صحراء جنوب برقة، ولم تكن العواصف الرملية الفزانية أكثر حدوثاً، ولا أخطر من العواصف التي تتعرض لها القوافل المغادرة لسجماسة نحو السودان. كما يجب ملاحظة أن ابن حوقل لم يورد ذكراً لعدم استقرار الأمن على طريق الواحات - فزان، بعكس ما كان على الطريق المباشر مصر - غانا، وبافتراض مروره بالكفرة أو العوينات، حيث هجمات الأقوام المعادين، مضافة إلى الرياح، بررت المنع الطولوني المزدوج⁽²⁾.

لا يذكر الإدريسي، الذي كتب بعد وصول بني هلال، أي قلائل واضطرابات في المنطقة، عند تناوله طريق تساوة - موطن أزقار جبل طنطنة. وقد أورد طريقاً من جرمة إلى أودغست في 25 يوماً، لا يقلل هذا الخطأ في التقدير في شيء من الأهمية التي يعطيها لهذا الطريق، لأنه ذكرها

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 91.

⁽²⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 58 - 61.

في نفس الوقت الذي أورد فيه الطرق الأساسية نحو أودغست انطلاقاً من غانا وورقلة ومنجم ملح أوليل. من المؤسف أنه لا يقول لنا شيئاً حول العلاقات القائمة بين جرمة وأودغست ولا يعطينا تفاصيل حول المسار.

كما حدث على كل الطرق العابرة للبيبا، واجه التنقل على الطريق المار بجرمة – دون شك – قلاقل وعقبات خلال وقائع بني غانية – قراقوش، ويمكننا أن نخمن أن الأمن قد استقر على هذا الطريق مثل طرق الشمال، عندما احتلت امبراطورية كانم الصحراء الليبية وفرضت سلامها.

كانت طريق وادي الأجال – غات مسلوكة من قبل قوافل مصر. ويشير ابن بطوطة إلى أن القوافل المغادرة تكدة تنفصل عن بعضها البعض قبل التوغل في بلاد الهقار: فطريق يتجه إلى توات – وآخر نحو غات ومصر. وترتبط غات بغدامس بطريق يوصل إلى هذه الأخيرة في ثمانية عشر يوماً⁽¹⁾.

ليس لدينا إلا القليل من البيانات حول طرق غدامس، ونجهل تقريباً كل شيء عن الطرق من غات نحو الجنوب عبر تاسيلي – الهقار، كانت غدامس مربوطة شمالاً بطرابلس من خلال جبل نفوسة، وبالقيروان من خلال قابس، وبورقلة عبر الصحراء. من الممكن أنه كانت هناك طريق تصل غدامس بتوزر أكثر مباشرة من الطريق عبر قابس – الطريق الترابية الحالية على طول الحد الشرقي للعرق العظيم – وتتصل بطريق نفوسة – الجريد، ولم تذكر من قبل أي من المؤلفين. من غدامس، نحو الجنوب الشرقي كان يمكن الوصول إلى جرمة وزويلة مروراً بوادي الشاطي، كما رأينا، ومن غدامس نحو الجنوب الغربي كان يتم التوجه إلى توات وتغازا وغانا أو نحو تادمكة عبر الهقار. عند الوصول إلى غات من غدامس أو من فزان يمكن الذهاب إلى تكدة في الايبر، كما يشير ابن بطوطة، أو إذا كان تحديد الإدريسي لشاما والبعامة صحيحاً، نحو منعطف نهر النيجر.

يبدو من غير المفيد، في نهاية إعادة تكوين الشبكة الليبية للاتصالات تقرير الجغرافيين العرب لتميزهم، أو توجيه النقد إليهم لتواضع مستوى أدائهم. فقد ارتكب البكري والإدريسي الكثير من الأخطاء في التقدير، ولكن الفضل يعود إليهم في تزويدنا بالقدر الأكبر من البيانات عن المسارات الصحراوية، أن القليل من الأخطاء يعود إلى تقدير ناتج عن سرعة بطيئة جداً، في اغلب الحالات، يعود عدم الدقة إلى أنه يتطلب متوسطاً يومياً مرتفعاً جداً، والذي نادراً ما يتجاوز 50 كيلومتراً، وهو متوسط يمكن تحقيقه والمحافظة عليه على مسافات قصيرة. أولى من توجيه النقد لبعض الأخطاء في حساب المسافات، يجب الإعجاب بهؤلاء الجغرافيين من القرون الوسطى الذين حاولوا منذ القرن التاسع توضيح تشابك طرق الصحراء، وباستثناء المسالك عبر الهقار والكفرة نجحوا في ذلك، لدرجة أن العرب في القرن الحادي عشر بفضل البكري – أو منذ الربع الثالث للقرن العاشر، إذا

⁽¹⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 444، 445؛ المزيني، ليبيا منذ الفتح العربي، ص 217؛ بولو، سلفاتور، تجارة طرابلس عبر الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، السنة الثالثة، العدد الأول، يناير 1981، ص 83.

أخذنا في الاعتبار أن البكري كان يستلهم أستاذه الوراق – كانوا يعرفون الطرق الأساسية المؤدية من شاطئ المتوسط نحو بلاد السودان. وقد أضاف الإدريسي إلى هذه المعرفة بعض البيانات، وأضاف إليها ابن بطوطة تجربة رحالة. فيما يتعلق بالاتصالات، مثلما هو الحال في المسائل الصحراوية الأخرى، يجب الانتظار حتى منتصف القرن التاسع عشر، وزمن المستكشفين الأوروبيين الكبار لنعرف أكثر⁽¹⁾.

يكفي مجرد إلقاء نظرة على خريطة أفريقيا لفهم الميزة التي كانت للطرق العابرة لليبيا، على الأقل بالنسبة لتجارة العبيد. يمكن اللسان البحري الذي يمثله خليج سرت من كسب الكثير من الوقت في الوصول من البحر المتوسط إلى بلاد السود، إذ تقل المسافة سرت – بحيرة تشاد (2100 كم) بألف كيلومتر عن طريقي تاهرت – جاو، وفاس – غانا، وحتى لو سافرنا من طرابلس فإن الفرق في المسافات أكثر من خمسمائة كيلومتر لصالح الطرق العابرة لفزان. ولا تقتصر ميزة الطريق الليبية على المسافة فقط. وقد سرد ابن بطوطة المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل من سجماسة، وأوضح إلى أي مدى كانت سلامة الدواب والناس تعتمد على شجاعة ومعارف رجل واحد؛ التكتيف. ولم تكن طرق توات وتدكلت أكثر سهولة ويسراً. بالعكس، كانت المسالك عبر غرب ليبيا من الساحل حتى تجريه تقدم تتابعاً بديعاً من الواحات والآبار، وكان المقطع تجريه – سجدين هو الوحيد الذي يتطلب الحذر، انطلاقاً من كوار كان السفر ميسراً بشكل كبير بسبب المناخ الرطب الذي ساد فيها "دون شك، حتى أواسط القرون الوسطى"، يذكر الإدريسي وادياً ممتداً على طول كوار من الجنوب إلى الشمال، حيثما تحفر فيه تجد ماء رائقاً عذباً غزيراً. ويشير ابن سعيد إلى وجود بحيرتين يتنازع ملكيتها الكواريون وعرب فزان والبربر. وهكذا كان الحال في جنوب بوركو حيث يوجد منخفض مساحته 100000 كم مربع كانت تغطيه في بعض الأحيان مياه من بحيرة تشاد يوصلها إلى هناك بحر الغزال: هكذا كان الطريق من فزان نحو الجنوب الشرقي أكثر سهولة والطريق من الكفرة نحو تشاد أقل خطراً مما هو عليه الآن. كان عدم وجود أي بلدة وندرة الآبار على طريق الكفرة – شاطئ المتوسط تمثل عقبة كأداء. وبدون أن نهمل الطريق عبر غات لنقل بعض المنتجات – خاصة الذهب – كانت الطرق عبر فزان هي الطرق الرئيسية لتوصيل البضائع السودانية، وأبرزها العبيد، نحو الشمال الأفريقي ومصر⁽²⁾.

2.2.4. المسالك البرية الخارجية

تنوعت المسالك والطرق التي تربط المناطق الليبية بمحيطها الإقليمي والدولي، ما بين طرق ومسالك رئيسية وطرق فرعية، وكذلك كان هناك بجانب الطرق البرية طرق بحرية موازية لها، خاصة التي تربط باقي بلاد المغرب بالمناطق الليبية، وهذا ما سنراه فيما يلي:

⁽¹⁾ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج1، صص132، 133؛ الحموى، معجم البلدان، ج4، ص418؛ ابن خلدون: العبر، ج1، ص286.
⁽²⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص45؛ ابن سعيد، بسط الارض، ص48؛ بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص398.

3.2.4. طرق القوافل التي ربطت ليبيا بالمشرق والمغرب الإسلاميين

ارتبطت المراكز التجارية الليبية بنظيراتها المغربية عن طريق مسلكان رئيسيان هما، الأول الطريق الساحلي، أو ما يسمى بطريق (الجادة)، ويقطع هذا الطريق السهل الساحلي المغربي من برقة إلى البحر الغربي، وهي أول محطة ينزلها المتجه من مصر إلى القيروان، ويمر الطريق الساحلي عبر عدة مدن كأجدايية وطرابلس، كما يجتاز قابس وصفاقس والمهدية إلى سوسة وتونس، ويتجه غرباً عبر بجاية ووهران، ثم سبتة التي بينها وبين وهران ثمان عشرة مرحلة، وبعدها طنجة بمسيرة يوم في البحر، ثم ينعطف الطريق إلى مناطق المغرب الأقصى الساحلية والداخلية⁽¹⁾

وقد كان طريق الجادة أكثر الطرق راحة، وأطمئناً أيضاً بالنسبة للتجار والمسافرين، وذلك لكثرة الحصون من ناحية، ووجود العديد من الموانئ والأسواق على طول الساحل من ناحية أخرى، وهو ما سهل على التجار عمليات البيع والشراء وتبادل السلع المختلفة⁽²⁾.

وفي القرن 4هـ/10م فإن ابن حوقل قد وصف طريق الجادة من ناحية الغرب، بعد دخوله المناطق الليبية، حيث أكد إلى أن طريق الجادة الخارج من قابس إلى طرابلس يمر على مدينة صبرة، بينما نجد في القرن 5هـ/11م أن طريق الجادة بين قابس وطرابلس يمر على الراشدة وقصور حسان ومغمداس كما سجل البكري ثم طرابلس (اطرابلس) وهي: "مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر أهله وأهلها أخلاط"، وان "مرساها مأمون من أكثر الرياح"، ومن طرابلس يسير الطريق مع الساحل عند ابن خرداذبة ويمر على وادي الرمل والمحنى وبعدها ورداسا ورغوغا وتورغا وقصور حسان بن النعمان الغساني والقريتين وسرت، والمسافة بين طرابلس وسرت عشر مراحل، وأشار ابن خرداذبة إلى أنه بعد مدينة سرت يمر الطريق على قبر العبادي واليهوديتين، وقصر وسبخة منهوشا ومرقوة، ثم يصل الطريق إلى اجدايية، "قريبة من البحر المغربي فترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب من التجارة"، وذكر البكري ان لاجدايية "مرسى على البحر يعرف بالماحور"، وان بينها وبين سرت ست مراحل، ومن اجدايية يسير طريق الجادة إلى بلبد، ثم برسمت وسلوق وادبران وقصر العسل ومليبية، واخيراً يصل إلى برقة، "وهي على ساحل البحر المالح ولها ميناء عجيب في الإتقان والجودة تجوز فيه المراكب"، وهي مدينة "برية

⁽¹⁾ اختلف عدد من الجغرافيين في بداية هذا الطريق من ناحية الغرب، فابن خرداذبة اشار انه يبدأ من مدينة سبتة، ووافق ابن حوقل في ذلك، لكن اليعقوبي ذهب إلى انه يبدأ من مدينة فاس في داخل المغرب الأقصى، ثم يصعد بعد ذلك إلى مدينة نكور، ولهذه المدينة مراسي عديدة أشار إليها البكري "مرسى ملوية وهرك وكراط ومرسى الدار"، وهي "على البحر المالح"، (وهو ساحل البحر المتوسط). ويبدو أن مدينة نكور في المغرب الأقصى من المراكز الهامة في طريق الجادة، فمن نكور يسير الطريق الساحلي إلى مدينة مليلة، ثم الأرجوك التي يصفها ابن حوقل في القرن 4هـ/10م "هاى واد يعرف بتافنا وبينها وبين البحر نحو ميلين"، من الجدير بالإشارة إلى أن ابن خرداذبة في القرن 3هـ/9م، لم يتطرق إلى مدينة أرجوك وهو يصف الطريق الساحلي المنطلق من المغرب الأقصى؛ انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص88؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص78، 79؛ اليعقوبي، البلدان، ص114؛ البكري، المغرب في ذكر بلاد المغرب، ص90؛ الحموي، معجم البلدان، ج5، ص197.

⁽²⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص80.

بحرية جبلية، وبها من التجارة وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلباً لما فيها من التجارة وعابرين"⁽¹⁾.

وحدد ابن خرداذبة، بين تونس وبرقة بسبع مائة وست وأربعون ميلاً، بينما لم نجده يقدر مسافة الطريق بين تونس وسبته في المغرب الأقصى. وهكذا نجد أن الطريق الساحلي الذي يربط بين المغرب الأقصى والمغربيين الأوسط والأدنى، والذي عرف باسم طريق الجادة الطويل ومسلكه فهو يمر على عدد من المراكز التجارية الساحلية المهمة، كما أن له فروع تربطه بالمراكز التجارية الداخلية المغربية⁽²⁾.

أما الطريق الثاني فهو طريق مغربي داخلي، يبدأ هذا الطريق ساحلياً من طرابلس إلى صفاقس نحو الداخل إلى القيروان، حيث يتفرع إلى ثلاثة طرق تلتقي عند المسيلة، طريقان عبر هضاب الاطلس التلي وطريق عبر بلاد الجريد والزاب يمر على مقرة، وطبنة، وبسكرة وصولاً الى قفصة، ويواصل الطريق الى تاهرت انطلاقاً من المسيلة، ولا يتوقف هذا الطريق في تاهرت بل انه يصل الجزء الشرقي من بلاد المغرب بالجزء الغربي، حيث يمتد الى مدينة فاس، عبر مدن وقرى كثيرة أهمها تلمسان. أما الطريق الرابط بين القيروان وسجلماسة فانه يسلك نفس المسار، لكنه ينحرف عند وصوله الى تاهرت نحو سجلماسة، ويستغرق السير فيه حوالي شهرين⁽³⁾.

أما من ناحية الشرق والمشرق الإسلامي، فقد كان الطريقان الساحلي والداخلي – سابقا الذكر – يرتبطان بالطريق الواصل بالشرق الإسلامي، بل يعتبران جزءاً هاماً منه، فمن خلاله يمكن الاتجاه نحو مصر والشام والعراق⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 68، 69؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 17، 18؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص 145؛ البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 177.

⁽²⁾ الزهري، الجغرافية، ص 137؛ ابو الفدا، تقويم البلدان، ص 123.

⁽³⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 84-87؛ البكري، المسالك والممالك، ص 19، 20، 66؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 1، ص 294-296؛ فاطمة بلهوارى، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية، ص 104.

⁽⁴⁾ بعد أن يخرج هذا الطريق من نطاق المناطق الليبية متجهاً لمصر، يأخذ شكل مراحل مختلفة، أسهب بعض البلدانين في وصفها وأوجز البعض الآخر. فقد اخبرنا ابن خرداذبة عن مراحل هذا الطريق ومدنه قائلاً: "ومن مدينة برقة باتجاه مدينة الندامة ستة أميال" ثم إلى "تاكنيست خمسة وعشرون ميلاً"، والى المغرب وجب حلیمان سبعون ميلاً، ويمر على عدد من المدن منها وادي مخيل وحي عبد الله ومرج الشيخ والعقبة، ويكون الطريق قد قطع مسافة بحدود مائة وخمسون ميلاً، ويصل إلى "خرائب أبي حليمة خمسة وثلاثون ميلاً"، ثم إلى "خرمة القوم خمسة عشر ميلاً"، وبعدها يمر على عدد من المدن قصر الشماس وسكة الحمام وجب العوسج وكنائس الحديد ويقطع الطريق بحدود مائة وتسع ميل، ثم إلى "الطاحونة ثلاثون ميلاً"، وإلى "حنية الروم أربعة وثلاثون ميلاً"، ثم "ذات الحمام ثمانية عشر ميلاً"، وإلى "بومينة عشرون ميلاً"، وبعدها يصل الطريق إلى مدينة "الاسكندرية أربعة وعشرون ميلاً"، وهذا الطريق ساحلي مع البحر المتوسط ثم يمر الطريق بعدها على عدد من المدن منها كربيون وقرطسا والرافقة وكوم شريك ويسير الطريق مع نهر النيل، وبهذا يكون الطريق قد قطع مسافة بحدود مائة ميل، ثم إلى قرية "قرنوط ثلاثون ميلاً"، وأخيراً يصل إلى مدينة الفسطاط. أما البلخي في القرن 4هـ/10م فكلامه مختصر عن الطريق الذي يربط المناطق الليبية بمصر، فيعد فبعد برقة يسير إلى إقليم مصر بمسافة عشرين مرحلة، ولكنه لم يبين لنا المحطات والمدن التي يمر عليها هذا الطريق مع الأسف. أما في القرن 5هـ/11م اتحفنا البكري بمعلومات تفصيلية عن هذا الطريق فبعد أن وصف الطريق ما بين المغرب الأقصى والمغربيين الأوسط والأدنى بمراحله المختلفة، وواصلنا في وصفه إلى برقة كما اسلفنا ذكره، بدأ يتكلم عن مدينة برقة فذكر ان "برقة في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها. وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها السائمة وتتمى على مراعيها واكثر ذبايح اهل مصر

حيث كان هذا الطريق الذي يربط بين المناطق الليبية ومصر ما هو إلا مرحلة أولى من طريق دولي يربط بلاد المغرب ببلاد المشرق الإسلامي⁽¹⁾.

حيث يمتد هذا الطريق بعد مصر حتى يصل إلى دمشق ومنها إلى بغداد ماراً بحلب⁽²⁾.

وعبر هذا الطريق كانت القوافل المشرقية تسير إلى المغرب الأقصى، حيث قال ابن حوقل عن ذلك: "ولقد وصلت قوافل تجار أهل العراق والبصرة والكوفة والبغداديون"، إلى المغرب الأقصى باستخدامها طريق الجادة عبر المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب الأقصى. وبذلك فقد كان هذا الطريق سبباً في قدوم التجار المشرقيين لبلاد المغرب عامه والمناطق الليبية على وجه

منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والقطران.. وهي كثيرة الثمار من الجوز والاترج والسفرجل، ويسير الطريق بعدها ويصل إلى منطقة تعرف بخرايب ابي حلجة" وهو قصر معمور وبه سوق وبار خمس"، ثم يصل بعدها إلى مدينة الرمادة" وهي مدينة لطيفة بقرب البحر لها سور ومسجد جامع وحولها بساتين بأنواع الثمار"، ويسير الطريق ماراً على جب العوسج والكنائس وهي "ثلاثة قصور مهدمة"، وبعدها يصل إلى ذات الحمام ووصفها البكري قائلاً: "هي سوق جامعة بها جامع بناه زيادة الله بن الاغلب.. وبازايه بئر غزيرة طيبة حولها جنات وبساتين.. وسميت ذات الحمام لان كل من شرب من مايبها حم الا من عافاه الله"، ثم يسير الطريق ليصل إلى ابي مبنى "وهي كنيسة فيها عجائب من الصور والنقوش توعد قناديلها ليلاً ونهاراً"، ثم إلى المنى "وهي ثلاثة مدن قائمة البنية خالية فيها قصور شريفة في صحراء رمل.. محكمة البناء"، وبعدها يصل الطريق لقريبة قرنوط "وهي قرية جامعة على النيل بها أسواق ومسجد جامع وكنيسة"، وأخيراً يصل إلى القسطاط؛ انظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص 58؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 84؛ اليعقوبي، البلدان، ص 100، 101؛ ابن قدامة، كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص 220، 221؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص 61؛ المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص 216.

(1) نشطت الطرق التجارية نشاطاً عظيماً بين المشرق الإسلامي ومغربه، فقد ارتبط المغرب الأقصى مع المشرق الإسلامي بعدة طرق تجارية، وفي القرن 3هـ/9م أشار ابن خرداذبة إلى وجود طريقين: احدهما يخرج من مدينة سر من رأى (سامراء) والآخر من مدينة السلام (بغداد)، ويصل هذان الطريقان إلى مدينة القسطاط، وبما أن القسطاط ترتبط بطرق القوافل التجارية الذاهية إلى المغرب الأقصى، فإننا يمكن أن نقول أن القادم من المغرب الأقصى قاصداً المشرق لابد أن يصل إلى القسطاط، ومنها يستطيع أن يستخدم احد الطريقين، طريق سامراء أو طريق بغداد. وبنصف الطريق بشكل معكوس عما وصفه ابن خرداذبة كعادتنا، فمن مدينة القسطاط يسير الطريق إلى البارورية تسع عشرة سكة، وبعدها الجفار ومنها إلى الرملة، وتقطع بحوالي ستة عشرة سكة، ثم إلى اللجون أربع سلك، وبعدها إلى طبرية وهي قصبه الأردن ست سلك، وبعده ديرة أبواب ثم دمشق وبعليك، ثم إلى جوسية وتقطع بحوالي اثنان وعشرون سكة، وبعدها إلى حمص وحماه وصرى وأبي قنسرين وحلب ومنبج والنقيرة والرقعة وتقطع بحوالي ثلاث وأربعون سكة، ثم إلى رأس عين وكفرتوثا ونصيبين واذرمة وبلد والموصل والحديثة والسن وجبلنا وتقطع بحوالي إحدى وستون سكة، وأخيراً من جبلنا إلى سر من رأى وتقطع بسبع سلك. أما الخط الثاني من الطريق فهو يبدأ من القسطاط في مصر إلى بلبليس ومسجد وقضاعة والفاخرة وجريير والفرما والعنذيب إلى الواردة إلى العريش ورفح وغزة وازدود، إلى "البحيرة المنتنة.. ويخرج من البحيرة المنتنة ملح يصلح للصناعة وفير يسمى الحمر"، ويسير الطريق إلى يافا والرملة وقلنسوة واللجون وطبرية ونبق وجاسم والكسوة ويصل بعدها إلى دمشق، ومن دمشق إلى القنيطرة والنبك وفارا وجوسية وحمص ومن حمص إلى حماه وشيرز وقنسرين وحلب والناعورة ثم بالس، وبيبين ابن خرداذبة لنا "قد عبر الفرات"، ويستمر الطريق إلى دوسر ورقة وحران ثم يصل إلى الرقة" وهي بالرومية فالانيقوس والرقعة هي واسطة ديار مضر وهي الرافعة"، وبعدها يستمر سير الطريق ويمر على عدة مدن منها المبارك والجردان ووادي السباع والفرضية والداز والفحيمة والدسة والناورسة وهي الأتبار والسيلحين وأخيراً بغداد، وأوضح لنا ابن خرداذبة أن الطريق يستغرق من "بغداد إلى مصر خمس مائة وسبعون فرسخاً يكون ألفاً وسبع مائة ميل وعشرة أميال"، وتحدث ابن خرداذبة عن طريق ثالث يربط البصرة بعمان عن طريق قطر وساحل هجر، ومن هناك يتجه عن طريق ساحلي إلى عدن ثم إلى مكة، ومن مكة إلى مصر وبعدها بلاد المغرب، وهكذا مثلت ليبيا ومصر حلقة بين الطرق الآتية من المشرق والمتجه نحو المغرب وبالعكس سواء كانت طرق برية أو بحرية، وهذا يدل على اتصال وثيق بين المشرق الإسلامي ومغربه عبر البوابة الليبية؛ انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص 84، 85؛ اليعقوبي، البلدان، ص 100، 101؛ ابن قدامة، كتاب الخراج، ص 220، 221؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 109، 175؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص 61؛ المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص 216.

(2) البكري، المسالك والممالك، ص 432، 104؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في أختراق الأفاق، ص 317، 318؛ روبرار برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ج2، ص 248.

الخصوص؛ ويقدر صاحب عجائب البلدان المسافة بين المغرب الأقصى نحو أربعمئة مرحلة، من دون أن يحدد أي طريق من الطرق قدر مسافته هذه⁽¹⁾.

وعاماً فقد كانت هناك ثلاث طرق على الأقل تؤدي من شمال مصر إلى ليبيا، تأتي إحداها من المراكز التجارية على النيل والواحات وتغادر سنترية مارة بشمال الرملة عبر الجغبوب لتصل إلى أوجلة في عشرة أيام، وطريق آخر، يبدو مباشراً، يعبر الرملة ويسمح بقطع المسافة، أكثر من 450 كيلومتراً، في ثمانية أيام. تلتقي الطرق المتجهة إلى برقة القادمة من القاهرة والإسكندرية – حيث تصل طريق قادمة من سنترية – في ذات الحمام (بضم الحاء) – الحمام (بفتح الحاء)، على بعد ستين كيلو متراً غرب الإسكندرية، ومن ذات الحمام يتم الوصول إلى برقة بسلك طريق الساحل – وتلتقي بالطرق القادمة من سنترية في رأس الكنائس في لوك (مرسي لك) – حيث كان يترك الساحل عند الخليج – العقبة لسلك طريق في الداخل. ومن برقة إلى ميناء برنيق مسيرة يومين⁽²⁾.

4.2.4. طرق القوافل مع بلاد جنوب الصحراء

كانت التجارة بين بلاد المغرب والسودان تتم عبر طرق تنطلق من الشمال، خاصة من المراكز التجارية لتعبر الصحراء وتصل إلى بلاد السودان، ومن هذه الطرق، طرق غير مباشرة للمناطق الليبية. فالطريق الذي ينطلق من تلمسان إلى سجلماسة أين كانت القافلة التي اجتاز معها ابن بطوطة الصحراء نحو مالي، فمرّت القافلة بسجلماسة، تغازي، إيولاتن، ثم مالي، وعند عودة ابن بطوطة سلك طريقاً مخالفاً عبر تمبكتو، كوكو، تكدا، الهقار، توات وسجلماسة. كما تفرعت طريق أخرى من سجلماسة/ وارتبط المغرب الأقصى بشبكة من الطرق نحو بلاد السودان إلى درعة ثم أودغشت إلى النيجر⁽³⁾.

كما كانت المناطق الليبية ترتبط هي الأخرى بطرق مباشرة نحو بلاد السودان، منها طريق أوجلة وداي، حيث يبدأ من برقة ويخترق واحات أوجلة وصحراء برداوة بليبيا، ويمر في شمال غرب تشاد حتى يصل إلى وداي، وتستغرق القافلة في هذا الطريق ذهاباً وإياباً بين ثمانية وعشرة أشهر.

كما كانت هناك طريق تربط طرابلس بممالك الهاوسا يمر عبر جبل نفوسة وغدامس وبينهما سبعة أيام متواصلة من السير، ثم تصل الطريق إلى غات، وبالإضافة إلى كون هذا الطريق تجارياً فهو طريق قوافل الحج، وعند التقاء القوافل في غات تتجه عبر جانت إلى أغاديس، أين تلتقي القوافل التجارية الأتية من المغرب الأوسط والأقصى من خلال طريق توات، ومن هناك تواصل طريقها جنوباً، كما كانت هناك طريق طرابلس الكانم والبرنو عبر فزان، وطريق برقة الكانم عبر

⁽¹⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص 61.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 186.

⁽³⁾ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 670 – 680.

زويلة. فمن غات يتم الوصول إلى تادمكة مروراً بكوكو وتكددا والكانم وبين تادمكة وكوكو تسع مراحل، ويقول البكري: إن المسافة بين تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء، وبذلك تتوضح لنا الطريق هكذا: فمن غدامس تمر القوافل بغات ثم تتجه نحو تادمكة، تمر بتكددا ومنها إلى كوكو والكانم والعكس عند العودة لبلاد المغرب.

ويبدو أن الطريق الذي أنشأه ملك مالي علي (ت669هـ/1270م) من إمبراطوريته إلى شرق القارة حتى يصل إلى سواحل البحر الأحمر، قد ساهم في تحويل نسبة من المبادلات التجارية، التي كانت تتم مع بلاد المغرب إلى المناطق التي يمر عبرها هذا الطريق إلى شبه الجزيرة العربية، كما ساهمت الكشوفات الجغرافية أواخر القرن 9هـ/15م، في تراجع نشاط الطريق الصحراوي، حيث أصبح الكثير من التجار المغاربة يتجهون بسلعهم إلى موانئ المحيط الأطلسي لبيعها هناك للتجار الأوربيين مباشرة⁽¹⁾.

5.2.4. طرق قوافل الحج

من الثابت لنا أن الحجاج كان لهم دور مميز في عملية النشاط التجاري بين منطقتي المشرق والمغرب الإسلاميين، ويتضح هذا جلياً من خلال ما سجله العياشي أثناء مرافقته لركب الحجاج حيث ذكر أن الحجاج كانوا يخرجون من أنحاء كثيرة من المغرب قاصدين مكة لأداء فريضة الحج ثم بعد ذلك يواصلون سيرهم إلى مدينة صفاقس لينضم إليهم عدد آخر من الحجيج، ومن صفاقس يتجه هذا الركب شرقاً عن طريق الساحل ليمر بمحطات تعرف بمحطات تجمع الحجاج ليصل إلى مدينة طرابلس⁽²⁾، حيث يمكث فيها الحجاج مدة شهر تقريباً يأخذون فيها قسطاً من الراحة، ويستعدون لقطع المسافة الطويلة من طرابلس إلى برقة بشرائهم لما يحتاجونه من الإبل والقرب والزاد الذي يسد حاجتهم لمدة ثلاثة أشهر قادمة إلى أن يصلوا إلى مصر، وتشهد مدينة طرابلس أثناء وجودهم حركة تجارية من خلال عمليات البيع والشراء والمقايضة التي تتم فيها⁽³⁾.

وبعد مرور شهر على إقامة هذا الركب بطرابلس يبدأ رحلته من جديد ليمر على كثير من المدن والمناطق الساحلية والتي منها تاجوراء وسدرات العشاء ووادي الرمل ولبدة وتارغلات وزليتن ومصراته والهايشة وقصور حسان وسرت والشقة واليهودية وقصر العطش وأم الغرائيق والمنعم ثم يتجه إلى سلوق، ومنها ينحرف جنوباً ليسلك الركب منطقة السروال التي تمتد إلى الجنوب من الجبل الأخضر حيث يمر على بعض المناطق الداخلية منها الخروبة والمخيلي ثم يرجع الطريق مرة أخرى ليحاذي الساحل ماراً على التميمي وعين الغزالة ودفنة وبقبق إلى أن يصل إلى العقبة

⁽¹⁾ البكري، المسالك والممالك، ص89، 99، 182؛ ابوالفدا، تقويم البلدان، ص143؛ على حامد خليفة، المراكز التجارية الليبية، ص71؛ جوان جوزيف، الاسلام في ممالك وأميراطوريات إفريقيا السوداء، ترجمة: مختار السويقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1984م، ص71؛ ربه عطا محمد على شحاته، اليهود في بلاد المغرب الاقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، دار الكلمة ودار الشفيق، ط1، دمشق، سورية، 1999م، ص154.

⁽²⁾ العياشي، رحلة العياشي، ص59.

⁽³⁾ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1964، ص597.

ومنها يتوجه إلى الاسكندرية⁽¹⁾، ثم يسير قاصداً ساحل البحر الأحمر ليركب الحجاج المراكب التي تنقلهم إلى ميناء جدة.

وفي حقيقة الأمر أن الحجاج المغاربة كانوا إلى جانب أداء فريضة الحج يقومون بنقل كل ما يستطيعون من سلع وبضائع الديار الليبية إلى بلاد المشرق ويعودون إلى مصر وبلاد المغرب بسلع المشرق، ويذكر العياشي أنه كان يوجد مقطع للكبريت في آبار كثيرة بمنطقة أم الغرائيق يحمل منه ركب الحجاج كميات إلى طرابلس ومصر في كل سنة أحمال كثيرة وذلك لأن العرب الذين يمتنون مهنة الكراء من مصر إلى طرابلس للحجاج إذا رجعوا نقلوا ما نقص من حمولتهم على إبلهم كبريتاً⁽²⁾، ومن المؤكد أن حجاج المغرب كانوا قد سلكوا الطريق الصحراوي الذي يتجه شرقاً إلى فزان ليمر بالطريق التجارية الرئيسية التي تعبر أوجله إلى مصر⁽³⁾، أيضاً توجد الطريق التي عرفت بطريق الحج والتي تنطلق من تمبكتو وجاو مروراً بالإبير لتجتمع بعد بطريق السودان القادمة من المنطقة الشمالية في بلاد الهوسا لتتجه شمالاً إلى غات ومن غات إلى مرزق بفزان⁽⁴⁾.

كذلك هناك طريق آخر يخرج من المناطق المحيطة ببحيرة تشاد ليمر بيلما ثم يلتقي مع الطريق التي ذكرناها سابقاً في مرزق وفي أقصى الشرق توجد طريق أخرى تربط وادي بفزان⁽⁵⁾.

من خلال ما تم استعراضه حول هذا الموضوع يتضح لنا أن كل الدلائل التاريخية قد سجلت لنا بأن ليبيا كانت ممراً هاماً لركب الحجاج المغاربة وسجلت كذلك الصحراء الليبية بصفة عامة وفزان بصفة خاصة. ومنذ فجر الإسلام كانت تمثل محطات هامة لانطلاق ومرور قوافل الحج القادمة من السودان الغربي والأوسط وبلاد المغرب، فمنذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي كان ينطلق ركباً سنوياً للحج من فزان⁽⁶⁾، وقد أشار الجغرافي اليعقوبي الذي عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بأن أهالي زويلة بفزان كانوا مسلمين يواظبون على أداء مناسك الحج⁽⁷⁾، ومع استمرار وتواصل هذه الرحلات سنوياً إلى الأراضي المقدسة فقد شهدت تطوراً من حيث النظام والاستعداد لها فإن سفر الحجاج من مراكش وفاس وسجلماسة ومناطق الصحراء الأخرى، وكذلك بلاد السودان الغربي والأوسط أخذ طابعاً مهماً وحدثاً دينياً ومناسبة اجتماعية كبيرة، وفي نفس الوقت موسماً تجارياً يستعد له التجار والحجاج والمسافرون من كل نواحي الغرب الإسلامي وجنوب الصحراء ويلتقون لأجله في مرزق وتستعد له فزان استعداداً منقطع النظير عند مرور الحجاج بها في طريقهم إلى مكة، وأثناء عودتهم من أداء فريضة الحج⁽⁸⁾.

(1) العياشي، رحلة العياشي، ص 59 ، 60.

(2) العياشي، رحلة العياشي، ص 103 ، 104.

(3) المصدر نفسه، ص 48.

(4) الزاوي، تاريخ الفتح، ص 107 ، 108.

(5) سيرتوماس ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام، تحقيق: إبراهيم حسن، عبد الحميد عابدين، القاهرة، 1957، ص 390؛ عمر عبدالرزاق النقر، الحج في غرب أفريقيا (دراسة تاريخية بإشادة خاصة بالقرن التاسع عشر)، ترجمة: صافية صالح عيسى، جامعة الخرطوم، 1989، ص 163.

(6) مؤنس، فزان ودورها، ص 86 ، 87.

(7) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ص 22.

(8) حبيب وداعة الحسنواي ، الحج وأثره في دعم الصلات العربية- الإفريقية ودور فزان في تسهيل قوافل حجاج السودان الأوسط حتى القرن الثامن، أعمال ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي بين الأقطار على جانبي الصحراء، تقديم: عبد الحميد عبدالله، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998، ص 93.

6.2.4. خطوط التجارة البحرية

يعتبر محور مسالك البحر المتوسط هو المحور الأهم والرئيس للنشاط التجاري البحري لبلاد المغرب عامة، والمناطق الليبية على وجه الخصوص، بحكم الموقع الجغرافي لتلك المناطق التي تطل على هذا البحر في الأساس، والبحر المتوسط كان هو أول من تعامل معه المغاربة وغيرهم من التجار الأجانب بحكم الجغرافيا⁽¹⁾.

وقد تميز البحر المتوسط في تلك الفترة بالملاحة الساحلية القريبة من الشاطئ ومن خصائصها الانتقال من مرفأ إلى مرفأ ومن جزيرة إلى جزيرة دون الابتعاد عن الشاطئ كثيراً أو دون فقدان رؤية اليابسة بالعين المجردة لفترة طويلة⁽²⁾.

وكان الطريق الساحلي للضفة الجنوبية من البحر المتوسط أهم تلك الطرق في فترة البحث، وتتعدد نقط بداية هذا الطريق، إما من إشبيلية أو من سبتة وجزيرة طريف أو من ألمرية أو من مالقة، ثم بعد ذلك تسير السفن محاذية لسواحل بلاد المغرب. فيمر على طنجة وسبتة بالمغرب الأقصى ثم مدينة وهران ومنها إلى تنس، ثم إلى بجاية "ومنها إلى بونة، ثم إلى تونس ومنها إلى سوسة ثم إلى المهديّة ومن المهديّة يمر هذا الطريق بسلسلة من الموانئ من أهمها صفاقس وقابس وطرابلس وبرقة وطبرق لينتهي بالإسكندرية⁽³⁾؛ وكانت مدينة الإسكندرية بداية الرحلة نحو سواحل بلاد الشام خاصة موانئ عكا وصور وصيدا. أو التوقف بها للتوجه بعد ذلك إلى سواحل البحر الأحمر⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ وصف البحر المتوسط في مصادر تلك الفترة: كان يسمى البحر الرومي آنذاك، ويبدأ في خليج متضابق في عرض اثني عشر ميلاً أو نحوها ما بين طنجة وطريف لذلك يسمى بحر الزقاق في تلك المنطقة، ثم يذهب مشرقاً ويفتح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في الشرق عند بلاد الشام، وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند المضيق ثم إفريقية ثم برقة إلى الإسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ثم البنادقة ثم روما ثم إفريقيا ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية ومبروقة وسردانية ودانية، وطول هذا البحر الشامي من ابتدائه إلى حيث انتهؤه ألف فرسخ ومائة وستة وثلاثون فرسخاً، انظر: ابن حوقل، صورة الارض، ص 20، 21، 174، 175، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 10، 11، الزهري، كتاب الجغرافيا، ص 3، 4، ابن خلدون: المقدمة، ص 33.

⁽²⁾ المقري، أزهار الرياض، ص 89؛ سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ص 27.

⁽³⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 310، 311؛ حسن خضير أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص 99، 100.

⁽⁴⁾ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 12، 17، 18، 32، 33، 40؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 322، 365.

هناك بعض الآراء التي ترى أن هذا الطريق امتد بالتجارة المغاربة حتى عبر بهم عن طريق المحيط الأطلنطي إلى بلاد السودان الغربي، فيظهر في مخطوط يرجع إلي ما قبل عام 594 هـ / 1198م المنطقة الشمالية من خليج غينيا؛ فهل اتخذ المغاربة في القرن السادس الهجري طريقاً بحرياً إلى السودان الغربي؟ يبدو أنه من الصعوبة بمكان القبول بمثل هذا الرأي بالرغم من الصعوبات التي واجهت المغاربة في صحراء صنهاجة، ومحاولات المغاربة من قبل لاستكشاف المحيط الأطلسي، وذلك لأن القنباص لم تستخدم في المحيط الأطلسي حتى ذلك الحين. وربما عرف المغاربة خليج غينيا بالواسطة، ولعلمهم كانوا يركبون المراكب من أوليل قرب نهر السنغال إلي سلي التي تقع في الداخل، فربما عرفوا شيئاً عن ذلك الخليج من التجار السودانيين الذين يمثلون حلقة الوصل بين المغاربة والمناطق الاستوائية، انظر، القرطبي، الروض المعطار، ص 16، 18؛ ابن خلدون، العبر ج1، ص 54؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 212.

وكان لصعوبة النقل البري في بلاد المغرب الأدنى نتيجة للغزو الهلالي، جعلت النقل البحري عبر هذا الطريق أيسر، حيث ارتبطت المدن الساحلية فيما بينها بهذا الطريق البحري خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بيد أن احتلال النورمان لسواحل بني باديس قد أخلّ بانتظام استخدام هذا الطريق، ولم يعد إليه الأمن إلا مع مجيء الموحدين، فارتبطت المدن الساحلية بحرا من طرابلس إلى تنس⁽¹⁾.

وكان التجار يفضلون هذا الطريق عن الطريق البري المحاذي له نظراً لعامل السرعة. حيث يرى البعض أن السفن التجارية لجأت إلى الطرق الساحلية، نظراً لطبيعة شواطئ البحر المتوسط حيث تقترب المرافئ والجزر من بعضها البعض ولتأمين الحيطنة المناسبة عندما تشتد الرياح وتسوء الأحوال الجوية وللإفلات بسهولة من قبضة القراصنة إلى البر. بالإضافة إلى أن هذه الطرق توفر سهولة التبضع وتبادل السلع بين المدن وبعضها⁽²⁾.

وساعد التحول نحو السواحل على ظهور مراكز التجارة فيه وأصبحت ملتقى الطرق البحرية مثل صفاقس والمهدية في الدولة الزييرية وبجاية في الدولة الحمادية؛ غير أن الغزو النورماني قضى على وضعي صفاقس والمهدية واحتلت مكاتيهما سوسة وتونس. وظلت هاتان المدينتان - بالإضافة إلى بجاية- مراكز للطرق الداخلية والخارجية في العصر الموحد، ويذكر البكري أن رحلة من المهدية إلى مدينة الإسكندرية كانت تمر على أكثر من خمسين مرسى حتى تصل إلى مرساها المقصود⁽³⁾.

من جانب آخر فمنذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كثر استعمال صقلية كنقطة مركزية لانطلاق المسالك البحرية عبر حوض البحر المتوسط عامة⁽⁴⁾. فقد كان السفر بين مصر والمغرب الأدنى عامة يتطلب أحياناً المرور عبر صقلية خاصة وقت الحرب، فبعد استيلاء صاحب صقلية علي جزيرة جربة، حلّ بمسلمي جربة وكذلك بجاليته اليهودية أذي كبير، حيث يذكر تاجر يهودي في رسالة بعث بها من صقلية إلى أخيه في مصر، حوالي عام 535هـ/ 1140م: "وصلت إلى صقلية مع أسرتي قادمًا من تونس، بسبب الويلات المفزعة التي حلت بأفريقية، واعتزم السفر إلى مصر عن طريق صقلية، إذ لم يعد بالإمكان السفر مباشرة من أفريقية إلى مصر"⁽⁵⁾.

(1) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص20؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ص85، 86.

(2) سمير علي الخادم، الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، ص28.

(3) البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص20، 85؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص130؛ الادريسي، نزهة المشتاق، ص107، 108؛ عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعيد العريان، محمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949م، ص351.

(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص279، 284-295، 317؛ أوليفيا ريمي كونستبل، التجارة والتجار في الاندلس، ص77، 78.

(5) رسالة من أبي سعيد بن أبي الحسن الأزراري في يلزم إلى أخيه الأكبر أبي البركات في الفسطاط، ص325، 326.

ويرى البعض أن السفر بين مدينة وأخرى داخل إقليم المغرب الأدنى نفسه كان يتطلب أحياناً المرور عبر صقلية لاسيما وقت الاضطرابات، ولنتقل قضية تؤيد هذا القول: ففي حوالي عام 534هـ/1140م، أراد يهودي ايطالي كان في رحلة عمل في طرابلس بليبيا، أن يسافر إلى قابس في تونس المجاورة. فنصحه أصدقاؤه بأن يُبحر على ظهر سفينة كبيرة مبحرة إلى صقلية، والتي تقطع الرحلة في حالة تحسن الريح في ثمانية أيام دون الرسو في أي شاطئ. ثم يتحول إلى سفينة أخرى كبيرة متجهة إلى ميناء المهديّة، ومن هناك يحاول أن يصل إلى البلدة التي يريدّها. ولقد كان ذلك الطريق بالطبع طريقاً غير طبيعي، لكن الظروف البحرية في ذلك الوقت لم تكن مأمونة أيضاً، ولذلك سافر الرجل فعلاً في النهاية براً⁽¹⁾. وأحياناً كان سفر السفن بين جنوة ومدن المغرب الساحلية وخاصة مدن المغرب الأدنى ذهاباً وإياباً عبر الرسو أولاً في صقلية، وأحياناً يتم السفر ذهاباً وإياباً إلى إحدى المدن المغربية المعينة: طرابلس وتونس وسبتة وسلا مباشراً⁽²⁾.

كما كان هناك رحلات تجارية مباشرة بين المدن الإيطالية ومدن المناطق الليبية، ومن تلك الرحلات التي سُجلت بين المدن الإيطالية وخاصة جنوة، نجد أن عدداً من الرحلات سُجلت إلى ميناء طرابلس أعوام 551هـ/1157م و554هـ/1160م و559هـ/1164م⁽³⁾.

إذن من خلال ما سبق اتضح كيف كانت هناك شبكة من المسالك والطرق التي سهلت النشاط التجاري البري للمناطق الليبية، سواء داخل المناطق الليبية نفسها، أو خارجها، وقد تنوعت تلك الطرق ما بين طرق رئيسية وطرق أخرى فرعية. ومن هذه الشبكة الكبيرة من الطرق البرية والبحرية – والتي ربطت مدن الساحل بمدن الصحراء – ظهرت كثير منها كمراكز تجارية مهمة، بحكم وجود العديد من الأسواق والمراسي فيها، مما جعلها تحمل الثقل الأساسي لقيام رحلات التجار عبرها، وبالتالي فقد اشتهرت هذه المراكز دون غيرها كمنافذ رئيسة لهذا التواصل التجاري.

⁽¹⁾ جواتين س د ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، ترجمة ، عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط1 1980م ، ص 217، 218.

⁽²⁾ عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج6، ص222.

⁽³⁾ عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج6، ص222.

الفصل الخامس

المنافذ والمحطات التجارية الليبية

1.5. المحطات التجارية الداخلية

بدأ التبادل التجاري يأخذ نشاطه الحقيقي بعد قيام المراكز التجارية على جانبي الصحراء الليبية، وقد كان في بداية الأمر يتم بين السكان المحليين المستقرين على أطراف الصحراء والبدو الرحل الذين يجوبون الصحراء⁽¹⁾، ثم اتسعت عمليات التبادل بصورة منتظمة عندما استطاع الفينيقيون اجتياز الصحراء، ونقل سلع ومنتجات حوض البحر المتوسط إلى هذه النواحي، والتي كان لها فيما بعد الفضل في ازدياد ونمو الحركة التجارية بالمدن والمراكز الواقعة على طرفي الصحراء الليبية الشمالية والجنوبية ووسطها⁽²⁾.

لقد أغرت هذه المراكز بعض الجماعات من المناطق المجاورة للاستقرار فيها لتوفر الظروف الجيدة للكسب، وامتدحان الحرف اليدوية لتقديم الخدمات أثناء استقبال القوافل التجارية القادمة، والمغادرة، وانخرطت مجموعات كبيرة من أهالي وسكان هذه المدن والمراكز بعمليات التجارة الداخلية والخارجية⁽³⁾، وقد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة القوافل التي وصلت إلى عديد المناطق والمدن في كل أنحاء الأراضي الليبية، ومنها انطلقت إلى مناطق المغرب والمشرق الإسلاميين، ودول وممالك السودان الغربي والأوسط، بل تعدتها للاتصال بطرق التجارة العالمية البرية منها والبحرية⁽⁴⁾، وفيما يلي عرض لأهم المنافذ والمحطات التجارية بليبيا .

1.1.5. طرابلس

تعد مدينة طرابلس من أهم المدن التجارية التي تقع على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط منذ زمن بعيد، حيث تكونت كمحطة تجارية أسسها الفينيقيون قبل الميلاد بألف سنة⁽⁵⁾، ومع مرور الزمن أصبحت مركزاً تجارياً ينزل إليه الفينيقيون لمبادلة بضائعهم وسلعهم مع السكان المحليين، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى أن أضحت في بداية القرن السادس قبل الميلاد من المدن التجارية الهامة التي تقع في الغرب الليبي إلى جانب صيراته ولبدة.

وزادت أهمية طرابلس بعد أن استطاعت السيطرة على تجارة أواسط أفريقيا، وذلك بأن ارتبطت

(1) سعيد على حامد ، تاريخ ومعالم العمران في ليبيا ، ص 114 .

(2) يحيى بوعزيز ، طريق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوربيون خلال القرن التاسع عشر (البضائع -- العملات -- الأسعار -- الأساليب التجارية) ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19 م ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد ، 1984م ، ص 132 .

(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 59 .

(4) التنكيك، مملكة سنغاي الإسلامية ، ص 119 .

(5) محمد بيومي مهران ، بلاد الشام، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1990، ص 177 .

بأهم طرق القوافل التي كانت تصل حوض البحر المتوسط بتلك المناطق جنوب الصحراء، وكانت هذه الطريق تبدأ من طرابلس إلى غريان ومنها إلى برغن فأوباري وبعد ذلك جرمة، وقد اشتهرت باسم طريق (أكلة اللوتس)⁽¹⁾، والملاحظ هنا أن الفينيقيين لم يكن من باب الصدفة اختيارهم لموقع مدينة طرابلس، وأن يؤسسوا عليها مراكزهم التجارية فيما يدعى (بالامبوريا)⁽²⁾ في هذه الفجوة بين برقة والمغرب حيث يلامس البحر الأبيض المتوسط الصحراء مباشرة دونما فاصل بينهما⁽³⁾.

وبعد مرور قرون عدة، وبالتحديد في القرن السابع الميلادي دخلت الأراضي الليبية بما فيها طرابلس فترة جديدة تمثلت في الفتح العربي الإسلامي لكامل الأراضي والأقاليم الليبية، وأخذت المدينة تلعب أدواراً تجارية أسهمت في الازدهار الاقتصادي الذي شهدته الدولة الإسلامية حيث سجل لنا الرحالة والجغرافيون انطباعاتهم عما كان يجري في ذلك الوقت، فهذا ابن حوقل يصف طرابلس في كتابه صورة الأرض في القرن الرابع الهجري بأنها: "... خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق، وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فقلل السلطان بعضها إلى داخل السور"⁽⁴⁾، أما البكري صاحب المسالك والممالك فيصفها بقوله: "ولها أسواق حافلة جامعة"⁽⁵⁾، وهذا الوصف كان مختصراً ودقيقاً، وبيننا بأن المدينة كانت بها أسواق تتوفر بها كل السلع والبضائع سواء كانت محلية أو وافدة، وفي نفس الوقت تشهد رواجاً في عمليتي البيع والشراء، أما الإدريسي فيقول إنها: "متقنة الأسواق، ولها صناعات وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات"⁽⁶⁾، وهذا دليل آخر على أن المدينة كان لها أسواق ذات صيت ذائع، وتجارها كانت رائجة وبها صناعات كثيرة تقوم على تصديرها إلى باقي المدن الليبية والبلدان المجاورة، وفي نفس الوقت تشهد رخاءً وازدهاراً. أما صاحب كتاب الاستبصار فيصف أسواق المدينة في القرن السادس الهجري/القرن الثاني عشر الميلادي بقوله: "وبها أسواق حافلة... وأكثر أهلها تجار يسافرون براً وبحراً وبهم سمح في تجارتهم وهم أحسن الناس معاملة"⁽⁷⁾.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن المدينة شهدت في القرون الأولى للهجرة فترة من الرخاء والازدهار، واحتوت على أسواق عامرة، ومع استمرار هذا الازدهار قامت حركة تجارية بينها وبين السواحل الأوروبية وأن سفن النصارى كانت تتردد عليها محملة بالسلع والبضائع التي ينقد التجار ثمنها⁽⁸⁾، ومن كثرة الرواج التجاري والازدهار زادت خيراتها حتى أن أهلها عرفوا بسماحة المعاملة الزائدة، وخاصة مع الحجاج الذين كانوا يمرون عليها، وذلك بتزويدهم بما كانوا يحتاجونه من زاد ومؤون ودواب، ويبدو أن أسواق هذه المدينة بمختلف أصنافها وتخصصاتها قد أصبحت مع مرور الوقت من أهم محطات طرق القوافل التي تمر بين الشرق والغرب بما في ذلك

(1) البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، ص 320.

(2) الامبوريا: هو اسم يوناني الذي عرفت به مدن المستعمرات الفينيقية الساحلية في الفجوة بين برقة والمغرب وهي (ليدة وأويا وصيراته)؛ الكيب، مدينة طرابلس، ص 14.

(3) ليبيا كما يراها تونيني: ترجمة علي فهمي خشم، مقال نشر بمجلة الرواد، العدد الثاني عشر، نوفمبر، 1965، ص 35.

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ص 71، 72.

(5) البكري، المسالك والممالك، ص 67.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 60.

(7) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 144.

(8) خليفة التليسي، حكاية مدينة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (د.ت)، ص 245.

قوافل الحجاج التي كانت تغطي نشاطاً غير عادي للحركة التجارية بالمدينة حيث تكثرت عملية البيع والشراء والمقايضة⁽¹⁾، وقد اشتهر سوق موقف الغنم الذي يعتبر من أقدم الأسواق بمدينة طرابلس وذكره أبو يحيى ابن مطروح (الذي عاش في بداية القرن السادس الهجري) بقصيدته التي تقول:

أوقفه عند باب البحر ضاحية أو باب هوارة أو موقف الغنم
أشهى إلى النفس من كسر الخليج دير الزجاج وشاطئ بركة⁽²⁾
وبذلك يتضح الدور الكبير الذي قدمته مدينة طرابلس باعتبارها أهم المنافذ التجارية الليبية بما احتوته من أسواق عامرة ومنظمة وبيع وبضائع شملت كل أصناف التجارات بحيث مكنتها من أن تجذب العديد من أجناس التجار العرب والفرس والنصارى واليهود إليها، والذين احترفوا تجارة القوافل الصحراوية بجميع أشكالها، والتي كانت طرابلس نقطة البداية للعديد من هذه الطرق سواء كانت الداخلية منها أو الخارجية التي عبرت الصحراء الكبرى لتصل إلى أقاصي المراكز التجارية الواقعة جنوب الصحراء وغربها ووسطها وشرقها .

2.1.5. فزان

اكتسبت فزان أهمية اقتصادية كبيرة بسبب موقعها الجغرافي الهام حيث تقع على مفترق الطرق المتجهة إلى بلاد السودان الغربي، وبرزت أهمية فزان الاقتصادية منذ قرون عديدة حيث حظيت باهتمام الكتاب اليونان والرومان، وارتبط ذكرها بقبائل الجرامنت الليبية الذين اتخذوا من جزمة عاصمة لهم. وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن فزان قد اشتق اسمها من كلمة "تافسانا" التي تعني حافة لوجود حواف كثيرة تميز بها سطح فزان⁽³⁾، وهذه الكلمة ترجع إلى الأصل الطارقي وعرفت هذه المدينة أيضاً باسم فزانيا (Phasania)، وظل اسم فزان هو السائد خلال الفتوحات الإسلامية واستمر مرتبطاً بها إلى يومنا هذا⁽⁴⁾.

وقد احتلت فزان مكانتها التجارية بسبب وقوعها على طرق القوافل المتجهة إلى السودان الغربي والقادمة منه⁽⁵⁾، وكانت في نفس الوقت حلقة الوصل وملتقى العديد من طرق القوافل التجارية التي ربطتها ببلاد المشرق العربي والشمال الإفريقي وبلاد السودان الغربي والأوسط وبقية بلدان المغرب، وكان من أهم وأبرز هذه الطرق طريق طرابلس كوار وبرنو وطريق غدامس غات⁽⁶⁾، ونتيجة لتوفر منتجات المغرب الإسلامي والمشرق بها جعل منها مدينة عامرة بحركة البيع والشراء والتصدير إلى مناطق جنوب الصحراء والعكس⁽⁷⁾.

واعتمدت فزان بشكل كبير على طرق القوافل التجارية التي تمر بها، فقد كانت ترتبط شمالاً بطرابلس وجنوباً ببلاد الهوسا وبرنو وبزويلة والقاهرة شرقاً بواسطة الطريق الصحراوي وغرباً عبر

(1) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 579.

(2) التيجاني، رحلة التجاني ، ص 245.

(3) جمال الديناصوري ، جغرافية فزان ، بنغازي ، 1967م ، ص 11.

(4) ناجي، تاريخ طرابلس الغرب ، ص 106.

(5) جمال زكريا قاسم ، كتاب وصف إفريقيا وتاريخها للحسن محمد الوزان، حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 1968م، مجلد 11، ص 292.

(6) مصطفى خوجة بلقاسم المصري ، تاريخ فزان، تحقيق: حبيب وداعة الحسناوي، طرابلس، 1979، ص 18.

(7) عبدالقادر جامي ، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمة: محمد الأسطى، قدمه: على مصطفى المصراطي، دار المصراطي للطباعة والنشر والتوزيع، 1974، ص 93.

غدامس ببلاد المغرب الأدنى والأوسط، وارتبطت أيضاً عن طريق غات بالمغرب الأقصى وعين صالح بالمغرب الأوسط⁽¹⁾.

واشتهرت بفزان واحة سبها التي كانت أهلها بالسكان في حقبة تاريخية مختلفة أيضاً وواحة الجفرة المتمثلة في مدن سوكنة وزلة وهون وودان والتي شهدت استقراراً سكانياً⁽²⁾، وفي هذا الصدد نجد أن الحسن الوزان أكد على اتصال فزان بالسودان الغربي، وأنها مركز تجاري هام تمر عليه القوافل التجارية المتجهة إلى بلاد السودان الغربي ووصفها: "بأنها منطقة كبيرة، تقوم فيها قصورا ضخمة وقرى كبيرة، وكلها مأهولة بأناس أغنياء بالمال، وبحدائق النخيل، وهم واقعون فعلا على تخوم أغادس وصحراء ليبيا التي تتاخم مصر"⁽³⁾.

فقد كانت التجارة فيها رائجة ونشطة وارتبطت بعلاقات طيبة مع جيرانها والوافدين عليها بحيث أصبحت كل منتوجات طرابلس وتونس ومصر، سواء منها الزراعية أو الصناعية التي تصدر إلى مناطق جنوب الصحراء، وكذلك القوافل التي كانت عائدة من الجنوب إلى الشمال وحاملة المصنوعات ومحصولات الجنوب تمر كلها على فزان⁽⁴⁾، كذلك نجد أن طرق التجارة التي كانت قائمة بين تمبكتو ومصر تمر على فزان عن طريق أوغله وجالو وسبها وغات⁽⁵⁾، وقد أهل الموقع الجغرافي لفزان في مفترق طرق التجارة بأن تلعب دوراً هاماً في عملية الاتصال والتبادل التجاري وتكوين صلات تجارية طيبة بين الرحلات المغادرة والواصلية وقام سكان واحات هذا المركز بدور كبير وإيجابي في استقبال القوافل وتقديم كل ما كانت تحتاجه من التزود بالمياه والخدمات الأخرى والإرشاد عند المغادرة⁽⁶⁾.

وهنا يجب أن لا يفوتنا بأن نشير إلى كيفية التعامل التجاري التي كان متعارفاً عليها بفزان وغدامس وبقية المراكز التجارية الليبية الأخرى حيث كانت تتم على أساس ميثاق الذهب وأجزائه، وكان الحجاج الوافدون من تمبكتو وغرب أفريقيا وجنوب الجزائر، وقوافل التجار القاصدين مصر والديار المقدسة يتقاضون بالذهب مقابل ما يستهلكونه أثناء إقامتهم وشراء ما يحتاجونه لمواصلية رحلتهم أثناء مرورهم بواحات فزان ذهاباً وإياباً⁽⁷⁾.

وبهذا يمكننا القول بأن فزان كانت مركزاً تجارياً عامراً بالتجار والسلع والبضائع التجارية بمختلف أنواعها مما جعلها تلعب دوراً نشطاً في الحركة التجارية فيما بين جانبي الصحراء الكبرى شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً رابطة بذلك كل المراكز التي كانت معروفة في تلك الفترة.

(1) فوليان كولا، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا، ترجمة: عبدالقادر المحيشي، طرابلس، 1988، ص 72.
(2) محمد المدني الحضيري، الطريق من طرابلس إلى فزان، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، طرابلس، 1979م، ص 99.

(3) الوزان، وصف أفريقيا، ص 516، 517.
(4) إبراهيم فخار، تجارة القوافل في العصور الوسطى ودور الليبيين التجاري في حضارة الصحراء الكبرى، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن (19)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث العربية بغداد، 1984، ص 93.

(5) جامي، من طرابلس الغرب، ص 93.

(6) فخار، تجارة القوافل، ص 93، 94.

(7) جامي، من طرابلس الغرب، ص 93.

3.1.5. غدامس

تقع على الحافة الغربية للحمادة الحمراء بين خطي عرض 30 شمالاً وطول 9.16 شرقاً عند نقطة التقاء الحدود الليبية مع الجزائر وتونس⁽¹⁾، وتعد غدامس من المدن الليبية التي لها تاريخ ضارب في القدم، ويرجع هذا التاريخ إلى العصرين الفينيقي والروماني حيث كانت حصناً تجارياً حريباً لروما على طريق جزمة جنوباً⁽²⁾، واعتبرت منذ التاريخ القديم إحدى أهم المحطات التجارية الصحراوية ومن أشهر أسمائها سيداموس "Cydamus" أو كيدامي "Kedame"، وتعود شهرتها إلى كونها بوابة السودان للتجار الذين يتوجهون إلى غانة، وتعتبر فترة القرن العاشر من أهم الفترات التي ازدهرت فيها التجارة مع بلاد السودان، خاصة عندما اتصلت بوابتها بالطريق الذي ربط طرابلس وشرس، وبلاد التكرور، وما زالت هذه الطرقات توضح أن غدامس كانت تربط فعلاً الجزء الشرقي من المغرب ببلاد السودان، ومن آثار ذلك الطريق الذي مازال يحمل إلى يومنا هذا اسم طريق السودان والذي يربط بين شروس وخدامس، وقد عرفها المؤرخ الحميري بأن "خدامس في الصحراء على سبعة أيام من جبل نفوسة، وهي مدينة لطيفة قديمة أزلية في الإسلام وإليها ينسب الجدل الغدامسي وبها دواميس وكهوف كانت من بناء الأولين، وفيها غرائب من البناء والأزاج المعقودة تحت الأرض ما يحير الناظر فيها إذا تأملها تبين له أنها آثار ملوك سالفة وأمم دارسة، وأن تلك الأرض لم تكن صحراء وأنها كانت حصينة عامرة وأكثر طعامهم التمرة والكمأة، وتسمى عندهم الترفاس، وتعظم الكمأة في تلك البلاد حتى يتخذ اليرابيع والأرانب فيها أجحاراً ومن غدامس يدخل إلى تادمكة وغيرها من بلاد السودان واحتلها بربر مسلمون وملثمون على عادة بربر الصحراء في لمتونة ومسوفة وغلامهم"⁽³⁾.

أما ابن خلدون يقول "وفي حمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني"⁽⁴⁾، ودخل المسلمون غدامس فاتحين سنة 51هـ/671م بقيادة عقبة بن نافع في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان⁽⁵⁾، ومنذ القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي ساد المذهب الإباضي في غدامس ولعبت دوراً مهماً في تاريخ العلاقات التجارية فقد ربطها التجار الإباضية بنشاطهم الواسع⁽⁶⁾، وفي ذات الوقت أسهمت بفاعلية كبيرة في تنشيط تجارة القوافل عبر الصحراء⁽⁷⁾، فصارت محطة في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى بلاد السودان، وتتفرع منها عادة طرق تجارية وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر لتجتمع فيها ثم تنطلق مرة أخرى متجهة غرباً عبر توات إلى تمبكتو⁽⁸⁾، ويرجع الفضل إلى غدامس في الدور الكبير الذي قامت به في عملية انتعاش

(1) البرغوتي، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور، ص 140.

(2) المرجع نفسه، ص 142.

(3) الحميري، المصدر السابق، ص 79، 80؛ LEWICKI(Tadeusz), <<Le role du Sahara et des sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud >> in <<Histoire Generale de L'Afrique>> vol. 3, L'Afrique du VII siècle Edicef, UNESCO, 1997, P312.

(4) ابن خلدون المقدمة، ص 134.

(5) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص 131، 132.

(6) محمد سليمان ايوب، مختصر تاريخ فزان، 1967، ص 192.

(7) ابن سعيد، بسط الأرض، ص 61؛ التكتيك، مملكة سنغاي الإسلامية، ص 130.

(8) الزاوي، تاريخ الفتح العربي، ص 78.

التبادل التجاري ورواجه بين جنوب الصحراء وشمالها مما شجع أهلها على بناء الأسواق التي احتوت على الكثير من السلع والبضائع التجارية المحلية أهمها الملابس الصوفية ودباغة الجلود التي أصبحت من أجود الدباغ لا يفوقها شيء في الجودة حتى يقال كأنها ثياب الخبز في النعومة والإشراق⁽¹⁾، ومن المحتمل أن تكون قد قامت على توفر هذه الجلود المميزة صناعات محلية كالأحذية والحقائب وصناعة السروج وبعض الأدوات الأخرى التي تستخدم في الزينة. وبالإضافة إلى ما كان متوفراً بأسواق غدامس من منتجات محلية، وجدت بالمدينة سلع كثيرة من بلدان أخرى حملها التجار للاتجار فيها.

وقد كان للتجار الليبيين من غدامس وطرابلس وأوجله وفزان وجبل نفوسة وزويلة مكانة مرموقة في مدينة تمبكتو وصلوا إليها نظير ما قاموا به من دور تجاري هام حيث تمتعت الجالية الغدامسية بمكانة ونفوذ كبيرين، وأنشأت حياً خاصاً بها اعتبر من أرقى أحياء المدينة وهذا يعود إلى الدور التجاري المهم الذي قام به أفراد هذه الجالية⁽²⁾، وتشير بعض الوثائق التجارية التي تم اكتشافها في مدينة تمبكتو أن الغدامسين كان لهم نصيب كبير في التجارة وقد سيطروا عليها سيطرة تامة، فالتاجر الغدامسي في العادة كان مقره الرئيسي في تمبكتو وله ممثل في الشمال بطرابلس وغماس وفي بعض الأحيان له من يمثله بتونس⁽³⁾.

ويسجل لنا الجغرافيين والمؤرخين والرحالة، بأن غدامس كانت مدينة كبيرة كثيرة النخيل والخيرات وعامرة بالسكان قد شكلت إلى جانب غيرها من المراكز التجارية الواقعة في الواحات الليبية الأخرى مثل أوجله وزويلة وفزان محطة تجتمع فيها القوافل، ثم تنطلق من جديد إلى مناطق مختلفة في الداخل والخارج، لتبادل السلع والبضائع والمنتجات الزراعية والصناعية⁽⁴⁾.

هذا ما يدل دلالة واضحة على أن المدن الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة والمؤرخين والتي عرفت في فترة العصور تختلف تماماً عن تلك المدن التي نراها اليوم في كل من العرق الشرقي الكبير أو العرق الغربي الكبير، والتي تؤكد أن تغييراً كبيراً قد طرأ على طبيعة الصحراء وإلا كيف يمكن أن نتصور مدينة مثل غدامس الواقعة في الصحراء بمثل هذا الأزدهار، واهتمام التجار بها حتى ولو أنها كانت تمثل بوابة السودان

لكن رغم قلة المعلومات التي تحصلت عليها، فأنها تكفي لأستنتاج أن غدامس إحدى المحطات التجارية الصحراوية التي أستفادت من ذهب السودان الذي لم يحتكر من طرف مدن الغرب فقط.

(1) اليعقوبي، البلدان، ص 130.

(2) عبدالرحمن السعدى، تاريخ السودان، طبعة هوواس، انجي، 1898م، ص 21.

(3) التكنيك، مملكة سنغاي الإسلامية، ص 130، 131؛ بشير قاسم يوشع، غدامس ملامح وصور، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص 38.

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 372؛ مجهول، الاستبصار، ص 145، 146؛ اليعقوبي، البلدان، ص 345؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 132؛ ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق: محمد بن ناصر وإبراهيم فخار، بيروت، 1986م، ص 13؛ أحمد الياس حسين، طرق القوافل عبر الصحراء الإفريقية في المصادر العربية الفترة بين السابع والتاسع الهجري/ الثالث عشر والخامس عشر الميلادي، مجلة دراسات إفريقية، العدد الثالث، الخرطوم، 1987، ص 64.

4.1.5. زويلة⁽¹⁾

عرفت زويلة كمركز تجاري منذ بدايات القرن الرابع الميلادي⁽²⁾، غير أن شهرة مدينة جرمة قد غلبت عليها. وعندما فتح المسلمون المنطقة اتخذوا من زويلة مقراً للولاية قبل تأسيس مدينة القيروان وصارت قاعدة لنواحي فزان⁽³⁾.

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أسست قبيلة هواة بزويلة دولة بني الخطاب وهي التي سماها ابن خلدون "زويلة بن الخطاب"⁽⁴⁾، ولم تشتهر هذه المدينة بجلودها فحسب بل اشتهرت بتجارة الرقيق بحيث أصبحت مركزاً لهذه التجارة الوافدة من كوار وكانم كما كانت محطة رحال كل القوافل القادمة من طرابلس وجادو واجدايية وأوجله ودار فور وسنار غرب النيل الأزرق⁽⁵⁾، وبهذا نجد أن هذه القوافل التي كانت تقصد زويلة قد تخصصت في نقل العبيد والعاج لما كانت تدره من أرباح طائلة⁽⁶⁾، حيث غصت أسواقها بالعبيد الزواغيين إضافة إلى ريش النعام وجلد السباع⁽⁷⁾، ويلاحظ هنا أن طريق القوافل المصرية القادم عبر واحة سيوة ومن دار فور غرب النيل الأبيض كان يمثل بالنسبة للقوافل الليبية القاهرة زويلة، أكبر منافس لها في السوق الداخلي، وذلك لما كانت تحمله هذه القوافل لسلع وبضائع الشرق والتي لا تجد لها منافساً في أسواق كانم وكوار إلا البضائع الوافدة من الأندلس وفاس وتلمسان⁽⁸⁾.

أما الدروع البيضاء التي اشتهرت بوفرتها المنطقة الواقعة بين أوجله واجدايية والجلود التي عرفت بها زويلة لم تكن في الغالب البضاعة الرئيسية التي تدر أرباحاً على القوافل⁽⁹⁾، وهذا هو السبب الذي جعل القوافل المتصلة بزويلة في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تركز جل اهتمامها على تجارة العبيد، عكس ما كان يحدث للقوافل الليبية التي كانت تسلك طريق غدامس نحو السودان الأوسط والغربي، فقد اعتمدوا على أهمية الطريق التجاري من حيث تنوع البضائع والسلع وتعدد شبكات هذه الطريق التي تجمع القوافل من جميع مناطق بلاد المغرب⁽¹⁰⁾، وبهذا نستطيع القول بأن طريق القوافل الذي كان ينطلق من طرابلس بمحاذاة الحمادة الحمراء نحو غدامس هو أكثر أهمية من خط طرابلس مزدة زويلة ثم كانم، وهذا ما جعل زويلة بمثابة محطة لتجارة القوافل أكثر منها مركزاً تجارياً⁽¹¹⁾.

ويجب أن نشير إلى العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين الدولة الفاطمية بمصر وزويلة فإن الوزير الفاطمي بدر الجمال في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي أمر ببناء باب زويلة

(1) زويلة: وجدت مدينة أخرى تحمل نفس الاسم، وهي التي بناها عبدالله المهدي بالقرب من المهديّة، وعرفت باسم زويلة المغربية؛ الحموي، الروض المعطار، ج4، ص 419.

(2) أيوب، مختصر تاريخ فزان، ص 185.

(3) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص 262.

(4) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 204.

(5) إبراهيم فخار، تجارة القوافل في العصور الوسطى ودور الليبيين التجاري، ص 59.

(6) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 92.

(7) اليعقوبي، البلدان، ص 345؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 145؛ محمد علي ديبوز، المغرب الكبير، ص 38.

(8) حسين، الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها العرب، ص 89.

(9) اليعقوبي، البلدان، ص 345.

(10) مؤنس، فزان ودورها، ص 96.

(11) عباس، ليبيا في كتب التاريخ والسير، ص 86.

بالقاهرة⁽¹⁾، في إشارة إلى هذه العلاقات.

أما في عهد الدولة الأيوبية بمصر فقد تعرضت زويلة للتخريب من قبل قراقوش الذي استهدف المراكز الحيوية الليبية لتكون زويلة حسب ما ذكره ابن خلدون "معقلاً لصالح الدين يتحصن فيه من مطالبة نور الدين محمود زنكي"⁽²⁾، وقد تزامن مع هذا الهجوم الذي أثار سلباً على تجارة القوافل بالصحراء الليبية هجوم آخر شنه ابن غانية الميورقي على الواحات المغربية وصولاً إلى طرابلس ليلتقي فيها مع قراقوش⁽³⁾، وعندما عقد الموحدون اتفاقيات تجارية مع المدن الإيطالية هاجم ابن غانية المراكز التجارية في الواحات الليبية والتونسية مسيطراً بذلك على السواحل الليبية ومراكز التجارة الصحراوية المغربية⁽⁴⁾، ونتيجة لهذه الظروف التي تزامنت في وقت واحد هي التي جعلت زويلة لا تصمد أمام المنافسة بين القوى الوليدة ليتحول بذلك مركز النشاط التجاري من عاصمة بني الخطاب إلى واحة مرزق لتصبح عاصمة لفران. ويذكر ابن خلدون في هذا الشأن "أن مدينة زويلة انتقل أهلها وسكانها إلى فران من بلاد الصحراء واستوطنوها"⁽⁵⁾.

5.1.5. أوجله

تعد أوجله من الواحات الضاربة في عمق الصحراء الليبية شأنها في ذلك شأن الواحات الأخرى، وتقع جنوب غرب اجدابية بمسافة 220 كم و يأتي موقعها الفلكي بين خط الطول 20° شرقاً وخط العرض 29° شمالاً⁽⁶⁾، وتكمن أهمية هذه الواحة في وقوعها على طريق القوافل الكبرى الممتدة بين الشرق والغرب من مصر وحتى موريتانيا مروراً بكل الأراضي الليبية وبقية بلدان المغرب ومن الشمال إلى الجنوب على الطرق الواصلة بالممالك السودانية⁽⁷⁾، وقد ضمت واحة أوجله منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى صاحب برقة وأصبح يعين لها عمالها ويضيف ما يجني منها إلى مالية برقة⁽⁸⁾، ولعل الموقع الجغرافي هو الذي جعلها تنوسط وتشرّف على أهم الطرق التجارية القادمة من الشمال والجنوب، وتلعب دوراً مماثلاً للدور الذي لعبته الواحات الداخلية كزويلة ومرزق وفي نفس الوقت تكون كحلقة وصل بين مختلف الجهات وخاصة مع مناطق بلاد السودان⁽⁹⁾، فقد ارتبطت واحة أوجله بطرق تجارية عدة أدت في النهاية إلى انعاش الواحات الصحراوية وزيادة عدد سكانها وجعل القوافل تتوقف عندها للراحة والتزود من أسواقها بالأكل والشرب والسلع الأخرى وكذلك استبدال الجمال المنهكة بأخرى غيرها لمواصلة

(1) سعد زغلول عبدالحميد، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين ونقلتهم إلى مصر، مجلة كلية الآداب، بنغازي، 1958م، المجلد الأول، ص 235، 236.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 418.

(3) ديبوز، المغرب الكبير، ص 192.

(4) الاصطخري، المسالك والممالك، ص 46.

(5) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 418.

(6) محمد صالح الاجلي، المدير المنتخب، تحقيق: محمد بشير سويسي، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1998، ص 65.

(7) محمد سالم المعلول، دور واحة أوجله في توثيق العلاقات مع ممالك بلاد السودان منذ القرن العاشر حتى مطلع القرن العشرين، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2001، ص 56.

(8) البرغوتي، تاريخ ليبيا الإسلامي، ص 91.

(9) المرجع نفسه والصفحة.

الرحلة. وهكذا ظهرت من بين هذه المدن واحة أو جلته⁽¹⁾، التي ارتبطت بعلاقات تجارية مع بلاد السودان في وقت مبكر، فمنذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كان لها ارتباط تجاري بالمنطقة، وكان الصوف والمنسوجات القطنية يمثل الجزء الأكبر من صادراتها، وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أصبح لها أسواق نشطة واستراحات كثيرة و فنادق عدة لإقامة واستراحة المسافرين⁽²⁾.

6.1.5. جبل نفوسة

لقد أجمع جل المؤرخين والجغرافيين على الأهمية الاقتصادية والثقافية التي تميز بها جبل نفوسة قبل غيره من المناطق التي كانت تمثل مركزاً لتجارة القوافل في العصر الوسيط، فقد تمكنت كل من جادو عاصمة الجبل وشروس أم قرى الجبل من توطيد علاقاتهما التجارية مع زويلة وفزان ومرزق وغات وغدامس وطرابلس وارتبطت بصلات تجارية قوية مع مدن الجنوب التونسي قسطنطينية وبلاد الجريد وكذلك مع ورجلان وتادمكة وجاو وتمبكتو⁽³⁾.

وقد اعتبرت شروس بحكم موقعها الهام في بطن وادي شروس من أهم المدن المحصنة طبيعياً وذلك بحكم إحاطة الجبال بها من كل النواحي⁽⁴⁾، وعرفت شروس منذ فتحها المسلمون بأنها أكثر مدن الجبل عمراناً وأكبرها أسواقاً وكانت محطة لرحال القوافل المتجهة إلى بلاد السودان⁽⁵⁾، وهذا ما أكده الشماخي بقوله: "إن المدينة كانت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عاصمة الحاكم أبي عمر ميمون بن محمد وكانت إحدى المحطات للقوافل التي تصل بين بلاد السودان وبالتحديد بلاد التكرور بالسودان الغربي قبل أن تصل هدفها النهائي بطرابلس التي تبعد عن مدينة شروس بمسيرة خمسة أيام"⁽⁶⁾.

أيضاً ذكر بأنه في ضواحي شروس يوجد ممر ضيق للقوافل التي تذهب إلى غدامس ويطلق على هذا الممر "طريق السودان"⁽⁷⁾.

أما مدينة جادو فإن التاريخ يشهد لها منذ القدم بأنها كانت ترتبط بطرابلس أو تربطها الطرق الرئيسية المتجهة إلى فزان والسودان عبر صبراته ولبدة وترجع علاقة جادو بتجار القوافل الصحراوية في العصر الوسيط إلى نهاية القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، وذلك باعتبارها كانت العاصمة السياسية والإدارية لكل نواحي الجبل⁽⁸⁾، ويصفها البكري بأنها مدينة عظيمة وبها أسواق كبيرة وتسكنها جالية من اليهود وأن القوافل التي تنطلق من طرابلس إلى زويلة وفزان تمر عبر مدينة جادو والتي كان أهلها يجيدون التحدث بلغة أهل الكانم إلى جانب لغتهم العربية

(1) Adu Boahen A. Britain, the Sahara and Western Sudan (1788-1861) Oxford, P.113.

(2) فردريك هورنمان ، من القاهرة إلى مرزق 1797 - 1798 ، مكتبة الفرجاني، طرابلس، (د.ت)، ص 107.

(3) اليعقوبي ، البلدان، ص 345، ابن حوقل ، صورة الارض ، ص 70 ؛ البكري، المسالك والممالك ج 2 ، ص 658، الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج 1، ص 115.

(4) عوض ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان ، ص 66.

(5) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص 71.

(6) الشماخي ، السير ، ص 28.

(7) المصدر نفسه والصفحة .

(8) فخار ، تجارة القوافل في العصور الوسطى ، ص 54.

والبربرية⁽¹⁾، وهذا يرجع إلى احتواء المدينة لجماعات سودانية من الكانم استقرت بها في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي⁽²⁾.

7.1.5. برقة

وصف الاصطخري برقة بأنها مدينة وسط ليست بكبيرة⁽³⁾، أما الهمذاني فذكرها بأنها ذات كورة عامرة فسيحة⁽⁴⁾، وبرقة تمتاز بأرضها الحمراء الخلوقة⁽⁵⁾، وتتوفر فيها الفواكه والأموال والخيرات⁽⁶⁾، حيث شهدت تنوعاً في إنتاج الفواكه مثل الجزر واللوز والسفرجل والزيتون⁽⁷⁾، واشتهرت بإنتاج الفلفل⁽⁸⁾، وقد شجعت الخصوبة التي امتازت بها أرض برقة السكان على تربية الحيوانات بجميع أنواعها كالضأن والماعز والبقر والخيول والإبل والحمير، وقد ذكر البكري بأن برقة " ... في صحراء حمراء التربة ... وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير، تصلح بها السائمة وتنمو على مراعيها ... " ⁽⁹⁾، أما صاحب كتاب الاستبصار فقال عنها " ... أرض حمراء التربة كثيرة الخصب تصلح السائمة في مراعيها ... " ⁽¹⁰⁾، والقلقشندي ذكر بأنها: "أزكى الأراضي دواباً وأمرها مرعى" ⁽¹¹⁾.

وفي حقيقة الأمر أن وجود هذه الثروة الهائلة في برقة قد أسهم بفاعلية كبيرة في نشاطها التجاري حيث اعتمدت مصر والإسكندرية على لحوم الأغنام المصدرة إليها من برقة⁽¹²⁾، كذلك توفرت بأسواقها أنواع كثيرة من الأكسية والثياب الصوفية⁽¹³⁾، والأصواف الخام⁽¹⁴⁾، وجلود البقر والنمور التي تصدرها إلى مصر⁽¹⁵⁾، واهتم أهل برقة بتربية النحل حتى اشتهرت أسواق هذه الناحية ببيع العسل واستخراج الشمع⁽¹⁶⁾، وصنع الخلايا، وقد اجتمعت كل هذه العوامل لتجعل من برقة مركزاً تجارياً توجد به أسواق تمتاز بحركة البيع والشراء لمختلف أنواع السلع والبضائع المحلية منها والمستوردة، ومن بين هذه الأسواق التي اشتهرت في ذلك العصر (سوق آجبة) الذي كان يرتاده التجار في جميع الأوقات ويصف ابن حوقل هذا الازدهار التجاري بقوله: "هي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربيين ومشرقيين، وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي شبيهه، والجلود المجلوبة للديباغ بمصر والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجله ولها أسواق حادة حارة"⁽¹⁷⁾.

(1) البكري ، المسالك والممالك، ج2، ص 650.

(2) كمالي ، سكان طرابلس الغرب ، ص 25.

(3) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص 33.

(4) ابن الفقيه الهمذاني، أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1885، ص 79.

(5) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص 224.

(6) المصدر نفسه والصفحة.

(7) المزيني ، ليبيا منذ الفتح العربي ، ص 200.

(8) ابن حوقل، صورة الأرض ، ص 69.

(9) البكري، المسالك والممالك، ج2، ص 650.

(10) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 143.

(11) القلقشندي، صبح الاعشى ، ج3، ص 448.

(12) المزيني ، ليبيا منذ الفتح العربي ، ص 206.

(13) المقدسي ، أحسن التقاسيم، ص 239.

(14) البكري ، المسالك والممالك، ص 5.

(15) المزيني ، ليبيا منذ الفتح العربي ، ص 213.

(16) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 69.

(17) المصدر نفسه والصفحة.

إن توفر السلع التجارية بمختلف أنواعها في المراكز والمنافذ الليبية أدى إلى قيام بعض الصناعات على المنتجات الحيوانية والزراعية لسد متطلبات الحياة اليومية للسكان، فعلى سبيل المثال وجدت صناعة زيت الزيتون، والعسل، والتين المجفف، واستخراج الملح، وصناعة الدقيق من القمح والشعير، أيضاً وجدت بعض الصناعات الأخرى القائمة على جلود الأبقار والنمور مثل صناعة السروج والأحذية والحقائب.

وفي حقيقة الأمر أن هذا يدل على الحالة الاقتصادية الجيدة التي كانت تعيشها ليبيا مما جذب إليها التجار بمختلف جنسياتهم وأطيافهم ودياناتهم، كاليهود، وتجار ممالك جنوب الصحراء، وتجار المشرق الإسلامي، والمغرب وأفريقية، بحيث أصبحت فيما بعد من أهم المراكز التجارية داخل حدود البلاد الليبية، ويرجع الفضل في ذلك للشهرة التجارية التي حققت بها في المنطقة بتنوع السلع المصدرة سواء أكانت محلية أم سلعةً عابرة إلى مختلف الجهات والبلدان.

8.1.5. مرزق

تقع مدينة مرزق في الجنوب الغربي من سبها، وتبعد عنها بنحو 180 كم تقريباً. تمتاز هذه المدينة بوفرة مياهها الجوفية، وتكثر فيها بساتين النخيل التي تحيط بها من كل جانب. وتقع هذه المدينة في المنطقة الوسطى لحوض مرزق الذي يشتمل على سلسلة من الأودية التي تتصل ببعضها البعض. وتحيط بمدينة مرزق كثبان رملية وهضاب جبلية مرتفعة وأودية ذات منحدرات وسهول زراعية خصبة⁽¹⁾، وهي إحدى واحات طرابلس التي تأسست سنة 609 هـ/1310 م وتعد من المراكز التجارية الهامة، التي ربطت الشمال بالجنوب، وأدت دورها في إنعاش القوافل التجارية القادمة من طرابلس وغدامس ومصر إلى ممالك وسط أفريقيا (الكانم والبرنو)، وتبادل فيها البضائع الأفريقية مع بضائع طرابلس وغدامس، ومن مرزق كان التجار يستطيعون الاتصال بأي مكان يريدونه، كما كان بإمكانهم التزود بأخبار القوافل الأخرى من البلاد الأكثر بعداً، نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، فهي من ناحية تقع في وسط الصحراء ولها صلات مع باقي المناطق الجنوبية مثل زويلة وغات وغدامس، كما أنها شكلت مركز الاتصال مع المحطات والمراكز التجارية للمناطق الأفريقية لما وراء الصحراء مثل كانم وبرنو⁽²⁾.

وفي الفترة ما بين عام 1550 و عام 1812 م اتخذتها أسرة أولاد محمد الفاسي عاصمة لحكمها، ويرجع أصل هذه الأسرة إلى فاس بالمغرب أو إلى الساقية الحمراء. أما الطريقة التي تولى بها محمد الفاسي عرش فزان فهي أن القوافل كانت تمر بالطريق التي قامت فيه مدينة مرزق، وكانت تقف للتزود بالماء والطعام ودفع رسوم المرور للقلاع القائمة التي لا تزال أطلالها الكثيرة قائمة حتى يومنا هذا، وهي عبارة عن أسوار وأبراج كبيرة مبنية من اللبن⁽³⁾. والمعروف أن هذه القلاع كانت

⁽¹⁾ صلاح علي الخطاب: مدينة مرزق وتجارة القوافل، المجلة العربية للثقافة، مج24، عدد سبتمبر 47، تونس 2005م، ص112، 113.

⁽²⁾ حمد محمد حمد الجهمي: الأوضاع الاجتماعية، ص516، 517.

⁽³⁾ وقد بنيت مدينة مرزق على الطراز المغربي، حيث كانت شوارعها ضيقة وبعضها مسقوف. وكانت بالمدينة ثلاثة أحياء رئيسية هي حي الرأس الذي يمتد إلى جنوب قلعة مرزق. وكان يقيم في هذا الحي التجار الأغنياء، وكانت منازل هذا الحي في الغالب تتكون من

ملكاً للأمرء الخرمان الذين كانوا في خلاف دائم مع بعضهم البعض. وقد استخدم محمد الفاسي حراس قافلته وأمواله لمساعدة أحد أمرء الخرمان على أمير آخر حتى قضى عليهم جميعاً في النهاية، وأقام لنفسه قلعة في جهة مرزق، ربما كانت هي القلعة الأثرية المعروفة بقلعة أولاد محمد. ثم أخذ سلطانه يمتد حتى تغلب في النهاية على جرمة وضم فزان كلها تحت حكمه ونصب نفسه سلطاناً على فزان حوالي سنة 1550م. وقد وسع حدود حكمه نحو الجنوب حتى شمل قسماً كبيراً من تشاد والنيجر، وضم الى نفوذه كلا من غات وخدامس. وعند وفاته سنة 1567/975م تولى ابنه الناصر الحكم من بعده. وفي عهده ازدهرت فزان وانتشر فيها الامن، وبدأت تنمو وتتوسع وأضحت مركزاً تجارياً مهماً⁽¹⁾.

9.1.5. غات(2)

هذه الواحة كانت تلعب دور حلقة الوصل بين طرفى الصحراء والمتمثل في مملكة برنو والكانم في الجنوب، ومدن الشمال كطرابلس وتونس، وبين واحات مرزق وأوجلة في الشرق. إذن هكذا كانت طرابلس الطريق المفتوح لنشر الإسلام في قلب القارة الأفريقية، كما مثلت واحاتها معبراً مهماً للهجرات العربية نحو الجنوب، وكان من أهم نتائج ذلك قيام ممالك إسلامية قوية في الجنوب كملكتي كانم وبرنو⁽³⁾.

ومما سبق لنا عرضه نستنتج ان العلاقات المثمرة والنشطة التي تكونت بين المراكز، والواحات الليبية، وممالك السودان بشقيه الغربى ممثلاً في دولة غانا، ومالى، وسنغاي، ودول الهوسا، أو في شقيه الأوسط ممثلاً في دولة كانم — برنو، وسلطنة واداي، يرجع إلى دور الواحات الصحراوية التي ساهمت في سلامة أمن الطريق، بالإضافة إلى الاستقرار السياسى التي تمتعت به هذه المناطق، والذي كان له تأثير مباشر على نشاط التجارة عبر الصحراء.

إن الوحدة الدينية والوجود العربى في تلك المناطق من بلاد السودان والحماس الدينى لاولئك التجار الذين ساهموا في نشر الإسلام كما كانت لهم المكانة الاولى في المنطقة وبلاد الحاكم. إن هذه العلاقات التي ربطت بين الطرفين يرجع سببه من وجهة نظرى المتواضعة إلى أمران وهما:

إن حكام بلاد السودان أظهروا حسن ضيافة وثقة عالية في تجمعات الوافدين من تجار شمال إفريقيا. إن تجار شمال إفريقيا كانوا على درجة عالية من الأهمية بالنسبة لحكام بلاد السودان لأن هؤلاء التجار

طابقين، وهي مبنية باللين ومطلية بالجير. ولم يتبقى من هذا الحي سوى بعض الأطلال. أما الحي الثاني فكان يسمى حي النازلة وهو بجوار القلعة من ناحية الشرق. وكان يوجد بهذا نزل وفنادق للغرباء وبه مساحة كبيرة للقوافل. أما الحي الثالث الذي يسمى بحي الزوية، والذي ظهر في وقت متأخر فيقع بالقرب من الطريق الرئيسي الذي يؤدي إلى الباب الشرقي، حيث يوجد سوق للعبيد؛ انظر: صلاح علي الحطاب: مدينة مرزق وتجارة القوافل، ص114.

(1) صلاح علي الحطاب، مدينة مرزق ونجارة القوافل، ص113.

(2) تسمى "رات"، ويسمى الطوارق "أرض السلام"، وفي اللغة الليبية القديمة كانت تسمى "أرض الشمس" بسبب موقعها الذي يمثل قلب الصحراء الكبرى في أفريقيا؛ انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص706، الطاهر الزاوى، معجم البلدان الليبية، ص240؛ الهادي المبروك الدالي، قبائل الطوارق، دراسة وثائقية، إصدارات القيادة الاجتماعية في ليبيا، طرابلس 2006م.

(3) حمد محمد حمد الجهمي وآخرون، الأوضاع الاجتماعية، ص517.

يجلبون معهم السلع والبضائع المرغوبة لدى السكان المحليين .

2.5. المحطات التجارية الخارجية

كانت المحطات التجارية الليبية البرية خلال فترة البحث لها امتدادات خارجية بحكم طبيعة نشاطها وبحكم الامتداد الجغرافي للتجارة الصحراوية في تلك المناطق آنذاك، لذلك فقد ارتبط هذا النشاط التجاري بمراكز تجارية خارج نطاق المناطق الليبية .

1.2.5. تمبكتو

تقع تمبكتو على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى مما جعل من موقعها هذا حلقة وصل بين السودان الغربى والصحراء الكبرى ، وهى قريبة جدا من نهر النيجر ، بحيث يبعد عنها في فصل الصيف 16 ميلا ، أما في فصل الخريف فإن ماء النهر يقترب منها ليصل إلى 7 أميال ، وبهذا الموقع فقد تميزت بميزتين :
— أنها كانت على مفترق طرق القوافل التجارية حتى قيل عنها أنها المكان حيث يلتقى فيها الجمل بالزورق النهري .

— أنها كانت مدينة إسلامية أسسها المسلمون في أواخر القرن الخامس الهجرى .⁽¹⁾

ولقد كان الوضع الاقتصادي للمدينة مميّزا حيث أن موقعها كان له الأثر الكبير في إعطاء هذه المدينة مركزا حيويا واستراتيجيا لكثرة مرور القوافل بها ، وكان ذلك له أهمية بالغة في الجانب الاقتصادي والحضارى ، وزادت أهميتها التجارية في عهد سلطنتى مالى وسنغاي بحيث أصبحت همزة الاتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان ، متمثلة في الذهب والملح محور التجارة لما يمثلانه من قيمة عالية لدى سكان السودان الغربى ، وكان للتجار الليبيين من طرابلس وغدامس وأوجلة وفزان وجبل نفوسة مكانة مرموقة في مدينة تمبكتو ، نتيجة للدور التجاري الهام الذي قاموا به، حيث تمتعت الجالية الغدامسية بنفوذ كبير وأنشأت حياً خاصاً بها، مما يدل على كثرة أفراد هذه الجالية ، والدور التجاري الهام الذي أسهمت به⁽²⁾ ، ومما يلفت الانتباه أن الوثائق التجارية المكتشفة في تمبكتو قد سجلت لنا أنه كان للغدامسيين نصيب الأسد في التجارة، وقد سيطروا عليها سيطرة تامة، فالتاجر الغدامسي بصفة خاصة يكون المقر الرئيسي له في تمبكتو، وفي الشمال له ممثل في طرابلس وغدامس، وأحياناً في تونس ، وقد تناوب على حكم تمبكتو العديد من الحكام⁽³⁾،

(1) عبد العزيز بن راشد بن عبد العزيز العبيدي ، مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربى ، دورية دراسات إفريقية ، عدد5 ، أكتوبر ، السودان ، 1989م ، ص70-73 ؛ محمد فاضل على بارى ، سعيد إبراهيم كريدية ، المسلمون في غرب إفريقيا - تاريخ وحضارة - ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص96 ص98 .

(2) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، ص772 ؛ الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ص162 ؛ جميلة إمام التكتيك ، مملكة سنغاي الإسلامية ، ص130 .

(3) ظل الطوارق يحكمون تمبكتو حتى عاد منسى موسى ملك مالى من الحج، فاتجه إلى عاصمة سنغاي واحتلها ثم اتجه نحو تمبكتو واخضعها لحكمه سنة 730هـ تقريباً، ومنذ ذلك التاريخ ظلت تمبكتو تحت سيادة دولة مالى الإسلامية. وفي عام 837هـ هاجمت قبائل الطوارق تمبكتو واستطاعت الاستيلاء عليها، وبهذا خرجت عن سلطة مالى، وعجز الملوك المتعاقبون على دولة مالى عن استعادتها مرة أخرى، وقد أصابها الكثير من التدمير نتيجة هجوم الطوارق، وظلت تحكم من قبل عشيرة معشرن إحدى قبائل الطوارق مدة

ومنهم الطوارق ثم دولة مالي ثم دولة سنغي، حيث ازدهرت التجارة كثيراً في عهد حكام سنغاي الاسكيين خاصة الاسكيا محمد⁽¹⁾.

والملاحظ أن الوضع الاقتصادي الجيد للمدينة لم يتأثر في الفترة مابين القرنين الخامس والسادس للهجرة بالمضاربات التجارية التي كانت تحدث في المناطق المجاورة ، ومنذ ذلك الوقت وقوة تمبكتو الاقتصادية في تصاعد مستمر وخصوصاً بعد سقوط دولة غانا في القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي القرن 14/8م شهدت المدينة رخاءاً اقتصادياً وعلمياً حيث تمتعت بحركة تجارية واقتصادية نشيطة وكثرت فيها الحوانيت ، وخاصة تلك التي تبيع المنسوجات القطنية والافمشة التي تأتي من أوروبا وقد ساعد توفر الامن والنظام في المدينة ظهور هذا الانتعاش الهام والمتميز في المجالات التجارية والصناعية والزراعية والعلمية⁽²⁾.

2.2.5. سجلماسة

تقع سجلماسة⁽³⁾ في منطقة تافللت جنوب المغرب الأقصى، ولقد كان من أهم العوامل التي أدت إلى تطورها من مجرد موضع براح يقيم فيه بربر تلك النواحي سوقاً سنوياً إلى قرية صغيرة، ثم إلى مدينة كبيرة وغنية وقوعها على طريق تجاري قديم، تسلكه القوافل ويربط بلاد السودان ومنطقة تافللت بمدن الشمال، والذي أصبح من أهم طرق القوافل المتجهة إلى السودان الغربي بعد أن صارت القوافل التجارية المتجهة من الشرق إلى غانة تسير عبر بلاد المغرب قاصده مدينة سجلماسة لتنتقل منها إلى السودان الغربي، بدل أن كانت تسير من بلاد المشق الإسلامي إلى غانة مباشرة. فصارت

أربعين عاماً، وفي عام 873 يناير 1468م دخل سن علي ملك سنغي مدينة تمبكتو ونجح جنوده الآلاف من الأهالي الذين وجدوهم وخرّبوا المدينة وفعّلوا فيها الشناعات. ومات سن علي سنة 898هـ - 1492م فخلفه في حكم دولة سنغي الأسكيا الحاج محمد الذي قضى على أولاد سن علي. وتعد الفترة التي حكم فيها الاسكيا محمد فترة الازدهار لمدينة تمبكتو، فقد استولى عليها سنة 899هـ، وأعاد إليها حاكمها السابق عمر، وعين لها قاضياً. وتحولت تمبكتو في تلك الفترة الى مركز تجاري عظيم تنتهي إليها الطرق التجارية من الشمال والجنوب وتصلها البضائع من أوروبا وكل مناطق إفريقيا، وظلت على هذا الوضع الى ان بدأ الهجوم الكبير الذي قام به الأشراف السعديون حكام مراكش ضد دولة سنغي عام 999هـ، واستولوا على مدنها ومنها مدينة تمبكتو حيث اتخذها حودر باشا قائد الحملة مركزاً له وبنى فيها داراً للحكم وألزم أهلها بدفع الضرائب وحل بها الدمار والفساد من جراء تعسف قادة الحملة وسوء معاملتهم للعلماء والتجار؛ انظر: عبد العزيز بن راشد ، مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي ، ص71، 73.

(1) عبد العزيز بن راشد ، مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي ، ص70-73.

(2) محمد فاضل ، سعيد إبراهيم ، المسلمون في غرب إفريقيا ، ص 100 ، 101

(3) بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون اللام وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة مفتوحة وهاء في الآخر ، وسجلماسة "اسم القصبة"، وهي مدينة في جنوب المغرب الأقصى في آخر الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة، وضبط ابن سعيد أطوالها "الطول ثلاث عشرة درجة واثنان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة"؛ قامت مدينة سجلماسة عام 140هـ/757م على وادي زيري الذي يحيط بها من جميع الجهات، لأنه يتفرع إلى فرعين قبل أن يصلها، وقد كانت هناك مدينتان قائمتان على هذا الوادي ، هما ترغمة وزيرا أنتقل سكانها إلى سجلماسة. وقد وصفها لنا الفلقشندي في كتابه صبح الأعشى فذكر: "وهي مدينة إسلامية، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة، وليس قبلها ولا غربها عمران، وبينها وبين غانا من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه لا يدخلها إلا الإبل المصيره على العطش". وعلى وادي زيري والذي قامت عليه مدينة سجلماسة قام السكان بزراعة الحبوب والفواكه، كما اشتهرت المدينة بكثرة النخيل حتى وصفت بأن غاباتها تشكل حائطاً يحميها من الغارات. ويمثل بربر صنهاجة العنصر الغالب على سكانها إلى جانب بعض العناصر الوافدة من الأندلس، وبعض العناصر السوداء، ومجموعات من قبائل البربر؛ انظر: الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 158 ؛ ابن سعيد ، بسط الارض ، ص 58 ؛ حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا ، ص 190 .

سجلماصة بذلك تمثل آخر مرحلة للقوافل القادمة من الشمال في اتجاه الطريق الصحراوي الطويل، وأول مركز تجاري كبير في بلاد المغرب يستقبل سلع السودان فاعتبرت بذلك بوابة التبر.

ويلاحظ بوضوح تام أن المصادر تربط شراء سجلماصة وازدهارها كمركز تجاري بالتجارة مع السودان، فابن حوقل، الذي زار هذه المدينة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ذكر أن منطقة سجلماصة كانت تساهم في خزينة الدولة، بحوالي أربعمائة ألف دينار كضريبة على القوافل المتجهة إلى السودان، وعلى السلع المباعة في أسواقها، وكذلك الخراج وما إلى ذلك، ويؤكد ابن حوقل ضخامة المبلغ عندما يشير إلى أنه كان يختص فقط بمنطقة سجلماصة، وأن المبلغ في بعض الأوقات كان يمثل نصف ما يرد على خزينة الدولة، حيث إن جباية بلاد المغرب بكاملها ربما زادت قليلاً عن الثمانمائة ألف دينار، وربما نقصت كثيراً عن هذا المبلغ. وعندما تحدثت ياقوت الحموي عن سجلماصة أشار إلى أن أهلها كانوا من أغنى الناس وأكثرهم أموالاً، وعلل ذلك بوقوع المدينة على طريق الذهاب إلى غانة⁽¹⁾.

وهذه المدينة كانت تتجمع فيها القوافل التجارية القادمة من المشرق عبر المناطق والمراكز التجارية الليبية بالإضافة إلى أمصار المغرب، بإعتبارها مركزاً تجارياً نشطاً مع بلاد السودان، فقد كانت بمثابة ميناء صحراوي تتجمع فيه سلعتان ثمينتان مع سلع بلاد السودان هما الذهب والرقيق، وقد أفاض جغرافيو القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة في وصف طريق القوافل الذي يربط سجلماصة ببلاد السودان، وان كانت التجارة التي ربطت سجلماصة ببلاد السودان ترجع إلى القرن الثاني الهجري⁽²⁾.

وقد أثار غنى أسواق سجلماصة بالذهب استغراب الكتاب المسلمين، ومن أولئك البكري الذي قال عن أهل سجلماصة: "ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن والكرات يتبايعونه وزناً بلا عدد"، أما ابن حوقل فقد وصف ثراء أهل سجلماصة وعظم قوافلهم وتجاراتهم بقوله: "ويقارب القيروان سجلماصة في صحراء الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان.. وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة". وقد أكد ابن حوقل ما ذهب إليه في وصفه لأهل سجلماصة والقوافل التي كانت تعبر الصحراء منها وإليها، حينما روى قصة مشاهدته لصك مالي بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار ذهب كدين لأحد تجار سجلماصة على تاجر آخر بمدينة أودغشت. ولاشك أن ما سجله ابن حوقل عن ذلك الصك، كشخص معاصر لتلك الفترة وكشاهد عيان، يعتبر بحق وثيقة ذات دلالة واضحة على الرواج الواسع الذي كانت تشهده التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي وعلى رأسها السلعتان الأساسيتان الذهب والملح⁽³⁾.

وهذا يدل على أن المدينة كانت مركزاً لتجمع التجار للسفر إلى بلاد السودان جنوباً وعبر الصحراء. وهذا ما أكده القزويني فبعد أن وصف المدينة جغرافياً وبين موقعها وزراعتها وصناعاتها،

(1) ابن حوقل، صورة الارض، ص 90؛ الحموي، معجم البلدان ج 2، ص 12؛ سعود بن حمد الخثلان: دور التجار، ص 58.

(2) حسين سيد عبد الله مراد، الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي (خلال ق 2 - 8/هـ 6 - 12م)، المؤتمر الدولي للإسلام في أفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا 2006م، ص 378.

(3) البكري، المسالك والممالك ج 2، ص 337؛ ابن حوقل، صورة الارض، ص 65؛ سعود بن حمد الخثلان، دور التجار، ص 54.

تكلم على ثراء أهلها نتيجة لتجارتهم بالذهب مع بلاد غانة فقال: "وأهل هذه المدينة (أي سجماسة) من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق غانة التي هي معدن الذهب"، ووصف سجماسة بأنها "مدينة محمودة ومشكورة... وبلاد تير واديم ومنمى تجر ومكسب"، وأن "أهلها مياسير ولها متاجر إلى بلاد السودان"، وأنها "مدينة متحضرة دورها جميلة وسكانها أثرياء، بسبب تجارتها مع بلاد السودان"، وهكذا نجد أن مصادرنا التراثية تجمع على أن سجماسة مركز تجاري للتجارة مع بلاد السودان، وأن هذه التجارة كانت سبب ثرائها وترف أهلها واشتهارها مركزاً تجارياً مهماً في المغرب الأقصى⁽¹⁾. وفي هذا المعنى يقول ابن الخطيب: "إن الركبان كانت تسافر إليها من كل ناحية وصوب، ومنها كانت الأركان تسافر إلى بلاد السودان للتجارة"⁽²⁾.

وظل النشاط التجاري بسجماسة مستمراً إلى فترة الضعف المريني⁽³⁾، حيث بدأت تتدهور وضعيتها التجارية تدريجياً، بسبب اضطراب الطرق التجارية المارة عبرها مع أواخر القرن الثامن هجري/ الرابع عشر ميلادي⁽⁴⁾.

3.2.5. الكانم والبرنو

تعتبر مملكة الكانم – البرنو من الممالك الإسلامية في السودان الأوسط⁽⁵⁾، والتي دخلت في علاقات تجارية واسعة مع المراكز التجارية الليبية، وقد انطلقت الأسرة الحاكمة في الكانم والبرنو

(1) القزويني، آثار البلاد، ص42؛ الفلقشندي، صبح الاعشى ج5، ص159؛ الوزان، وصف افريقيا ج2، ص127.
(2) الحسين بولقطب: العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، مجلة أمل، مج2، عدد6، المغرب 1995م، ص19، 20.

(3) نظراً لأهمية سجماسة التجارية القصوى، فقد كانت مسرحاً للصراعات السياسية، حيث دار الصراع حولها طيلة العصر الوسيط. فكل العصبية التي تمكنت من الوصول إلى السلطة السياسية كانت تضع منذ انقاضتها الأولى ضد الدولة القائمة مدينة سجماسة على رأس المدن التي يتحتم إخضاعها. والمطلع على أهمية موقعها في إطار المبادلات البعيدة المدى سيعرف خلفيات هذا الإصرار. فالعصبية الصنهاجية المؤسسة للدولة المرابطية لم تقض على القوة الزناتية إلا بعد سيطرتها على هذه المدينة. ونفس العمل قامت به العصبية المصمودية حين قررت إسقاط دولة المرابطين. وفي المقابل شهد الثلث الأخير من القرن الثالث عشر، وقسم من الرابع عشر تنامي الصراع حولها بين زيانيي المغرب الأوسط ومرينيي المغرب الأقصى من جهة، وبين المرينيين وقبائل بني معقل من جهة ثانية. فكل طرف كان يعرف حق المعرفة أن التحكم في هذه المدينة لا يعني شيئاً آخر غير مراقبة محاور التجارة الأفريقية. بل إن قيمة سجماسة كانت سبباً مباشراً في إذكاء الصراع بين حكام ينتمون إلى نفس البيت الحاكم كما حدث بين الأمير المريني أبي سعيد وابنه أبي علي. ورغم تبعيتها إلى المرينيين الذين فوضوا لحكمها والي نظراً لبعدها عن العاصمة، إلا أن الزيانيين كانوا يشجعون التمردات التي تنور ضد السلطة المركزية بفاس. وقبل ضم المرينيين لسجماسة سنة 673هـ/ 1274م، عرفت هذه المدينة التبعية للحفصيين ثم للزيانيين، وشهدت تمردات من طرف ولايتها في 714 – 715هـ/ 1314 – 1315م و720 – 722هـ، 1320 – 1322م، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل، غير أن الأمير عمر تمرد على أخيه السلطان أبي الحسن في 731 – 733هـ/ 1330 – 1332م، وتحالف مع الزيانيين؛ انظر، احمد عزاوى، قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدى والمريني، دار ربانيت، ط1، الرباط، المغرب، 2010م، ص158.

(4) عزاوى، قضايا تاريخية، ص155 – 158.

(5) لم يقف الإسلام عند حدود نيجيريا، بل واصل انطلاقه صوب الشرق فنفض إلى منطقة بحيرة تشاد، حيث قامت سلطنات إسلامية مثل سلطنة كانم وبرنو تشبه من وجوه كثيرة السلطنات التي حفل بها تاريخ ذلك العصر في السودان الغربي، مثل مالي وسنغاي. وقد اتخذ تاريخها نفس المجرى، وتعرضت لنفس الظروف، ومرت بنفس الأدوار، ومثلت دورها المرسوم في ميدان الحياة الإسلامية بنفس العمق والأصالة التي مرت بها السلطنات السابقة، تشابه حتى في البداية الأولى التي شغلت الفترة الواقعة بين سنتي 800 و1250م، هجرات من البربر تندفق إلى شرق بحيرة شاد وغربها، كما تدفقت هجرات مماثلة إلى جميع أرجاء غرب إفريقيا. في هذه الفترة هاجر الزغاوة وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية، وانتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحبة تمتد من بلاد دارفور، حتى بحيرة تشاد. ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر، فالبكري الذي كتب عن هذه البلاد

تتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملكها دونامة الأول وسليمان وخليفته، فانتشر نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس ونيجيريا في الغرب. واتسعت تجارتها، وتدفقت الثروات الى خزائنها. ثم جدد ظروف أدت إلى انتقال السلطان إلى فرع آخر من هذه السلالة ثم انتقال مركز النفوذ من شرق البحيرة حيث بلاد كانم، إلى غربها حيث بلاد برنو. فقامت سلطنة برنو في حجر نفس الأسرة، ذلك أن قبائل البلالة من أهل البلاد الأصليين ثارت على استبداد الأسرة الحاكمة، وأعلنت الحرب واقتحمت عاصمتهم جيمي، وطردت الملوك من بلاد كانم ففروا إلى غرب البحيرة على النحو الذي ذكرناه، تمت هذه النقلة في عهد السلطان عمر بن إدريس (1394 - 1398م)⁽¹⁾.

وتقع مملكة كانم في شمال شرق بحيرة تشاد، وكان محتوماً عليها - بحكم موقعها هذا - أن تشرف على المنطقة الواقعة في غرب البحيرة - حيث ستقوم مملكة البرنو - لتؤمن سيطرتها على تجارة القوافل في اتجاه الجنوب. غير أن الكوار كان يسهل الوصول إليها أيضاً من ناحية الأير (تاكيدة ثم أغاديس)، ولهذا كانت السيطرة على هذا الموقع الهام من الطريق هدفاً أساسياً لملوك كانم و لملوك بورنو على حد سواء. خصوصاً أن كوار كانت مصدراً من مصادر الملح المصدرة للمدن الليبية في الشمال.

من جانب آخر كان لمجموعة واحات فزان بالنسبة للتجارة عبر المسافات الطويلة أهمية تجاوز أهمية كوار. فهي تقع عند ملتقى طريقين من أكبر الطرق التجارية في غرب أفريقيا، ولهذا

في هذه الفترة يذكر أنهم ما زالوا على الوثنية. حتى إذا مضى القرن الحادي عشر وبدأ القرن الثاني عشر تعرض الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق، هجرة من التبو والندا. هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التي تتوقعها، إنما كانت على هيئة أرسقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ، ونستطيع عن طريقها أن نخضع شعب الزغاوة لسلطانها. هذه الأرسقراطية الحاكمة أنجبت أول أسرة مالكة تسيطر على المنطقة الواقعة شرق البحيرة، وتؤسس سلطنة كانم التي كان لها شأن في تاريخ السودان. ومما لفت النظر أن ملوك هذه الأسرة يطلقون على أنفسهم اسم بني سيف يدعون نسباً حميرياً يصلهم بسيف بن ذي يزن. وهذا النسب يؤكد لنا صحة اندثارهم من أصل ملثمي، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجة الجنوب ينتسبون إلى الحميريين. وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة، وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدي. ويبدو أن ظهور هذه السلطنة في ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام إلى أراض كانم، والذين عرضوا لتاريخ هذه السلطنة يختلفون في الوسيلة التي دخل بها الإسلام هذه النواحي، فهناك مثلاً من يرى ان هجرة اموية دخلت هذه البلاد قادمة من مصر، ويشير في مواضع أخرى إلى أن فريقاً من فقهاء المالكية فروا من مصر، في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله، والتجنوا إلى بلاد كانم وعملوا على نشر الإسلام بين أهلها. ونعتقد أن الإسلام دخل في ركاب هذه الأسرة الحاكمة، وان إدخال هذا الدين هو الذي مكن لها من السيطرة على البلاد والوثوب إلى كراسي الحكم. ورواياتهم المحلية تؤيد هذا بقولها أن الهادي العثماني جد الأسرة الحاكمة هو الذي ادخل الإسلام إلى البلاد. وان كان صاحب كتاب الاستبصار يرد انتشار الإسلام في البلاد على نطاق واسع الى سنة 550هـ/1106م. وبعض الروايات الأخرى ترجع إدخال الإسلام إلى حكم الملك اومي. إذن دخل الإسلام في ظل الأسرة الحاكمة في آخر القرن الحادي عشر ثم توطيده في القرن الثاني عشر، وهذا لا ينفي تدفق تيارات إسلامية أخرى من ليبيا ومصر والمغرب، وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد إيذاناً بانطلاقهم نحو العلاقات الدولية والتوسع والغنى والشهرة. ومن الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام، فتظهر على مسرح الأحداث، ويدخل تاريخها في عهد من النور والوضوح؛ انظر، حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة 1998م، ص 200-202.

(1) ج.ت. نيابني وآخرون: تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، باريس 1988م، ج4، ص 262-264؛ حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية، ص 197 - 202.

كانت السيطرة عليها تسمح بالسيطرة على المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب (افريقية -- طرابلس -- كانم/برنو) وبين الشرق والغرب (مصر-- غانا -- مالي -- سنغاي) ولم يكن لكانم بديل لمبادلاتها التجارية طويلة المدى مع بلدان البحر المتوسط (باستثناء المغرب الأقصى)، وكان لابد لمعظم السلع الواردة والصادرة من المرور بها. وكان التجار الذين يتعاملون مع بلدان المغرب هم وحدهم الذين يستطيعون تجنب فزان وسلوك الطريق البالغ الوعورة المار بجادو وتاسيلي. ولهذا فلا بد أن واحداً من الأهداف الرئيسية لملوك كانم وبورنو، كان تأمين طريق القوافل بين الشمال والجنوب، والسيطرة على المحطات الواقعة على هذا الطريق.⁽¹⁾

ولقد كانت السيطرة من قبل ملوك كانم - برنو على مسالك التجارة الصحراوية في منطقتهم، دوراً كبيراً في استقرار التجارة بين الشمال خاصة التجارة القادمة من المناطق الشمالية، وبين الجنوب؛ كما كان لهذا أثره في ثراء المملكة نتيجة ما حصلته من ضرائب وإتاوات على القوافل المارة بتلك المسالك في منطقتهم⁽²⁾

4.2.5. اغمات

تعتبر إغمات مدينة قديمة تقع في الجنوب الشرقي لمراكش⁽³⁾، "وهي كثيرة الخير والتجارة"، وهي مدينتان سهليتان، واحدة تسمى أغمات إيلان، والثانية أغمات وريكة، تشتهر بأسواقها وتنوع السلع بها، وكانت أغمات وريكة دار التجهز نحو الصحراء، أما أهلها فهم "تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان"⁽⁴⁾.

وتقع أغمات Aghmat قرب منطقة وادي درعه، وهو الوادي الذي يتجمع فيه التجار منها، ومن سجماسة ومن المناطق القريبة منهما، لينطلقوا بقوافلهم عبر الطريق التجاري المتجه إلى أودغشت⁽⁵⁾.

واغمات من المدن التي عظمت أسواقها وانتفع أهلها انتفاعاً كبيراً، بسبب موقعها الذي مكنها من الاشتراك في التجارة مع السودان. فقد أشار إليها ابن حوقل كأحد المراكز التجارية الهامة في منطقة سجماسة والتي كانت تساهم بنصيب وافر في جباية المغرب عن طريق ما كانت تفرضه الدولة من ضرائب على القوافل المتجهة إلى السودان والخراج وغير ذلك من الدخول. كما أورد الإدريسي بعض التفصيل عن تجارتها مع السودان فقال إن من أهل أغمات تجار كانوا يملكون أموالاً كثيرة، فهم يذهبون إلى السودان بالقوافل الكبيرة المحملة بالنحاس والأكسية من ثياب الصوف

⁽¹⁾ ج.ت.نيانبي وآخرون، تاريخ إفريقيا، ج4، ص257، 258.

⁽²⁾ المرجع السابق: ص261، 262.

⁽³⁾ تقع أغمات إلى الجنوب من أعالي وادي أم الربيع بين سجماسة ووادي السوس، ومنها إلى سجماسة ثماني مراحل، وإلى السوس ست مراحل؛ انظر، أبي الفدا، تقويم البلدان، ص135؛ حمد محمد الجهيمي، دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص196

⁽⁴⁾ ابن حوقل، صورة الارض، ص65؛ السبتي، محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1983م، ص99، 100؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص207؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص66.

⁽⁵⁾ سعود بن حمد الختلان: مرجع سابق، ص59.

والعمائم والمآزر وأنواع من الأصداف والزجاج والأحجار الكريمة والعطور وبعض الآلات المصنوعة من الحديد، وربما سير بعضهم في القافلة الواحدة ما قد يصل إلى مائة وثمانين من الجمال المحملة بالبضائع⁽¹⁾.

وزادت أهمية المدينة في منتصف القرن الخامس الهجري، فقد أصبحت مركزاً للمرابطين في المغرب الأقصى قبل انتقالهم إلى مدينة مراكش، فانتقل إليها مركز النقل التجاري لدولة المرابطين، التي امتدت من أودغست جنوباً حتى السوس الأقصى شمالاً.

وفي هذه الفترة ارتفع عدد سكان المدينة، واستقرت بها مجموعات كبيرة من هواراة الذين اشتهروا بتجارتهم وعلاقاتهم القوية بالصحراء والمراكز الواقعة الواقعة جنوبها، وقد أسهب الإدريسي في الحديث عن ثراء تجارها في هذه الفترة، وعن قوافلهم الكبيرة التي يكون للتاجر الواحد فيها ما بين 70 إلى 100 جمل⁽²⁾.

وبقيام مدينة مراكش غربي أغمات باثنين وثلاثين كم، بدأت أهمية أغمات تقل بانئصال أثرائها إلى عاصمة الدولة الجديدة، ثم انتهى دورها كمركز تجاري قيادي بعد زوال دولة المرابطين⁽³⁾.

5.2.5. اغاديس

كانت أغاديس مدينة مسورة تقع على تخوم ليبيا البعيدة – كما يذكر الحسن الوزان، نتيجة اعتقاده أن إقليم ليبيا كان يمتد حتى أقاصي غرب الصحراء الكبرى – وهي مدينة السود، ولكنها تكاد تكون أقرب مثيلاتها إلى مدن البيض، لأن كل سكانها تقريباً من التجار الأعراب، وفيها القليل من السكان المحليين. ويكاد يكون كل هؤلاء السود صناعاً أو جنوداً لدى ملك المدينة، ويملك كل تاجر عدداً كبيراً من العبيد الذين يستخدمهم حرساً على الطريق بين كانو وبورنو، لأن هذه المسافة دائماً ما تكون معرضة للتهب من قبل العديد من القبائل التي تهيم في الصحراء. وهؤلاء الناس الذين يشبهون أفقر فئات الزنغاري، يتعرضون دوماً للتجار ويغتالونهم. ولهذا يعتمد التجار لاصطحاب العبيد المسلحين جيداً بالحرايب وبالسيوف وبالأقواس، حتى إنهم أخذوا يستعملون اليوم راشقات السهام⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 67؛ الحموي، معجم البلدان ج 1، ص 225؛ الوزان، وصف إفريقيا ج 1، ص 135، 136.

⁽²⁾ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 66؛ القلقشندي، صبح الاعشى ج 5، ص 158؛ حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 196.

⁽³⁾ حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 189.

⁽⁴⁾ هذه الإشارة الوحيدة التي وردت عن آلة رشق السهام في هذه المنطقة. ولا يوجد منها اليوم أي أثر. بينما بقي القوس ولا زال معروفاً عند الهوسا والبهل، ولكن ليس لدى الطوارق الذين يظهر انهم لم يستعملوه أبداً. غير أن بعض قبائل دامرغو المستقرة الذين صاروا أتباعاً لهم، والذين رافقوهم عدة مرات في المعارك. كانوا مسلحين بها، ولهذا كان من الخطأ القول بأن طوارق جنوب آبير كانوا يمارسون الحرب بالقوس. أما العرب فقد امتلكوا راشقة السهام منذ القرن الثامن الهجري، كما كانوا يقذفون بالبنادق وكانوا يرمون بالرصاص. كما ورد ذكرها عند سلاطين بني مرين في المغرب حوالي العام 1345م الذين كان لديهم فرق من الأندلسيين وفصيطة من مهرة الرماة بالراشقات الخيالة، ترى هل كانت راشقات السهام المذكورة في آبير كان يتسلح بها تجار تواتيون مقيمون في المدينة؟

وكان ملك أغاديس يحصل على دخل كبير من الرسوم التي يدفعها التجار الغرباء، وأيضاً من حاصلات البلاد، وربما أستفاد من تلك الأموال التي كان يحصلها من التجار والتجارة، في دفع جزية تبلغ مائة وخمسين ألف دينار لملك تومبكتو⁽¹⁾.

6.2.5. ورجلان

تقع مدينة ورجلان بين خطي 30,5 شمالاً و5,17 شرقاً في جمهورية الجزائر، وتعتبر ورجلان الحد الشرقي لولايات الجزائر، وأعطاهما هذا الموقع أهمية خاصة للقوافل الآتية من المغربيين الأدنى والأوسط في اتجاه مملكة غانا وحوض نهر النيجر الأوسط⁽²⁾. حيث تقع وارجلان Wargalan في منطقة الزاب على الطريق التجاري الذي يصل المغرب الأدنى خاصة المناطق

وحتى القرن السادس عشر كانت راشقة السهام، لا تزال مستخدمة في المغرب الأقصى. ومن المؤكد أنها كانت مستخدمة في توات، حيث بقيت على شكل لعبة أطفال. وربما عن هذا الطريق وصلت في آيبر، انظر، الوزان، وصف إفريقيا، ص547.

⁽¹⁾ إن تاريخ خضوع سلطان أغاديس إلى أسكيا يثير الجدل، لأنه من المقبول عموماً أن ذلك كان نتيجة حملة سونغاي في آيبر، والتي وقعت سنة 1515م، وهذا هو رأي الباحثين دولا فوس وأورفوا اللذين عالجا هذه المسألة، ولكن كانت هناك حملتان، وهذا ما سنحاول البرهنة عليه، فيشير كتاب تاريخ الفتاش ضمناً أن أسكيا قام بحملة سنة 1500م ضد منطقة آيبر. فحوليات أغاديس تسرد بوضوح وقائع ستينير لنا الأحداث الهامة التي وقعت في ذلك العصر، واستناداً إليها فإن السلطان الذي كان يمارس السلطة سنة 1500م هو محمد عبد الرحمن، الذي حكم مدة تسع سنوات ومات وهو على رأس الحكم، إذ اغتيل سنة 1502م ويذكر "تاريخ السودان" و"تاريخ الفتاش" من ناحية أخرى، في عبارات مماثلة، أن أسكيا شن معركة سنة 1515م ضد العدلاء، وهو سلطان أغاديس. وهذا ينسجم بالواقع مع الحوليات التي تقول بعد الإشارة إلى اغتيال محمد عبد الرحمن: "استلم بعد ذلك السلطة ابنه ناتي ملتن محمد العادل ومحمد حماد في 908هـ/1502م، وحكموا مدة أربعة عشر عاماً. وهو التاريخ الذي حاقت به مصيبة أسكيا" ولقد رأينا أن مقام سلاطين آيبر كان بالتتالي: أسوله، تادليزه، نيتشمان وأغاديس، وكان المقر في أغاديس عندما قدم أسكيا إلى آيبر لأول مرة سنة 1500م، وهذا ما ينسجم مع الحملة ضد "تدلز" في آيار في الحوليات. ومن جهة أخرى نحن نعرف أنه في عام 1502م قدم المغيلي إلى هذه المدينة ليزور السلطان. أما إقامة السلاطين في نيتشمان، كما توحى بذلك الحولية، فلم تكن طويلة، هذا وإذا قبلنا بأن الحسن الوزان مر بتبمكتو سنة 1513، وأنه ذكر حينئذ سيطرة أسكيا على أغاديس، فيمكننا أن نستنتج من ذلك من ناحية أخرى، أنه بين 1502م — 1513م، لأن الثانية تعود لعام 1515م، وأن الوزان لم يستطع ذكر سلطة أسكيا على أغاديس، وهكذا تتفق كتب التاريخ مع حوليات أغاديس ونص الوزان. وحوالي نفس الفترة جرى بناء أول جامع، وليس الجامع الموجود اليوم، والمؤرخ في أواسط القرن التاسع عشر، بل الجامع الذي رآه بارت عند زيارته، وإذا كانت دهشته من أن أسكيا ذهب إلى آيبر مع فاصل زمني مقداره أربعة عشر عاماً، فإن الوقائع تصبح مفهومة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن محمد بن عبد الرحمن الذي أعلن خضوعه حوالي سنة 1500م، قد اغتيل سنة 1502م، ولا تعطي الحولية سبباً لهذا الاغتيال، ولكن يمكن الافتراض أنه كان هناك سبب ونتيجة وأن هذا الخضوع كان ينص على جزية ثقيلة يجب دفعها، وهذا هو السبب. أما خلفاؤه الذين حكموا في نفس الوقت مثل محمد العادل ومحمد الحماد واللذان كانا وراء هذا الاغتيال، أو ربما كانا بطلي المعارضة ضد أسكيا، فقد رفضا الدفع بالتأكيد، والغالب أن هذا هو السبب الذي دفع بأسكيا لشن حملة ثانية على آيبر، ولكن هذه المرة ضد أغاديس، التي أصبحت عاصمة. وتقول الحولية إن محمد بن تالاز هو الذي خلف عام 1516م ولدى فاتي ملتن، أي الحاكمين المشتركين اللذين ورد ذكرهما. وبما أن هذا التاريخ يعقب تاريخ الحملة السونغائية الثانية، فإن من الممكن الظن بأن هذين الاثنتين قتلا في المعركة أو أنهما أبعدا عن السلطة، أو أن أسكيا قد أعدمهما، وهو ما كان منسجماً مع أخلاق العصر ونتيجة لمحاولتهما التملص من سيادة غاو التي أقر بها سلفهما. وعندئذ كان على أسكيا أن يترك حامية عسكرية أو نواباً عنه في أغاديس، الذين أرسوا قواعد المستعمرة السونغائية، والذين يحس بأثرها حتى أيامنا. وبعد أن رتبنا الأحداث، فإنه لا حاجة للتتويح بأن حملة أسكيا ضد ابن سوني علي، اللاجي، في آيرو، كما تصور ذلك دولا فوس، تسقط لتجنبها الصواب؛ انظر: الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص548، 549.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك، ص182؛ صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي، ج2، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة تونس، 1995م، ص181؛ حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص197.

الليبية بتادمكة ومنطقة ثنية نهر النيجر، حيث تقع مملكة جاو. كما كان هناك طريق آخر يصلها بسجلماسة ماراً بتاهرت، فكانت وارجلان بذلك على اتصال بالعديد من المراكز التجارية الهامة في المنطقة: القيروان في المغرب الأدنى وتاهرت في المغرب الأوسط وسجلماسة في المغرب الأقصى وتادمكة وجاو في السودان⁽¹⁾.

ولم تتعرض المصادر التاريخية لنشاط هذه المدينة المبكر قبل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، غير أنه تتضح من خلال الطرق التجارية التي ربطت مملكة غانا بالشمال الإفريقي أهميتها، حيث إنها كانت مركزاً تجارياً هاماً للدولة الرستمية، يمكن مقارنتها بسجلماسة بالنسبة لدول المغرب الأقصى. حيث إنه وبعد سقوط الدولة الرستمية في نهاية القرن الثالث الهجري وما تلا ذلك من أحداث في المغرب الأقصى ازدادت أهمية ورجلان كمحطة هامة على طرق الصحراء الوسطى، ويرى بعض المؤرخين أن سقوط تاهرت لم يكن له أثر كبير في ازدهار ورجلان، لأن الهجرة التي خرجت من تاهرت لم تكن أعدادها كبيرة أولاً، ثم إنها توزعت على كل المراكز في المنطقة مثل وادي ريغ وجبل نفوسة وإقليم الجريد⁽²⁾.

فازدهار تجارة ورجلان منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يرجع إذا للظروف التي ألمت بالمغرب الأقصى والصحراء الغربية، ويبدو أن الثراء الذي اتصفت به ورجلان يبدأ منذ ذلك الوقت، فقد وصف سكانها بأنهم قبائل مياسير يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانا وبلاد ونقاره⁽³⁾.

وتحدث الإدريسي عن وارجلان واصفاً بعض جوانب الحياة الاقتصادية فيها، فذكر أن قبائلها كانت غنية وتجارها عرفوا بالثراء، حيث كان لهم نشاط بارز في عملية شراء ذهب غانه والمتاجرة به في الأسواق التجارية في بلاد المغرب، كما كانوا على رأس القائمين بتصدير التمر الجاف من سجلماسة ومنطقة الزاب إلى السودان الغربي⁽⁴⁾. كما بين ابن خلدون أهمية ورجلان التجارية مع السودان⁽⁵⁾.

7.2.5. القيروان

نتج عن النهضة الزراعية والصناعية التي كانت في القيروان نشاط تجاري واسع داخلي وخارجي، ساعد عليه استقرار الأمن وتسهيل سبل المواصلات، بالإضافة إلى كثرة الإنتاج الزراعي والصناعي الذي ساعد على التقدم الاقتصادي في القيروان.

وقد كانت المنتجات الزراعية في سائر الإقليم حول القيروان ومن بينها منتجات المناطق الليبية تحمل إليها، كما كانت تحمل إليها المنتجات الصناعية في الإقليم كله. فكانت القيروان بذلك

(1) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص 628.

(2) البكري، المسالك والممالك، ص 182.

(3) حمد محمد الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 198.

(4) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص 269.

(5) ابن خلدون، العبر ج 6، ص 420.

سوقاً كبيراً للمنتجات الزراعية والصناعية ومقراً للتجارة الداخلية والخارجية. ويصفها ابن حوقل بأنها "أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجراً"⁽¹⁾ وأموالاً وأحسنها منازل وأسواقاً وكان فيها ديوان جميع المغرب وإليها تجبى أموالها وبها دار سلطانها"، وبذلك كان يقصدها التجار من داخل الإقليم خاصة التجار الليبيون ومن خارجه، فكانت سوقاً كبيراً للتجارة الداخلية والخارجية. ومنذ تأسيس القيروان أسماها اتخذت أسواقها أسماء من يعملون بها، وأهمها أسواق الصيارفة والجوهريين والغزل والسراجين والبزازين والرهادرة⁽²⁾ وسوق اليهود وغير ذلك من الأسواق⁽³⁾.

ويعطينا البكري مثلاً عن بعض ما كان يصل إلى القيروان من المنتجات كل يوم من بعض الضواحي بقوله: "ومنها - أي جلولاء على بعد أربعة وعشرين ميلاً - كان يرد كل يوم إلى القيروان من أحمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة، وغير ذلك من الأنواع المختلفة من المنتجات التي تحمل يومياً إلى أسواق القيروان، ويذكر البكري الطرق والمسافات وأنواع المنتجات التي كانت تحمل يومياً إلى أسواق القيروان العامرة الناقفة بما يدل على رواج التجارة بها. وقد ساعد انتشار الأمن وتعبيد الطرق على سهولة نقل المنتجات إلى القيروان.

كما أدت زيادة المنتجات على الاستهلاك المحلي إلى قيام تجارة خارجية كانت تحمل الصادرات كما تأتي ببعض الواردات. وذكر البكري "أن تجارة الزيت كانت رائجة منذ القدم مع الروم ثم توسع في تصديره إلى مصر وصقلية، وقد أمدت القيروان مصر بالقمح عند حدوث المجاعة أثناء الفتح الفاطمي لمصر، وصدر القمح منها إلى الإسكندرية. وبالطبع كانت القوافل عند ذهابها من القيروان إلى مصر تمر بالمناطق الليبية خاصة الشمالية منها، كما كان للقيروان علاقات تجارية ببلاد السودان الغربي (مالي) وما يجاورها من البلاد الواقعة حول بحيرة تشاد مما ساعد على وجود الذهب المجلوب من تلك الأصقاع إلى القيروان واستطاع تجار القيروان أن ينتقلوا إلى ديار الملمثين وبلاد السودان، حيث كانت القوافل تجلب الذهب والعبيد من الجنوب⁽⁴⁾.

8.2.5. أودغشت

تقع أودغشت Awdaghost في الطرف الجنوبي من الصحراء إلى الشمال الغربي من غاناه⁽⁵⁾، وبينهما مسيرة حوالي خمسة عشر يوماً، أما المسافة بينها وبين مدينة سجلماسة، فإن القوافل تقطعها في مسيرة شهرين تقريباً.

(1) تجراً: أي تجارة تنتج عنها كثرة الأموال؛ انظر: ابن حوقل، صولة الارض، ص 67.

(2) سوق الرهادرة: أي سوق المسافرين من أجل الاتجار أي التجار الأجانب؛ انظر محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى 1988م، ص 162.

(3) ابن حوقل، صورة الارض، ص 94؛ محمد محمد زيتون، القيروان ودورها، ص 162.

(4) البكري، المسالك والممالك، ص 20، 32؛ محمد محمد زيتون، القيروان ودورها، ص 163.

(5) كانت أودغست عاصمة مملكة غانا منذ قيامها، والدليل على ذلك النص الذي ورد عند البكري بأن أودغست كانت منزلاً لملك غانا قبل أن يدخل العرب غانا. وهذا يدل على أهمية مدينة أودغست كعاصمة لأول مملكة على طرف الصحراء الكبرى الجنوبي، وكمركز تجاري هام ربط بين شمال أفريقيا وغربها منذ وقت سابق لدخول العرب المسلمين. ولاحظ المؤلفون العرب أهمية موقع أودغست،

وأودغشت لم تكن مجرد محطة استراحة للقوافل القادمة من الشمال فقد مثلت النهاية الجنوبية لواحد من أهم الطرق التجارية في تلك الفترة، ألا وهو الطريق القادم من سجلماسة مروراً بوادي درعه ليصل، بعد رحلة شاقة وطويلة عبر الصحراء، إلى أودغشت كأول محطة له في بلاد السودان. لذلك قامت فيها حركة تبادل تجاري عظيمة، حيث شهدت أسواقها مبادلة البضائع المختلفة من الشمال ومن الجنوب.

ومدينة أودغشت بهذا الوضع الاقتصادي شابته مدينة سجلماسة، فموضع أودغشت الحيوي أدى الى تطورها وازدهارها كمركز تجاري هام، حيث كونت حلقة وصل بين السودان الغربي وبلاد المغرب في تلك الناحية، وهو نفس الدور الذي لعبته سجلماسة بالنسبة للجهة الشمالية من الصحراء⁽¹⁾.

وبلغت أودغست قمة نشاطها في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. فقد كان وصف مؤلفات القرن الرابع لها واضحاً، حتى لو اعتبرنا أن الكثير من ذلك الوصف يصدق على نشاط القرن الثالث الهجري فقط، فإن البكري في أول القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي وصف أسواقها عامرة الدهر كله، وكثرة تجارها من العرب وقبائل البربر، ووصف سكانها بالثراء العريض، حيث يقول: "وسكانها أهل إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم وبها نبذ من سائر الأمصار" ويتضح من هذا النص أن العناصر الليبية كانت عناصر بارزة في المجتمع في أودغشت. وقد وصف البكري مدينة أودغشت بأنها كبيرة حسنة المباني ومساجدها كثيرة، وقال عن أهلها أنهم كانوا أصحاب نعم وأموال جليلة. ويؤكد البكري ذلك بحديثه عن تجارها وأسواقها، حيث قال عن تجارها: "ويتجهز إلى أودغشت بالحاس المصنوع وبثياب مصبغه. ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد. ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطاً مقتولة، وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض وأصح"، أما وصفه لأسواقها فإنه يؤكد ما سبق وقلناه عن كثافة النشاط التجاري فيها، يقول البكري "وسوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسة لكثرة جمعه وضوضاء أهله"⁽²⁾.

وفي نهاية القرن الرابع الهجري دخلت أودغست تحت سيادة مملكة غانا، فاتصلت اتصالاً مباشراً بتجارة التبر، وأصبحت المركز الصحراوي المقدم لغانا. وبعد قيام دولة المرابطين في الصحراء الغربية خلصوا أودغست من نفوذ غانا، واستعملت صنهاجة سيادتها على المدينة، لكن بدأ دورها كمركز تجاري هام في الصحراء الغربية، يقل ويضعف للظروف التي تجددت في المنطقة. فمملكة غانا بدأت تواجه المشاكل في حدودها الجنوبية، بعد أن تخلصت من المرابطين منذ نهاية

فجعلوها معبراً هاماً للدخول إلى مملكة غانا في باكورة إنتاجهم؛ انظر: البكري، المسالك والممالك ص 168؛ الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 197.

⁽¹⁾ الحبيب الجنحاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، بيروت، دار الطليعة ط 1، 1980م، ص 81، 82.

⁽²⁾ البكري، المسالك والممالك ج2، ص344؛ الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا، ص 197.

القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وفي نفس الوقت انتقل مركز الثقل لدولة المرابطين شمالاً، فلم تعد أودغست كما كانت عاصمة للصنهاجيين، بالإضافة إلى ذلك عم الجزء الغربي من الصحراء الغربية جفافاً أدى إلى بداية الهجرة من المنطقة⁽¹⁾.

9.2.5. الإسكندرية

تعد مدينة (الإسكندرية) أهم مراكز التجارة الخارجية البحرية ومدخل تجارة بلاد المغرب عامة والمناطق الليبية الشمالية على وجه الخصوص، إلى مصر والشرق الأقصى⁽²⁾ خلال فترة الدراسة. فكان يصدر منها معظم المنتجات المحلية والواردات الأسيوية، بيد أن أهميتها ترجع إلى تصدير غلات الشرق أكثر من غلات مصر، كما كانت من أهم مراكز تصدير الكتان إلى بلاد المغرب. وتوثقت الصلات التجارية بين الإسكندرية وموانئ ليبيا.

وترجع أهمية الإسكندرية أنها تعتبر ملتقى التجار من كافة أقطار العالم المعروفة آنذاك ومنهم المغاربة، وقد ذكر بنيامين التطلّي (561 – 569 هـ/ 1165 – 1173م) ذلك أثناء رحلته وعدد جنسيات التجار الأجانب التي تصل إلى الإسكندرية ومنها تجار المغرب الأدنى، فيقول: " وإسكندرية بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم. يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة من البندقية والأنبرذية... وعدوة الغرب وإفريقية وجزيرة العرب ونواحي الهند وزويلة والحبشة ولبسة واليمن والعراق والشام واليونان المعروفين بالروم والترك"⁽³⁾، كما أن المصادر تؤكد لنا وجود المغاربة خاصة الليبيين مثل الطرابلسيون في الإسكندرية واعتناء السلطان صلاح الدين الأيوبي بهم، حتى أنه خصص لهم سبيل يعرف بسبيل المغاربة، كانت مهمته العناية بأبناء السبيل من هؤلاء، خاصة فيما يخص مأكلمهم⁽⁴⁾.

من خلال ما سبق يتبين أن التجارة البرية الليبية خلال فترة البحث، قد شهدت اتساع نطاقها بشكل بارز، فبالإضافة للمراكز التجارية الليبية الداخلية التي شملها هذا النشاط التجاري البري، فقد شمل ذلك أيضاً مراكز تجارية اقليمية بل ودولية في تلك الفترة، حيث امتد نطاق هذا النشاط إلى مراكز مغربية مثل القيروان وتلمسان، ومراكز افريقية أغاديس والكانم والبرنو وتمبكتو، بل ومراكز من الشرق مثل الإسكندرية؛ وإن دل هذا فإنما يدل على مدى ازدهار وتنوع النشاط التجاري البري الليبي خلال فترة البحث.

(1) البكري ، المسالك والممالك ج2، ص355؛ الجهيمي: دراسات في تاريخ مملكة غانا ، ص202.

(2) شوقي عبد القوى عثمان حبيب: التجارة بين مصر وأفريقيا ، ص51.

(3) بنيامين التطلّي ، رحلة بنيامين التطلّي ، ص358، 359 ؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة1996م، ص72 .

(4) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص15.

الخاتمة

شهدت ليبيا خلال العصر العربي الإسلامي كغيرها من البلاد العربية حركة نشطة دؤوبة في المجال التجاري كمنطقة بيئية حيوية للبلاد العربية والقارة الأفريقية، وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي نفس الوقت جامعة لتجارات الشرق والغرب والشمال والجنوب التي شجعت بدورها النشاط التجاري المحلي بين مدنها وقراها لتكون طرقاتاً ومحطات تجارية، وأسواقاً متنوعة لتبادل السلع والمنتجات المحلية والخارجية، والقيام بالدور ذاته على المستوى الخارجي في نقل المنتجات الليبية للبلاد العربية والأفريقية والأوروبية، ومنتجات هذه البلدان إلى ليبيا.

إن الموقع الجغرافي الحيوي لليبيا، والمتمثل في وقوعها في قلب العالم بجهاته المختلفة، فهي على المستوى الخارجي في قلب القارة الأفريقية من جهة الشمال، وتطل على القارة الأوروبية من جهة البحر المتوسط بشريط ساحلي طوله (1900 كيلومتر)، إلى جانب وقوعها بين الشرق العربي ومغرب، ولذا لا مفر من مرور التجارات العربية والأفريقية والأوروبية على أرضها، وتفعيل إسهاماتها في ذلك، وأما على المستوى الداخلي فليبيا تضاريسياً تتمتع بطبيعة متنوعة بين السهول والهضاب والجبال والصحراء، وسكانها مزيج هذه الثقافة ومعرفتهم بها، لهذا لاقت التجارة انسياباً وتطوراً بين هذا المزيج، ونشطت وازدهرت بين مدنها وقراها ومراكزها.

إن القبائل العربية الهلالية والسلمية قد أثرت في موضوع الاستقرار الداخلي بشكل مزدوج فكانت مصدر إستقرار سياسى ، إذا أحسنت السلطة الحاكمة استغلالها ، ومن ناحية أخرى كانت مصدر فوضى إذا كانت السلطة غير قادرة على السيطرة عليها ، ذلك ان هذه القبائل وجد فيها حكام البلاد فرصة للسيطرة على بعض القبائل واستغلال البعض منها على البعض الآخر.

إن ماتناقلته المصادر المختلفة من إشارات وآراء تنسب فيها للقبائل العربية مسئولية التخريب وزعزعة الامن و نعتهم بابشع النعوت ، ورغم ما يوجد فيها من الحقيقة ، إلا أنه لا يمكن أن نحمل العرب المسئولية التامة عن هذه الفوضى والتخريب ، بل أن ضعف السلطة المركزية في الدولة والصراعات التى كانت تحدث بين الحكام على السلطة تكاثفت كلها مع بعضها البعض وأدت إلى بروز الفتن والاضطرابات والضعف والتفكك ، وفى نهاية المطاف شجعت العديد من الولايات والاقاليم على رفع عصى الطاعة وإعلان استقلالها .

أجمعت المصادر الجغرافية وكتب الرحلات أن برقة كانت عامرة بأشجار الفواكه والزروع لخصوبة تربتها الحمراء الخلوقة، وأن أهلها يتواردون على مصر للتجار، ويتميزون في الفسطاط من بين أهل المغرب لاحمرار ثيابهم أي لكثرة اشتغالهم بأرضهم الخصبة ذات اللون الأحمر، وذكر

الجغرافيون أنواعاً لمنتجات ليبيا من الفواكه كالجوز والسفرجل والخوخ والكمثرى والكروم، وأشجار الزيتون والنخيل المنتشرة في أرجاء البلاد الليبية من برقة واجدانية مروراً بسرت حتى طرابلس، وتمتد إلى أفريقية وبلاد المغرب، وإلى أكثر الواحات بالمدن والقرى الجنوبية لليبيا، وإلى جانب ذلك لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفال أهم المزروعات المنتشرة في البلاد الليبية، وزاد السوق الليبي والأفريقي والأوروبي، والذي اعتمد عليه أهلها وولاتها اعتماداً رئيسياً تمثل في زراعة القمح والشعير في اجدانية وسرت وجبل نفوسه وطرابلس وغيرها من المناطق، حيث ذكرت المصادر أن الشعير كان يزرع بكثافة حول مدينة طرابلس لاسيما في وادي سوف الجين.

إن وجود هذا الإنتاج وهذه الأصناف الزراعية نتج عنه عملية حتمية لنشوء متاجر محلية، وخارجية، إذ لا تكاد تخلو بلدة من ليبيا من وجود سوق لها حسبما تذكر المصادر الجغرافية، وكتب الرحلات، وترويج هذه السلع بين أهلها والوافدين عليها من طالبي الاتجار بمنتجاتها، ونقلها من مكان إلى آخر مثلما يحدث اليوم في أسواق بلادنا.

وإلى جانب النشاط الزراعي وجدت ممارسة تجارية لمنتجات متنوعة كاحتراف مهنة الرعي التي تعد من المصادر الأساسية للتبادل التجاري في الأسواق الليبية، والعربية وغيرها، وقد اشتهرت برقة بتربية الأغنام والماعز والإبل، حتى أنها كانت تصدره إلى مصر والإسكندرية، كما أقيمت العديد من الأسواق على الثروة الحيوانية، وأصبحت مصدراً تجارياً لليبيا في الداخل والخارج، فأسواق برقة تميزت بتوفر الأكسية والثياب الصوفية وبيع الصوف حتى أصبحت تصدر الفائض من منتجاتها من الثياب الصوفية والألبسة إلى بلاد المغرب، والصوف الخام إلى مصر، ومن مدينة سرت حيث كانت تصدر الأكسية والبسط الصوفية، وكذلك مدينة لبدّة التي تصدر زيت الزيتون، ووجدت الصناعة والتجارة في كل من اجدانية وبرقة وسرت وطرابلس، كما وجدت العديد من المنتجات المحلية التي نالت نصيبها من التجارة المحلية والعربية والأفريقية والأوروبية كالعسل والملح والقطران والشب والجلود وغيرها.

وأوضحنا أن الطرق التجارية التي تمر بالبلاد الليبية، ومنها إلى خارجها خلال العصر العربي الإسلامي قد أسهمت بدور كبير في تنشيط حركة التجارة الليبية بين مدنها وقرائها، ونحو المشرق والمغرب الإسلاميين وأفريقيا وأوروبا، وتبين لنا من خلال هذه الدراسة المسافة التي تقطعها القافلة والتي تمتد إلى آلاف الأميال، والمعاناة والصعاب التي يواجهها التجار في سبيل ترحيل سلعهم على ظهور الجمال التي لا تزيد سرعتها في الغالب على العشرين ميلاً في اليوم، وكذلك ساهمت هذه الطرق في الربط بين المراكز التجارية، والتي لم تنحصر في الطرق البرية فحسب بل تعدتها للطرق البحرية التي كان لها نصيب وافر في عملية نقل السلع والبضائع داخل المراكز التي يتعذر الوصول إليها عن طريق البر.

وبذلك فإن ليبيا كانت تعج بالطرق التجارية بين مدنها وقرائها ومراكزها التجارية، والتي أغلبها كانت آمنة، وتتوفر فيها الحياة والنجاة مما ساهم في ازدهار حركة التجارة الداخلية والخارجية في ذلك العصر.

أدى نشاط الحركة التجارية في ليبيا إلى تعدد وسائل المعاملات المالية، فإلى جانب العملة

النقدية من الدينار الذهبية، والدرهم الفضية وجدت وسائل أخرى منها المقايضة، واستعمال الصكوك، والقماش، والودع، وغيرها، وجميع هذه المعاملات والوسائل سهلت العملية التجارية داخل الأسواق، وشجعت قطاعات كبيرة من المواطنين في الاشتغال بالتجارة، ومتطلباتها، مما أدى إلى تنوع مصادر الكسب في المراكز التجارية، ونمت التجارة الداخلية، وظهرت الصناعات اليدوية.

وخلاصة هذه الدراسة أن الحركة التجارية في ليبيا كانت مجالاً حيوياً لحركة النشاط التجاري ليس على مستوى مدنها وقراها وتضاريسها فحسب، بل تعداه لتكسب صفة منطقة التجارة العربية والعالمية عبر قارتين كبيرتين هما أفريقيا وأوروبا لشهرة منتجاتها الزراعية والحيوانية، وحرفها وصناعاتها المختلفة، والأهم من ذلك أنها صاغت حركة حيوية وشهرة واسعة في مجال تجارة القوافل البرية التي تحدت الصحراء والرمال الزاحفة لتصل بتجارها إلى وسط أفريقيا وغربها، وبالتالي تساهم بدورها في نقل منتجات أفريقيا إلى ليبيا وإلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، وكذا الحال من الشرق إلى الغرب والعكس.

والحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

اولا : القرآن الكريم .

ثانيا : الوثائق العربية والمعربة المنشورة:

- اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي أبي يحيى زكرياء وحكومة بيزة في عام 713 هـ ، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino تحت رقم 29.
- اتفاقية للسلام والتجارة بين المنصور الموحدى وحكومة بيزة ، وهي مؤرخة باوائل رمضان 582 هـ، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino 1863 ، تحت رقم 5.
- الرسالة - أو السجل - المعروف باسم الهداية الأمرية فى إبطال الدعوة النزارية، قام بنشرها جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الاولى 2002م، تحت رقم 4
- رسالة من أبي سعيد بن أبي الحسن الأيزارى في بلرم إلى أخيه الأكبر أبي البركات في الفسطاط ، في حدود عام 1140م ، ترجمة أمين توفيق الطيبي في كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، ج-2 ، ص 155 ، 156 ، نشر Goitiein. S.D : Letters of Medieval Jewish Traders , Princeton University , Press1973. Pp 325, 326.
- رسالة من الأمير أبوزيد عبد الرحمن والى تونس إلى حاكم بيشة بتاريخ 26 رجب 598 = الموافق 23 مارس 1202 تقريباً ، بخصوص التأكيد على حفظ ورعاية التجار بين الطرفين ، ومحذراً من التعامل مع الثائر بالمهدية عبد الكريم ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ، تحت رقم 21 .
- رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي الي التاجر البيزي الكبير باج ، حول معاملات تجارية بينهم ، مؤرخة بعد عام 597 هـ ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ، تحت رقم 15 .
- رسالة من التاجر محرز القابسي الي التاجر الكبير باج البيزي، حول معاملات تجارية بينهم، تاريخها بعد عام 597 هـ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ، تحت رقم 14 .
- رسالة من الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص والى افرقية إلى حاكم بيشة ، بتاريخ 28 ربيع الاول 607 = 19 سبتمبر 1210م ، حول الالتزام بالمعاهدات مع

- الموحدين وحسن معاملة التجار بين الطرفين ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ، تحت رقم 26 .
- رسالة من عبد الرحمن بن أبي الطاهر الناظر بديوان افريقية الي حكومة بيزة، حول قضية المسطحات، مؤرخة بـ 596 هـ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم 6.
- رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خرسان حاكم تونس إلي حكومة بيزه ، لتوضيح خلوا سفينة جاءت من الإسكندرية من الأسري البيزيين وتسهيلات للتجار البيزيين في تونس خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino 1863، تحت رقم 1.
- وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين ، نشر ممدوح حسين على حسين : الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري [سنة 668-792هـ/1270-1390م].
ب - الوثائق الأجنبية المنشورة:

- A Lawsuit of Ibn Sughmar vs. Joseph Lebdi in Session of the Rabbinical Court of Fustat, Fustat, November 12, 1097,(ULC Add. 3416) , Published by Mordechai Akiva Friedman, Goitein. S.D: India Traders of the Middle Ages (Documents from the Cairo Geniza), the Ben - Zvi Institute Jerusalem, Brill, Leiden, Boston 2008, pp213 – 215.
- A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India {Aden, 11 September, 1149}, TS 10 J 10, f. 15, Published by Mordechai Akiva Friedman, Goitein. S.D : India Traders of the Middle Ages (Documents from the Cairo Geniza), the Ben - Zvi Institute Jerusalem, Brill, Leiden, Boston 2008, pp681-687.
- A Letter from Abūn b. Saadaqa in Jerusalem to Heayyim b. ‘Ammār al-Madīnī in Alexandria, Letter dated 17 March 1055. The original document is in the Taylor-Schechter Collection, Cambridge University, with shelfmark TS 13J 25.12. English translation, from the Hebrew version in Gil (1983b), published in Simonsohn (1997), No. 105, 209-12. Jeremy Edwards, Sheilagh Ogilvie: Contract Enforcement, Institutions and Social Capital: the Maghribi Traders Reappraised, University of Cambridge, March 2009.
- A Letter from Joseph Lebdi to Hasan b. Bundar Fustat, 1098(Bodl. MS. Heb. d. 66 (Cat. 2878), fols. 66, 67), Published by Mordechai Akiva

Friedman, Goitein. S.D: *India Traders of the Middle Ages* (Documents from the Cairo Geniza), the Ben – Zvi Institute Jerusalem, Brill, Leiden, Boston 2008, pp198-202.

Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, relativement au commerce de leurs États et au tribut dû par le roi de Tunis au roi de Sicile depuis le règne de Charles d'Anjou. Capmany, en 1285, 2 juin, t. IV, p. 9. Archives de la couronne d'Aragon. Ex regest. Petri III, ab ann. litteræ B, fol. 81, publié par Mas Latrie; *Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age*, Paris 1960.

Un Traité de commerce, conclu dix ans, entre Abou-Abd-Allah Mohammed Monstancer-Billah, roi de Tunis, et la république de Gênes, par Guillelmino Cibo, ambassadeur génois, en 18 octobre 1250 (A tunis). Publié par m. de Sacy, *Notices ET extraits des manuscrits, etc. T. XI*, p.22, publié par Mas Latrie; *Traite de Paix ET de Commerce les Relatio Divers ET Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age*, Paris 1960.

Un Traité de paix ET de commerce conclu pour Dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon ET de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis, en 1271, 14, février. Revu sur l'original de l'expédition notariée faite à Tunis, en 1278 pour le roi de Majorque, par Mas Latrie; *Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age*, Paris 1960.

Un Traité de paix ET de commerce pour quarante ans entre Marin Morosini, doge de Venise, ET Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, négocié à Tunis par philippe Giuliani, ambassadeur vénitien, en 1 avril 1251 (A tunis). Venise. *Archives generals. Libri. Pactorum*, I, fol.164 v; ET *Libri. II*, fol.3, publié par Mas Latrie; *Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age*, Paris 1960.

ج - المصادر العربية :

1- المصادر المخطوطة :

- ابن إياس ، محمد بن احمد (852-930هـ / 1448 - 1524م): نشق الأزهار في عجائب الأقطار، مخطوط بالمكتبة الأزهرية تحت رقم 279 - 6639 جغرافيا، أباطة، ورقة18.
- ابن رفعة ، أبو العباس نجم الدين احمد الشافعي، (ت 710 هـ/1311م) : الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ، دار الكتب المصرية ، نشر موقع ziedan.com .
- ابن سعيد ، عبدالسلام بن سعيد بن حبيب (الامام سحنون) ،(ت854هـ/240م): المسائل المتعلقة بالمغارة ، مخطوط بمركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، قسم الفقه ، رقم 1714 .
- إيليا المطران: مقالة إيليا المطران في المكيال والأوزان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم99 رياضيات /ورقة5 .
- الباروني ، سليمان بن أيوب بن يوسف: أخبار مشائخ أهل الدعوة ، مخطوط بمركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، رقم ، 2118 .
- البغطوري ، مقرين بن محمود ، (ألفه سنة 599هـ -- 1202م): تاريخ جبل نفوسة القديم أو أشياخ نفوسة أو سيرة نفوسة منقولة عن الاصل الموجود في مكتبة جربة التونسية ، ورقة رقم 78 .
- الشافعي ،ابوالعباس نجم الدين أحمد بن محمد بن على الرفعة :الإيضاح والتبيين فى معرفة المكيال والميزان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة
- الشطبي ، عبدالله بن على بن محمد بن حسين بن حيون ، (ت 963هـ/1555م) :الجمان فى أخبار الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، تحت رقم 330 تاريخ ، ميكروفيلم رقم 14197 .
- مجهول: - كتاب في الأوزان والمكاييل :مخطوطة بدير الاسكوريال نشر موقع ziedan.com .
- المسعودى ، على بن الحسين :أخبار الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، تحت رقم 879 ، ميكروفيلم .
- المقرئزي ، تقي الدين أحمد بن علي،(ت 845هـ-/1441م): جني الأزهار من الروض المعطار في عجائب الأقطار، مخطوط بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم 972 جغرافيا، ميكروفيلم4624

2 - المصادر المطبوعة :

- بن أبي دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني،(ت 1110 هـ / 1698م).

- ابن أبي زرع ، أبو الحسن على بن عبد الله الفاسي ، (ت 726 هـ / 1325 م) : الأنييس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م.
- ابن ادم القرشي ، يحيى بن ادم بن سليمان القرشي الأموي، (ت 203 هـ - 818م): كتاب الخراج، تحقيق حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1987م.
- ابن الأبار ، محمد بن عبد الله بن ابي بكر ، (ت 658 هـ/1260م): الخلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1985 م .
- ابن الأثير ، أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزري، (ت 630 هـ/1232 م) :الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1987 م .
- ابن الاخوة ، محمد محمد بن القرشي (ت729ه/1329م) :معالم القرية فى أحكام الحسبة ، نشر : روبين ليفى ، كمبردج ، 1938م.
- ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد ،(ت 776 هـ - 1374 م) : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية 1975-1977م.
- ابن الشماخ ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (كان حياً في منتصف القرن 9 هـ / 15م) :الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس 1984م.
- ابن الصباح ،المدجن الحاج عبد الله(عاش في أواخر ق8 هـ) : رحلة المدجن الحاج عبد الله بن الصباح، تحقيق محمد بنشريفة، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى2008م.
- ابن الصغير المالكي :أخبار الائمة الرستميين ، تحقيق : محمد بن ناصر و ابراهيم فخر ، بيروت ، 1986م
- ابن الفقيه الهمذاني ، أحمد بن محمد (ت395ه / 1007م): مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1885 م .
- ابن القطان المراكشي ، أبو محمد حسن بن على الكتامي ،(ت 628 هـ - 1231 م) : جزء من كتاب [نظم الجمال لترتيب ما سلف من أخبار الزمان] ، تحقيق محمود على مكي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1990 م .
- ابن بصال، عبد الله محمد بن إبراهيم الطليطلى ، (ت ق6ه /9م) :كتاب الفلاحة، نشره خوسيه مارية مياس بيكروسا، مطبعة كريماديس، تطوان، المغرب1955م.
- ابن بطوطة ، شمس الدين أبي عبد الله محمد اللواتي الطنجي ،(ت779هـ-1377م) : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت 1992 م .
- ابن بعرة ، منصور الذهبي الكاملى، (ت أواخر القرن 7 هـ - / 13 م) : كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق عبد الرحمن فهمى ، القاهرة 1954 م .

- ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، (ت 614 هـ / 1217 م) : رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، د.ت
- ابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد (ت 456هـ/1063م) : جمهرة أنساب للعرب ، تحقيق : بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، 1962م.
- ابن حوقل ، أبو القاسم بن علي البغدادي النصيبي ، (ت 380هـ/1.90م) : صورة الأرض ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت 1992م.
- ابن خرداذبة ، ابوالقاسم عبيدالله بن عبدالله (ت 300هـ/912م) : المسالك والممالك ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت.
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، (ت 808هـ/1406م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت 2000م : مقدمة ابن خلدون ، دار ابن خلدون ، الإسكندرية ، د.ت.
- ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد ، (ت 681هـ/ 1282 م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1994م.
- ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر ، (كان حياً مطلع القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : الأعلام النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن 1891م.
- ابن سعيد ، ابو الحسن علي بن موسى ، (ت 685هـ/1286م) : بسط الأرض بالطول والعرض ، تحقيق د.خوان قرنيط خينيس ، تطوان 1958م . كتاب الجغرافيا ، تحقيق : اسماعيل العربي ، ط2 ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1982م .
- ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجي ، (ت 594 هـ / 1198 م) : المن بالإمامة { تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين } ، تحقيق عبد الهادي التازي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة 1987م .
- ابن عبد الرعوف ، أحمد بن عبد الله ، (من أهل القرن 6هـ - 12م) : رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار الشرقية ، القاهرة 1955 م
- ابن عبد الظاهر ، محي الدين عبد الله (ت 692هـ/1293م) : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، الطبعة الاولى 1976م.
- ابن عبد الملك المراكشي ، ابو عبد الله محمد بن محمد ، (ت 703هـ/ 1303م) : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تحقيق محمد شريفة ، مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية ، المغرب 1984م .
- ابن عبدالحكم ، عبد الرحمن بن عبدالحكم بن أعين (ت 257هـ/871م) : فتوح مصر واخبارها ، مطبعة بريل ، 1930م.
- ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد ، (كان حياً في 712 هـ / 1312 م) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين) ، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زبيير ومحمد

- بن تاويت و عبد القادر زمامة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1985م. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ج . س . كولان ، ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثالثة 1983م.
- ابن عمر ، يحيى عمر بن الأندلسي : لنظر والاحكام فى جميع احوال السوق ، تحقيق : فرحات الدشراوى ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1975م .
- ابن غالب الأندلسي ، أبو عبد الله محمد البلنسي، (عاش في القرن 6هـ/ 12م): قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، نوفمبر 1955.
- ابن غلبون الطرابلسي، أبو عبد الله محمد بن خليل، (كان حياً عام 1132هـ/ 1719 م :تاريخ طرابلس الغرب المسمى "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار" ، تحقيق الطاهر احمد الزاوي ، المطبعة السلفية ، القاهرة 1349هـ.
- ابن فرحون ، إبراهيم بن على بن محمد ، (ت799هـ / 1411م) :الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، تحقيق : محمود الجنان ، بيروت ، 1996م .
- ابن قنفذ القسنطيني ، أبو العباس احمد بن حسين بن على، (توفى سنة 810هـ/ 1407م): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968م.
- ابن مليح ، محمد بن أحمد القيسي (عاش بمنتصف القرن 11هـ - 17م): أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب، سيد الأعاجم والأعارب، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الشؤون الثقافية والتعليم، فاس 1968م.
- ابن مماتي ، اسعد بن مهذب بن زكريا، (ت 606هـ / 1209م): كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوربال عطية ، مكتبة المدبولى ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1990م .
- ابن منظور ،جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ / 1311م): لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د - ت.
- ابن وحشة ، ابوبكر أحمد بن على بن قيس (عاش في القرن الثالث الهجرى): الفلاحة النبطية ، تحقيق : توفيق مهند ، منشورات المعهد العلمى للدراسات العربية ، دمشق ، 1993م.
- أبو الحسن الحكيم ، على بن يوسف، عاش خلال النصف الثاني من القرن 8هـ/ 14م) : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد 1-2، 1958م.
- أبو العباس السبتي ، أحمد بن محمد العزفى ، (ت 633 هـ / 1236م): إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمدّ ، تحقيق محمد الشريف ، المجمع الثقافى ، أبو ظبى - الإمارات العربية المتحدة 1999م .
- ابوالعرب ، محمد بن احمد بن تميم القيروانى (ت944/333هـ) :طبقات علماء إفريقية وتونس ، تقديم وتحقيق : على الشابى ، نعيم حسن اليلفى ، الدار التونسية للنشر ، 1968م .

- الأبى ، أبى عبد الله محمد بن خلفه الوشتانتى، (ت 828 هـ /-1425) : إكمال إكمال المعلم ، المكتبة الخديوية ، القاهرة 1328 هـ
- أبى الفداء ، عماد الدين اسماعيل ، (ت732هـ/1331م). تقويم البلدان، دار صادر، بيروت دت.
- أبى زيد القيروانى ، الإمام أبى محمد عبد الله ، (ت386 هـ /-996م) : الرسالة في فقه الإمام مالك ، تحقيق عبد الوارث محمد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دت .
- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد المعروف بالشريف الإدريسي، (ت562 هـ /-1166م): نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى 1409 هـ.
- الاشبيلي ، بكر بن إبراهيم :التيسير فى صناعة التفسير ، تحقيق : عبدالله كانون ، فصله من مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد السابع والثامن ، 1959م.
- الاصطخرى، إبراهيم بن محمد الفارسي، ت في النصف الأول من القرن 4هـ - / 10م :المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 2004م.
- الاصطخري، أبى اسحق الفارسي ، (ت في النصف الأول من ق4 هـ-): لمسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 2004م.
- البرزلى أبى القاسم بن أحمد البلوي التونسي، (ت 841 هـ - / 1438م) :فتاوى البرزلى جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى 2002 م .
- البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز ، (ت 487 هـ - / 1094م) : المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2003م.المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، نشره البارون دوسلان ، الجزائر ، 1857 م معجم ما أستعجم من اسم البلاد والمواضع ، تحقيق : مصطفى السقا ، مكتبة الخنجى ، القاهرة ، المجلد الاول ، 1996 م .
- بنيامين التطيلي ، ابن يونه التطيلي النباري الأندلسي ، (ت 569 هـ - / 1173م) :رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمها عن العبريه عزرا حداد ، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، المجمع الثقافي ، ابو ظبي 2002 م.
- البيزق ، أبو بكر الصنهاجى، (كان حياً في النصف الأول من القرن 6 هـ / 12 م) :أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1971م .
- التجاني ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد ، (675هـ /-1272م تقريباً): رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس 1981 م.
- الثعالبي ، ابن منصور عبد الملك بن محمد اسماعيل (ت429هـ/1037م) :الأعجاز والايجاز ، شرح اسكندر أضاف ، المطبعة العمومية ، مصر، 1879م.

- الجوزرى ، ابوعلی منصور العزیزى(ت -- منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) : سيرة الاستاذ جودر ، تحقيق : محمد كامل حسين وعبدالهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، 1954م .
- الحسن الوزان ، الحسن بن محمد الفاسى الزيتاى،(ت960 هـ / 1552 م): وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة2005م.
- الحميرى ، محمد بن عبد المنعم ، (ت في أواخر القرن 9 هـ / 15 م) : الروض المعطار في خير الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الثانية 1984 م .
- خيرالدين الزركلى : الاعلام ، قاموس تراجم لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط5 ، 1980م.
- الدباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصارى ،(ت 605 – 696 هـ) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تحقيق محمد ماضور ، مكتبة الخانجي ، القاهرة1388هـ.
- دمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم أبو طالب الأنصارى/ت727هـ/1326م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد د.ت.
- الدوادارى: كنز الدرر وجامع الغرر، الدررة المضوية في أخبار الدولة الفاطمية ، المعهد الألماني للآثار ، القاهرة1961م.
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد ،(ت748هـ/1374م) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، الطبعة الأولى 1995-1997م. المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس1286هـ.
- الزجالى ، أبو يحيى عبيد الله بن أحمد القرطبي ،(ت 694 هـ/1295م) : أمثال العوام في الأندلس مستخرجة من كتابه ، ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام ، تحقيق محمد بن شريفة ، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية ، فاس1971م .
- الزركشى ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن لؤلؤ ، (ت بعد 932 هـ/1525م) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ، الطبعة الثانية 1966م .
- الزهرى ، أبى عبد الله محمد بن أبى بكر ، (توفى في أواسط القرن السادس الهجرى): كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت.
- السبتي ، محمد بن القاسم الانصارى (ت بعد سنة 825هـ): اختصار الاخبار عما كان بثغر سبنة من سنى الآثار ، تحقيق : عبدالوهاب بن منصور ، ط2 ، الرباط ، 1983م.
- السقطي ، أبو عبد الله محمد بن أبى محمد المالقي، (عاش في القرن 6 هـ / 12 م) :كتاب في آداب الحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة إرنست لورو ، باريس 1931م.
- السلاوى ، أحمد بن خالد الناصرى (ت1319هـ/1901م) :الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصرى ، الدار البيضاء ، 1954م .
- الشماخي ، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت928هـ/1522م):كتاب السير، تحقيق محمد حسن تونس1979.

- الشيرازى ، عبدالرحمن بن نصر بن عبدالله،(ت774هـ / 1386م): نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق : الباز العرينى ، القاهرة ، 1946م.
- عبد الله بن بلكين ، الأمير عبد الله بن باديس ، (كان حيا في القرن 5هـ / 11م) : مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .
- عبد الواحد المراكشي ، عبد الواحد بن على ، (ت669هـ / 1270م) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهوارى، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى 2006م. وثائق المرابطين والموحدين ، تحقيق حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1997م .
- عبدالرحمن السعدى :تاريخ السودان ، طبعة هوواس ،انجى ، 1898م.
- عبدالله محمد بن على بن حماد،(ت 628هـ / 1231م): أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق وتعليق : جلول احمد البدوى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984م .
- العبدري ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الحاحي ،(ت حوالي 700 هـ / 1300م) : رحلة العبدري (الرحلة المغربية) ، تحقيق محمد الفاسى ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب 1968م.
- العذري ، أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي ، (ت478هـ / 1085م) : نصوص عن الأندلس (من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد د.ت .
- العمري، شهاب الدين احمد بن فضل الله ،(ت 749هـ - / 1348) :مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق حمزة أحمد عباس ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة 2002م .
- العياشى ، ابوسالم عبدالله بن محمد بن ابى بكر (ت1090هـ / 1702م) :الرحلة العياشية أو ماء الموائد ، طبعة فاس ، 1316هـ .
- عياض ، القاضي ابو الفضل عياض بن موسى (ت 550هـ / 1149م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1998م. تراجم أعلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، 1968م .
- فتوح مصر والمغرب ، تحقيق : عبدالمنعم عامر ، القاهرة :فتوح إفريقية والاندرلس ، تحقيق : عبدالله أنيس الطباع ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1964م.
- القاضي النعمان ، أبي حنيفة بن محمد التميمي المغربي ، (ت363هـ - / 974م) : كتاب افتتاح الدعوة ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 2005م .
- قدامة ، ابن جعفر الكاتب البغدادي(ت948هـ / 337م) . الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق : جمال الرافع ، مكة المكرمة ، 1978م .
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود، (ت682هـ - / 1283 م) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت 1979م.

- القلقشندي ، أبو العباس احمد بن على ، (ت 821هـ / 1418 م): صبح الأعشى في صناعة الانشا ، تقديم فوزي محمد أمين ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة 2005م .
- لشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الاندلسي ، (ت 790هـ / 1388 م) : فتاوى الإمام الشاطبي ، تحقيق محمد أبو الأحناف ، نهج لواز ، الوردية - تونس ، الطبعة الثانية 1985م .
- لفرطاس ، ابوالعباس احمد بن محمد بن بكر النفوسى . القسمة وأصول الارضيين ، تحقيق : بكير بن محمد بن الشيخ بلحاج بن ناصر ، المطبعة العربية ، غرداية ، الجزائر ، ط2 ، 1997م
- لقرماني ، أحمد بن يوسف ، (ت1019هـ/1110م) : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، تحقيق أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى 1992م .
- مارمول، كارفجال ، (عاش في منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي). إفريقيا ، ترجمة محمد حجي وآخرين ، مكتبة المعارف ، الرباط ، ج3 ، 1984م.
- المازري ، أبو عبد الله محمد ، (ت536هـ/1141م): فتاوى المازري ، تحقيق الطاهر المعموري ، مركز الدراسات الاسلامية بالقيروان ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1994م .
- المالكي، عبدالله بن عبدالله ، (ت نهاية القرن الرابع الهجرى /العاشر الميلادي) :رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسیر من اخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، تحقيق : بشير البكوش ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، ط2 ، 1994م.
- المجلیدی ، أحمد بن سعيد ، (ت1094هـ/1683م) ،التسيير فى أحكام التسعير ، تحقيق : موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، 1970م .
- مجهول (عاش في القرن السابع الهجري) : تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية ، وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك ، تحقيق محمد الشريف ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، العدد 11 صيف 1999م.
- مجهول (من أهل القرن الثامن الهجري) : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى 1979م .
- مجهول نبذة تاريخية فى أخبار البربر ، تحقيق : بروفنسال ، رباط الفتح ، 1934م .
- مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1985م.
- مجهول : كتاب عن الصناعة المعدنية بالسوس ، تحقيق عمر أفا، في (متنوعات محمد حجي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1998م .
- المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله بن احمد، ت حوالي390هـ-/1000م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن 1906م.
- المقرئ ، شهاب الدين احمد بن محمد التلمساني ، (ت 1041 هـ - / 1631 م) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها -- ابن الخطيب ، لسان الدين ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن احمد السليمانى ، (ت776هـ / 1374م). الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1988م.

- المقريري ، تقي الدين أحمد بن علي، (ت845هـ/1441م): اتعاض الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمي محمد احمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية 1996 م ، ج-2 ، ج-3. رسالة في النقود الإسلامية، ضمن كتاب ثلاث رسائل، مطبعة الجوائب ، قسطنطينية1398 هـ- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ الخطط المقريرية، تحقيق محمد زينهم – مديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1998 م.
- المنصوري(بيبرس/ت725هـ/1324م): مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة1993م.
- النائب ، أحمد بن حسين النائب الانصاري(ولد تقريبا 1226هـ) :المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، 1961م
- هيرودوت (ت 425ق م) : تاريخ هيرودوت ، ترجمة حبيب بطرس ، بيروت ، 1886م .
- الورثلاني ، الحسين محمد (ت1193هـ/1779م): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، (الرحلة الورثلانية)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية1974م.
- الونشريسي ، أبو العباس احمد بن يحيى،(ت914هـ/1508 م) : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب ، تحقيق محمد حجي وآخرين ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الرباط 1981م .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبى عبد الله،(ت 626 هـ / 1229 م): معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1977م .
- اليعقوبي ، أبو العباس احمد بن إسحاق ، (ت284هـ/897م) : البلدان ، مطبعة ليدن 1890 م.

ثالثا : المراجع العربية والمعرية والاجنبية :

أ - المراجع العربية والمعرية :

- إبراهيم حركات ، المجتمع الاسلامى والسلطة ، المغرب ، 1998م.
- إبراهيم على طرخان ، إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1970م.
- إبراهيم فخار ، تجارة القوافل في العصر الوسيط ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى(تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر)، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد.
- أنورى روسى ، ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911م ، ترجمة : خليفة التليسى ، دار الثقافة ، بيروت، 1974م .
- احسان عباس ، تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى ، دار ليبيا ، بنغازى ، 1967م

- احمد إسماعيل الجمال ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، كلية الآداب بدمهور ، جامعة الإسكندرية 2003م .
- احمد الطويلي ، في الحضارة العربية التونسية ، دار المعارف بسوسة ، تونس د.ت.
- احمد إلياس ، طرق التجارة في الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى، مركز جهاد الليبيين، طرابلس 1979م.
- احمد عزاوي ، رسائل موحدية (مجموعة جديدة) ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة ، جامعة ابن طفيل ، الطبعة الأولى 2001 م.
- احمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 2005م .
- آدم عبدالله الألوري ، موجز تاريخ نيجيريا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1965م.
- آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة : محمد عبدالهادي أبووريدة ، طبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، ط3 ، 1957 م .
- ارشيبالد . ر. لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500 – 1100 م) ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة د.ت .
- إسماعيل كمالى ، سكان طرابلس الغرب ، ترجمة حسن الهادي بن يونس ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس 1997م.
- إسماعيل محمود ، مغربيات ، فاس ، 1977 م .
- أمبرسيو هويثي ميراندا ، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد اكيمير ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2004م .
- أمطير سعد غيث احمد ، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي(خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة السادسة عشر والسابع عشر للميلاد)، دار المدار الإسلامي، بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى 2005م.
- إميركو كاسترو ، إسبانيا في تاريخها المسيحيون والمسلمون واليهود، ترجمة على إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى 2003م.
- أمين توفيق الطيبي ، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب 1997م.
- الامين عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وأثارها الحضارية حتى القرن 16م، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد 1984م.
- أوليفيا ريمي كونستبل ، التجارة والتجار في الأندلس ، ترجمة فيصل عبد الله ، مكتبة العبيكان ، الرياض 2002 م .
- براهيم العدوى ، بلاد الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1956م.
- بشير يوشع قاسم ، غدامس ملامح وصور ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1972 م .
- بطرس البستاني ، الصحراء في دائرة المعارف ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .
- بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة : الهادي بولقمة ومحمد عزيز ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، 1988 م .
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د.ت.

- ج.ت.نيانبي وآخرون ، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، باريس1988م، ج4.
- جان كلود زلنتر ، طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا، ترجمة جاد الله عزوز الطلحي، دار الجمهورية، مصراته، الطبعة الأولى2001م.
- جبريل ابوبكر على ، طرق القوافل وأثرها في تقوية العلاقات الثقافية بين ليبيا وجيرانها جنوب الصحراء ، ندوة التواصل الثقافي بين أقطار المغرب العربي ، كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية ، 1995م .
- جمال احمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين [448هـ-1056م إلى 668هـ/1269م] ، دار الوفاء ، الإسكندرية 2001م .
- جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة 1996م.
- جميلة امحمد التكتيك ، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير(1493 – 1528م)، مركز جهاد الليبيين، الجماهيرية العربية الليبية1998م.
- جواتين ب.س.د ، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ترجمة عطية القوسي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى1980م .
- جوان جوزيف ، الإسلام في ممالك وأمبراطوريات أفريقيا السوداء ، ترجمة : مختار السويقي، دار الكتاب المصري ، القاهرة، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1984م .
- جورج مارسيه ، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية1991م .
- جورجى زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامى ، مراجعة وتعليق : حسين مؤنس ، دار الهلال ، الاسكندرية ، 1968م.
- جوزيف كى . زيربو ، تاريخ افريقيا السوداء، دار الجماهيرية، الجماهيرية الليبية، الطبعة الأولى2001م.
- جوليان اندريه ، تاريخ إفريقية الشمالية، ترجمة محمد مزالي – بشير بن سلامة، دار التونسية للنشر، الطبعة الثالثة، 1985م.
- جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، تعريب : عبدالحفيظ الميار ، ط1 ، طرابلس ، 1972م .
- الحبيب الجنحاني ، المجتمع العربي الإسلامي " الحياة الاقتصادية والاجتماعية" ، سلسلة عالم المعرفة العدد 319 ، الكويت 2005م.
- حبيب وداعة الحسناوى ، الحج وأثره فى دعم الصلات العربية – الافريقية ودور فزان فى تسهيل قوافل حجاج السودان الاوسط حتى القرن الثامن ، أ،مال ندوة التواصل الثقافى الاجتماعى بين الاقطار على جانبى الصحراء ، تقديم : عبدالحميد عبدالله ، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، 1998م .
- الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ، 1982م.
- حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين فى العصر الاموى " الحياة الاجتماعية والاقتصادية والادارية " ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1988م
- حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ط3 ، مكتبة النهضة المصرية ، 1964م.
- حسن احمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1998م.
- الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار البيضاء ، الطبعة الثانية 1986م .

- الحسن السائح ، الحضارة الإسلامية في المغرب ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية 1986م.
- حسن حسنى عبدالوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، مكتبة المنار ، تونس ، 1964م.
- حسن خضيرى احمد ، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (362 - 567 هـ / 973 - 1171 م) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى د.ت .
- حسن على حسن ، تاريخ المغرب العربي، مكتبة الشباب، ط1، القاهرة د.ت.
- حسن عيسى عبدالظاهر ، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني ، الزهراء للإعلام العربى ، 1991م .
- حسنى محمد نوبصر ، الآثار الإسلامية ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، 1988م .
- حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى 1987م.
- الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس [عصر المرابطين والموحدين] ، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى 1980م .
- الحضارة الفنيقية في ليبيا ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2001م.
- حمد محمد الجهيمى ، دراسات في تاريخ مملكة غانا(فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين)، مجلس الثقافة العام، سرت - ليبيا 2008م.
- حمدى عبدالمنعم محمد حسين ، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1997م .
- خالد عزب ، الفسطاط (النشأة - الازدهار - الانحسار)، دار الأفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى 1998م.
- خليفة التليسى ، حكاية مدينة، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، د - ت.
- الدولة العبيدية في ليبيا، دار البيارق، عمان - الأردن، الطبعة الأولى 1998م.
- دى سانجس ، ج ، البربر الاصيليون(تاريخ إفريقيا العام) ، جين افريك ، اليونسكو ، 1985م.
- رأفت محمد النبراوى ، النقود الإسلامية (منذ القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري) ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، الطبعة الثانية 203م
- رجب عبدالحميد الاثرم ، تاريخ برقة السياسى والاقتصادى من القرن السابع قبل الميلاد وحتى بداية العصر الرومانى ، ط2، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والاعلان ، د - ت .
- رشيد بورية ، الدولة الحمادية (تاريخها وحضارتها)، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، الجزائر 1977م.
- رفة فليب وأحمد سامى مصطفى ، جغرافية الوطن العربى دراسة طبيعية إقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط4 ، 1970م.
- روبر بارنشفيك ، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، الطبعة الأولى 1988م .
- روجى لى تورنو ، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة أمين الطيبي ،الدار العربية للكتاب ، تونس 1982م .
- ريمون فيرون ، الصحراء الكبرى ، ترجمة : جمال الديناصورى ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، د - ت.

- ريه عطا محمد على شحاتة ، اليهود فى بلاد المغرب الاقصى فى عهد المرينيين والوطاسيين ، دار الكلمة ، ودار الشقيق ، ط1 ، دمشق ، سورية ، 1999م.
- زامبارو ، معجم الأناساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، دار الرائد العربى ، بيروت 1980م.
- زاهر رياض ، الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، د - ت .
- زيادية عبدالقادر ، مملكة سنغاي فى عهد الاسبقين 1493 - 1591م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، د - ت .
- سامية مصطفى مسعد ، العلاقات بين المغرب والأندلس فى عصر الخلافة الأموية [300-399هـ / 912-1008م] ، عين للدراسات والبحوث والإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، الطبعة الأولى 2000م.
- سحر السيد عبدالعزيز سالم ، مدينة الرباط فى التاريخ الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية 1996م.
- سعد زغلول عبدالحميد ، تاريخ المغرب العربى ، ج3 ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1991م.
- سعودى محمد عبدالغنى ، الوطن العربى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، د - ت .
- سعيد على حامد ، تاريخ ومعالم الحضارة والعمران فى ليبيا ، ضمن (معالم الحضارة الإسلامية فى ليبيا ، دار الكتب الوطنية) ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، القاهرة ، الطبعة الاولى 2008 م .
- سلع التجارة الصحراوية ، الصحراء الكبرى ، تحرير : عمادالدين غانم ، منشورات مركز الجهاد الليبى ، طرابلس ، 1979 م .
- سمير على الخادم ، الشرق الإسلامى والغرب المسيحى (عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي المتوسط 1450 - 1517) ، دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى 1989م.
- السيد عبدالعزيز سالم ، المغرب الكبير (دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية) ، دار النهضة العربية ، بيروت 1981م .
- السيد محمد ملط ، نقود العالم ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ، 1993م
- سير توماس أنولد ، الدعوة الى الاسلام ، تحقيق : ابراهيم حسن ، عبدالحميد عابدين ، القاهرة ، 1957م .
- شوقى عبدالقوى عثمان حبيب ، التجارة بين مصر وأفريقيا فى عصر سلاطين المماليك (648 - 922 هـ/ 1250 - 1517م) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة 2000 م .
- شوقى عطاالله الجمل ، دور العرب الحضارى فى إفريقيا ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، 1987م .
- صالح بن قربة وآخرون ، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامى إلى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 .
- صالح مصطفى مفتاح المزينى ، ليبيا منذ الفتح العربى حتى إنتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع ، 1978م .
- صباح ابراهيم الشخلى ، النشاط التجارى فى المغرب (300 - 399هـ/ 912 - 1008م) ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 2000م.
- الصحراء فى الموسوعة العربية العالمية ، ط2 ، بيروت ، موسوعة عز الدين للطباعة والنشر ، 1994م.

- صلاح الدين على الشامى ، الوطن العربى دراسة جغرافية ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ط4 ، 1996م.
- الطاهر احمد الزاوى ، تاريخ الفتح العربى في ليبيا، دار المدار الإسلامى، طرابلس - ليبيا، الطبعة الرابعة 2004م
- الطيب محمد حمادى ، اليهود ودورهم فى دعم الاستيطان البطلمى والرومانى فى إقليم برقة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازى ، 1996م .
- عاطف منصور محمد رمضان ، الكتابات غير القرآنية علي النقود الإسلامية في المغرب والأندلس ، مكتبة زهراء الشرق ، ط1 ، القاهرة 2002م .
- عالم الإسلام ، الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، الطبعة الأولى 2000م فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1947م .
- عبادة كحيلية ، المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى 1997م.
- عبدالاحد السبتي وحليمة فرحات ، المدينة فى العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الاسلامى ، المركز الثقافى تاعربى ، ط1 ، بيروت ، 1994م .
- عبدالحفيظ الميار ، الفنيقيون في ليبيا منذ 1100ق م حتى القرن الثانى الميلادى ، الدار الجماهيرية ، طرابلس ، 1996م.
- عبدالحميد حمودة ، اسواق القيروان في عصر الاغالبة ، منشورات معهد البحوث والدراسات الافريقية ، القاهرة ، 2001م.
- عبدالحميد يونس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003م.
- عبدالرحمن بشير ، اليهود في المغرب العربى(462-22هـ/642-1070م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى 2001م.
- عبدالرحمن فهمى محمد ، موسوعة النقود العربية وعلم النميات "فجر السكة العربية"، مطبعة الكتاب ، القاهرة 1965.
- عبدالفتاح مقلد غنيمى ، موسوعة المغرب العربى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، 1994م.
- عبدالقادر جامى ، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى ، ترجمة : محمد الاسطى ، قدمه : على مصطفى المصراتى ، دار المصراتى للطباعة والنشر والتوزيع ، 1974م.
- عبداللطيف البرغوثى ، التاريخ الليبى القديم من أقدم العصور حتى الفتح الاسلامى ، دار صادر ، بيروت ، 1971م.
- عبدالله بلكين ، مذكرات الامير عبدالله آخر ملوك بنى زيبرى بغرناطة ، تحقيق : لفيى بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، د - ت .
- عبدالمجيد النجار ، تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت " الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري"، المعهد العالمى للفكر الاسلامى، هيرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية 1995م.
- عبدالمنعم سيد عبدالعال ، لهجة شمال المغرب "تطوان وماحولها" ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، 1968م.

- عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم ، مطبعة فضالة ، المحمدية – المغرب 1986 ، 1987 م .
- عبد الهادي على النجار ، الاسلام والاقتصاد ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1983 م .
- عبد الوهاب بن منصور ، قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط 1968 م .
- العربي إسماعيل ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، سلسلة الدراسات الكبرى ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1983 م .
- عزيز احمد ، تاريخ صقلية الإسلامية ، ترجمة أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا – تونس 1980 م .
- على حامد خليفة ، المراكز التجارية الليبية وعلاقتها مع ممالك السودان الأوسط، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، الطبعة الأولى 2003م.
- على محمد الصلابي ، إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، الطبعة الأولى 2004م.
- عمر عبدالرزاق النقر ، الحج في غرب افريقيا (دراسة تاريخية بإشادة خاصة بالقرن التاسع عشر) ، ترجمة : صفية صالح عيسى ، جامعة الخرطوم ، 1989 م.
- فاطمة بلهوارى ، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، منشورات الزمن، الرباط 2010.
- فالتر هنتس ، المكابيل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، الأردن 1970 م .
- فرج محمد الهوني ، النظم الادارية والمالية في الدولة الاسلامية ، بنغازى ، 1978 م .
- فرحات الدشراوى ، الخلافة الفاطمية بالمغرب (296 – 365 هـ / 909 – 975 م) ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1994 م .
- الفرد بل ، الفرق الاسلامية في شمال افريقيا ، ترجمة : عبدالرحمن بدوى ، بنغازى ، 1969 م .
- فردريك هورنمان ، من القاهرة إلى مرزق 1797 – 1798 / ، مكتبة الفرجاني ، طرابلس ، د - ت .
- فوليان كولا ، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا ، ترجمة : عبدالقادر المحيشي ، طرابلس ، 1988 م .
- قبائل الطوارق دراسة وثائقية ، إصدار القيادة الاجتماعية في ليبيا ، طرابلس ، 2006 م .
- قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدى والمرينى ، دار ربانيت ، ط1 ، الرباط ، المغرب ، 2010 م .
- قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1957 م ،
- كارلتون وآخرون ، السلالات البشرية الحالية ، ترجمة محمد السيد غلاب ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، 1995 م .
- كرم الصاوى باز ، تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب ، في الفترة من [3 – 5 هـ / 9-11م] ، أعمال ندوة التواصل العربي الإفريقي عبر الصحراء الكبرى ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، القاهرة 2003 م .
- كرنجال مارمول ، افريقيا ، تحقيق : محمد حجي وآخرون ، الرباط ، 1984 م .

- كمال السيد ابو مصطفى ، دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية 1997م .
- كولين ماكفيدى ، أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2002م.
- ماء العينين ، شبيها حمداتي ، قبائل الصحراء المغربية ، الرباط، 1984م.
- مابل لومس تود ، أسرار طرابلس ، ط1 ، 1968م .
- مارمول كرنجال ، افريقيا ، تعريب : محمد حجي وآخرون ، دار المعرفة ، الرباط ، د - ت .
- مايسة محمود داود ، المسكوكات الفاطمية بمجموعة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة "دراسة فنية وأثرية " دار الفكر العربي ، د-ت .
- محاضرات فى تاريخ ليبيا ، جامعة قاريونس ، بنغازى ، 1988م .
- محمد احمد ابو الفضل ، شرق الأندلس في العصر الإسلامي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية 1996م
- محمد الحرارى عبدالسلام ، ليبيا عبر كتابات الرحالة المغاربة ، ط3 ، دار القلم ، 2008م.
- محمد السنوسى الغزالي ، السبك الحديث في تاريخ برقة القديم والحديث، مطبعة الاخوان المسلمين، القاهرة 1939م.
- محمد الصادق عفيفى ، بن تاويت محمد ، الادب المغربى ، ط2 ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1969م.
- محمد العروسى المطوى ، السلطنة الحفصية [تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي] ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986م .
- محمد المبروك المهدي ، جغرافية ليبيا البشرية، جامعة قاريونس، بنغازي - ليبيا، الطبعة الثالثة 1998.
- محمد المغراوى ، الموحدون وأزمات المجتمع ، مطبعة جذور للنشر ، الرباط ، الطبعة الأولى 2006م.
- محمد المنونى ، المصادر المغربية لتاريخ المغرب من الفتح الاسلامى الى العصر الحديث ، مراكش ، 1983م.
- محمد بن الحسن بن دريل ، جمهرة اللغة ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة ، د - ت .
- محمد بيومى مهران ، بلاد الشام ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، 1990م.
- محمد حسن ، المدينة والبادية بافريقية فى العهد الحفصى ، جامعة تونس الاولى ، 1999م.
- محمد حسين ، الارياف المغربية فى العصر الوسيط ، دار الرياح ، تونس ، 1986م.
- محمد خميس الزوكة ، جغرافية العالم العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2000م
- محمد زنيبر ، المغرب فى العصر الوسيط ، الدولة المدنية ، الاقتصاد ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط1 ، الرباط ، 1999م .
- محمد سليمان ايوب ، مختصر تاريخ فزان ، المطبعة الليبية ، طرابلس ، 1967م.
- محمد صالح الاوجلى ، الدير المنتخب ، تحقيق : محمد بشير سويسى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 1998م.

- محمد ضياء الدين الرايس ، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الخامسة 1985م .
- محمد عابد الجابري ، العصبية والدولة - معالم خلدونية في التاريخ الاسلامي ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1984م.
- محمد عبدالغنى الاشقر ، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1999م.
- محمد عيسى الحريري ، الدولة الرستمية في المغرب الاسلامي، ، ط3 ، دار القلم ، الكويت ، 1987م.محمد مرمول صالح ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983م.
- محمد فاضل على بارى ، سعيد ابراهيم كريدية ، المسلمون في غرب افريقيا تاريخ وحضارة ، ط1 ، دار الكتاب العلمي ، بيروت .
- محمد محمد زيتون ، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى 1988م.
- محمد مصطفى بازامة ، ليبيا، مكتبة قورينا، بنغازي، الطبعة الثانية 1975.
- محمود احمد ابوصوة ، مقدمة في تاريخ المغرب الاجتماعى والاقتصادى ، منشورات ELGA ، فاليتا ، مالطا ، 1997م.
- محمود شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دم، الطبعة السابعة 1980م
- محمود كعت ، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ، انجى ، 1931م.
- محمود ناجى ، تاريخ طرابلس الغرب ، ترجمة : عبدالسلام ادهم ومحمد الاسطى ، دار الفرجانى ، طرابلس ، 1995م .
- مراجع الغناى ، دراسة حول مدينة برقة ، ليبيا ، 1975م.
- مصطفى خوجة بلقاسم المصرى ، ، تاريخ فزان ، تحقيق : حبيب وداعة الحسناوى ، طرابلس ، 1979م.
- مصطفى عبدالكريم الخطيب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى 1996م.
- مصطفى كمال عبدالعظيم ، دراسات في التاريخ الليبي القديم، الطبعة الاهلية، بنغازي 1966م.
- ممدوح حسين على حسين ، الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري [سنة 668-792هـ/1270-1390م] ، دار عمار للنشر ، عمان - الأردن ، الطبعة الأولى 1998 .
- موريس لومبار ، الاسلام في مجده الاول من القرن 2 إلى القرن 5 هـ ، ترجمة : اسماعيل العربي ، ط3 ، دار الأفاق الجديدة ، المغرب ، 1990م.
- ناريمان عبدالكريم احمد ، معاملة غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، القاهرة ، 1996م.
- نجاة باشا ، التجارة في المغرب الاسلامي من القرن الرابع هـ الى القرن الثامن هـ ، منشورات الجامعة التونسية ، 1976م .
- الهادى المبروك الدالى ، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، دار الملتقى، بيروت 1993م

- هادى روجى ادريس ، الدولة الصنهاجية (تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى نهاية القرن 12م ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى 1992م .
- ولاية طرابلس من الفتح العربى إلى نهاية العهد التركى ، دار الفتح للطباعة ، بيروت ، 1970م .
- يسرى الجوهري ، المضمون البشرى فى الجغرافيا ، مكتبة ومطبعة الاشعاع الفنية ، الاسكندرية ، 1999م.
- يوسف عبدالمجيد فايد ، جغرافية المناخ والنبات ، دار النهضة العربية ، القاهرة د.ت.

ب - المراجع الأجنبية :

- An Outline Geogaphy of Africa, London; Methuen Educational, Ltd. 1971.
- Jews and Arabs: Their Contacts Throug the Age, New York, Schocken, 1955.
- Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton University, Press1973.
- Money, Land and Trade" An Economic History of the Muslim Mediterranean", I.B. Tauris & Co Lt, London 2002.
- The Jews of Arab Lands "A History and Source Book", THE Jewish Publication Society, Philadelphia, usa1979.
- Travels and Discoveries in North and Central Africa, Vol III, Frankcass, LTD, London1965.

ثالثا- المقالات والأبحاث العربية والأجنبية

أ - المقالات والأبحاث العربية :

- إبراهيم حركات ، دور الصحراء الافريقية فى التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة ، العدد الاول ، يناير 1981م.
- أحمد اليأس حسن ، طرق القوافل عبر الصحراء الافريقية فى المصادر العربية الفترة بين السابع والتاسع الهجرى ، الثالث عشر والخامس عشر الميلادى ، مجلة دراسات افريقية ، العدد الثالث ، الخرطوم ، 1987م.
- أم العز عبدالقادر وآخرون ، الحياة الاجتماعية فى إقليم فزان منذ الفتح العربى حتى نهاية القرن السادس الهجرى، مجلة البحث العلمى فى الآداب، كلية البنات جامعة عين شمس، مجلد3، عدد14، القاهرة2013م.
- بشار قويدر ، القوافل التجارية المغاربية (طبيعة التجارة وأثارها) ، مجلة طريق القوافل ، منشورات المركز الوطنى للبحث فى عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو ، الجزائر ، 2001م.
- توينبى ، ليبيا كما يراها توينبى ، ترجمة : على فهمى خشيم ، مقال نشر بمجلة الرواد ، العدد الثانى عشر ، نوفمبر 1965م.
- جمال زكريا قاسم ، كتاب وصف افريقيا وتاريخها للحسن محمد الوزان ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1968م.

- الحسين بولقطيب ، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي خلال العصر الوسيط، مجلة أمل، مج2، عدد6، المغرب1995م
- حسين سيد عبدالله مراد ، الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي(خالق2 - 6هـ/8 - 12م)، المؤتمر الدولي الإسلام في أفريقيا، جامعة إفريقيا العالمية، نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا 2006م.
- الحسين عمارى ، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربى في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف افريقيا ، مجلة المؤرخ ، تصدرها جماعة ليون الافريقى للتنمية والتقارب الثقافى ، الدار البيضاء ، العدد7 ، مارس 2010م.
- سعد زغلول عبدالحميد ، موقف ليبيا فيما بين قيام الفاطميين ونقلهم إلى مصر ، مجلة كلية الآداب ، بنغازى ، 1958م.
- سعود بن حمد الخثلان ، دور التجار المسلمين في رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين(11/9م)، مجلة جامعة الملك عبد العزيز - الآداب والعلوم الإنسانية، مج5، السعودية1992م.
- شخصية عبد المؤمن بن علي من خلال نقوده، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط ، العدد25، شتاء 2003.
- صالح ونيس عبدالنبي ، العملة العربية من خلال دينار أموى من الذهب ، مجلة البحوث التاريخية ، السنة الرابعة ، العدد الاول ، مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، يناير 1990م.
- صالح يوسف بن قرية ، انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى ، في (ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، الهلال العربية للطباعة والنشر ، الرباط ، الطبعة الأولى 1995 م .
- صباح إبراهيم الشخلى ، تطور الوجود العربي في صحاري فزان ما بين القرنين الأول والسادس الهجريين السابع والثاني عشر الميلاديين، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلد6، عدد23، الكويت1986م.
- صلاح خليل إبراهيم سلام ، بنو سليم في إفريقية وصلاتهم بالدولة والمجتمع منذ القرن الخامس الهجري وحتى القرن التاسع الهجري، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، مجلد1، عدد39، بنها2015.
- صلاح على الحطاب ، مدينة مرزق وتجارة القوافل، المجلة العربية للثقافة، مج24، عدد سبتمبر47، تونس2005م.
- عبدالعزيز بن راشد بن عبدالعزيز العبيدى ، مراكز الحضارة الإسلامية في السودان الغربي، دورية دراسات افريقية، ع5، اكتوبر، السودان1989م
- على محمد سميو ، التجارة والأسواق في إقليمى برقة وطرابلس من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين مع المقارنة بما جاء في المصادر التاريخية من 5 إلى 7 هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، عدد 1، ليبيا سبتمبر2014.

- فاروق عثمان أباطة ، تحول التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني(923 هـ / 1517م) ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، عدد10 ربيع1999.
- لمياء شرف الدين ، تجارة طرابلس مع بلاد ما وراء الصحراء في العصر الوسيط، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني2001م.
- مجهول ، تلخيص القول في الاكيال والاوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها من اقوال العلماء المعنيين بتحقيق ذلك ، تحقيق : محمد الشريف ، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، العدد 11 صيف 1999م.
- محمد الشريف ، تدقيقات جديدة حول المسكوكات الموحدية ، مجلة مواسم ، طنجة - المغرب ، العدد 5-6 ، دت .
- محمد المدنى الحضيرى ، الطريق من طرابلس إلى فزان ،مجلة البحوث التاريخية ، العدد الاول ، طرابلس ، 1979م.
- محمد باقر الحسينى ، دراسات فى النقود الثورات والشعارات والمناسبات المضروبة فى افريقيا ، مجلة المسكوكات ، العدد السابع ، 1976م.
- محمد زروق ، قضية الرق فى تاريخ المغرب ، مجلة البحوث التاريخية ، منشورات مركز جهاد الليبيين ، السنة الثانية ، العدد الثانى ، طرابلس ، 1986م.
- محمد سالم المعلول ، دور واحة أوجلة فى توثيق العلاقات مع ممالك بلاد السودان منذ القرن العاشر حتى مطلع القرن العشرين ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثانى ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، 2001م.
- منى حسن على حدود ، عوامل ازدهار الفلاحة في جبل نفوسة من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حوليات آداب عين شمس، مج41، يونيو، مصر2013م.
- النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن، 4 هـ دراسة من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط ، العدد 6 ربيع 1998م.

ب - المقالات والابحاث الاجنبية :

- Arabic Documents from the Red Sea Port of Quseir in the Seventh/Thirteenth Century, Part2: Shipping Notes and Account Records, Journal of Near Eastern Studies, Vol. 60, No. 2 ,Apr., 2001.
- Credit as a Means of Investment in Medieval Islamic Trade, Journal of the American Oriental Society, Vol. 87, No. 3 ,Jul. - Sep., 1967.

- From the Mediterranean to India: Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries, Speculum, Vol. 29, No. 2, Part 1, Apr., 1954. -
- Ifriqiya as a Market for Saharan Trade from the Tenth to the Twelfth Century A.D, the Journal of African History, Vol .10, No.3 .1969. -
- La Date Di Fondazione di Leptis Di Sabrtha Sulla base Deli Indigine Archaeologica e L, Eparchia Cartaagine d, Africa, Hommages a, M.renard III Col Latomus 103, 1969. -
- Liber und Egypter, Hambwrg, 1937. -
- Libyan Role in Prehistory, LIH, 1968. -
- The Eastern Libyans, London, 1914, P.XIX FF -

رابعا - الرسائل العلمية :

أ - الرسائل العلمية العربية :

- إلهام حسين دحروج ، مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية 442 - 665 هـ / 1051 - 1247 م) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، القاهرة 2000م . -
- بان على محمد البياتي ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (3 - 5 هـ / 9 - 11 م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، بغداد 2004 -
- حورية عبدالسلام سلام ، علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، 1977م. -
- خديجة عبدالله على ابوسدرية ، لأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعمرائية والثقافية في المغرب الأدنى خلال العصر الحفصي، رسالة ماجستير، جامعة السابع من إبريل، كلية الآداب، قسم التاريخ، الزاوية - الجماهيرية الليبية 2006م -
- سيدة إسماعيل كاشف ، دراسات في النقود الاسلامية ، المجلة التاريخية المصرية ، تحرير: احمد بدون وآخرون ، القاهرة ، 1963م . -
- صالح بعيزيق ، بجاية في العهد الحفصي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة تونس 1995م -
- عبدالعزیز مهیدی عمر ، المسكوكات أهميتها ودورها كوثائق تاريخية حضارية في المغرب العربي ، (1 - 7 / 6 - 12 م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الفاتح ، طرابلس ، 2005م. -
- عبدالفتاح مقلد بكر ، سلطنة البرنو حتى سنة 1808م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ، 1990م. عيسى بن الذيب ، التجارة في عصر المرابطين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، 1990م. -
- محمود ادريس على بك ، طرابلس الغرب منذ الهجرة الهلالية إلى بداية العهد العثماني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الاسكندرية ، 1998م. -

- منى حسن احمد محمود ، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة بمراكش خلال عصر المرابطين والموحدين ، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة القاهرة 1984م.
- يحيى بوعزيز ، طريق القوافل والاسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الاوروبيون خلال القرن التاسع عشر (البضائع - العملات - الاسعار - الاساليب التجارية) ، تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن 19م ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد 1984م.
- يحيى بن عمرى بن قربة ، الدراهم المغربية الأندلسية المربعة من خلال مجموعة المتحف الجهوى بمليانة ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، قسم الآثار ، كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، الجزائر ، السنة الجامعية 2003 - 2004م .

ب - الرسائل العلمية الاجنبية :

- Le Gouvernement et L'Administration - de La Dynastie ALmohade , (xii^e-xiii^e siècle's), de Ddoctorat (N.R) , Universite Paris I, Pantheon Sorbonne, U. F. R D'Histoire, Année : 1998-1999.

قائمة الخرائط

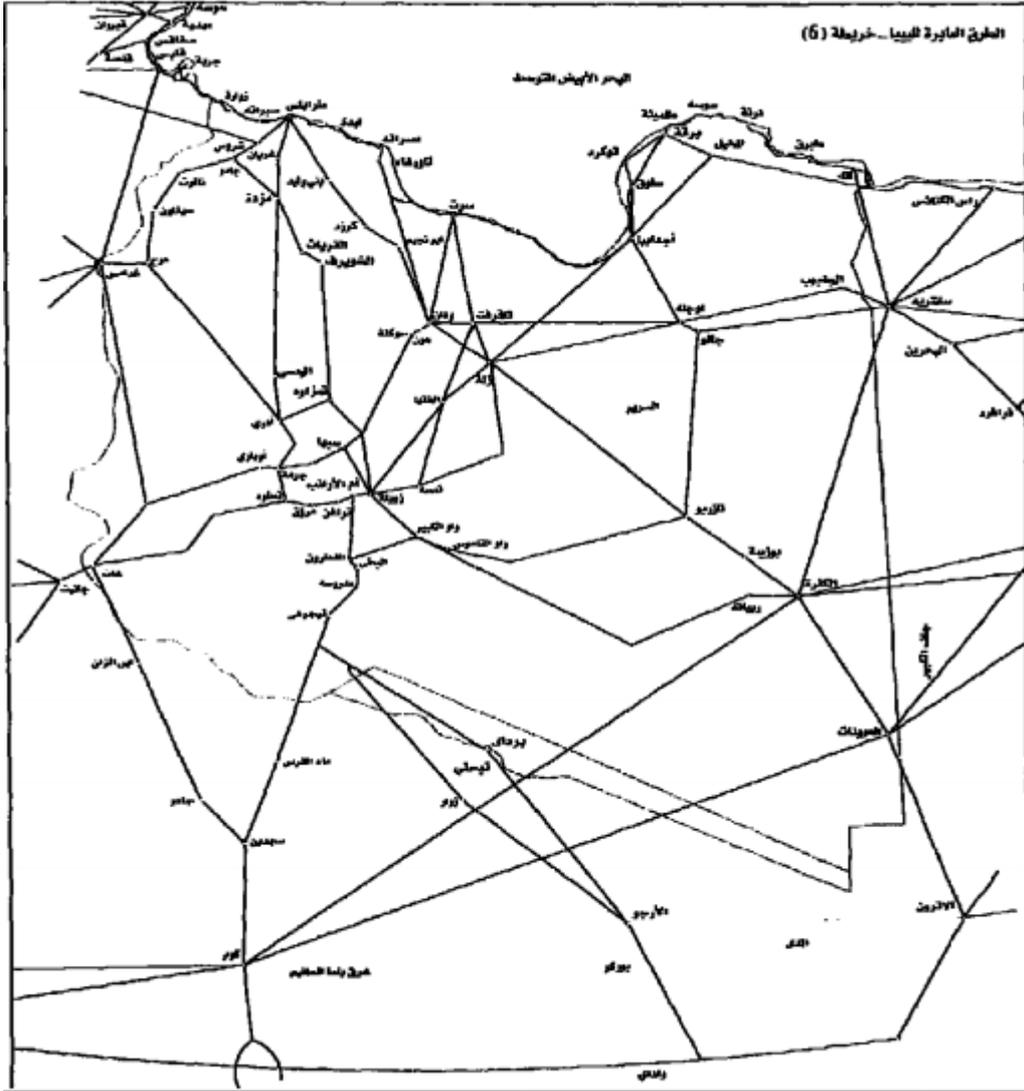
- 224..... خريطة 1: الطرق العابرة للمناطق الليبية
- 225..... خريطة 2: شبكة الطرق الرئيسية العابرة للصحراء
- 225..... خريطة 3: حركة البضائع الرئيسية في التجارة البرية الدولية ومصادر إنتاجها خلال فترة الدراسة
- 226..... خريطة 4: شبكة الطرق التجارية في البحر الابيض المتوسط خلال الدراسة لاسيم بالقرن السادس الهجرى
- 226..... خريطة 5: المراكز التجارية على الطريقتين التجاريين

قائمة الصور

- صورة 1: دينار فاطمي 227
- صورة 2: دينار من العصر المرابطي 227
- صورة 3: دينار موحد، عصر المرتضى (665-646هـ/1248-1266م): سبتة 228
- صورة 4: دينار حفصي 228
- صورة 5: عملات أوروبية ترجع لفترة الدراسة وما بعدها 229

قائمة الجداول

- جدول 1: أهم الأوزان المعروفة في فترة الدراسة 230
- جدول 2: أهم المكاييل المعروفة في فترة الدراسة 231
- جدول 3: أهم الأطوال المعروفة في فترة الدراسة 233



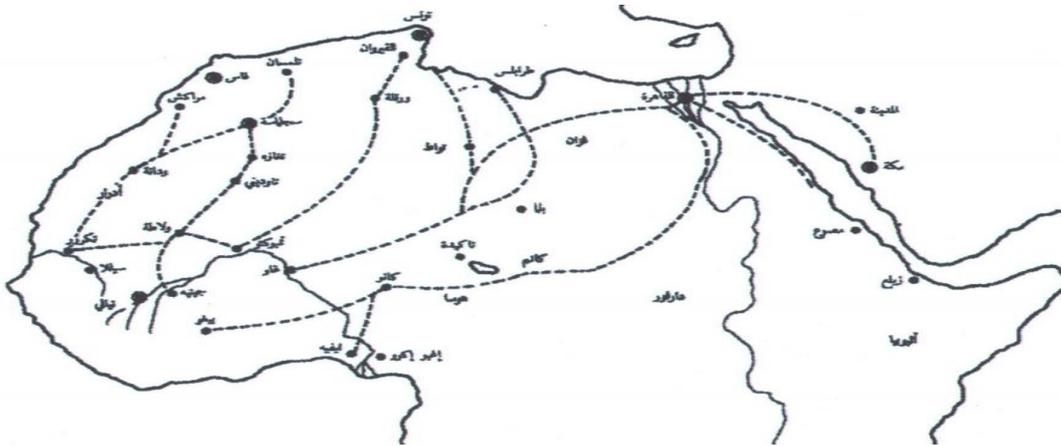
خريطة 1: الطرق العابرة للمناطق الليبية

نقلًا عن: أطلس تاريخ الاسلام ، الزهراء للاعلام العربي ، القاهرة ، 1987م .

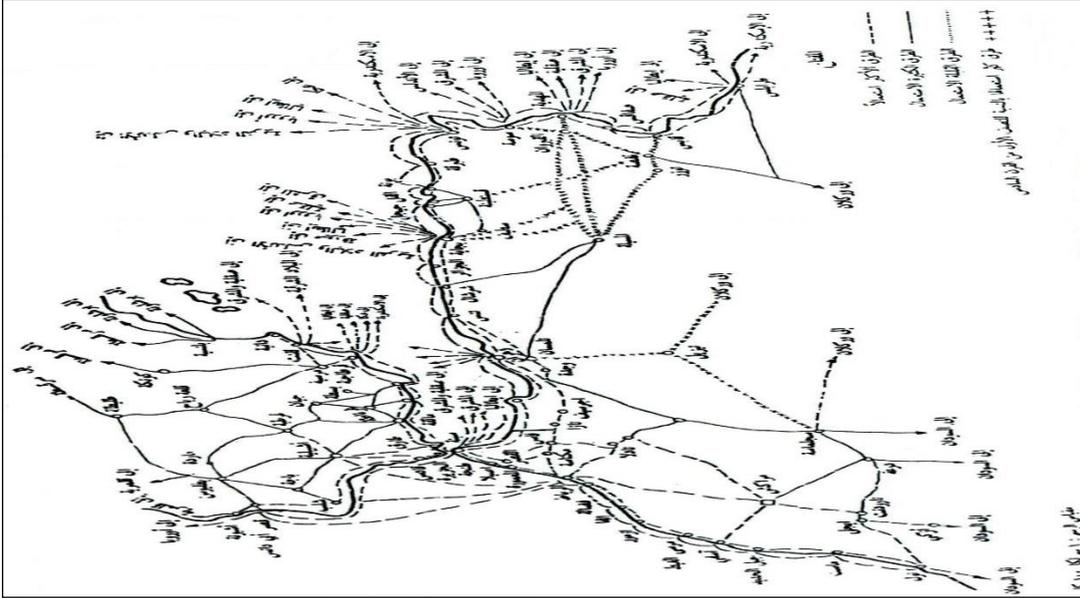


خريطة 2: شبكة الطرق الرئيسية العابرة للصحراء

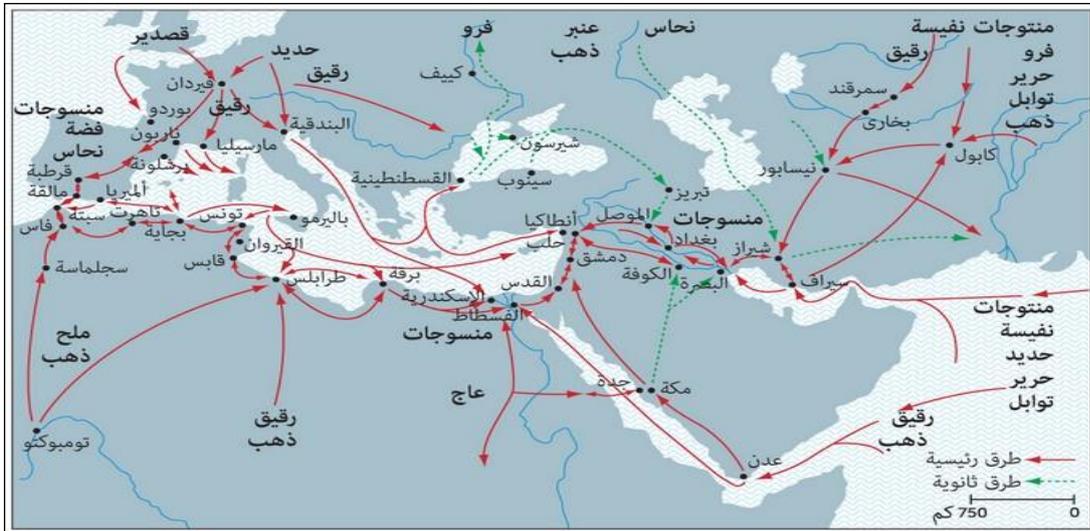
نقلًا عن: عبدالرحمن عمر الماحي ، مساهمة قوافل الصحراء في نشر الاسلام والحضارة الاسلامية في السودان الاوسط ، مجلة طريق القوافل ، منشورات المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ بالتعاون مع اللجنة الوطنية لليونسكو ، الجزائر ، 2001م ، ص 76.



خريطة 3: حركة البضائع الرئيسية في التجارة البرية الدولية ومصادر إنتاجها خلال فترة الدراسة
نقلًا عن : تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو، ج4، ص164



خريطة: 4 شبكة الطرق التجارية في البحر الابيض المتوسط خلال فترة الدراسة لاسيم بالقرن السادس الهجري



خريطة: 5 المراكز التجارية على الطريقين التجاريين

نقلًا عن : موقع <http://www.cndp.fr/ar>

بتاريخ: 2014/9/8م



صورة 1: دينار فاطمي
المصدر:

http://www.qantamed.org/qantara4/public/show_document.php?do_id=633



صورة 2: دينار من العصر المرابطي

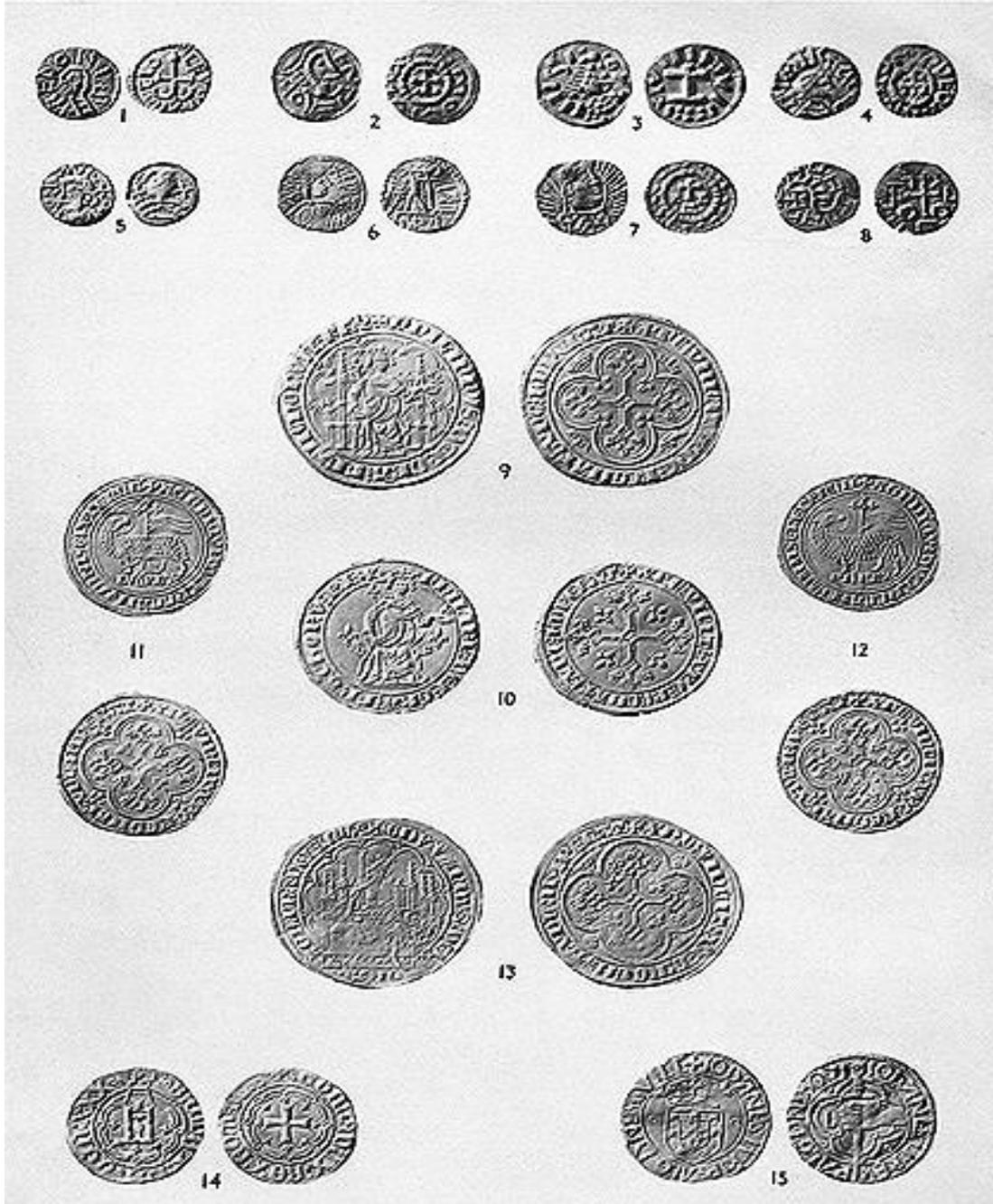


صورة 3: دينار موحدي، عصر المرتضى (665-646هـ/1248-1266م): سبتة
المصدر: http://www.bkam.ma/Arabe/muse%20Monnaie/image_musee.htm



صورة 4: دينار حفصي
المصدر:

http://www.qantara-med.org/qantara4/public/show_document.php?do_id=632



صورة 5: عملات أوريبية ترجع لفترة الدراسة وما بعدها

المصدر :

R. H. M. Dolley; Medieval Gold Coins from the Lockett Collection, the British Museum Quarterly, Vol. 21, No. 2 (Jul., 1957), pp. 41-44

جدول 1: أهم الأوزان المعروفة في فترة الدراسة

الوزن	مقداره (أو ما يساويه من الأوزان الأخرى)
القيراط	3 حبة شعير
الدانق	8, 2/5 حبات شعير
درهم الوزن الشرعي	(2/5 50 حبة) أو ما يساوي (6 دوانق) أو 4/5 , 1 درهم مؤمني
درهم الوزن المؤمني	28 حبة
درهم أموي	درهم وزن شرعي
مئقال أو دينار الوزن	3/7 , 1 درهم وزن شرعي أو 72 حبة
النواة	5 دراهم وزن شرعي
الأوقية	1/5 , 19 درهم مؤمني
الرطل	13 أو 16 أوقية حسب كل سوق على حدي ، أو ما يعادل بالوزن الحالي 504 جراماً
المن	2رطل
الربع	25 رطلاً أو ما يعادل 12 كيلو و 600 جرام
القنطار	100 رطل أو 1100 أوقية أو 70 , 000 دينار وزن حسب كل سوق على حدي
البالة	كانت تساوي 7 قناطر تقريباً عند ميزان الكتان واختلفت من سلعة لآخرى

جدول 2: أهم المكييل المعروفة في فترة الدراسة

المكيال	مقداره (أو ما يساويه من المكييل الأخرى)
المد	يساوي 400 جرام أو 8 أواقي أو $1/3$, 1, 1 رطل أو ملء الكفين (حسب اختلاف الراويات و الأماكن)
الصاع "السطل"	4 أمداد من مد النبي
المكوك	12 مد أي $1/2$ وبيبة = 5, 1 صاع
الويبة	24 مد
الإردب	6 وبيبات
القفيز	8 مكايك تقريباً الا انه اختلف من منطقة لاخرى في بعض الاحيان
الجريب	4 أفقزة
الوسق (الصفحة)	60 صاع بالصاع النبوي
الحفنة والقبضة	وتقدر بملء يد الانسان
المطر أو المطيرة	لكيل السوائل وكان 20 لتراً تقريباً
القسط	لكيل الزيت ويساوي نصف صاع أو $2/3$, 2 رطل
الجرة	لكيل السوائل وتساوي ثلاث أمطار أو حوالي 50 لتراً
الكوز	من الفخار لكيل المواد السائلة (مجهول)
القلة	جرة عظيمة تساوي (250) رطلاً عراقياً

جدول 3: أهم الأطوال المعروفة في فترة الدراسة

الطول	مقداره (أو ما يساويه من الأطوال الأخرى)
الذراع	إختلف الذراع من سوق لأخر و من شخص لأخر
الكانة	يبلغ طولها 2,20 متراً تقريباً مع وجود اختلاف من مكان لآخر
المجرى	مستعمل في تقدير الرحلات البحرية التجارية ويساوي مائة ميل
الميل	1920 متر تقريباً

السيرة الذاتية

البيانات الشخصية

الاسم: مصطفى فرج حسين ابوحلالة

تاريخ الميلاد: 01/01/1963

مكان الميلاد: العزيزية /ليبيا.

جوال: 05458107068

البريد الالكتروني: Fosuck00@gmail.com

المؤهلات العلمية:

اسم الجامعة: جامعة قاريونس/ كلية الآداب بنغازي.

التخصص العام: تاريخ.

التخصص الدقيق: ليسانس تاريخ.

المعدل: جيد.

سنة التخرج: 1986.

اسم الجامعة: جامعة طرابلس/ كلية الآداب.

التخصص العام: ماجستير تاريخ.

التخصص الدقيق: تاريخ اسلامي.

المعدل: ممتاز.

سنة التخرج: 2013.

الخبرات العلمية.

- مدرس ثانوي منذ سنة 1986 الى سنة 1989.

- متعاون مع كلية الآداب في جامعة قاريونس من 1989 / 2003.

- موظف اداري من سنة 2003 الى 2009.

المهارات.

- نشر بحث بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة محمد الخامس بالمغرب بعنوان التمهيد السياسي

والثقافي للغزو الايطالي لليبيا من سنة 1881 الى 1911.